

مجالس النكاح

مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْحَبِيبِ رَحِمَهُ اللَّهُ

للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية

الطبعة الأولى

1402 هـ
1982



حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الشؤون الدينية



الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

سورة الفاتحة مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ ④ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ③ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

وَايَاتُهَا سَبْعُ

المقدمة

عبد الرحمن شيبان
وزير الشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم ،
وعلى آله وصحابه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين .
يحمل ظهور كتاب «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير»
في الوقت الذي يحتفل فيه الشعب الجزائري العربي المسلم ،
بالذكرى العشرين للاستقلال الوطني ، أكثر من معنى ..
ففي هذه المناسبة التاريخية العظيمة ، تقف فيها الجزائر
لحظة لتنظر ما حققته مسيرتها الانمائية الشاملة من انتصارات
في شتى ميادين الحياة المتكاملة ، من أجل بناء مجتمع الكفاية
والعدل ، على أساس أن الحياة الكريمة لا تستقيم للفرد أو
الجماعة ، الا اذا حققت التوازن اللازم بين متطلبات الحياة
المادية ومتطلبات الحياة الروحية ..
وقد شهد القطاع الديني ، في السنوات الاخيرة ، في
بلادنا ، نهضة اسلامية مباركة شاملة ، تتمثل في مئات
المساجد التي ينجزها الشعب والدولة ؛ وبناء المجمع
الاسلامي الكبير : الامير عبد القادر بقسنطينة ، واقامة
مجموعة من المعاهد لتكوين الاطارات الدينية ؛ وبناء عشرات
من المدارس القرآنية في مختلف ولايات الوطن ، وتوظيف
خمسة آلاف معلم للقرآن الكريم .

ان الجزائر التي تسعى بحزم وثبات ، الى تعميق أسس
شخصيتها العربية الاسلامية ، بوعي اسلامي صحيح ، يربط

ماضيها بحاضرها ، ويحمى مسيرتها من التعثر ، ويقى بناءها من التفكك ، تعلم علم اليقين ، أن ذلك لا يكتمل الا اذا جددت صلتها بالقرآن والاهتمام بحفظه ودراسته وتدبر معانيه ، والتأدب بأدابه ، وأن خير ما يجسم إيمانها بهذه الحقيقة ، هو تكريمها للقرآن ومن خدموا القرآن .

فالجزائر ، شعبا وقيادة ، ما فتئت تردد في كل مناسبة ، حقيقة تاريخية كبيرة ، هي أنها بالاسلام خرجت من ظلمات الشرك الى نور الحق المبين ؛ وبه قاومت عوامل الفناء والاضمحلال في عهود الانحطاط والاحتلال ؛ وعلى ندائه استيقظت ؛ وبصدق الجهاد كسرت القيود وانتصرت . فلا عجب أن تشتمل الحكومة الجزائرية في هيكلها منذ الاستقلال ، على وزارتين : وزارة للمجاهدين ، ووزارة للشؤون الدينية ، تكريما للجهاد والمجاهدين ، وخدمة للاسلام الذي أذكى جذوة الجهاد ونصر المجاهدين ، ويحفظ لوطننا ولشعبنا الوحدة والمناعة في الدنيا والدين !

وليست هذه العناية بالقرآن وليدة مناسبات عارضة ، فالجزائر المسلمة ، طبعت منذ القديم على حب القرآن والتعلق به ، حفظا وفهما واقتداء ..

فاذا كان هذا اهتمامها بالقرآن ، في عهود الظلام والاستعمار ، فليس غريبا أن يزداد الاهتمام به ويعظم في عهد الحرية والاستقلال ؛ فتنظم له مسابقات رسمية ، ترصد لها الدولة جوائز تشجيعية معتبرة للفائزين من حفاظه والفائزات ، من مختلف الاعمار ، يتولى تقديمها السيد رئيس الجمهورية بنفسه ، بأحد بيوت الله ، في ليلة القدر من كل سنة ..

وقد ساهمت وزارة الشؤون الدينية ، بمناسبة الذكرى العشرين للاستقلال ، بتنظيم مسابقة لاختيار أحسن مجود للقرآن الكريم ، وانتقاء أحسن مؤذن للصلاة ، من بين آلاف القراء والمجودين والمؤذنين المنتشرين عبر التراب الوطنى ؛ ورأت أن خير ما تكرم به القرآن ومن خدموا القرآن ، فى الجزائر بهذه المناسبة ذاتها هو تقديم هذا الاثر الجليل الذى تركه لنا امام النهضة الاصلاحية الجزائرية ، الشيخ عبد الحميد ابن باديس ... هذا الكتاب الذى طالما هفت اليه النفوس الظمأى الى معرفة أصل دينها الذى هو القرآن ، مفسرا بقلم أحد علماء بلدها المصلحين ، ممن واكبوا العصر ، واستعانوا بمعارفه المختلفة ، على فهم كتاب الله ، وسنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ الامام بن باديس ، عند تفسيره لسورة الفلق :

« ان القرآن كتاب الدهر ، ومعجزته الخالدة ؛ فلا يستقل بتفسيره الا الزمن ، وكذلك كلام نبينا ، المين له ؛ فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة فى معضلات الكون ، ومشكلات الاجتماع ، لم تفهم أسرارها ومغازيها الا بتعاقب الازمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله فى الكون . وكم فسرت لنا حوادث الزمن ، واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث ، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين ، وأرتنا مصداق قوله . صلى الله عليه وسلم ، فى وصف القرآن « لا تنقضى عجائبه » . والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد؛ والفهم الجامد ؛ وانما يترقبون من سنة الله فى الكون وتدبيره فى الاجتماع ، ما يكشف لهم عن حقائقها ، ويكلون الى الزمن وأطواره ما عجزت عنه أفهامهم .. وقد أثر عن جماعة من

فقهام الصحابة بالقرآن قولهم فى بعض هذه الآيات :
« لم يأت مصداقها أو تاويلها بعد » يعنون أنه آت ، وأن الآتى
حوادث الزمان ووقائع الاكوان ؛ وكل عالم بعدهم ، انما
يمعطى صورة زمانه ، بعد أن يكيف بها نفسه .

ان هذه الحقيقة العظمى ، التى عبر عنها امامنا الجليل ،
المتتملة فى ارتباط التفسير ببيئة المفسر ، وأحوالها
الاجتماعية ، وظروفها المعاشية ، وأبعادها السياسية والثقافية ،
هى التى زادتنا إيماناً بضرورة تعميم هذا التفسير واعتماده ؛
فهو أقرب الى مجتمعنا وبيئتنا ، وأكثر دراية بأدوائها
وأدويتها ..

وقد اعتمدنا ، فى اعداد هذا التفسير ، مجموعة « مجلة
الشهاب » ، بعد أن حصلنا على اذن من أسرة الأستاذ الامام
المفسر .

منهاج الشيخ ابن باديس فى التفسير :

هو منهاج الاسلامى المتكامل الذى ظهر على يد الشيخ
الامام محمد عبده رائد النهضة الاصلاحية التى قامت على
دعوة الامة الاسلامية الى العودة من جديد الى كتاب الله وسنة
رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ البشير الابراهيمى ، فى مقال عن الاحتفال
بختم ابن باديس تفسير القرآن الكريم ، نشر فى مجلة الشهاب
وأثبت فى « التصدير » من هذا الكتاب .

ثم جاء امام النهضة بلا منازع ، وفارس الطلبة بلا مدافع ،
الأستاذ محمد عبده ، فجلا بدروسه فى تفسير كتاب الله عن
حقائقه التى حام حولها من سبقه ولم يقع عليها ؛ وكانت تلك

الدروس آية على أن القرآن لا يفسر الا بلسانين : لسان
العرب ولسان الزمان ! وبه ، وبشيخه جمال الدين ،
استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها (1) ..

ثم جاء الشيخ رشيد رضا ، جاريا على ذلك النهج الذى
نهجه محمد عبده فى تفسير القرآن ، كما جاء شارحا لأرائه
وحكمته وفلسفته ، فى الدين والاخلاق والاجتماع .

ثم جاء أخونا وصديقنا الاستاذ الشيخ عبد الحميد
ابن باديس ، قائد تلك النهضة فى الجزائر ، بتفسيره لكلام
الله على تلك الطريقة ، وهو ممن لا يقصر على من ذكرناهم ،
فى استكمال وسائلها ، من ملكة بيانية راسخة ؛ وسعة اطلاع
على السنة وتفقه فيها ؛ وغوص على أسرارها ؛ واحاطة وباع
مديد فى علم الاجتماع البشرى وعوارضه ؛ والملم بمنتجات
العقول ومستحدثات الاختراع ؛ ومستجدات العمران ، يمد
ذلك كله ، قوة خطائية قليلة النظر ، وقلم كاتب لا تفل له
شبهة (2) !!

أما الخطوات التى اتبعها الشيخ ابن باديس فى تفسيره
للقرآن ، فتتمثل فيما يلى :

أ - تمهيد يضع القارئ فى جو النص القرآنى المراد
تفسيره ؛ معتمدا فى ذلك على سبب نزول الآية أو الآيات
المفسرة ، أو ربطها بما سبقها ، أو بذكر ما يثير انتباه
القارئ الى القضية التى تعالجها الآية الكريمة ...

(1) المرير من الحبال : ما اشتد فتله .

(2) الشهاب : ج 4 م 14 ، ربيع الثانى جمادى الاولى 1357 هـ - جوان
جوليت 1938 م .

ب - شرح لغوى للمفردات الاساسية ، شرحا يساعد القارئ على فهم مضمون النص ، بيسر ووضوح .
ج - تحليل مركز للمعارات والتراكيب ، ليرز خصائص الاسلوب العربى .

د - اىضاح المعنى العام للنص ، اىضاحا لا يشوبه اىجاز مغل ، ولا اسهاب ممل ..

هـ - استىراج ما فى النص القرآنى من حقائق وقيم مختلفة : كونية ، واجتماعية ، وأخلاقية ، ونفسية ، وسياسية ، واقتصادية ، وتاريخية ، وتشريعية ؛ مركزا فى ذلك كله ، على البيئة الجزائرية بصفة خاصة ، وعلى الامة الاسلامية بصفة عامة ، وعلى المجموعة الانسانية بصفة أعم ؛ مما كان له الاثر الفعال فى نفس كل من يسمع تفسيره أو يقرأه ..

وتتضح للقارئ الكريم ، معالم هذه المنهجية ، مشتملة على هذه العناصر ، كليا أو جزئيا ، فيما تضمنه هذا السفر الجليل ، من تفسير آيات بينات من القرآن الكريم .

☆ ☆

هذا ؛ وألله نسال أن ينفعنا بهذا الكتاب الجليل ، الذى يجد فيه شبابنا ، وكل داع الى الله ، من الائمة والمرشدين والمربين ، المادة المفيدة ، والشعاع الهادى ، وأن يجزل الاجر والثواب للاخوان الذين ساعدوا على جمع هذا التفسير وطبعه ونشره ؛ وان يتفعمد امامنا الشيخ عبد الحميد بن باديس برحمته ورضوانه ، وان يجزيه الجزاء الأوفى على جليل أعماله ، وانه تعالى المستعان على حفظ القرآن وتفسيره والعمل به .

بميرزا الميرزا محمد
وزير الشؤون الدينية

المدخل

نورد فيما يلي كلمات تلقى أضاء على مضمون
هذا الكتاب وهى :

أ - تمهيد وتصدير للعلامة الاستاذ الشيخ محمد
البشير الابراهيمى ، قدم بها العدد الخاص بختم
تفسير القرآن الكريم - من مجلة الشهاب - سنة
1938 م .

ب - مقالات افتتاحية كتبها الامام الشيخ عبد
الحميد بن باديس بمجلة الشهاب حول « الذكر »
و « التذكير » و « أفضل الاذكار » قدمها بين يدى
دروس تفسيره التى سماها « مجالس التذكير » .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم

تمهيد :

اتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الاستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية . وكان اكماله اياه على هذه الطريقة فى خمس وعشرين سنة متواليات ، مفخرة مدخرة لهذا القطر وبشرى عامة لدعاة الاصلاح الدينى فى العالم الاسلامى كله ، تسمح عن نفوسهم الاسى والحزن لما عاق امام المصلحين محمدا عبده عن اتمامه درسا . ولما عاق حواريه الامام رشيد رضا عن اتمامه كتابة .

ان اكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة فى مدة تساوى - بعد حذف الفترات - المدة التى اكمل الله نزوله فيها - يعد فى نظر المتوسمين ايدانا من الله برجوع دولة القرآن الى الوجود ، وتمكين سلطانه فى الارض ، وطلوع شمس من جديد ، وظهور المعجزة المحمدية كرة اخرى فى هذا الكون .

ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة فى الثالث عشر من ربيع الثانى عام 1357هـ دليلا على انسياق الامة الجزائرية المسلمة الى القرآن . واستجابتها لداعى القرآن ، واجتماع قلوبها على القرآن ، وشعورها بلزوم الرجوع الى هداية القرآن ، ولا معنى لذلك كله الا ان احياء القرآن على الطريقة السلفية احياء للامة التى تدين به .

ثم جاءت حفلات التكريم للاستاذ المفسر ولوفود القرآن . وما لقيته تلك الوفود من سكان الحاضرة القسنطينية من صدق الحفاوة وكرم اللقاء وبشاشة المظهر ، وتهلل الاسرة ، واكرام المثوى . واغداق الضيافة - آية بالغة على ان القرآن فعل فعله فى تلك النفوس فجمعها على التقوى، وهداها

لكريم الخلال، وبسط شعاعه على جوانبها المظلمة فتعارفت بعد التناكر وتآلفت بعد التخالف ويوشك ان يأتى بعد هذا التعارف الخير الكثير .

ولما كانت مجلة « الشهاب » هى لسان الحركة الاصلاحية التى قربت بين الامة وبين قرآنها من بعد ، وأزالت ما بينهما من جفاء . كانت تلك المجلة حقيقة بأن تؤرخ لهذا الموسم القرآنى العظيم وتدون وصفه وما قيل فيه ليبقى تذكرة خالدة للأجيال المقبلة ، وصفحة لامعة فى تاريخ النهضة الدينية العلمية بالجزائر ، وعلما هاديا لمؤرخيها والباحثين عن اطوارها من أبناء الفسد .

وهل يمنع من ذلك ان صاحب المجلة هو الاستاذ المفسر . وان معظم ما قيل فى الاحتفال دائر على تقريظه والثناء عليه والتنويه بأعماله ؟

وقد كان بعض ذلك، وأبت للاستاذ همته العلمية واخلاصه العمل لله ان لا ينشر فى الشهاب الا ما هو من حقوق الدين والعلم والعربية دون ما هو من حظوظ النفس وتمجيد الشخص . ولكن اخوانه من رجال العلم والادب الحريصين على تخليد هذا الاجتماع القرآنى المنقطع النظير ، رغبوا منه ان يتنازل عن حقه عن مجلة الشهاب هذه المرة ، واقتنوه بان كل كلمة قيلت فى مدح شخصه والثناء عليه فهى مصروفة الى اعماله ، والى المبدأ الذى وقف حياته عليه والى النهضة التى كان - بحق - بانيها ومشيد اركانها. الى الامة التى انفق عمره وقواه فى سبيل نفعها واحيائها . وبأن تسجيل هذه الصفحة الوضاعة من صفحات الاصلاح . من الواجبات على الشهاب لتتصل خطواته فى خدمة الاصلاح الدينى وتسجيل اطواره . وتتناسق صحائفه المدونة لتاريخه واخباره - فاقتنع - حفظه الله - واذن فى ان يكون هذا العدد من الشهاب خاصا بالاحتفال وتوابعه . وطلب من رفيقه الوفى كاتب هذه السطور ان يكتب بقلمه كلمة فى تصدير العدد . وكلمة فى تصوير الاحتفال وتلخيصا لما علق بذهنه من الفاظ درس الختم ومعانيه ففعل بقدر ما وسعه وقته وحاله ، وعسى ان نكون وفقنا لارضاء المتعطشين المتربين الذين حبستهم الاعذار عن حضور الاحتفال .

تصدير

(محمد البشير الابراهيمى)

سئل بعض العلماء :^١ آية تصلح أن تكون عنوانا على القرآن كله بحيث إذا كتبت على ظهر المصحف كانت تعريفا كاملا به ، شاملا لجميع المعانى الكلية التى يجدها المتصفح فيه كما تعرف الكتب الكبيرة بجمل قصيرة ، فكان جواب هذا العالم : الآية التى تصلح لذلك هى قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَيَتْلَوْهُ بِهِ وَيَعْلَمُونَا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَوَعْدُكَ أَوْفُو الْأَلْبَابِ » .

ولمضى لقد وفق هذا العالم القرآنى الى الصواب فيما أجاب به . فالقرآن كتاب يحمل فى ثناياه دين الله الكامل . وكل ما سبقه من الكتب والمصنفات فهى ارهاصات له وبشارات به وارشادات اليه . ابتعث به نبيه الامين محمدا صلى الله عليه وسلم لهذا العالم الانسانى كله حين بلغ رشده الاجتماعى واستعد للكمال واستشرف لسائق من وراء العقل يكون سنداً له اذا نزل ، وهادياً له اذا ضل . ومصححاً لخطاه اذا اخطأ . ومخرجاً له من ظلمات الحيرة اذا التبس عليه مناهج الحياة ومفسحاً له فى آماله اذا ضيقت عليه هذه الحياة المحدودة حدود الآمال ، ومحرراً له من اصناف العبودية الفكرية والبدنية التى تقلب فيها قرونا ، ومرشداً اياه الى وسائل الكمال التى كان يطلبها فلا يجدها . والآية الكريمة التى جعلها جواباً لسائله بيان الهى معجز للحكم التى اقتضت نزول القرآن والحكم التى نزل لبيانها القرآن والمثل العليا للكمال الانسانى الذى دعا اليه القرآن متدرجة فى وضعها البيانى تدرجها الطبيعى من نفس سامعها : بلاغ فانذار فعلم فتذكر .

وأمثال هذا العالم من رباني هذه الامة ممن درسوا القرآن وتدبروه ومارسوه وراضوا أنفسهم على بيانه واستنبطوا منه الحكم التي أنزل لتحقيقها والعلوم التي جاء لتجليتها على الناس - يكون من خصائصهم هذه الملكة ملكة استعراض القرآن في مثل ارتداد الطرف كلما تحرك لهم وجدان أرادوا أن يزنوه ، أو نجم في آفاق نفوسهم خاطر وأرادوا أن يصححوه ، أو القى عليهم سؤال وأرادوا أن يجيبوا عليه .

وما نظن بصاحبنا هذا أنه راعى القانون الاصطلاحي الجدلي في انطباق الجواب على السؤال ، وإنما هي هيمنة القرآن على نفوس أصحابه والهامها الاصابة في الرأي والتسيد في الجواب والفيح في الخصومة . فالسائل يطلب آية جامعة (لوظائف) القرآن - لا جرم أن أول ما يخطر ببال المجيب امثال قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ، الآية وقوله تعالى : « وَأَوْحِىَ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِأَتْلُوهُ بِهٖ ، الآية ... وقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ » . وقوله تعالى : « لَقَدْ تَمَرَّ بِالْقُرْآنِ مَنُ يَخَافُ وَعَسِىٰ » . وغيرها من الآيات المبينة لاصول الدعوة القرآنية - ثم يلتبس راية تجمع هذه الاصول مع التنويه بهذا الكتاب الجامع لها ، فيقع على تلك الآية أو ما شاكلها . والآيات الجامعة (لوظائف) القرآن كثيرة ومن السهل السريع الوقوع عليها عند هذه الطائفة التي أوتيت قوة الاستعراض .

وقد يسأل عالم آخر فيقع على قوله تعالى : « هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ » أو قوله تعالى : « هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » . والكل مهيب رضى القانون الجدلي أم سخط .

وان كان هناك تفاوت بين الآيات فى الاحاطة والبيان فلكل جملة تزيد فى آية موقع ودلالة . ولكل كلمة تزيد فى جملة معنى وحالة . اما انا - ولا اعوذ بالله من كلمة انا - فلو القى على هذا السؤال لتمرت على قوانين الجدال وأجبت على المغافسة (1) والارتجال ، ولم أزع الا الاعتبار المناسب ومقتضى الحال . وجررت السائل (عن وظائف) القرآن الى (وظائف) أهل القرآن مع القرآن ، وقلت للسائل : ضع على ظهر

(1) غافسه الامر : فاجاه على غرة منه واخذه مغافسة .

المصحف بالقلم المريض قوله تعالى : « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ (فَاتَّبِعُوهُ) وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . وقوله : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ (لِيَتَذَكَّرُوا آيَاتِهِ) وَلِيَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » ، وأجعل جملة (فاتبعوه) و (ليدبروا آياته) بين اقواس على هذه الاقواس المحنية تصيب من قارنه شاكلة انتباه فتزججه الى معرفة ان هاتين الآيتين هما جواز الداخل الى اقطار القرآن وعلى هذه القلوب القاسية تستشعر حق القرآن عليها ووظيفتها التي يجب ان تقوم بها نحوه ، وهي التدبر لمعانيه واتباعه .

ان حقوق القرآن علينا من التدبر والاتباع هي التي يعرفها ما يعرفها من الاعمال والضياع والتفريط والغفلة . فهي التي يجب التنبيه لها والتذكير بها دائما والدلالة على مواقعها من آيات الكتاب العزيز وهي التي يجب على العالم القرآن أن يختار للتذكير بها أصرح الآيات في معناها وأظهر الجمل في الدلالة عليها وأقرب الالفاظ لذهان الناس واذا قارنا بين (لينذروا) وبين (ليدبروا آياته) وجدنا بينهما فرقا جليا لا يستهان به في مقام التذكير والابلاغ في التأثير فان الانذار - وان كان معناه الاعلام بالشئ مع التخويف من عواقبه - لا يستلزم التدبر الذي هو انفعال نفساني ذاتي يفضي الى النظر في أديار الشئ وغاياته على وجه من التكلف والتدرج يفيد بناء تفعل ، وأثر الانذار تأثير خارجي ، وأثر التدبر تأثير ذاتي ، والانذار لا يشعر النفس ما يشعرها التدبر من العهد المسؤول والامانة الثقيلة .

اما الاتباع فهو ثمرة التدبر وهو الذي لا تتحقق الغايات التي يرمى اليها القرآن الا به . وقد تكرر ذكره في القرآن في معارض شتى تدل مستعرضها على انه هو سر التدين والتأله ، وانه المحقق للكمال وانه العالم من الظلال والهلاك فليتدبر التالي هذه الامثلة من الآيات القرآنية : « أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ » . « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ » . « فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » . « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَن آتَاكَ إِلًا » . « أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ أَتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا » . « فَمَن آتَبَعْ هَٰذِهِ فَلَا يُضِلُّ » .

وَلَا يَشْقَى . « ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا » . « وَاتَّبَعْتَ مِلَّةَ
آبَائِنِي » .

ويا للمجب من بيان القرآن وبيناته واعجازه بفنون ايجازه - ان الاتباع
ضرب من قفوا اثر الغير وترسم خطاه والانقياد له وجعل الهوى تبعاً
للهمى مع اطمئنان بالمشاركة فى النتيجة خيراً كانت أو شراً ، وفى معناه من
الهجنة أنه يتنافى الاستقلال الفكرى فى الفكريات والذاتى فى الذاتيات
فتجد القرآن يدفع عنك أثر هذه الهجنة المارضة فيأمرك بالتدبر واستعمال
الحواس الظاهرة والباطنة فى وظائفها الفطرية قبل أن يأمرك بالاتباع .
حتى تطمئن الى أنك انما تتبع فيما فيه حق وخير ورحمة ثم اذا أمرك
بالاتباع فانما ذاك فيما يتعالى عن فكرك ادراكه أو يصعب عليك تمييزه
أو يخاف فيه غبة الاهواء عليك وبعد الامر ينهى عن اتباع الهوى المضل
عن سبيل الحق . وعن اتباع أهواء الذين لا يعلمون . وعن اتباع خطوات
الشیطان وعن اتباع أولياء من دون الله ، وعن اتباع السبل المتفرقة
- توكيدا للمعنى الايجابى وايضاحا للحق الذى يجب أن يتبع .

الا ان المتدبرين للقرآن لا يخرجون من هذا الاستعراض البديع الا
مؤمنين موقنين بان الاتباع الذى يدعو اليه القرآن هو عين الاستقلال التام
للفكر والارادة والعقل والوجدان ، لانه يحميها من شرور الاهواء ويؤويها
الى حمى الحق وحده والاحتماء بالحق الذى قامت به السموات والارض
واستقر عليه تدبير الكون ونظامه ، استقلال ما وراء استقلال .

« وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ
آتَيْنَاهُمْ بِذُرِّيَّتِهِمْ فَأَمْ عَنْ ذُرِّيَّتِهِمْ مُّعْرِضُونَ » .

هذا حق القرآن علينا ، يجب أن نتخذ الآيات المنبهة عليه فواتح
فى المدارس وأن تتجاوب اصداؤها فى جوانب نفوسنا حتى لا ندخل حرمه
الا بعد أن نكون عرفنا حقه .

انه لم يمس على المسلمين فى تاريخهم الطويل عصرهم فيه أبعد عن
القرآن منهم فى هذا العصر ولم يمس على الدعاة الى الحق وقت عظمت
فيه المهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت ، وانه لا مخرج لهم من هذه
المهدة ولا تحلل من هذا الميثاق الا بالدعوة الى القرآن ، فلا عجب - ونحن

نشمر بشقل هذه الامانة - من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة اليه . وانما العجب الذى لا عجب بعده أن نسكت أو نقصر ، وان من أحكم الوسائل لجذب الامة الى القرآن وصف القرآن ، وتشويق الناس الى الاقبال عليه ، وتدبره وفهمه .

فمن التسديد فى الراى والمقاربة فى العمل أن ترشد الامة الاسلامية الى معرفة ما ضيعت من خير وما خسرت من هداية ، بتضييعها للقرآن وانما تعرف ذلك ويبلغ مكامن الوجدان من نفوسها ، من وضعه والاشادة بشأنه والتنويه بجلاله وخطره والتنبيه على ما يحتوى عليه من العلوم الكثيرة بالفاظ قليلة . وتقريب ما ينطوى عليه من المرامى المفيدة ، بالكلمات القريبة . وشرح ما فيه من الحقائق المتفرقة بالجمال الجامعة ، فان ذلك يكون ادعى لرجوع النفوس الجامعة عنه اليه واعون على فياتها الى حماه والاستغلال بظله والاستمسك بحبله .

وليت شعرى . اى بيان يضطلع بهذا ؟ ان وصف القرآن واساليب التشويق الى القرآن لا توجد على اكملها فى غير القرآن فلو أن البلغاء من كل امة فى كل جيل اجتمعوا على أن يصفوه ببعض ما وصف به نفسه . وكانت قلوبهم على قلب رجل واحد وألسنتهم على لسان رجل واحد لعجزوا وقعد بهم القصور دون الغاية من ذلك .

ولقد وصفه جماعة من الباحثين فى اعجازه واسراره ، والمتكلمين على قصصه واخباره . والمنقذين عن مثلاته وعبره والفائضين على نكته التناسب بين آيه وسوره . فجاءوا بما يشبه قصورهم الانسانى لا بما يشبه كماله الالهى ! ووصفه قبلهم اعداؤه اللد من مضغة الشيخ والقيصوم أوصافا منصفة فما بلغ هؤلاء ببلاغتهم ولا أولئك بايمانهم وعلومهم غاية مما يريدون. وصفه الوليد بن المغيرة فقال : ان له لحلاوة . وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لشمر . فعبر بهذا الوصف عن وجدانه النفسى وعن اثر القرآن فى ذلك الوجدان . والاتصال الشعور بالوجدان ، جاء هذا الوصف شعريا كما ترى . وكأنه انصاف منتزع من نفس جائرة . وقرار مقتل من سريرة حائرة . ووصفه شرف الدين البصيرى وصفا لا غاية بعده من كلام المخلوق فى الروعة الشعرية وتمكن الاقتباس وصدق التمثيل فقال :

الله أكبر ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قولا
 ظلمت به شمس الهداية للورى رابى لها وصف الكمال أفولا
 والحق أبلج فى شريعته التى جمعت فروعا للهدى وأصولا
 لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفىء القنديلا

ويا لله لهذا التمثيل المحكم فى الصراع الاخير وما يحدثه فى النفوس
 المفتونة بالمحسوسات .

اننا نعد من اعجاز القرآن فى البلاغة ما هو شائع فى جميع آياته من
 الدقة المتناهية فى تحديد المعانى وتصوير الحقائق وتنزيل الالفاظ فى
 مراتبها وتلوين الاساليب والتزاوج بين الصفتين أو الصفات حتى كأنهما
 صفة واحدة كالقوى الامين . والغنى الحميد . والحفيظ العليم والعليم
 الحكيم . فليقصر الواصفون وليدعوا القرآن يصف نفسه بتلك الدقة
 العجيبة وذلك التصوير الرائع . وليسلك الدعاة سبيلهم الى نفوس الناس
 بهذه الاوصاف الرائعة من هذه الآيات الجامعة فان ذلك أدعى الى التأثير
 والتأثر وابلغ فى باب التشويق ، من كل تبويب فى الكلام وتحبير وتزويق .
 أين يقع كل ما وصفه به البشر من قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ
 جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ »
 وما فى هذه الآية من جمع اصول الاصلاح التى جاء بها القرآن مرتبة فى
 الذكر ترتيبها فى الوجود .

وأين يقع كل ذلك من قوله تعالى : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ
 يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
 النُّورِ » ؟

اللهم لا ...

كانت الامة العربية قبل الاسلام - ومثلها جميع الامم - فى جاهلية
 جهلاء فهم من الوجهة الفكرية فى أحط الدرجات . ومن الوجهة الاجتماعية
 فى اخس الحالات . وكانت لا تملك من أسباب النهضة الا لسانا قويا
 وفطرة غير ممقدة . ولكن ماذا يعنى اللسان الخطيب اذا كان يصدر عن فكر

جديب ؟ فجاءها الله بالقرآن وفيه كل ما كان الفكر العربي يتطلبه من العقائد النقية والحقائق العلمية وكل ما كان اللسان العربي يصبو اليه من آفاق وميادين . فنهض العرب به وبلسانهم الذي نزل به وأنهبوا الامم معهم تلك النهضة التي زلزلت العالم الروحي العقلي فأذهبت مخارقه وثبتت حقائقه . وزلزلت العالم المادي فذهبت بطفئانه وشروبه ورذائله وأقرته على التشريع العادل والمعاملة الرحيمة ، ثم لاءمت بين السروح والمادة بمعاني التوسط والاعتدال في عقائد الاسلام وآدابه واحكامه وجاءت بالمعجزة الكونية الكبرى في تحقيق الحلم الانساني بتلك الملاءمة وهي أمنية عجزت عن تحقيقها كل تعاليم الارض ولم تف بها تعاليم السماء قبل الاسلام لحكمة وأمر قد قدر . وانساح الاسلام في الارض يزجي جيوش الاخلاق قبل جيوش الخلائق وبسط ظله على الاقطار الممتازة بخصوبة الارض وعلى الامم الممتازة بخصوبة الفكر وزرع تعاليمه في عقول مستمعة وإفاض عليها من روحه ، ان الغاية في هذا الوجود سيادة في الحق وسيادة بالحق وان لا سبيل اليهما الا بالعلم والعمل وأن عمران الارض متوقف على عمران العقول والنفوس ، وبني بذلك تلك الحضارة التي لا ينكرها الا مكابر يمارى في الشمس وضحاها .

ان الآفة الكبرى التي قضت على الحضارات وجعلت عاليها سافلها - هي التفرق بين بناتها والمستحفظين عليها ، وقد كان للمسلمين - من بين الامم القديمة والحديثة - معتصم باذخ لو اعتصموا به لوقاهم من التفرق ، فوقى حضارتهم من الانهيار ، وهو القرآن ودينه الاسلام - نعمة خضعوا بها دون الامم - .

كانت تعصف بهم من عواصف التفرق وتثور فيهم من طبائع الملك وغرائز المنافسة فيه ما اقله كاف في تدمير الممالك وتبشير الحضارات فيرجعون الى القرآن ويمتصمون بالاسلام فيجدون فيها الوزر الواقى . الى أن داخلتهم الاعراق المدسوسة ومارجتهم الجرائيم الغريبة وابتلوا ببلقح سوء مما أفسد من قبلهم وكان من تأثير ذلك انهم انتقلوا من التفرق الذي يمصم منه الدين الى التفرق في الدين نفسه وفي القرآن نفسه .

يعتقد المسلمون كلهم ان سلفهم كانوا اكمل ايمانا من خلفهم ، وهذا صحيح ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الايمان فى السلف حتى لكانهم يعتقدون ان ذلك بوضع الهى وتخصيص ربانى لا يد للكسب فيه وهذا خطأ فاحش وجهل فاضح .

وما دام الكلام فى الايمان فهاته وانظر كيف فهمه السلف ومن اى معين استقوا فهمه ومن اى افق استجلوا حقائقه ، ثم انظر كيف فهمه الخلف ومن اين سقطت عليهم هذه الفهم السخيفة . ثم ارجع كل معلول الى علته بلا اجهاد للذهن ولا انشاء للقريحة .

ان السلف تذرعو لفهم القرآن ذريعتين : الذوق العربى الصحيح والسنة النبوية الصحيحة ، وقد كانوا يؤمنون بانه كل لا يتجزأ ، وان بعضه يفسر بعضه ، وقد استعرضوه بعد فهمه بتلك الذرائع ، فوجدوه يعرف الايمان بالصفات اللازمة والتي يتكون من مجموعها . فيقول : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، الْآيَةُ وَيَقُولُ : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » . ويقول : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » الى آخرها . ويقول : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ لِبَلِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ » الى آخرها ، ويقول : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » الى آخرها . ويقول : غيرها من الآيات الجامعة لشعب الايمان وخصاله وصفاته الذاتية ، ثم وجدوه لا يذكر الايمان فى المعارض المختلفة الا مقرونا بالعمل الصالح ففهموا من القرآن ما هو الايمان وما هى الاعمال الصالحة فآمنوا وعملوا الصالحات فكان ايمانهم اكمل ايمان الممل والكسب لا بشئ آخر من الخوارق والاختصاصات . وعلى هذا النحو فهموا العبادة وتوحيد الله وكمالاته المطلقة والرسول ووظائفهم والملائكة الخ .

اما الخلف فقد عدلوا عن هذا كله منذ صاروا يفهمون الايمان من القواعد التعليمية وفقدوا الذوق والاسترشاد بالسنة . ان هذه القواعد

الجافة التي لا صلة بينها وبين النفس انما تنفع فى الصناعات الدنيوية ،
اما فى الدين فانها لا تغنى غناء وقد افسدته منذ اصارها الناس عمدة فى
فهمه حتى ضعف ايمانهم وضعفت تبعاً لارادتهم واخلقهم ، وكيف يفلح
من يعدل فى تفهم الايمان عن الآيات المتقدمة الى قولهم ان الايمان هو
التصديق وان النطق شرط أو شرط فيه وان النسبة بين الايمان والاسلام
كذا الى آخر القائمة ؟

وكيف يكون مؤمناً (حقاً) من يبنى ايمانه على هذا الجرف الهارى ؟
ان هذا موضوع واسع الجنبات وهو يتصل بباب أمراض المسلمين
واسبابها ولا تتسع هذه الكلمة لبعض القول فيه فكيف باستيعابه .

تدبر القرآن واتباعه هما فرق ما بين أول الامة وآخرها وانه لفرق
هائل فعدم التدبر أفقدنا العلم . وعدم الاتباع أفقدنا العمل . واننا
لا ننتعش من هذه الكبوة الا بالرجوع الى فهم القرآن واتباعه ، ولا نفلح
حتى نؤمن ونعمل الصالحات . « قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

وان هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم فى الاقطار الاسلامية بشير
خير بقرب رجوع المسلمين الى هذه الهداية - لان هذه النهضة بنيت أصولها
على الدعوة الى كتاب الله وتفهمه والعمل به . وقد كان من بواكير ثمار
هذه النهضة فى باب التأليف تفسير الامام النقاد محمود الالوسى على
ما فيه من تشدد فى المذهبية . وتفسير الامير صديق حسن خان . ثم جاء
امام النهضة بلا منازع وفارس الحلبة بلا مدافع الاستاذ الامام محمد عبده
فجلا بدروسه فى تفسير كتاب الله عن حقائقه التى حام حولها من سبقه
ولم يقع عليها . وكانت تلك الدروس آية على ان القرآن لا يفسر الا
بلسانين لسان العرب ولسان الزمان . . . وبه وبشيخه جمال الدين
استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها . ثم جاء الشيخ محمد رشيد رضا
جاريا على ذلك النهج الذى نهجه محمد عبده فى تفسير القرآن ، كما جاء
شارحا لآرائه وحكمته وفلسفته فى الدين والاخلاق والاجتماع ، ثم جاء
أخونا وصديقنا الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة

بالجزائر بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة ، وهو ممن لا يقصر عن ذكرناهم في استكمال وسائلها من ملكة بيانية راسخة وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على اسرارها . واحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشرى وعوارضه . والممام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران ، يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير . وقلم كاتب لا تقل له شباه .

بارك الله في عمر الاستاذ فاتم تفسير كتاب الله ببيانه المشرق في خمس وعشرين عاما من غير أن تختل أعماله العلمية الكثيرة ولا أعماله المستغرقة لدقائقه في سبيل هذه النهضة . وعرفت الامة الجزائرية قيمة ما اتم الله على يد الاستاذ ، فاحتفلت بهذا الختم كاعظم ما تحتفل أمة ناهضة باثر ناجح من آثار جهودها ، وكان من الاحسان في هذا العمل العظيم ، ومن الاحسان للنهضة أن نسجل من هذا الاحتفال صورة منبهة على حقيقته ، فصدر هذا العدد من الشهاب وهو لسان حال هذه النهضة خاصا بهذه المنقبة مخلدا لهذا الاثر . مسجلا لبعض أوصافه وما قيل فيه .

ونحن بما لنا من الصلة الوثيقة بهذه النهضة ومن العمل النزر فيها نفتبط بهذه الخطوة السديدة وهذه المرحلة الجديدة التي تمت بختم التفسير ، ونرجو أن تكون في المرحلة الثانية أوسع مدى في الهداية وأكثر حظا من التوفيق ، ونهني أخانا الاستاذ بما خصه الله به من التوفيق في خدمة دينه ولغته وأمتة (1) .

(1) الشهاب : ج 4 م 14 - ربيع الثاني وجمادى الاولى 1357 هـ / جوان
جوليت 1938 م .

الذكر

تمهيد :

1 - الذكر أصل من أصول الدين العظيمة أو هو الدين كله ، ولذا امتلا القرآن العظيم بالآيات المشتمة عليه • فالمسلم اذا شديد الحاجة الى معرفته وفقهه ، وطريقة العمل به ، وقد تعرضنا لبيان ذلك فيما سياتى ، وجعلنا الكلام فى قسمين • وختمناه بالتحذير مما خرج عن سواء القصد بغلو أو تقصير ليكون الواقف عليه على بصيرة مما يأتى منه أو يدع •

القسم العلمى

2 - الذكر حضور الشيء فى القلب الحضور الثانى بعد زواله منه المسبوق بحضور متقدم • هذه حقيقته • وقد يطلق على الحضور الاول توسما • وزواله بعد حضور هو النسيان • فهما ضدان • قال الله تعالى : « وَمَا أُنْسَانِيُو إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ ذُكِّرَهُ » •

وفى مثل : ذكرتنى الطعن وكنت ناسيا •

3 - فالمعنى الاصل للذكر محله القلب ، اذ القلب محل ضده النسيان ، والضدان انما يتضادان فى محل واحد ، قال تعالى : « وَلَا تُفِغْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، اى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا ، فالغفلة فى القلب والذكر فى القلب • وأخوات الذكر - كالذكرى ، والتذكير والذكر ، بضم الدال ، - كلها من أعمال القلب ، وهو مثلها ، وأما الصمت الذى هو من شان اللسان فليس ضدا له كما قد قيل ، وانما هو ضد فى كلام العرب لاعمال لسانية كالنطق فى قولهم فى المال وناطق وصامت ، وما فى الحديث « قليل خير او ليصمت » •

4 - ثم يطلق الذكر اطلاقاً شائعاً على ما يجرى على اللسان مما يخبر به عما في القلب ويمبر عنه ، ومنه قوله تعالى : « فَالْتَّالِيَّاتِ ذِكْرًا » .
 وسمى الله - تعالى - القرآن ذكراً كما في قوله : « وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ » ، لان آياته متلوة بالالسنه ومعانيه حاضرة في القلوب . ومثله في هذه التسمية كلمات التسبيح والحمد والتهليل والتكبير من جميع الاذكار .
 ويقال في كل عمل من أعمال الطاعة ذكر ، لانها كلمة مرتبطة بذكر القلب ومن ثمرانه . وسمى الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - ذكراً في قوله : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا » ، لانه مخبر عن ربه ومبلغ للذكر ، أو لانه هو - صلى الله عليه وسلم - يذكر في الصلاة عليه والحديث ، وفي سيره وشماله بالالسنه والقلوب . وعبر عن ارساله بالانزال لان رسالته وحى من الملى الاعلى ، وأعظم رحمة نزلت من السماء . وسمى الله الآيات الكونية المشاهدة ذكراً في قوله تعالى : « الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » ، لانها تحدث الذكر في القلب كما تحدث آياته المتلوة التي تسمى أيضاً ذكراً . فالمعنى انه كما لم يكن لهم ذكر في قلوبهم من الآيات المتلوة ، لانهم كانوا لا يستطيعون سماعاً ، كذلك لم يكن لهم من الآيات المرئية لان أعينهم في غطاء .

اقسام الذكر :

5 - فد كثر ورود لفظ الذكر في آيات القرآن وأحاديث السنة ، وهو منقسم الى ثلاثة اقسام ، مراده من تلك النصوص : ذكر القلب فكراً واعتقاداً واستحضاراً ، وذكر اللسان قولاً ، وذكر الجوارح عملاً . وسنتكلم عليها واحداً واحداً .

ذكر القلب وهو على ثلاثة ضروب :

الاول : التفكير في عظمة الله وجلاله ، وجبروته وملكوته ، وآياته في أرضه وسمواته وجميع مخلوقاته ، والتفكير - أيضاً - في أنواع آلائه وعظيم انعامه على خلقه عامة وعلى الانسان خاصة بما سخر له منها وما يسر له من اسباب الانتفاع بها ، بما يوجب الايمان بوحدانيته في ربوبيته ،

فلا خالق ولا مدبر ولا مصرف ولا آمر ولا حاكم ولا منعم على الحقيقة سواء ،
وبوحدانيته في ألوهيته فلا يستحق العبادة سواء .

وهذا الضرب هو أعظم الاذكار واجلها وأفضلها ، وبه يتوصل اليها
ويستحق الثواب عليها ، اذ هو أساسها الذي تبنى عليه . فالاعمال مبنية
على العقائد ، والعقائد لا تثبت الا بهذا التفكير ، وبه تنجلي في العقول ،
وترسخ في النفوس ، وتحصل للناظر طمأنينة اليقين . قال تعالى :
« **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** » ، وهذا هو الذكر الذي يحصل به الاطمئنان .
وهو المراد في قوله : « **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ
أَكْبَرُ** » .

قال جماعة من السلف : ذكر الله في الصلاة اكبر من الصلاة ، وهو
المراد ايضا في حديث ابي الدرداء موقوفا في الموطأ ومرفوعا في غيره :
« **ألا أخبركم بخير أعمالكم وأرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليكم وخير
لكم من اعطاء الذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم
ويضربوا أعناقكم** » قالوا : بلى . قال : « **ذكر الله** » وفي حديث معاذ
كذلك : « **ما عمل ابن آدم من عمل أنجي له من عذاب الله من ذكر الله** »
وهذا كله لانه هو أساس جميع الاعمال كما قدمنا ، فاذا حصل ودام وجهه
حصلت كلها ودامت على وجوهها .

الثاني : العقد الجازم بعقائد الاسلام في الله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر والقدر كله ، عقدا عن فهم صحيح وادراك راسخ تتحل به
النفوس بمقتضيات تلك العقائد وتتذوق حلاوتها وتتكون لها منها ارادة
قوية في الفعل والترك تملك بها زمامها ، تلك الارادة التي لا تكون الا من
عقيدة راسخة في النفس ويقين مطمئن به القلب ، ولذا كان هذا الضرب
من ذكر القلب متفرعا عن الضرب الاول ومبنيا عليه .

الثالث : استحضار عظمة الرب وانعامه وما يستحقه من القيام بحقه
عند كل فعل وترك فيفعله باذنه لوجهه ولا يدوم هذا الاستحضار الا اذا
رسخت العقيدة التي هي من مقتضى الضرب الثاني ، ودامت الفكرة التي

هى من مقتضى الضرب الاول ، فهو متفرع عنهما ومتوقف عليهما . وهذا الضرب هو أساس التقوى وهو المراد فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

فان الذكر المناسب لمواطن الحرب هو استحضار عظيم حق الله على العبد فى القيام بذلك الفرض ، واستحضار وعده ووعيده ، مما يقوى القلب ويكسب الجراءة والثبات وانتظار النصر - دون كثرة الذكر اللسانى - فقد جاء عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : طلب الصمت عند جلبة العدو وصخبه . وهو المراد ايضا فى قوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . فان الابتغاء من فضل الله هنا هو التصرف بوجوه التجارة والكسب وليس ذلك مما يناسبه ذكر اللسان كثيرا ، فان ذكر اللسان يطلب فيه التدبر ، وأن ذلك غير متيسر للمشتغل بالبيع والشراء ، وانما يناسبه استحضار عظمة الرب وانعامه ولازم حقه ليمتثل أمره ونهيه فى وجوه الاخذ والعطاء والقضاء والاقتضاء .

ذكر اللسان وهو ضربان :

الاول : ذكر الله - تعالى - بالثناء عليه والاعتراف بنعمه واظهار الفقر اليه بأنواع الاذكار والدعوات . . . وهذا الذكر شرط الاعتماد به حضور القلب عنده . ومن أظهر الآيات الواردة فيه قوله تعالى : « فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ » ، فان النبى - صلى الله عليه وسلم - لما بلغ فى حجته المشعر استقبل القبلة ودعا وكبر وهلل ووحده .

الثانى : ذكره تعالى بدعوة الخلق اليه ، وارشادهم الى صراطه المستقيم الموصل اليه بتعليم دينه والتنبيه على آياته وانعاماته وتبيين محاسن شرعه وتفهيم أحكامه وشرح حكمته فى خلقه وأمره والترغيب والترهيب بوعده ووعيده ، وهى وظيفة الانبياء والمرسلين فى التبليغ عن رب العالمين واتباعهم للمؤمنين ، الى يوم الدين ، ولذا قال عطاء : مجالس

الذكر هي مجالس الحلال والحرام ، كيف تشتري وتبيع وتصل وتصوم وتنكح وتطلق وتحج ... واشباه هذا ، وما سماء قليل من كثير قصد به تقريب التبيين بالتمثيل .

ذكر الجوارح وهو ضرب واحد :

فذكر ما استتمالها في الطاعات ، وكل عمل لها أو انكفاف على مقتضى الشرع ، فهو طاعة ، وكل طاعة لله فهو ذكر ، فكل عامل لله بطاعته فهو ذاكر لله - تعالى - . كما حكاه النووي عن سعيد بن جبير وغيره من العلماء ، مستدلا به على أن فضيلة الذكر ليست منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها . وبهذا يمكن للعبد الموفق أن يكون ذاكرا لله في يقظته ونومه وصحته ومرضه وعلى جميع أحيانه .

القسم العملي

أمر الله عباده بذكره في غير ما آية من كتابه وغير ما حديث من كلام نبيه ، ووعد عليه بجزيل الثواب . ومن الآيات العامة في هذا الأمر قوله تعالى : « فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » ، وهو أمر بالذكر بوجوه الثلاث فحق علينا أن نذكره بها . وكما تلقينا هذا الأمر وهذا الوعد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذلك علينا أن نتلقى عنه كيف يعمل به ، فهو المبلغ عن الله - تعالى - بقوله وفعله والمبين كذلك بهما . ولا شك أنه - صلى الله عليه وسلم - كان دائم ذكر القلب بالفكر والعقد والاستحضار ، دائم ذكر الجوارح في أنواع الطاعات . وقد جاء في شمائله الشريفة أنه كان - صلى الله عليه وسلم - : « دائم الفكرة لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت » ، وأنه « كان سكوته على أربع : على العلم والحذر والتقدير والتفكير » . وأما الذكر اللساني فقد كان - صلى الله عليه وسلم - كما جاء في شمائله أيضا : « لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر » . فلا يخلو مجلسه من ذكر الله . كما كان يسكت ويطيل السكوت كما تقدم ، وقد روى عنه الأئمة من أذكار اليوم والليلة وسائر الأذكار ما فيه الكفاية والشفاء .

فالمؤمن الذى يحافظ على قلبه ويمتنى به حتى يكون صحيح العقد دائم
الفكرة والاستحضار ، ويأتى مع ذلك من الاذكار الماثورة المطلقة بما تيسر
منها ، وبالمرتبة فى الاحوال والاقوات التى رتبت عليها ، ولا يخل مقامه
ومقعده من شيء من ذكر الله وان قل - يكون متبعا للنبي - صلى الله
عليه وسلم - فى سنته فى الذكر ، ويكون بهذا - فى بيته وفى سوقه وفى
مصنعه وفى مسجده - معدودا من الذاكرين المكثرين بالقلب واللسان
والجوارح .

التحذير : ربما شغل اللسان بالتعلم والعلم عن الاذكار الماثورة حتى
يتركها الطالب جملة ويكون عنها من الغافلين ، فيحرم من خير كثير وعلم
غزير ، وقد كان - صلى الله عليه وسلم - معلم الخلق ، وما كان ينفل عن
تلك الاذكار .

وربما بالغ قوم فى بعض هذه الاذكار فاتوا منه بالآلاف ، واهملوا
جانب التفكير الذى هو اعظم اذكار القلب ، والذكر اللسانى احد وسائله ،
فتشغلهم الوسيلة عن المقصود . وليس ذلك من هدى من كان - كما
تقدم - دائم التفكير . وقد يؤديهم الذكر اللسانى بالالوف الى الانقطاع
عن مجالس العلم والزهد فى التعلم فيفوتهم ما قد يكون تعلمه عليهم من
فروض الاعيان . وليس من سداد الراى وفقه الدين افعال المفروض
اشتغالا بغير المفروض .

ويقابل هذا الغلو فى ذكر اللسان ما رآه آخرون من الاقبال على التفكير
الايام والليالى ، مع ترك اللسان . وهذا زيغ عن طريق النبي - صلى الله
عليه وسلم - فى المحافظة على الاذكار اللسانية التى امتلأت كتب الحديث
بالترغيب فيها والحث عليها .

فليحذر المؤمن من هذا كله ومن مثله وليتمسك بما كان عليه النبي
- صلى الله عليه وسلم - من الاتيان بضروب الذكر الثلاثة كلها منزلا لها
فى منازلها متعبدا الله - تعالى - بجميعها ، والله الموفق وبه المستعان (1) .

(1) ش : ج 2 م 5 ، ص 1 - 7 . غرة شوال 1347 / مارس 1929 م

التذكير

حقيقته ، حاجة الخلق اليه ، القائلون به ، تذكير النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ما كان يذكر به ، من كان يذكر ، مشروعية التذكير في الاسلام .

حقيقة التذكير :

1 - أن تقول لغيرك قولاً يذكر به ما كان جاهلاً أو عنه ناسياً أو غافلاً ، وقد يقوم الفعل ، والسمت والهدى مقام القول فيسمى تذكيراً مجازاً وتوسعاً ، ويجمع الثلاثة قولك : عباد الله الصالحون يذكرون الخلق بالخالق بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم .

2 - وحاجة العباد الى هذا التذكير أعظم ما يحتاجون اليه وأشرفه والزمه ، فان سعادتهم الحقيقية في هذه الحياة بانارة عقولهم ، وزكاة نفوسهم واستقامة سلوكهم ، وفي الحياة الاخرى بنعيم الجنان وحلول الرضوان ، انما هي بايمانهم وبربهم وشكرهم له . وأن دلائل وجوده ووحدانيته وقيومته وآثار فضله واحسانه ورحمته ماثلة في الكون بادية للعيان ، داعية الى الشكر هادية الى الايمان ، لكن العقول كثيراً ما تكون مغلوطة بقيود أهوائها ، محجوبة بحجب غفلتها ، فتمسى عن تلك الدلائل والآثار ، فتكفر كفر جحود وعناد ، أو كفر عصيان وطفیان . ويكون تورطها في كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك القيود . وليس لغير من عصم الله انفكاك أو خروج منها ، كلها ، فهم اذن بأشد الحاجة الى تذكيرهم بتلك الدلائل وتلك الآثار ليحصلوا أسباب سعادتهم بالايمان والشكر .

3 - قد علم الله حاجة عباده الى التذكير ، فاصطفى منهم رجالاً أنعم عليهم بكمال الفكرة ووقاية العصمة ، وأرسلهم لتذكير العباد « رسلاً مبشرين

وَمَثَلِينَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ » •

فالانبياء والمرسلون - عليهم الصلاة والسلام - هم اولو هذا المقام
الجليل ، مقام التذكير • ثم من بعدهم ورثتهم من العلماء العاملين •

4 - قد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - على سنة اخوانه من
الانبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - في القيام بتذكير العباد
متمثلا امر ربه - تعالى - له بقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ
بِمُصْطَفٍ » •

اذ السيطرة لا تكون على القلوب والايامان - وهو من أعمال القلب -
لا يكون بالاكرام وانما يكون بذكر الحجج والادلة ، وكذلك كانت سنة
المرسلين في الدعوة الى الله كما قصها علينا القرآن الكريم في كثير من
السور والآيات •

كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يذكرهم بقوله وعمله وهديه وسمته
وكان ذلك كله منه على وفق هداية القرآن وحكمه ، وقد قالت عائشة
الصديقة - رضوان الله عليها - لما سئلت على خلقه - والخلق هو الملكة
النفسية التي تصدر عنها الاعمال - قالت : كان خلقه القرآن ، فكان تذكيره
كله بآيات القرآن : يتلوها ويبينها بالبيان القولي والبيان العملي متمثلا
في ذلك كله امر ربه تعالى بقوله : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَيَعْلَمُ » ،
فالقرآن وبيانه القولي والعلمي من سنة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
بهما يكون تذكير المباد ودعوتهم لله رب العالمين ، ومن حاد في التذكير
عنها ضل وأضل وكان ما يضر أكثر مما ينفع ان كان هنالك من نفع •

5 - كان - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يفتأ مذكرا للمؤمنين
والكافرين ، والله يهدي من يشاء ويوفق من يريد • وقد أمر بالتذكير
مطلقا في قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » •

وكانت سيرته العملية في التذكير هي العمل بهذا الاطلاق ، فما كان
ينخص قوما دون قوم في الدعوة والتذكير ، فكانت هاته السنة العملية دليلا

على أن ما جاء على صورة التقييد فى بعض الآيات ليس المراد منه التقييد ،
ومن ذلك قوله تعالى : « قَدْ كُنَّا إِذْ نَقَعَتِ الذِّكْرَى » •

فالشرط الصورى هو للاستبعاد ، أى استبعاد نفع الذكرى فيهم •
ولا يزال من أساليب العربية فى لسان التخاطب الدارج بيننا قول الناس
لبعضهم بعضا : « كلمة فى كذا اذا نفع فيه الكلام » استبعاد لنفعه فيه ،
ومن ذلك قوله تعالى : « قَدْ كُنَّا بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَيَعْبُدِ » •

فليس ذكر المفعول للتقييد وانما هو للتنبية على انه هو الذى ينتفع
بالتذكير نظير قوله تعالى : « هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » •

8 - ولعاجة العباد للتذكير ومنزله من الدين شرعه الله للمسلمين
شرعا مؤقتا فى خطب الجمع والاعياد ، وشرعا مرسلا موكولا للمذكرين على
ما يرونه من نشاط الناس وحاجتهم ، كما كان يتخول النبى - صلى الله
عليه وآله وسلم - الناس بالموعظة وطلبه طلبا عاما من جميع المؤمنين فى
قوله تعالى : « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالْقَبْرِ » فى صفة المؤمنين العاملين .
وسيكون هذا الباب من المجلة مجالا لفنون من التذكير • جعلنا الله
والمؤمنين من اهل الذكرى ونفعنا بها دنيا وأخرى (*) •

(*) الشهاب : ج 1 م 5 - رمضان 1347 هـ / فيفرى 1929 م •

أفضل الأذكار

تمهيد :

للمبد حالتان :

(أ) حالة يعالج فيها شؤون الحياة من أمر نفسه وأهله ، وما الى رعايته من مصالحه ، أو مصالح غيره ، فيمارس فيها الاسباب ويباشر فيها ما تقتضيه بشريته ، وهو فى هذه الحالة متمدد ماجور ما جرى فيها على حدود الله ، وقصد بها امتثال شرعه .

(ب) وحالة ينفرد فيها لربه ويخلص من هم ذلك كله قلبه ، ويتوجه بكليته الى خالقه ، بالفكر والاعتبار ودوام المراقبة والاقبال .

وهذه الحالة الثانية هى اشرف وأفضل حالتيه وهى أساس الاستقامة فى الحالة الاولى وأصل الكمال فيها .

كانت هاتان الحالتان للنبي صلى الله عليه وسلم كما كانتا لغيره . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « انه ليغان (1) على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » اشارة الى الحالة الاولى التى يكون فيها قائما بمصالح الامة ، وناهضا بأعباء الرسالة ومباشرة الشؤون العامة والخاصة . ورأها دون الحالة الثانية التى يكون متفرغ القلب للرب . وما كان ذلك الغين الا الاشتغال بأمور الخلق فى الحالة الاولى الذى يحجب عن كمال مشاهدته الحق التى فى الحالة الثانية ، فاستغفر الله تعالى منه . وما كان استغفاره عليه الصلاة والسلام الا لاشتغاله بكامل عن أكمل ، وتوجهه للقيام بأمر عظيم عن مقام أعظم .

وقد تطفن الصحابة رضوان الله عليهم لهاتين الحالتين ، وسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنهما وافتاهم فيهما فجاء فى الصحيح أن حنظلة

(1) غانت نفسه : غثت . وغينت السماء : طبقتها الغيم .

الاسيدى - وكان من كتاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « لقيني ابو بكر ، فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال : نلت : فافق حنظلة . قال سبحانه الله ما تقول ؟ : قال : قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكرنا بالنار والجنة كأنها رأى عين ، فاذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، عافسنا الازواج والاولاد والضيعات فنسينا كثيرا ، قال ابو بكر : فوالله انا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت انا وابو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قلت : فافق حنظلة يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنها رأى عين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الازواج والاولاد والضيعات ، فنسينا كثيرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندي فى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرسكم وفى طرقكم !! ولكن يا حنظلة (ساعة وساعة) ثلاث مرات .

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ساعة وساعة » بيان للحالتين وتقرير لهما . وقوله : « والذي نفسى بيده » الى آخره ، بيان لفضلاهما . هذه الحالة الفضلى ، الذكرى التى يحصلها للعبد على أكمل وجه هو افضل الاذكار . وستعرف مما سيأتى بعد أنه هو القرآن ، وقد قسمنا ما سنقوله الى قسمين علمى وعملى ، وختمنا بفضل فى التحذير .

القسم العلمى

(1) القرآن افضل الاذكار من طريق الاثر :

قال تبارك وتعالى : « وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ » « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » ، « إِنَّمَا أَمِثُّ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأَمِثُّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ » .

فهذه البركة ، وهذا التيسير . وهذا الاسر بالتلاة المقرون بالامر بتوحيد العبادة وبالاسلام على طريق العصر - لم ترد الا فى القرآن .

وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول : ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وهذه مثوبة لم ترد لغير القرآن من جميع الأذكار .

وروى الترمذى عن أبى أمامة مرفوعاً : « ما تقرب العباد الى الله بمثل ما خرج منه » . ومن معناه ما ذكره القرطبى عن فروة بن نوفل عن خباب ابن الارت قال : ان استطعت أن تقرب الى الله عز وجل فأنك لا تقرب اليه بشيء أحب اليه من كلامه . ومثل هذا لا يقال بالرأى فهو فى حكم المرفوع .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعاً : « يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله قراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفصل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . وهذا الحديث والذي قبله نصاب صريحان فى المقصود .

وروى البيهقى فى شعب الايمان عن عائشة رضى الله عنها مرفوعاً : « قراءة القرآن فى الصلاة أفضل من قراءة القرآن فى غير الصلاة ، وقراءة القرآن فى غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير » .

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضى الله عنه : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الاعمال أفضل عند الله ؟ قال : قراءة القرآن فى الصلاة ثم قراءة القرآن فى غير الصلاة ، فان الصلاة أفضل الاعمال عند الله ، وأحبها اليه ، ثم الدعاء والاستغفار ، فان الدعاء هو العبادة ، وان الله تعالى يحب الملح فى الدعاء . ثم الصدقة ، فانها تطفىء غضب الرب . ثم الصيام فان الله تعالى يقول : الصوم لى وأنا أجزي به ، والصيام جنة للعبد من النار » . قال القرطبى - بعدما خرج هذا الحديث بسنده - : قال علماؤنا : هذا حديث عظيم فى الدين يبين فيه أن أعظم المبادات قراءة القرآن فى الصلاة .

(ب) القرآن أفضل الأذكار من طريق النظر : ان أشرف حالتى الانسان - وهى حالة انفراده بربه ، وتوجهه بكليته اليه • وخلوص قلبه له ، وتعلقه به - انما تحصل على أكملها لتأتى القرآن العظيم • فان أفضل ما فيه - وهو قلبه - يكون قائما بأفضل أعماله وهو التفكير والتدبر ، فى أفضل المعانى ، وهو معانى القرآن • وان ترجمان ذلك القلب - وهو لسانه - يكون قائما بأفضل أعماله وهى البيان بأفضل كلام وهو القرآن وجوارحه - اذا لم يكن فى صلاة - كانت محبوسة على قيام القلب واللسان بأفضل الاعمال ، واذا كان فى صلاة كانت قائمة بأفضل عبادة وهى الصلاة ، فى أشرف موقف وهو مناجاة الرحمن بآيات القرآن •

فهذا الذكر الحكيم ، تنزيل الرحمن الرحيم ، الذى يحصل هذه الحال ، التى هى أشرف الاحوال ، وهى معراج الارواح لمنازل الكمال - هو أفضل الأذكار •

وايضا فان الذكر قلبى ولسانى وعملى ، والقرآن محصل لذلك كله على أكمله كما سنبينه •

القرآن ، والذكر القلبى : فالتالى للقرآن المتدبر لآياته ، يكون متفكرا فى مخلوقات الله وما فيها من حكم ومن نعم ، وفى معانى أسمائه وصفاته ، وفى مظاهر رحمته واحسانه وبطشه وانتقامه ، وفى أسباب ثوابه وعقابه ، وفى مواقع رضاه وسخطه •

كما يكون التالى ايضا متبصرا فى عقائده خيرا بأدلتها ، ورد الشبه عنها • كما يكون ايضا مستحضرا لربه فى قلبه باستحضار حقوقه ونعمه والانه : اذ هذا كله مما تضمنته آى القرآن ، على أكمل بيان ، وأوضح برهان.

القرآن والذكر اللسانى : وكذلك قد اشتمل القرآن على أفضل الأذكار اللسانية : من تهليل ، وتكبير ، وتحميد ، وتسبيح ، وتمجيد ، واستغفار ، ودعاء ، وعلى الاسماء الحسنى ، والصفات الحملى للرب تبارك وتعالى • فتاليه يكون ذاكرة بهذه الأذكار كلها •

القرآن ، والذكر العملي : ان تلاوة القرآن بالتدبر تثمر للتالى التوبة والانابة والرجاء والخوف وذلك كله مما يكون له خير داع الى الاستقامة - ولو بعض الشيء - فى سلوكه العملى .

هذا شىء قليل مما للقرآن فى الذكر بأنواعه الثلاثة ، الى ما فيه من علم مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وبسط اسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة فى الدنيا والاخرى ، وعلم النفوس واحوالها ، واصول الاخلاق والاحكام ، وكليات السياسة والتشريع ، وحقائق الحياة فى العمران والاجتماع ، ونظم الكون المبنية على الرحمة والقوة ، والعدل والاحسان . . الى ما تقصر عن عده الالسنة وتعجز عن الاحاطة به الافهام . وانما ينال كل تال منها على قدر ما عنده من سلامة قصد ، وصحة علم بتقدير وتيسير من الحكيم العليم .

نتيجة الاستدلال : لهذه الادلة الاثرية والنظرية المذكورة وغيرها ذهب الائمة من السلف والخلف الى أن قراءة القرآن افضل من الذكر . قال سفيان الثورى : « سمعنا أن قراءة القرآن افضل من الذكر » . نقله القرطبى فى الباب السابع من كتاب التذكار . وقال النووى : « واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذى عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن افضل من التسبيح والتهليل وغيرها من الاذكار ، وقد تظاهرت الادلة على ذلك » قاله فى الباب الثانى من كتاب التبيان (1) .

القسم العملى

مقدار التلاوة : قد كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يخلى ليله ونهاره من تلاوة القرآن وكان - كما قال القرطبى - : يختمه فى سبع . وهكذا قال لعبد الله ابن عمر رضى الله عنه : « واقرأ فى كل سبع ليال مرة » . وقد كان قال له اولا : « واقرأ القرآن فى كل شهر » فلما قال له :

(1) الشهاب : ج 3 م 5 غرة ذى القعدة 1347 ابريل 1929 م .

انه يطبق أكثر من ذلك نقله الى العشرين ، والى الخمسة عشر ، والى العشر ،
وانتهى به الى السبع فى قول الأكثر . وكان هذا فعل الأكثرين من السلف .
وعند الترمذى وغيره ، من حديث ابن عمر رضى الله عنه مرفوعا :
« لا يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث » . وهذا ترخيص فيما دون
السبع . وترغيب عما دون الثلاث .

وقد فهم السلف من هذه الاحاديث بيان ما يكون وظيفة وحزبا يستمر
عليه فلذا لم يمتنعوا من ختم القرآن فى أقل من ذلك فى مرات فى بعض
الاحوال .

ولاشك ان احوال حملة القرآن تختلف فى التفرغ للتلاوة والاستغفار
بغيرها ، واحوال الشخص الواحد فى نفسه تختلف كذلك فيرتب حامل
القرآن حزبه من الشهر الى السبع على حسب حاله . فاذا لم يكن من حملة
القرآن فلا يخل ليله ولا نهاره من تلاوة شيء مما معه حسب استطاعته ،
ولا يكن من الغافلين .

ما يقصده من التلاوة : قراءة القرآن أفضل أعمال اللسان ، وتدبر
معانيه أفضل أعمال القلب . هذا من حديث أبى أمامة عند الترمذى الذى
قدمناه فى القسم الاول . فليقصد التالى التقرب الى الله بهما .

والقرآن موعظة ترقق القلوب القاسية فليقصد تليين قلبه .
والقرآن شفاء لادواء النفوس فى عقائدها واخلاقها وأعمالها فليقصد
الشفاء به من ذلك كله .

والقرآن هدى ودلالة على كل حال ما يوصل الى سعادة الدنيا والاخرى
فليقصد الاهتداء بهديته .

والقرآن رحمة من الله للمؤمنين ، فليستنزل بتلاوته وتدبره ، الرحمة
من الله تعالى بأفاضة علوم القرآن على قلبه وبتوقيفه الى القيام بمقتضى
هدياته .

ولا يسلم تالى القرآن - لانه غير معصوم - من ذنوب قد يهدا لها قلبه
فليقصد بتلاوته جلاء قلبه والتوفيق للتوبة من ذنبه . وليجعل تلاوته لاجل

تحصيل التوبة من أعظم وسائله الى ربه وقد مضى لك فى الحديث القدسى فى القسم الاول : « من شغله قراءة القرآن عن مسالتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

التحذير : زعم قوم : أن الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم خير لعامة الناس من تلاوة القرآن قالوا : لان الصلاة ثوابها محقق ولا يلحق فاعلها اثم ، والقرآن اذا تلاه العاصى كانت تلاوته عليه اثماً لمخالفته لما يتلوه . واستدلوا على هذا بقول انس رضى الله عنه الذى تحسبه العامة حديثاً : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » فادى هذا معتقديه الى ترك قراءة القرآن أو التقليل منها . فليحذر من هذا الراى ومما أدى اليه .

للسلاة منزلتها وفضلها ، وللقرآن فضله ومنزلته ، فليات الذاكر من الصلاة ومن غيرها من ابواب الذكر بما لا يؤدى الى ترك أو تقليل تلاوة القرآن الذى هو أفضل الاذكار .

وهذا الراى المتقدم فى تفضيل الصلاة على التلاوة مخالف تمام المخالفة لما نقلناه فى : « نتيجة الاستدلال » ، عن أئمة السلف والخلف : من أن قراءة القرآن أفضل من جميع الاذكار ، ولم يفرقوا فى ذلك بين عامة وخاصة . ومخالف كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن ؛ وذلك من وجوه .

وجوه المخالفة :

الوجه الاول : ان المذنبين مرضى القلوب ، فان القلب هو المضغة التى اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، فكل معصية يأتى بها الجسد هى من فساد فى القلب ، ومرض به ، وان الله تعالى قد جعل دواء امراض القلب تلاوة القرآن فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » . « وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » . فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به بالفاظه ومعانيه . وذلك الراى يصرف المذنبين عن تلاوته .

الوجه الثانى : ان القلوب تعثر بها الغفلة والقسوة ، والشكوك والالوهام ، والجهالات ، وقد تتراكم عليها هذه الادران كما تتراكم الاوساخ

على المرأة فتطمسها وتبطل منفعتها ، وقد يصيبها القليل منها أو من بعضها ولا تسلم القلوب على كل حال من أصابتها فهي محتاجة دائما وأبدا إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن ، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا - فيما رواه البيهقي في الشعب والقرطبي في التذكار : « أن القلوب تصدا كما يصدأ الحديد » قالوا : يا رسول الله فما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القرآن ، فمقصود الشارع من المذنبين أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم ، وذلك الرأي يصرفهم عنه .

الوجه الثالث : أن الوعيد والترهيب قد ثبتا في نسيان القرآن بعد تعلمه ، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها : فروى أبو داود عن سعد : « ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله اجذم » . وروى الشيخان عن عبد الله : « استذكروا القرآن فإنه أشد تقصيا من صدور الرجال من النعم » . فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ، ودفع النسيان ، وذلك الرأي أدى إلى تقليلها أو تركها الموقع في النسيان .

لوازم فاسدة لهذا الزعم : وإلى مخالفته لمقصود الشرع بهذه الوجوه فإن له لوازم فاسدة .

منها أن صلاة النافلة مرغّب فيها على العموم ، وهي مشتملة على قراءة القرآن ، فماذا يقول أصحاب هذا الرأي ؟ فهل يرغبون المذنبين - أمثالنا - عن النافلة طردا لا صلهم ؟ أم ينهون عن قراءة القرآن في النافلة ، فيقولون ما لم يقله أحد ؟ أم يقولون بالاختصار على قراءة سور دون سور ، فيتحكمون في الأحكام ؟

ومنها : أنه قل من يسلم من مخالفة للقرآن بمسئله ، فإذا ذهبنا مع ذلك الرأي حرم خلق كثير من تلاوة القرآن .

وكفى بقول يؤدي إلى هذا كله رادا على نفسه .

وأما قولهم : « أن تألى القرآن يائم بقراءته مع مخالفته » . فهي دعوى لم يقيموا عليها من نص صحيح صريح من سنة أو كتاب . بل الدليل قائم على خلافها ، فإن المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة ، ولا يكتب عليه مرة ثانية إذا ارتكب ذنبا آخر ، وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر ، فكيف

إذا باشر عبادة التلاوة ٩٩ : والاصل القطعى - كتابا وسنة - أن من جاء
بالسبئية فلا يجزى الا مثلها ، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته إذا جاء بحسنة
تلاوة القرآن .

واما قول أنس رضى الله عنه : « رب تال للقرآن والقرآن يلعبه » ،
فليس معناه أن القرآن يلعبه لاجل تلاوته . وكيف وتلاوته عبادة ؟ وانما
معناه : أنه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب
أو ظلم مثلا ، فيكون داخلا فى عموم لعنه للظالمين والكاذبين ، فخرج هذا
الكلام مخرج التقييح لمخالفة القرآن مع تلاوته . بعثا للتالى على سرعة
الاتعاط بآيات القرآن . وتمجيل المتأب . لا مخرج الامر بترك التلاوة
والانصراف عنها . هذا هو الذى يتعين حمل كلام هذا الصحابى الجليل
عليه بحكم الادلة المتقدمة .

وثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من لم يدع قول
الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » . وهذا فى
المتعبد بالصيام الذى يوقع الزور والعمل به فى وقت صيامه . فيكون
متلبسا بالمعبادة والمخالفة فى وقت واحد . ومع هذا فقد قال الشراح فى
معنى الحديث - والعبارة للقسطلانى - : « وليس المراد الامر بترك صيامه
إذا لم يترك الزور » . وانما معناه التحذير من قول الزور . فهو كقوله عليه
الصلاة والسلام : « من باع الخمر فليشقص الخنازير » أى يذبحها ولم
يأمره بشقصها . ولكنه على التحذير والتعظيم لائم شارب الخمر . وكذلك
حذر الصائم من قول الزور والعمل به ، ليعلم له أجر صيامه ، فمن باب
أخرى وأولى ألا يكون قول أنس رضى الله عنه ، محمولا على طلب ترك
التلاوة من المذنب ، لانه غير مباشر لذنبه فى حال تلاوته وانما المقصود
تحذيره من الاستمرار على المخالفة . وترغيبه فى المبادرة بالتوبة ليكمل له
أجر تلاوته بكمال حالته .

هذا حظ العلم فى الاستدلال على حاجة المذنبين الى تلاوة القرآن العظيم
واما حظ التجربة فهو الله الذى لا اله الا هو ما رأيت - وأنا ذو النفس

الملاى بالذنوب والعيوب - أعظم الالة للقلب ، واستدراارا للدمع ، واحضارا
للخشية ، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن •

عود الى تميم الكلام على التحذير :

ليحذر القارئ من السرعة فى التلاوة التى تؤدى الى تخليط كلماته ،
وتذهب بحلاوته ، وتمنع من بقاء أثره فى النفس •

وليحذر من ذهاب قلبه مسترسلا مع خواطره • منصرفا عن تدبره
والتذكر به ، وإذا عرضت له الخواطر فليصرفها ليدفعها وليحمل فكره على
تدبر آيات الكتاب ، ولا ينقطع عن التلاوة اذا كانت تلك الخواطر لا تفارقه ،
فان تصميمه على دفعها مع تكاثرها من جهاده لنفسه ، الذى يثاب عليه ،
وينتهى به فى الاخير الى الانتصار عليها •

وليحذر من الاستمرار على ما عنده من مخالفة لاوامر ونواهي الكتاب ،
ومن عدم الخوف والوجل عند المرور بآيات الوعيد والتقريع على ذلك الذنب
، اذا لم يوفق للتوبة فى بعضها ، فليستحضر الخشية والخشوع عند الآيات
المتعلقة بذلك الذنب ، وليكررها وليتفهمها ، وليقف عندها وقفة العاجز
الذليل الفقير المتضرع لربه ، المتعرض لرحمته بتلاوة كلامه ، فان هذا من
أعظم الوسائل لتيسير التوبة •

فرتل القرآن ، وتدبر معانيه ، والتزم حدوده ، واضرع الى الله تعالى
ان يرزقك التوبة فيما عندك له من مخالفة ، تكن من الفائزين باذن رب
العالمين (1) •

(1) الشهاب : ج 4 م 5 - ذو الحجة 1347 هـ ماى 1929 م •

مجالس التذكير

ننشر فى هذا الباب من « مجلة الشهاب » ما فيه
تبصرة للعقول ، أو تهذيب للنفوس ، من تفسير
القرآن الكريم ... معترضين بانظار أئمة السلف
الذين لا يرتاب فى رسوخ علمهم ، وكمال ايمانهم ،
وأئمة الخلف الذين درجوا على هديهم فى نمط وسط
بين الاستقصاء والتقصير .

عبد الحميد بن باديس

الشهاب : ج 1 م 5 ، رمضان 1347 هـ فيفري 1929 م .

خطبة افتتاح دروس التفسير

سنة 1348 هـ - 1929 م

للامام عبد الحميد بن باديس

الحمد لله الذى جعل الانسان بالبيان ، وجعل البيان بالقرآن ،
فالانسان دون بيان حيوان ابكم ، والبيان دون قرآن كلام اجذم .
وذو البيان والقرآن هو الاكمل الاعظم ، قنرا وتقديرا ، والاحسن الاقوم ،
عملا وتفكيريا ، والاسعد الاكرم ، حالا ومصيرا .

اخدمه ، ارسل محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بشيرا ونذيرا . وداعيا
الى الله باذنه وسراجا منيرا وانزل عليه القرآن تبصرة وذكرى ، ومعجزة
كبيرة ، حجة وتذكيرا ، وشرع لنا من دينه الحنيف مناهل العز والسعادة ،
ومهد لنا من شرعه الشريف ، سبيل الحسنى والزيادة ، رحمة منه تعالى
وفضلا كبيرا .

واشكركم : هداانا واجتبانانا ، فرضينا بالله ربنا ، وبالاسلام ديننا ،
وبمحمد نبينا ، وبالقرآن امامنا ، وحبب اليانا ديننا ، فوالله لو بذلت لنا
الدنيا بخذا فيرها فى تركها ما ساوت عندنا حبة رغاما ، توفيقا منه تعالى
ويقينا صادقا منا وبصرا بصيرا .

واستغفره لما كان منا من نقص وتقصير فى الوفاء بعهده الحق ، وشكر
فضله الكبير ، انه كان عفوا غفارا شكورا .

واصلى واسلم على سيدنا محمد اشرف خلقه واكرم رسله ، فسرقت
بالقرآن بين الحق والباطل ، وهدى به الضال وعلم به الجاهل ، وجاهد
به - فى الله - جهادا كبيرا .

وعلى آله الاطهار ، واصحابه الاخيار ، اقتفوا طريقته ، وأحيوا سنته ،
فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا
جنة وحريرا .

وعلى بقية أمته ، وأهل ملته ، لبوا دعوته وأموا غايته ، ناشطوا وحسبوا .
صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم نلقى محمدا صلى الله عليه وآله
وسلم ونسعد بلفائه ، ونحشر بين الامم تحت لوائه ونجزى بمحبته ، ان
شاء الله تعالى - جزاء موفورا .

أما بعد :

فقد عدنا - والحمد لله تعالى - الى مجالس التذكير ، من دروس التفسير
نقتطف ازهارها ، ونجتني ثمارها ، بيسر من الله تعالى وتيسير ، على
عادتنا في تفسير الالفاظ بأرجح معانيها اللغوية ، وحمل التراكيب على
أبلغ أساليبها البينانية ، وربط الآيات ، بوجوه المناسبات . معتمدين في
ذلك على صحيح المنقول ، وسديد المعقول . مما جلاه أئمة السلف المتقدمون
او غاص عليه علماء الخلف المتأخرون . رحمة الله عليهم أجمعين .

وعمدتنا فيما نرجع اليه من كتب الائمة : تفسير ابن جرير الطبري ،
الذي يمتاز بالتفسير النقلي السلفية ، وبأسلوبه الترسل البليغ في بيان
معنى الآيات القرآنية ، وبترجيحاته لاولى الاقوال عنده بالصواب .

وتفسير الكشاف الذي يمتاز بذوقه البياني في الاسلوب القرآني ،
وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب والتنظير لها بكلام العرب ،
واستعمالها في افانين الكلام .

وتفسير أبي حيان الاندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية
وتوجيهه للقراءات .

وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية ، مما يتعلق
بالجماد والنبات والحيوان والانسان ، وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق
والمناظرة في ذلك والحجاج .

الى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث
والاحكام . وغيرها مما يقتضيه المقام .

نقول هذا ليعرف الطلبة مصادر درسنا . وماخذ ما يسمونه منا ،
ونحن نعلم اننا - والله - كما قال أخو العرب :

لعمري أبيتك ما نسب المعلى الى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشمت وصوح نبتها رعى الهشيم

وكما نقول في مثل : « انما نكحل في موضع العينين » ، واذا نظرنا
الى قصورنا وخطورة مقام الكلام على كلام الله تعالى ، احجمنا . واذا رأينا
الى فضل الله وثقتنا به وحسن قصدنا - في خدمة كتابه - أقدمنا ، وهذا
الجانب الكريم أرجح عندنا فنحن نقدم ممتدين على الله تعالى سائلين منه
تعالى لنا ولكم ان يوفقنا الى حسن القصد ، وصحة الفهم ، وصواب القول ،
وسداد العمل (1) .

(1) الشهاب - ج 11 م 5 - رجب 1348 هـ - ديسمبر 1929 م .

من كلام الحكيم الخبير وحديث البشير النذير وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين دعوة أهل الكتاب

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

(سورة المائدة ، الآيتان 15 - 16)

ارسل الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لجميع الامم فكانت رسالته عامة وكانت دعوته عامة مثلها، وجاءت آيات القرآن بالدعوة العامة فى مقامات وبالدعوة الخاصة لبعض من شملتهم الدعوة العامة فى مقامات أخرى . ولما ارسل الله محمدا (ص) كان الخلق قسمين أهل كتاب - وهم اليهود والنصارى - وغيرهم . وكان اشرف القسمين أهل الكتاب بما عندهم من النصيب من الكتاب الذى اوتوه على نسيانهم لحظ منه وتعريفهم لما حرفوا . وكانوا اولى القسمين باتباع محمد (ص) بما عرفوا قبله من الكتب والانبياء فلهذا وذاك كانت توجه اليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ، الى آخر الآيتين .

وفى ندائهم بيا أهل الكتاب تشریف وتعظيم لهم باضافتهم للكتب ، وبمعت لهم على قبول ما جاء به محمد (ص) لانه جاء بكتاب وهم أهل

الكتاب • واحتجاج عليهم بان الايمان بالكتاب الذى عندهم بمقتضى
الايمان بالكتاب الذى جاء به لانه من جنسه •

ادب واقتداء : هذا هو ادب الاسلام فدعوة غير اهله ليعلمنا كيف ينبغي ان
ننظر عند الدعوة لاحد احسن ما يدعى به وكيف ننتقى ما يناسب ما نريد
دعوته اليه فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته اليك ويفتح لك سمعه وقلبه ،
ودعاؤه بما يكره يكون اول حائل يبعد بينك وبينه ، واذا كان هذا الادب
عاما فى كل تداع وتغاطب فاحق الناس بمراعاته هم الدعاة الى الله
والمبينون لدينه سواء دعوا المسلمين أو غير المسلمين •

بيانه لهم حجته عليهم : كانت كتبهم مقصورة على احبارهم ورهبانهم
مخفية عندهم لا تصل اليها ايدى عامتهم ، فكانوا لا يظهرون الا ما يشاءون ،
ولا تعرف عامتهم منها الا ما اظهروا ، فجاءهم رسول الله (ص) - وهو
امى من امة امية - يبين لهم بما انزله الله عليه واوحى اليه من
آيات الله وحججه واحكامه وكلمات رسله فيما عندهم مما هو حجة
عليهم مقدارا كثيرا ، ويتجاوز عن كثير فيما عندهم من ذكر قبائح
اسلافهم وذمهم ، وما لقي رسل الله عليهم الصلاة والسلام من
عنتهم وشرمهم واذاهم • فكان هذا البيان العليم وهذا الخلق الكريم
من هذا النبى الامى كافيا ان يعرفهم بنبوته وصدق دعوته ونهوض حجته
ولهذا ذكر الله هذا البيان وهذا التجاوز فى اول صفاته لما اخبرهم
بمجيئه اليهم بقوله : « يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » •

تمثيل : فى اول الاصحاح العشرين من سفر اللاويين التصريح برجم الزناة
فأبطل احبارهم هذا الحكم وعوضوه بغيره من التخفيف وكتموا النص ،
فبينه لهم النبى (ص) والقصة مشهورة فى كتب السنن •

جاءت صفات النبى (ص) التى لا تنطبق على غيره فكتموها مثل قول
عيسى عليه السلام وفى الفقرة الثانية عشرة وما بعدها فى الاصحاح السادس

عشر من انجيل يوحنا : « ان لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون ان تحتملوا الآن وامامتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لانه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية . ذاك يمجدينى لانه يأخذ مما لى ويخبركم » صرح عيسى عليه السلام بان الله هو الإله وحده ، وان عيسى رسوله ، فكنتموها وقالوا فيه ما قالوا ، جاء فى الفقرة الثانية من الاصحاح السابع عشر من انجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام : « وهذه هى الحياة الابدية ان يعرفوك انت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذى ارسلته » ، وامثال هذا فيما عندهم كثير .

ادب واقتداء : على الداعى الى الله والمناظر فى العلم أن يقصد احقاق الحق وابطال الباطل واقناع الخصم بالحق وجلبه اليه ، فيقتصر من كل حديثه على ما يحصل له ذلك ، ويتجنب ذكر العيوب والمثالب - ولو كانت هنالك عيوب ومثالب - اقتداء بهذا الادب القرآنى النبوى فى التجاوز مما فى القوم عن كثير . وفى ذكر العيوب والمثالب خروج عن القصد ، وبعد عن الادب ، وتعد عن الخصم وابعاد له وتنفير عن الاستماع والقبول وهما المقصود من الدعوة والمناظرة .

نعمة الاظهار والبيان بالرسول والقرآن : لقد كان الناس اهل الكتاب وغيرهم قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فى ظلام من الجهل بالله وبانبيائه وبشرعه . ومن الجهل بآيات الله فى أنفسهم وفى الكون . ومن الجهل بنعم الله عليه فى أنفسهم بالعقل والفكر الاستعداد للخير والكمال وفى العالم المسخر لهم بما اودع فيه من مرافق المعيش والعمران والحياة ، ومن الجهل بقيمة أنفسهم الانسانية وكرامتها وحريتها . فلما بعث الله محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - كان بقوله وبفعله وبسيرته معرفاً للخلق بما كانوا يجهلون ، فكان نوراً سطع فى ذلك الظلام الحالك فبدهد عن البصائر . وكما أن النور الكونى يجلو الموجودات الكونية للابصار ، فكذلك كان محمد - صلى الله عليه وسلم - ذلك النور

الروحي الرباني يجلو تلك الحقائق للبصائر ، وكما ان النور الكوني يظهر
الموجودات الكونية فلا يحرم منها الا معدوم البصر .

فكذلك كان محمد (ص) ذلك النور الرباني مجليا للحقائق للبشرية
كلها ولا يحرم من ادراكها الا مطموسو البصائر الذين زاغوا فازاغ الله
قلوبهم .

وكما كان محمد (ص) نورا تنبعث من اقواله وافعاله وسيرته الاشعة
الكاشفة للحقائق - كذلك كان الكتاب الكريم الذي انزله الله عليه يبين
بسوره وآياته وكلماته تلك الحقائق اجلى بيان فبمحمد (ص) وكتابه تمت
نعمة الله تعالى عن البشرية كلها باظهار وبيان كل ما تحتاج الى اظهاره
وبيانه ، ولما دعا الله الى تصديق رسوله بالحجة العلمية الخلقية من بيانه
وتجاوزه ذكر بهذه النعمة المظنى فى قوله تعالى : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ
وَكِتَابٌ مُبِينٌ » .

محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - والقرآن ، نور وبيان : فى هذه
الآية وصف محمد صلى الله عليه وسلم بانه نور ، ووصف القرآن بانه مبين .
وفى آيات اخرى وصف القرآن بانه نور بقوله : « فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَالنُّورِ الَّذِى أُنْزِلَنَا » . ووصف الرسول بانه مبين بقوله : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » ، وهذا ليبين لنا الله
تعالى ان اظهار النبي (صلى الله عليه وسلم) وبيانه واظهار القرآن وبيانه
واحد ، ولقد صدقت عائشة - رضى الله عنها - لما سئلت عن خلق
النبي (ص) فقالت : « كان خلقه القرآن » .

استفادة : نستفيد من هذا : أولا - ان السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان
ولهذا يرد خبر الواحد اذا خالف القطعى من القرآن . وثانيا - ان فقه القرآن
يتوقف على فقه حياة النبي (ص) وسنته ، وفقه حياته (ص) يتوقف على
فقه القرآن ، وفقه الاسلام يتوقف على فقههما .

اقتداء : هذا نبينا (ص) نور وبيان ، وهذا كتابنا نور وبيان ، فالمسلم المؤمن
بهما المتبع لهما له حظه من هذا النور وهذا البيان ، فهو على ما يسر له من

العلم - ولو ضئيلا - بينه وينشره، يعرف به الجاهل ويرشد به الضال، وهو بذلك ويعلمه الصالح كالنور يشع على من حوله، وتتسع دائرة اشعاعه، وتضييق بحسب ما عنده من علم وعمل . فعلى المسلم ان يعلم هذا من نفسه، ويعمل عليه وليضرع الى الله دائما فى دعواته ان يعمده بنوره ، وليدع بدعاء النبى (ص) الذى كان يدعو به فى ذلك وهو : « اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل لى نورا » .

الهداية ونوعها : قد دل الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم، وهذه هى هداية الدلالة وهى من فضل الله العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل فى نفسه من التمكن والاختيار، قامت حجة الله على العباد ، ثم يسر من شاء - وهو الحكيم العدل - الى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال ، وهذه هى دلالة التوفيق وهى من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته واقبلوا على ما أتاها من عنده فآمنوا برسوله والنور الذى أنزل معه ، كما قال تعالى : « وَالَّذِينَ أَهْتَفَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّاهَمَ تَقْوَاهُمْ » ، واما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه فاولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير كما قال تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » فالمقبلون على الله القابلون لما أتاها من عنده هدوا دلالة وتوفيقا والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة وحرموا من التوفيق جزاء اعراضهم .

بماذا تكون الهداية : كما انعم الله على عباده بالهداية الى ما فيه كمالهم وسعادتهم، كذلك انعم عليهم فبين لهم ما تكون به الهداية حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون ، اذ من طلب الهدى فى غير ما جعله الله سبب الهدى كان على ضلال مبين ، فلذا بين تعالى ان هدايته لخلقه انما تكون برسوله وكتابه فيتمسك بها من يريد الهدى ، وليحكم على من لم يهتد بها بالزيغ والضلal ، ولما كانا فى حكم شئ واحد فى الهداية يصدق كل واحد منهما الآخر ، جاء بالضمير مفردا فى قوله تعالى : « يَهْدِي بِهِ اللَّهُ » .

لن تكون الهداية : اما هداية الدلالة والارشاد وحدها فهي - كما تقدم - عامة ، واما هداية الدلالة والارشاد مع التوفيق والتسديد فهي للذين اتبعوا ما جاءهم من عند الله من رسوله وكتابه ، وكانوا باتباعهم لهما متبعين لرضوانه المقتضى لقبوله ومثوبته وكرامته لهم ، ولم يتبعوا أهواءهم ومآلوفاتهم وما ألفوا عليه آباءهم ولا أهواء الناس ورضاهم ، فكان اتباعهم لرضوان الله سببا في دوام ارشادهم وتوفيقهم ، وبقدر ما يكون ازدياد اتباعهم يكون ازدياد توفيقهم ، اذ قوة السبب تقتضى قوة المسبب ، والخير يهdy الى الخير والهدى يزداد بالاهتداء ، وهذا الرِبط الشرعى بين التوفيق والاتباع يقتضى الرِبط ما بين ضديهما : الاعراض والخذلان ، وانه بقدر ما يكون الاعراض عن الهدى يكون الخذلان والحرمان والشر يدعو بعضه الى بعض والسيئة تجر الى السيئة . وقد أفاد تخصيص التوفيق بأهل الاتباع وجعل التوفيق مسببا عنه - بما في صلة الموصول من التعليل - قوله تعالى : « **مَنْ أَتْبَعَ رِضْوَانَهُ** » .

الى ماذا تكون الهداية : فشؤون الشخص في نفسه وشؤونه فيما بينه وبين اهله وفيما بينه وبين بنيه وفيما بينه وبين اقاربه وفيما بينه وبين جيرانه وفيما بينه وبين من تربطه به علاقة من علاقات الحياة ومصالحها ، وشؤون الجماعات وشؤون الامم فيما بينها ، كل هذه الشؤون سبل وطرق في الحياة تسلك ويسار عليها للبلوغ الى الغايات المقصودة منها مما به صلاح الفرد والمجموع ، وكلها ان سلكت بعلم وحكمة وعدل واحسان كانت سبل سلامة ونجاة ، والا كانت سبل هلاك ، فيحتاج العبد فيها الى ارشاد وتوفيق من الله تعالى . وقد من الله بفضل على العباد بهذا النبى الكريم والكتاب العظيم ، فمن آمن بهما واتبعهما فنيهما ما يهdy الى كل ما يحتاج اليه في كل سبيل من تلك السبل في الحياة وباتباعهما - واتباعهما اتباع لرضوان الله - يوفقه الله ويسدده في سلوك تلك السبل - الفردية والجماعية والاممية - الى ما يفضى به الى السلامة والنجاة ، وتكون تلك السبل كلها له سبل سلام أى

سلامة ونجاة لانها افضت به بارشاد الله وتوفيقه جزاء لاتباعه وتصديقه
اليها كما قال تعالى : « يَهْتَدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ » .

الايخراج من حالات الحيرة الى حالة الاطمئنان : تمر على
العبد احوال يكون فيها متحيرا مرتبكا كمن يكون فى ظلام ، منها
حالة الكفر والانكار ، وليس لمنكر الحق المتمسك بالهوى والمقلد
للآباء من دليل يطمئن به ولا يقين بالمصير الذى ينتهى اليه . ومنها حالة
الشك ومنها حالة اعتراض الشبهات ومنها حالة ثوران الشهوات ، وكما
ان الله يرشد ويوفق من اتبعوا رضوانه طرق السلامة والنجاة
بالرسول (ص) والقرآن ، كذلك يخرجهم بهما باتباعهما والاهتداء بهما من
ظلمات الكفر والشك والشبهات والشهوات وما فيها من حيرة وعماية
الى الحالة التى تطمئن فيها القلوب كما تطمئن فى النور عندما يسطع فيبده
سدول الظلام ، فباتباعهما فقط تطمئن القلوب بالايمان واليقين، فتضمحل
امامها الشبهات وينكسر سلطان الشهوات فتلك الاحوال العديدة الظلمانية
التي يكون فيها من اعرض عنهما أو خالفهما يخرج منها الى الحالة النورانية
الوحيدة وهى حالة من آمن بهما واتبعهما كما قال تعالى : « وَيُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ، على العبد ان يقبل ما فيه كماله وسعاده ومرضاة
خالقه مما هداه الله اليه برسوله وكتابه وجعل قبوله له سببا فى توفيقه
واخراجه من الظلمات الى النور، وعليه ان يعتقد انه لا ينال شيئا من
التوفيق وحظا من النور الا باذن الله، أى ارادته وتيسيره، فلا يعتمد على
نفسه ولا على اعماله، وانما يكون اعتماده على الله، فيحمله ذلك على الاجتهاد
فى العمل وعدم العجب به ودوام التوجه الى الله وصدق الرجاء فيه
والخوف من عقابه ودوام المراقبة له، ولأجل لزوم هذا الاعتماد على الله
الميسر للأسباب الذى لا يكون فى ملكه الا ما اراد - قرن قوله : « يَهْتَدِي »
« وَيُخْرِجُهُم » ، بقوله : « بِإِذْنِهِ » .

الاسلام ، هو السبيل الجامع العام : ما جاء به النبى صلى الله عليه
 وآله وسلم. والقرآن العظيم هو دين الله الاسلام ، فكل ما دل الله عليه

الخلق بهما وما وفق اليه من العلم والعمل باتباعهما فهو من الاسلام ، ولهذا لما ذكر تعالى ارشاده وتوفيقه للذين اتبعوا رضوانه واخراجهم من الظلمات الى النور ذكر ارشاده وتوفيقه لهم الى الطريق المستوى الموصل الى الكمال والسعادة ورضا الله الجامع لذلك كله بقوله تعالى :
« وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

الرجوع الى كتاب الله وسنة رسول الله - لازم دائم :
ان الحاجة الى ارشاد الله وتوفيقه دائمة متجددة ، فكل عمل من أعمال الانسان، وكل حال من احواله هو محتاج فيه الى هداية الله ودلالته ليصرف ما يرضاه الله منه مما لا يرضاه ، وهو محتاج فيه الى توفيق الله وتيسيره ليقوم بما يرضاه منه وشرعه له ودله عليه ، ولن يزال العبد - غير المعصومين (ص) - تفشاه ظلمات الشبهات والشهوات فيحتاج الى دلالة الله وتوفيقه ليخرج منها الى نور الايمان والاستقامة ، فالعبد محتاج دائما الى الرجوع الى كتاب الله وما ثبت من سنة نبيه (ص) ليهتدى الى ما يرضى الله مما شرعه له من احواله وافعاله ، وإلى ما يدفع عنه شبهاته وينقذه من شهواته ومحتاج الى التوسل بذلك الرجوع اليهما وذلك الاتباع لهما الى الله ليفتح له أبواب المعرفة ويمد له أسباب التوفيق وهذا هو القصد من صيغة المضارع المفيدة للتجدد في قوله تعالى : **« يَهْدِي »** و **« يُخْرِجُهُمْ »** و **« يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »** جعلنا الله من المتبعين لرضوانه ، الراجعين لكتابه وسنة رسوله (ص) ، الفائزين منهما بالهداية ، لخير غاية ، باذنه وفضله ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير (1) .

(1) الشهاب - ج 3، م 11 - ربيع الاول 1354 هـ / جوان 1935 م .

سبيل السعادة والنجاة

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي : أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

(سورة يوسف - الآية : 108)

خلق الله معصدا صلى الله عليه وآله وسلم اكمل الناس وجعله قدوتهم وفرض عليهم اتباعه والائتساء به . فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب ولا وصول لهم الى السعادة في دنياهم وأخراهم ومغفرة خالقهم ورضوانه - الا باقتفاء آثاره والسير في سبيله .

فلهذا أمر الله نبيه (ص) ان يبين سبيله بيانا عاما للناس لتتضح الحجة للمهتدين ، وتقوم الحجة على الهالكين . أمره ان يبينها البيان الذي يصيرها مشاهدة بالعيان ويشير اليها كما يشار الى سائر المشاهدات فقال له : « قُلْ هَلِمَ سَبِيلِي » .

ثم بين سبيله بثلاثة اشياء : الدعوة الى الله على بصيرة ، وتنزيه الله تعالى ، والبراءة من المشركين . فقال : « أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

الدعوة الى الله : فالنبي (ص) من يوم بعثه الله الى آخر لحظة من حياته كان يدعو الناس كلهم الى الله بأقواله وتقريراته وجميع مواقفه في سائر مشاهدته ، وكانت دعوته هذه بوجوها كلها واضحة جلية لا خفاء بها كما قال (ص) : (وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء) فكانت مشاهدة معينة كما أشير اليها في الآية اشارة المعين المشاهد .

كان يدعو الى دين الله ويبين هو ذلك الدين ويمثله ، يدعو الى عبادة الله وتوحيده وطاعته ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة ، فكان (ص) كله دعوة الى الله . فما دعا الى نفسه ، فقد مات ودرعه مرهونة في دين ، وما دعا الى قومه فقد كان يقول : (لا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بتقوى الله) .

كان يدعو الناس كلهم اذ هو رسول الله الى الناس كلهم فكتب الكتب وأرسل الرسل فبلغت دعوته الى الامم وملوك الامم . كان يدعو الكافرين كما يدعو المؤمنين ، يدعو أولئك الى الدخول في دين الله ويدعو هؤلاء الى القيام بدين الله فلم ينقطع يوما عن الانذار والتبشير ، والوعظ والتذكير .

كان يدعو الى الله على بينة وحجة يحصل بها الادراك التام للعقل حتى يصير الامر المدرك واضحا لديه كوضوح الامر المشاهد بالبصر فهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل ، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة الى الله في حياته كلها وفي جميع أحواله ، وكانت دعوته المبينة على الحجة والبرهان مشتملة على الحق والبرهان فكان يستشهد بالعقل ويمتضد بالعلم ويستنصر بالوجدان ويحتج بأيام الله في الامم الخالية وما استفاض من اخبارها وبقي من آثارها من انباء الاولين وما يمر الناس عليه مصبحين وبالليل .

على كل مسلم ان يكون داعيا الى الله : لقد كان في بيان ان الدعوة الى الله هي سبيل محمد (ص) ما يفيد ان على أتباعه - وهو قدوتهم ولهم فيه الاسوة الحسنة - ان تكون الدعوة الى الله سبيلهم ، ولكن لتأكيد هذا عليهم وبيان أنه من مقتضى كونهم أتباعه وان اتباعهم له لا يتم الا به - جاء التصريح بذلك هكذا : « ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » .

فالمسلمون افرادا وجماعات عليهم ان يقوموا بالدعوة الى الله وأن تكون دعوتهم على بينة وحجة وإيمان ويقين . وان تكون دعوتهم وفقا لدعوته وتبعها لها .

ماهية الدعوة : فمن الدعوة الى الله دروس العلوم كلها مما يفقه في دين الله ويعرف بمظمة الله وآثار قدرته ويدل على رحمة الله وأنواع نعمته . فالفقيه الذي يبين حكم الله وحكمته داع الى الله ، والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنعمته داع الى الله ، ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل .

ومن الدعوة الى الله بيان حجج الاسلام ودفع الشبه عنه ونشر محاسنه بين الاجانب عنه ليدخلوا فيه وبين مزعوى العقيدة من ابناؤه ليثبتوا عليه . ومن الدعوة الى الله مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم وتربيتهم في عقائدهم واخلاقهم واعمالهم على ما جاء به ، وتحبيبهم فيه ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم وتحذيرهم مما ادخل من محدثات عليه هي سبب كل شقاوة وشر لحقهم . وبيان انه ما من سبب مما تسعد به البشرية أفرادها وأممها - الا بينه لهم ودعاهم اليه وما من سبب مما تشقى به البشرية افرادها واممها - الا بينه لهم ونهاهم عنه وبيان انه لولا عقيدته المتصلة فيهم وبقاياه الباقية لديهم ومظاهره القائمة بهم لما بقيت لهم - وهم المجردون من كل قوة - بقية ، ولتلاشت أشلاؤهم - وهم الاموات - في الامم الحية .

ومن الدعوة الى الله الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء وانما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة فيجب باليد فان لم يستطع فباللسان فان لم يستطع فبالقلب وهو أضعف الايمان وأقل الاعمال في هذا المقام .

ومن الدعوة الى الله ظهور المسلمين - أفرادا وجماعات - بما في دينهم من عفة وفضيلة ، واحسان ورحمة، وعلم وعمل ، وصديق وامانة ، فذلك أعظم مرغّب للاجانب في الاسلام كما كان ضده أعظم منفر لهم عنه ، وما انتشر الاسلام أول أمره بين الامم الا لان الداعين اليه كانوا يدهون بالاعمال كما يدهون بالقول وما زالت الاعمال عيارا على الاقوال .

ومن الدعوة الى الله بعث البعثات الى الامم غير المسلمة، ونشر الكتب بالسنتهاء، وبعث المرشدين الى عوام الامم المسلمة لهدايتهم وتفقيهم .

كل هذا من الدعوة الى الله ثابتة اصوله في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسنة السلف الصالح من بعده . فكل مسلم أن يقوم بما استطاع منه في كل وجه من وجوهه ، وليعلم أن الدعوة الى الله على بصيرة هي سبيل نبيه (ص) وسبيل اخوانه الانبياء (ص) من قبله ، فلم يكن المسلم ليدع من هذا المقام الشريف مقام خلافة النبوة شيئا من حظه واذا كان هذا المقام ثابتا لكل مسلم ومسلمة ، وحق القيام به - بقدر الاستطاعة - على كل مسلم ومسلمة - فاهل العلم به أولى وهو عليهم احق ، وهم المسؤولون عنه قبل جميع الناس . وما اصاب المسلمين ما اصابهم الا يوم قعد اهل العلم عن هذا الواجب عليهم . واذا عادوا الى القيام به - وقد عادوا والحمد لله - أو شك - ان شاء الله - أن ينجلي عن المسلمين مصابهم .

تفرقة : ليس كل من زعم أنه يدعو الى الله يكون صادقا في دعواه فلا بد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين والفرق بينهما مستفاد من الآية بوجهين :

الاول : ان الصادق لا يتحدث عن نفسه ولا يجلب لها جاها ولا مالا ولا يبغى لها من الناس مدحا ولا رفعة . أما الكاذب فانه بخلافه فلا يستطيع أن ينسى نفسه في اقواله واعماله ، وهذا الفرق من قوله تعالى : **«إِلَى اللَّهِ»** .

الثاني : أن الصادق يعتمد على الحجة والبرهان فلا تجد في كلامه كذبا ولا تلبيسا ولا ادعاء مجردا ، ولا تقع من سلوكه في دعوته على التواء ولا تناقض ولا اضطراب، وأما الكاذب فانه بخلافه، فانه يلقي دماويه مجردة ويحاول تدعيمها بكل ما تصل اليه يده ولا يزال لذلك في جنايا وتعاريج لا تزيده الا بعدا عن الصراط المستقيم، وهذا الفرق من قوله تعالى : **«عَلَىٰ بَصِيرَةٍ»** .

مباحث لفظية : «على بصيرة» : يتعلق بأدعو واختيرت على لتدل على تمام
 الممكن «أنا» : تأكيد للضمير المستتر في ادعو . ونكتته الاعلان بنفسه في
 مقام الدعوة وشأن الداعى على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستتر بها ،
 واتصال اللفظ الدال عليه باللفظ الدال على اتباعه كما تتصل دعوتهم
 بدعوته ، وشأن الصورة اللفظية مطابقة الصورة الخارجية ، والكلام تصوير
 للواقع . «مَن» : تفيد العموم لكل تابع واكملهم في الاتباع اكملهم في
 الدعوة لأن الموصول يفيد التعليل بصلته فهم يدعون لأنهم متبعون .

تنزيه الله تعالى : الاعتراف بوجود خالق الكون يكاد يكون غريزة
 مركوزة في الفطرة ويكاد لا تكون لمكريه - عتادا - نسبة عددية بين
 البشر . ولكن أكثر المترفين بوجوده قد نسبوا اليه ما لا يجوز عليه
 ولا يليق بجلاله من الصاحبة والولد والمادة والصورة والحلول والشريك
 في التصرف في الكون والشريك في التوجه والضراعة اليه والسؤال منه
 والاتكال عليه .

فارسل الله الرسل ليبينوا للخلق تنزهه عن ذلك كله . وكان من
 سبيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه يدعو الخلق الى الله وينزهه عن
 كل ما نسب اليه المبطلون وتخيله المتخيلون وهو معنى قوله تعالى :
«وَسُبْحَانَ اللَّهِ» .

فهو يدعوهم الى الله الذى قد عرفوا وجوده بفطرتهم وعرفوا انه هو
 خالق الكون وخالقهم لا يسميه الا بما سمي به نفسه ولا يصفه الا بما
 وصف به نفسه ، ويعرفهم بأثار قدرته ومواقع رحمته ومظاهر حكمته
 وآيات ربوبيته والوهيته ووحدانيته فى جلاله وسلطانه ، وينزهه عن
 المشابهة والمائلة لشيء من مخلوقاته لا فى ذاته ولا فى اسمائه ولا فى
 صفاته ولا فى افعاله .

وهذا التنزيه - وان كان داخلا فى الدعوة الى الله - فانه خصص
 بالذكر لعظم شأنه فانه ما عرف الله من شبهه بخلقه او نسب اليه ما

لا يليق بجلاله أو أشرك به سواء ، وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية فمن اعظم وجوه الدعوة والزمها تنزيه الله تعالى عن الشبيه والشريك وكل ما لا يليق .

والمسلمون المتبعون لنبيهم (ص) فى الدعوة الى الله على بصيرة متبعون له فى هذا التنزيه مقدا وقولا وعملا واعلانا ودعوة .

مباحث لفظية : « سبحان » : منصوب بفعل محذوف تقديره اسبح أى انزه والجملة معطوفة على جملة ادعو فهى من بيان القبيل .

البراءة من المشركين : الامة التى بعث منها النبى (ص) وهى اول امة دعاها الى الله هى الامة العربية، وهى امة كانت مشركة تعرف ان الله خلقها ورزقها وتعبد مع ذلك أوثانها تزعم انها تقربها الى الله وتتوسط لها لديه ، فكان النبى (ص) كما يدعو الى الله وينزهه يعلن ببراهته من المشركين وانه ليس منهم براءة من عقيدتهم وأقوال واعمال شركهم فهو مبين لهم فى المقد والقول والعمل مبينة الضد للضد فكما باين التوحيد الشرك، باين هو المشركين وذلك معنى قوله تعالى : « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وهذه البراءة والمبينة - وإن كانت مستفادة من انه يدعو الى الله وينزهه فانها نص عليها بالتصريح لتأكيد أمر مبينة المشركين (والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليه وخفيه) فى جميع مظاهر شركهم حتى فى صورة القول كما شاء الله وشاء فلان فلا يقال هكذا ويقال : ثم شاء فلان كما جاء فى حديث بيناه فى جزء من الاجزاء الماضية أو فى صورة الفعل كان يسوق بقرة أو شاة مثلا الى ضريح من الاضرحة ليزبحها عنده فانه ضلال كما قاله (الشيخ الدردير فى باب النذر) . فضلا عن عقائدهم كاعتقاد ان هنالك ديوانا من عباد الله يتصرف فى ملك الله، وإن المذنب لا يدعو الله وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الاموات، وذلك الميست يدعو له الله لتأكيد أمر المبينة للمشركين فى هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا ، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليه وخفيه .

والمباينة والتبرى لازمة من كل كفر وضلال، وذلك مستفاد من الدعوة الى الله وتنزيهه، وانما خصص المشركين لما تقدم، ولأن الشرك هو شر الكفر وأقبحه .

ولما كانت هذه المباينة والبراءة داخلة فى الدعوة الى الله وتنزيهه فالمسلمون المتبعون لنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم كما يدعون الى الله على بصيرة وينزهونه يباينون المشركين فى عقائدهم واعمالهم وأقوالهم ، ويطرحون الشرك بجميع وجوهه ، ويعلنون براءتهم وانتفاءهم من المشركين. والحمد لله رب العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 1 م 11 - محرم 1354 هـ / افريل 1935 م .

كيف تكون الدعوة الى الله والدفاع عنها

« اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »

(سورة النحل - الآية : 125)

سبيل الرب جل جلاله : شرع الله لعباده بما انزل من كتابه وما كان من بيان رسوله ما فيه استنارة عقولهم وذكاء نفوسهم ، واستقامة اعمالهم . وسماه سبيلا ليلتزموه فى جميع مراحل سيرهم فى هذه الحياة ليفضى بهم الى الغاية المقصودة، وهى السعادة الابدية فى الحياة الاخرى واضافه الى نفسه ليعلموا انه هو وضعه ، وانه لا شئ يوصل الى رضوانه سواء . وذكر من اسمائه الرب ليعلموا ان الرب الذى خلقهم وطورهم ولطف بهم فى جميع اطوار خلقهم ومراحل تكوينهم هو الذى وضع لهم هذه السبيل لطفًا منه بهم واحسانًا اليهم لينهجوها فى مراحل حياتهم فكما كان رحيمًا بهم فى خلقه كان رحيمًا بهم فى شرعه فيسيروا فيها من رغبة ومحبة فيها ، ومع شكر له وشوق اليه ، وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يدعو الناس أجمعين - وحذف معمول ادع لافادة العموم - الى هذه السبيل فقال تعالى : « اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » .

اهتمام : أمر الله نبيه (ص) ان يدعو الى سبيل ربه وهو الامين المعصوم لما ترك شيئًا من سبيل ربه الا دعا اليه فصرنا بهذا ان ما لم يدع اليه محمد (ص) فليس من سبيل الرب جل جلاله ، فاهتدينا بهذا - وامثاله كثير - الى الفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ودعاة الله

ودعاة الشيطان . فمن دعا الى ما دعا اليه النبي (ص) فهو من دعاة الله يدعو الى الحق والهدى ومن دعا الى ما لم يدع اليه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو من دعاة الشيطان يدعو الى الباطل والضلال .

اقتداء : فالمسلم المتبع للنبي (ص) لا يالو جهدا في الدعوة الى كل ما عرف من سبيل ربه . وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع تتضح السبيل للمساكين ويعم العلم بها عند المسلمين وتغلو سبيل الباطل على دعائها من الشياطين .

اركان الدعوة : اركان الدعوة اربعة : الداعي وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمدعو وهم جميع الناس، والمدعو اليه وهو سبيل الرب جل جلاله ، والدعوة الى سبيله الموصل اليه دعوة الى فالدعو اليه في الحقيقة هو الله تعالى ، والبيان عن الدعوة ، وتجيء الآيات القرآنية منها ما هو حديث وبيان عن الداعي، ومنها ما هو حديث وبيان عن المدعو اليه، ومنها حديث وبيان عن بيان الدعوة، وتتضمن كل آية جاءت في واحد الذكر او الاشارة للثلاثة الاخرى ، وهذه الآية الكريمة جاءت في بيان كيفية الدعوة وبماذا تؤدي وكيف يدافع عنها مع ذكر الداعي والمدعو اليه .

فقال تعالى : **« بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »** .

الحكمة : الحكمة هي العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن ، المبني على ذلك العلم ، فالفوائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخا تظهر آثاره على الاقوال والاعمال حكمة ، والاعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التي اثمرتها تلك العقائد - حكمة ، والاخلاق الكريمة كالحلم والاناة - وهي علم وعمل نفسي - حكمة ، والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع - حكمة . تسمية للدال باسم المدلول .

استدلال واستنتاج : في سورة الاسراء ثمان عشرة آية ، جمعت اصول الهداية من قوله تعالى : **« لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَقُومًا مَّغْلُوبًا »** الى **« لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْهُورًا »** وقد تكلمنا عليها في الجزء 6 و 7 و 8 و 9 و 10 من المجلد السادس وقد جمعت تلك

الآيات كل ما ذكرنا من العقائد الحقّة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة، وسمى الله ذلك كله حكمة فقال تعالى : « ذَلِكَ بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » (1) . وقال النبي (ص) : (ان من الشمر حكمة) وذلك لان من الشعر ما فيه بيان عن عقيدة حق أو خلق كريم أو عمل صالح أو علم وتجربة . كشعر أمية بن أبى الصلت الذى قال (2) فيه النبي (ص) كاد ان يسلم وكلمة لبيد (ض) : « الاكل شيء ما خلا الله باطل » التى قال (3) فيها (ص) : (اصدق كلمة قالها الشاعر) .

فالحكمة التى أمر الله نبيه (ص) ان يدعو الناس الى سبيل ربه بها هى البيان الجامع الواضح للعقائد بادلتها والحقائق وبراهينها والأخلاق الكريمة بمحاسنها ومقاييس تضادها ، والأعمال الصالحة – من أعمال القلب واللسان والجوارح – بمنافعها ومضار خلافها .

وهكذا كان بيانه لهذه الأشياء كلها بما صح من أحاديثه وجوامع كلمه وهكذا هو بيان القرآن لها كلها حيثما كانت من آياته ، فأيات القرآن وأحاديثه (ص) فى بيان هذه الأشياء البيان المذكور – هما الحكمة التى كان يدعو الى سبيل ربه بها . وتلك الأشياء كلها هى أيضا حكمة وهى التى كان يعلمها كما فى قوله تعالى : « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » فصلى الله عليه وآله وسلم من داع الى الحكمة بالحكمة ومعلم للحكمة بالحكمة .

اهتداء واقتداء : هدتنا الآية الكريمة الى أسلوب الدعوة وهو الحكمة وتجلت هذه الحكمة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

فعلينا ان نلتزمها جهدنا حيثما دعونا . ونقتدى بأساليب القرآن والسنة فى دعوتنا، فيها يحصل الفهم واليقين ، والفقه فى الدين والرغبة فى العمل والدوام عليه ، وما نحن قد بلغ الحال بنا الى ما بلغ اليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود فى فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور فى العمل . فحق على أهل الدعوة الى الله – وخصوصا المعلمين – ان يقاوموا

(1) روى الثلاثة البخارى فى كتاب الادب باب ما يجوز من الشعر .

ما بينا من جهل وجمود واغراض وفتور بالتزام البيان للحقائق العلمية
بأدلتها ، والمقائد ببراهينها ، والاخلاق بمعاسنها ، والاعمال بمصالحها .
وقد وجد الاخذ بهذه الاساليب القرآنية والحمد لله - واخذ أثرها - بفضل
الله - يظهر فى الناس بقدر الاخذ بها ويوشك ان تتجدد بذلك فى المسلمين
حياة ان شاء الله .

الموعظة الحسنة : الوعظ والموعظة الكلام الملين للقلب بما فيه من
ترغيب وترهيب فيحمل السامع - اذا اتمظ وقبل الوعظ واثر فيه - على
فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، وقد يطلق على نفس الامر والنهى .

الاستدلال : ففى حديث العرباض الذى رواه الترمذى وغيره : « وعظنا
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة وجلت (خافت) منها القلوب
وذرفت (سالت) منها العيون » فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الاثر
فى قلوبهم فهذه حقيقة الموعظة .

وقال تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ » أى يؤمرون به . وقد
قال تعالى : « يَعْظِكُمُ اللَّهُ أَن تَعُدُّوا عِلَّيْلَهُ أَبَدًا » أى ينهاكم ، فهذا من اطلاق
الوعظ على الامر والنهى لان شأن الامر والنهى ان يقترون بما يحمل على
امتناله من الترغيب والترهيب .

بماذا تكون الموعظة ؟ : يكون الوعظ بذكر ايام الله فى الامم الخالية ،
وباليوم الآخر وما ينتقده وما يكون فيه من موافق الخلق وعواقبهم
ومصيرهم الى الجنة أو النار وما فى الجنة من نعيم وما فى النار من عذاب
آليم . وبوعد الله ووعيده . وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ ، ويكون
بغيرها كتذكير الانسان بأحوال نفسه ليعامل غيره بما يحب ان يعامل به ،
وهو من ادق فنون الوعظ وابلغها مثل قوله تعالى وقد نهى ان يقال لمن
لقى السلم ، لست مؤمنا « كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » وقوله
تعالى - وقد أمر بالمنو والصنع - : « أَلَا تُحْيَوْنَ أَنَّ يُغْفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

تفريق بالتمثيل : يقول تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » هذه حكمة ، ويقول تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » هذه موعظة ، ويقول تعالى : « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ » هذه ايضا موعظة ، « وَلَا تَتَّبِعُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ » هذه حكمة « فَتَزَلَّ قَلَمٌ بَعْدَ بُيُوتِهَا وَتَلَوْقُوا أَلْسِنًا سَمًا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » هذه موعظة « اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » هذه حكمة ، « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » هذه موعظة .

وهكذا تمتزج المواعظ الحسنة بالحكم البالغة فى آيات القرآن العظيم، فتتبعها فى جميع سورة تجدها ، وتدبرها تقع منها على علوم جمة واسرار غزيرة .

حسن الموعظة : الموعظة التى تحصل المقصود منها من ترقيق للقلوب للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة ، هى الموعظة الحسنة ، وانما يحصل المقصود منها اذا حسن لفظها بوضوح دلالة على معناها . وحسن معناها بمظيم وقعه فى النفوس ، فعذبت فى الاسماع، واستقرت فى القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية فانارت الرغبة والرغبة، وبعثت الرجاء والخوف بلا تقطيع من رحمة الله ، ولا تامين من مكروه، وانبعثت عن ايمان ويقين، وتادت بحماس وتأثر، فتلقته النفس من النفس ، وتلقفها القلب من القلب ، الا نفسا احاطت بها الظلمة ، وقلبا عم عليه الران . عافى الله قلوب المؤمنين .

تطبيق واستدلال : كل هذا تجده فى مواعظ القرآن ، وفيما صح من مواعظ النبى صلى الله عليه وآله وسلم . وكان (ص) كما جاء فى الصحيح اذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته واحمرت عيناه وانتفضت اوداجه . كانه منذر جيش يقول صبحكم (اغار عليكم فى الصباح) مساكم (اغار عليكم فى المساء) وكان يقصر خطبه فى بلاغة وايجاز .

اهتداء واقتداء : هدتنا الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها الى ان من الموعدة ما هو حسن، وهو الذى تكون به الدعوة، ومنها ما هو ليس بحسن فيجتنب ، وبينت مواعظ القرآن ومواعظ النبى (ص) ذلك الحسن . فعلينا ان نلتزمه لانه هو الذى تبلغ به الموعدة غايتها ، وتثمر باذن الله ثمرتها ، وعلينا ان نجتنب كل ما خالفه مما يضم ثمره الموعدة كتمقيد الفاظها ، او يقلبها الى ضد المقصود منها كذكر الآثار الوامية التى فيها اعظم الجزاء على اقل الاعمال .

تخدير : أكثر الخطباء فى الجملعات اليوم فى قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة مسجعة طويلة من مخلفات الماضى لا يراعى فيها شئ من احوال الحاضر وامراض السامعين، تلقى بترنم وتلحين أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيرا ما تغتم بالاحاديث المنكرات ، أو الموضوعات .

هذه حالة بدعية فى شعيرة من اعظم الشعائر الاسلامية سد بها اهلها بابا عظيما من الخير فتحه الاسلام وعطلوا بها الوعظ والارشاد وهو ركن عظيم من اركان الاسلام . فحذار أيها المؤمن من ان تكون مثلهم اذا وقفت خطيبا فى الناس ، وحذار من ان تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية الى ما احده المحدثون . ورحم الله ابا الحسن - كرم الله وجهه - فقد قال : (الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكره ولم يدع القرآن رغبة عنه الى ما سواه) .

الجدال بالثبوتى هو احسن : لابد ان يجد داعية الحق معارضة من دعاة الباطل وان يلقى منهم مشاغبة بالشبه ، واستطالة بالأذى والسفاهة . فيضطر الى رد باطلهم، وابطال شغبهم، ودحض شبههم، وهذا هو جدالهم ومدافعتهم الذى امر به نبيه (ص) بقوله : « وَجَادِلْهُمْ » .

ولما كان اهل الباطل لا يجدون فى تاييد باطلهم الا الكلمات الباطلة يموهون بها ، والكلمات البديئة القبيحة يتخذون سلاحا منها، ولا يسلكون فى مجادلتهم الا الطرق الملتوية المتناقضة فيتمسكون فيها ويهربون اليها

— لما كان هذا شأنهم أمر الله نبيه (ص) ان يجتنب كلماتهم الباطلة والقيحة وطرائقهم المتناقضة والمتوية ، وان يلتزم في جدالهم كلمة الحق والكلمات الطيبة البريئة ، وان يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار ، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة ، وهذه الطريقة في الجدل هي التي هي احسن من غيرها في لفظها ومعناها ومظهرها وتأثيرها وافضائها للمقصود من افحام المبطل وجلبه ورد شره عن الناس واطلامهم على نقصه وسوء قصده . وهذه هي الطريقة التي امر الله نبيه (ص) بالجدال بها في قوله تعالى : « وَجَاوِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

اهتمام واقتداء : هدتنا الآية الكريمة الى الطريقة المحمودة المشروعة في الجدل، وفي آيات القرآن بيان لهذه الطريقة البيان التام . فانه كما لم يترك القرآن عقيدة من عقائد الاسلام الا بينها وأوضح دليلها، ولا أصلا من اصول أحكامه أو أصول آدابه الا بينه واحتج له وذكر حكمته وثمرته ، كذلك لم يترك شبهة من شبه الباطل الا ردّها بالطريقة الحسنة التي أمر بها ، وجاءت السنة النبوية الكريمة والسيرة المحمدية الشريفة مطبقة لذلك ومنفذة له . فالكتاب والسنة فيهما البيان الكافي الشافي للجدال بالتي هي احسن، كما فيهما البيان الكافي للحكمة والموعظة الحسنة .

فعلينا ان نطلب هذا كله من الكتاب والسنة، ونجهد في تتبعه واخذه واستنباطه منهما . وندأب على العمل بما نجده والتعلّي به والالتزام له من هذه الاصول الثلاثة في الدعوة والدفاع عنها .

احكام وتنزيل : أمر الله بالدعوة والجدال على الوجه المذكور فكلاهما واجب على المسلمين ان يقوموا به، فكما يجب لسبيل الرب جل جلاله ان تعرف بالبيان بالحكمة ، وان تحب بالترغيب بالموعظة الحسنة، كذلك يجب أن يدافع من يصدون عنها بالتي هي احسن ، اذ لا قيام لشيء من الحق الا بهذه الثلاث . غير أن الدعوة بوجهيها والجدال ليستا في منزلة واحدة في القصد والدوام فان المقصود بالذات هو الدعوة وأما الجدل فانه غير مقصود بالذات وانما يجب عند وجود المعارض بالشبهة والصاد بالباطل عن سبيل

الله ، فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محدودة على كل حال وكان الجدال مذموما فى بعض الاحوال وذلك فيما اذا استعمل عند عدم الحاجة اليه فيكون حينئذ شاعلا عن الدعوة ومؤديا - فى الاكثر - الى الفساد والفتنة . فاذا كان جدالا لمجرد الغلبة والظهور فهو شر كله، واشد شرا منه اذا كان للدفاعه الحق بالباطل. وفى هذه الاقسام المنوعة جاء مثل قوله : **« وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّعْيِرٍ »** « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما ظل قوم بعد مدى كانوا عليه الا اوتوا الجدل . ثم تلا : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » .

تحذير : المدافعة والمغالبة من فطرة الانسان، ولهذا كان الانسان اكثر شيئا جدلا ، غير ان التربية الدينية هى التى تضبط خلقه وتقوم فطرته فتجمل جداله بالحق عن الحق . فلنحذر من أن يظنى علينا خلق المدافعة والمغالبة فنذهب فى الجدل شر مذاهبه وتضيق الخصومة لنا خلقا ، ومن صارت الخصومة له خلقا ، أصبح يندفع معها فى كل شئ ولأذى شئ لا يبالي بحق ولا باطل ، وانما يريد الغلب بأى وجه كان ، وهذا هو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « ان أبغض الرجال الى الله الألد (الشديد) الخصومة) الخصم (الكثير الخصومات) » ومن ضبط نفسه وراقب ربه لا يجادل اذا جادل الا عن الحق وبالتى هى أحسن .

«علينا الدعوة والجدال والى الله الهدى والضلال والمجازاة على الاعمال» .
الدعوة بوجهيها يجب أن تكون عامة والجدال على وجه عام مثلها ، ثم يكون حظ كل واحد من الهدى والضلال على حسب استعداده وقابليته، وما سبق عليه من أمر ربه ، وتكون مجازاته على ذلك للخالق الذى هو العالم بمن خرج عن طريقه واعرض عن هداه، وبالذين قبلوا هداه فاهتدوا وساروا فى سبيله . والعدل الحقيقى التام فى الجزاء انما يكون ممن يعلم السر والعلن، وليس ذلك الا لله فلا يكون الجزاء على الهدى والضلال من سواء .

ولهذا اختتمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

ثمرة : ثمرة العلم بهذا ان الداعي يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه احد، لانه يعلم ان امر الهدى والضلال الى الله، وانما عليه البلاغ وانه يصبر على ما يلقى من اعراض وعناد وكيد واذى دون ان يجازى بالمثل أو يفتر في دعوة من اذاه لعلمه بان الذي يجازى انما هو الله .

جعلنا الله والمسلمين من الدعاة الى سبيله كما امر ، الصابرين المحتسبين امام من آمن وشكر ، ومن جحد وكفر ، غير منتظرين الا جزاءه ، ولا متكلين الا عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل (1) .

(1) ش : ج 2 م 11 - صفر 1354 هـ / مارس 1935 م .

آية الليل وآية النهار

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ الْيَوْمِ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا »
(سورة الاسراء ، الآية 12)

لله تعالى في سور القرآن ، وعالم الاكوان ، آيات بينات دالة على وجوده ، وقدرته ، و ارادته ، وعلمه ، وحكمته ، ونعم سابغات موجبة للحمده ، وشكره ، وعبادته .

ولما ذكر تعالى آيته ، ونعمته ، بالقرآن الذي يهدي للتي هي اقوم ، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبين على هذا الكون الاعظم ، فقال تعالى : « وَجَعَلْنَا » الآية .

« وجعلنا الليل والنهار » : خلقناهما ووضعناهما آيتين ، وجعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة ، فهما حادثان مسيران بتدبير وتقدير و « الليل » : هو الوقت المظلم الذي يغشى جانباً من الكرة الارضية عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل . و « النهار » : هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيئه بنورها ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وامكنتها ، يكور الليل على النهار بان يحل محله في جزء من الكرة - وجزء الكرة مكور - فيكون النهار الحال مكورا بحكم تكور المحل ، وكذلك النهار يكور عليه فيحل محله من الكرة فيكون ايضا مكورا بحكم تكور المحل . وانما جعلنا تكوير احدهما على

الآخر بحلوله فى محله لانه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه فى نفسه لانهما ضدان لا يجتمعان ، وليس جسمين يحل احدهما على الآخر . والآية : هي العلامة الدالة ، وكان الليل والنهار « آيتين » : بتعاقبهما مقدرين باوقات متفاوتة بالزيادة والنقص فى الطول والقصر على نظام محكم وترتيب يديع ، بحسب الفصول الشتوية والصيفية ، وبحسب الامكنة ومناطق الارض ، المناطق الاستوائية والقطبية الشمالية والجنوبية وما بينهما ، حتى يكونا فى القطبين ليلة ويوما فى السنة ، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين ، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهما ، فهذا الترتيب والتقدير والتسيير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير ، لطيف خبير .

الليل فى نفسه آية ، وفيه آيات ، واطهر آياته هو القمر، فيقال فى القمر « آية الليل » ، والنهار فى نفسه آية ، وفيه آيات ، واطهر آياته هو الشمس ، فيقال فى الشمس « آية النهار » .

وبعدما ذكر تعالى الليل والنهار آيتين فى أنفسهما ذكر اظهر آيات كل واحد منهما و اضافهما اليه . فقال تعالى : « فَمَعُونَا آيَةُ اللَّيْلِ ... الخ » وليس محو القمر وابصار الشمس متأخرا عن الليل والنهار ، وكيف ؟ وما كان الليل والنهار الا باعتبار اضاءة الشمس لجانب وعدم اضاءتها لمقابلته ، فليست الفاء فى (فمحونا) للترتيب فى الوجود ، وانما هى للترتيب فى الذكر وللترتيب فى التعقل ، فان القمر والشمس بعض من آيات الليل والنهار ، والجزء متأخر فى التعقل عن الكل .

وقد اتفق الكاتبون على الآية ممن رأينا على أن المراد من لفظ الآية فى الموضعين واحد ، فاما أن يراد بها نفس الليل والنهار ، والاضافة فى « آية الليل » و « آية النهار » للتبيين كاضافة العدد للمعدود . أو يراد بها الشمس والقمر فيكون « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ » على تقدير مضاف فى الاول مقدرا هكذا : وجعلنا الليل والنهار ، أو فى الاخير مقدرا هكذا : وجعلنا الليل والنهار ذوى آيتين ، واما على تقديرنا المتقدم فان لفظ « آيتين » صادق على الليل والنهار، ولفظ « آية الليل » و « آية النهار »

صادق على الشمس والقمر ، وعليه يكون تقدير الآية هكذا : وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا قمر الليل وجعلنا شمس النهار مبصرة ، وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ، وسالم من دعوى تقدير محذوف ، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات : بالليل وقمره، والنهار وشمسه ، فالتقدير به أولى ولذلك فسرنا الآية عليه .

« فمحونا » المحو هو الازالة : ازالة الكتابة من اللوح ، وازالة الآثار من الديار ، فمحو « آية الليل » ازالة الضوء منها . وهذا يقتضى انه كان فيها ضوء ثم أزيل . فتفيد الآية أن القمر كان مضيئا ثم أزيل ضوءه فصار مظلماً ، وقد تقرر فى علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس . واتفق علماء الفلك فى العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر - كالارض - كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمى والحرارة ثم برد . فكانت اضاءته فى ازمان حموه وزالت لما برد .

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية ، ذلك الكتاب الذى جعله الله حجة لنبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وبرهانا لدينه على البشر مهما ترقوا فى العلم وتقدموا فى العرفان .

فان ظلام جرم القمر لم يكن معروفا أيام نزول الآية عند الامم الا افرادا قليلين من علماء الفلك . وأن حمى جرمه أولا وزواله بالبرود ثانيا ما عرف الا فى هذا العهد الاخير . والذى تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو اربعة عشر قرنا - نبي أمى من أمة أمية كانت فى ذلك العهد ابعد الامم عن العلم . فلم يكن ليعلم هذا ويقولوه الا بوحي من الله الذى خلق الخلائق وعلم حقائقها ...

كفاك بالعلم فى الامى معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتيم

« وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » .

فقد وضعت كذلك من أول خلقها (مبصرة) يبصر بها ، والاسناد مجازى ، كما تقول : لسان متكلم ، أى متكلم به ، فيسند الشيء الى ما يكون

به من آلة وسبب • والمبصرون حقيقة هم ذوو الابصار • ولكنهم لا ينتفمون
 بأبصارهم الا فى ضوءها ولا ينتفمون بها فى الظلام • واذا كان الضوء
 يكون من النار فأين ضوء النار من ضوء الشمس فى القوة والدوام والعموم .
 وكما افادت الآية زوال نور القمر بعد أن كان بمقتضى لفظة « فحونا »
 ومدلولها لفظة ، فانها تشير الى أن نوره مكتسب وتومى الى أنه من الشمس
 وذلك أننا نرى فيه نورا مع علمنا أن نوره قد أزيل ، فنعلم قطعا أن ذلك
 النور ليس منه ، واذا كان مذكورا مع الشمس المبصرة فى الاستدلال
 والامتنان . ومعاقبا مصاحبا لها فى الظهور فنوره جاء منها وهى التى
 أبصرته •

وقسم الليل وآيته على النهار وآيته فى ترتيب النظم ، لانه ظلام ،
 والظلام عدم الضوء ، والعدم مقدم على الوجود فى هذه المخلوقات •
 « **يَسْتَفْتُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** » •

ذكر تعالى الليل والنهار وآيتهما استدلالا على الخلق ليعرفوه ،
 وذكر ما فيها من النعمة عليهم ليشكروه ويعبدوه ، فكانت فائدة خلقها على
 هذا الوجه واجبة للعباد ، ليعتفوا ويطلبوا فضلا من ربهم بالسمى لتحصيل
 الماشى وأسباب الحياة ووجوه المنافع ، وليضبطوا أوقاتهم بعلم عدد السنين
 الفسمية والقمرية وما اشتملت عليه السنون من الشهور والايام والساعات
 ولحعلوا جنس الحساب الذى منه حساب الشمس وتنقلها فى منازلها ،
 وحساب القمر وتنقله فى بروجها ، وحساب أبعادها وسعتهما ومسير
 نورهما • ثم حساب ما يرتبط بهما من أجرام سابعة فى الفضاء •

والابتغاء : هو طلب الشيء بسعى اليه ومعبدة فيه • ويسمى - تعالى -
 طلب أسباب الحياة ابتغاء تنبيها على هذا السعى وهذه المعبة ، فهما
 الفرطان اللذان للفر بال مطلوب • كما يسمى - تعالى - المطلوب بالابتغاء
 فضلا من الرب ، وفضله من رحمته ، ورحمته واسعة لا تضبطها
 حدود ولا تحصرها الأعداد - تنبيها على سعة هذا الفضل ليذهب
 الخلق فى جميع نواحيه ويأخذوا بجميع أسباب ما أذن لهم فيه ،

وليكونوا - اذا ضاق بهم مذهب - آخذين بمذهب آخر من مسالك هذا الفضل الرباني الواسع غير المحصور ، وتنبيهها أيضا على قوة الرجاء فى الحصول ، وتنبيهها أيضا على قوة الرجاء فى الحصول على البقية ، لان طلبهم طلب لفضل رب كريم . ويقول تعالى : « من وبكم » والرب المالك المدبر لمملوكه بالحكمة فيعطيه فى كل حال من احواله ما يليق به ليكون الخلق بعد قيامهم بالعمل راضين بما ييسره الله من اسباب وما يقسه لهم من رزق ثقة بعدله وحكمته ، فلا يبغى أحد على أحد بتعد أو حسد . فهذه الكلمات القليلة الكثيرة وهى : « لِيَتَّبِعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » ، جمعت جميع اصول السعادة فى هذه الحياة : بالعمل مع الجود فيه والمحبة له والرجاء فى ثمرته ، الذى به قوام العمران . وبالرضا والتسليم للمولى ، الذى به طمانينة القلب وراحة الضمير ، وبالكف للقلب واليد عن الناس ، الذى به الامن والسلام .

ويذكر تعالى علم عدد السنين المتضمن لعدد الشهور والايام والساعات تنبيهها لخلقها على ضبط الاعمال بالاوقات . فان نظام الاعمال واطرادها وخفتها والنشاط فيها وقرب انتاجها انما هو بهذا الضبط لها على دقائق الزمان ، كما ذكر - تعالى - جنس الحساب تنبيهها على لزومه لهذا الضبط ولجميع شؤون الحياة من علم وعمل . فكل العلوم الموصلة الى هذا المد وهذا الحساب هى وسائل لها حكم مقصدها فى الفضل والنفع والترغيب . « وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا » . فكل ما يحتاج اليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق ، وأخلاق الصدق وأحكام العدل ووجوه الاحسان ، كل هذا فصل فى القرآن تفصيلا . كل فصل على غاية البيان والاحكام . وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذى يهدى للتى هى اقوم فى العلم والعمل ، وياخذوا منه ويهتدوا به . فهو الغاية التى ما وراءها غاية فى الهدى والبيان (1) .

(1) الشهاب ، ج 12 م 5 - شعبان 1348 هـ / جانفى 1930 م .

إرادة الدنيا وإرادة الآخرة

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ... »

(سورة الاسراء ، الآية 18)

كل الناس فى هذه الحياة حارث وهمام : عامل ومريد ، فسفيه ورشيد ، وشقى وسعيد .

منهم من يريد بأعماله هذه الدار العاجلة والحياة الدنيا، عليها قصر همه ، وعلى حظوظها عقد ضميره ، جعلها وجهة قصده ، ونصبها غاية سعيه ، لا يرجو وراءها ثوابا ، ولا يخاف عقابا ، فهو مقبل عليها بقلبه وقالبه ، معرض عن غيرها بكليته، فلا يجيب داعى الله بترغيب ولا ترهيب ، ولا يتقيد فى سلوكه بشرائع العدل والاحسان .

فمن كان هذه ارادته ، وهذا عمله ، عجل الله له فى الدنيا ما مضى فى مشيئته تعالى ان يعجله له ، ان كان ممن اراد التمجيل لهم ، بحكم ابدال الجار والمجرور فى قوله : « لِمَنْ نُرِيدُ » من الجار والمجرور فى قوله : « عَجَّلْنَا لَهُ » ، فالتمجيل منه تعالى لمن يريد ، لا لكل مريد ، والشئ المعجل - فى قدره وجنسه ومدته - على ما يشاء الرب المعطى لا على ما يشاء العبد المريد . فكم من مريد فى الدنيا من يقصد الشئ فلا ينال الا بعضه ، فيضيع عليه شطر عمله ، فلا فى هذه الدار ولا فى تلك الدار ، وكم منهم من سعى واجتهد وانتهى بالخيبة والحرمان ، فعاد - بعد النصب - ولا ثمرة حصلها عاجلا ، ولا ثوابا ادخره آجلا ، وذلك هو الخسران المبين .

ثم اذا قدم على الله فى الآخرة جعل له وحضر له جهنم دار العذاب ، واضطره الى دخولها فيصلاها مذموما : المذكورا بقبح فعله وسوء صنيعه فى قلة شكره لربه ، وعدم استعماله لما كان انعم عليه به فى طاعته ، وعدم نظر لعاقبة امره . مدحورا : مبعدا فى اقصى النار مطرودا من الرحمن . حرم نفسه من استثمار رحمة الله فى الدنيا بالشكر عليها ، فكان عدلا ان يحرم منها فى الآخرة .

ونظر هذه الآية آية (الشورى) : « وَمَنْ كَانَ يَرْيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ » .

عمل للدنيا فنال نصيبه منها ، ولم يعمل للآخرة فلم يكن له نصيب فيها . والتقيد بمن فى قوله تعالى : « منها » على أن ما يناله - سواء كان كل ما أراد أو بعضه - ما هو الا بعض من الدنيا ، واذا كانت الدنيا كلها شيئا زهيدا بقلتها وفنائها ونقصها بالنسبة لأقل شيء من نعيم الآخرة - فما بالك بما هو بعض منها . فلقد خاب وخسر من استبدل بنعيم الآخرة هذا القليل الخسيس المنغص الزهيد .

ونظيرها أيضا آية « هود » : « مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُؤْفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَبَّغُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وتوفيتهم أعمالهم ، انالتهم ثمراتها مكملتها فى الدنيا ، وهم فيها لا يببخسون : لا ينقصون من جزائهم عليها بتحصيل المسببات التى توسلوا اليها بأسبابها . ثم فى الآخرة تحبط تلك الاعمال فلا يكون عليها من جزاء ولا لها من ثمرة ، لانها كانت أعمالا باطلة لا ثبات لها ، عمل للدنيا دار الزوال فزالت بزوالها ، وبقي على عمالها اثم عدم شكرهم لربهم فيه فدخلوا به النار . وتلك عاقبة الظالمين .

غير أن هاتين الآيتين مطلقتان فى الشيء الممطى والشخص الممطى له ، وآية « الاسراء » مقيدة بمشيئة الله تعالى وارادته فيهما . والمطلق محمول على المقيد فى البيان والاحكام .

وقد افادت هذه الآيات كلها أن الاسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها - موصلة - باذن الله تعالى - من تمسك بها الى ما جعلت وسيلة اليه ، بمقتضى أمر الله وتقديره ، وسننه في نظام هذه الحياة والكون . ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين . ومن مقتضى هذا أن من اهتم تلك الاسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين ، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم . نعم لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه ، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار ، كما أن الآخر لم يضع عليه أخذه بالاسباب ، فنال جزاءه في دار الاسباب وليس له في الآخرة الا النار .

اقسام العباد :

فالعباد - اذاً - على أربعة أقسام :

- 1 - مؤمن أخذ بالأسباب الدنيوية ، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة .
- 2 - ودهرى تارك لها ، فهذا شقى فيهما .
- 3 - ومؤمن تارك للأسباب ، فهذا شقى في الدنيا وينجو - بعد المؤاخذه على الترك - في الآخرة .
- 4 - ودهرى أخذ بالأسباب الدنيوية ، فهذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين .

فلا يفتتن المسلمون بمد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم . فانه لم يكن تأخرهم لإيمانهم ، بل بترك الاخذ بالاسباب الذى هو من ضعف إيمانهم . ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقسم في الحياة . وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الاول بإيمانهم وأعمالهم . وما صاروا من أهل القسم الثالث الا لما ضعف إيمانهم وسامت أعمالهم وأكثر إهمالهم ... فلا لوم اذاً الا عليهم في كل ما يصيبهم ، وربك يقضى بالحق وهو الفعاح المليم .

« وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَمَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » الآية (19) .

وهذا قسم آخر من الخلق ، قصد بعمله الآخرة واياها طلب ، وثوابها انتظر ، يرجو أن يزحزح فيها عن النار ويفوز بالجنة ويحل عليه الرضوان . فهذا كان سعيه مشكورا بثلاثة شروط :

الشرط الاول : أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدا مخلصا . كما يفيد فعل الارادة في « وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ » ولام الاجل في « وَسَمَىٰ لَهَا » .

الشرط الثاني : أن يعمل لها المروف في الشرع اللائق بها ، الذي لا عمل يفضى الى نيل ثوابها سواء ، وهو طاعة الله تعالى وتقواه بامتنال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده .

الشرط الثالث : أن يكون مؤمنا موقنا بثواب الله تعالى وعظيم جزائه . فاذا توفرت هذه الشروط الثلاثة لهم « كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » متقبلا مثابا عليه بحسن الثناء وجميل الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة « وَاللَّهُ يَصَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

واذا اختل واحد منها فليس العمل بمتقبل ولا بمثاب عليه بضرورة انعدام الشروط بانعدام شرطه .

وفي هذه الشروط مباحث :

المبحث الاول :

ان قصد الثواب والجزاء على العمل لا ينافي الاخلاص فيه لله . لان الاخلاص هو أن تجعل عبادتك لله وحده ، ورجاؤك الثواب وطمعك فيه ، وحذرك العقاب وخوفك منه . هما مقامان عظيمان لك في جملة عبادتك . يجب عليك أن تكون فيهما أيضا مخلصا . لا ترجو الا ثوابه ، ولا تخاف الا عقابه ، وإذا أخلصت في رجائك وخوفك هانت عليك نفسك فقمت في طاعته مجاهدا لا يردك معارض ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وصفرت

فى نظرك العوالم كلها فنطقت بقولك « الله اكبر » نطق عالم واجد مشاهد .
 والمقصود ان رجاء الثواب ، وخوف العقاب ، روحهما الاخلاص ، فكيف
 ينافيانه ؟ فالعامل الراجى للثواب ، الخائف من العقاب ، المخلص فى الجميع
 آت بلربع عبادات : عمله ، ورجائه ، وخوفه ، واخلاصه ، وهو روح الجميع .
 وقد جاء فى القرآن ثناء شيخ الانبياء ابراهيم الخليل عليه وعليهم
 الصلاة والسلام هكذا :

« وَاللّٰى اَطْمَعُ اَنْ يَغْفِرَ لِيْ خَطِيئَتِيْ يَوْمَ الدِّينِ » .

وذكر تعالى دعاء عباد الرحمن الصالحين هكذا : « وَبَنَّا اَصْرَفَ عَنَّا
 عَذَابَ جَهَنَّمَ اِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا » .

وفى دعاء القنوت : « نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد » .

الى غير هذا من ادلة كثيرة تؤيد ما ذكرناه .

المبحث الثانى :

افاد هذا الشرط ان من لم يرد الآخرة لم يكن سعيه مشكورا ، وفى
 هذا تفصيل ، لان العامل اما ان يكون فى عبادته لم يرد بها الآخرة
 أصلا ، بل اراد بها شيئا دنيويا من محمدة الخلق أو استفادة شيء أو
 تحصيل منفعة العمل . أو اراد الآخرة وشيئا مما ذكر شركة متساوية
 أو متفاوتة . واما ان يكون فى عمل عادة لم يرد بها الآخرة أصلا بل اراد
 الغرض الدنيوى ، أو ارادهما معا ، والدنيوى وسيلة للآخرى فهناك
 - اذا - اقسام :

القسم الاول :

العامل فى امر تعبدى كالصلاة والصدقة والحج والعلم ، فهذا اذا لم
 يرد الآخرة أصلا فهو موزور غير مشكور . وفيه جاء حديث أبى هريرة
 فى الصحيح قال : (سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :
 « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه

فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لان يقال جرىء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فماذا عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه واعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا انفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار) .

وهذا الذي كان من هؤلاء ، هو الرياء ، وهو أن يفعل العبادة ليقال انه مطيع . وما دخل الرياء في عبادة الا أحبطها ، ولو كان قليلا ، لحديث أبي هريرة في الصحيح ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قال الله تبارك وتعالى : « أنا أغنى الشركاء عن شرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه » وأشارك غيره معه صادق بالقليل والكثير فلا فرق بينهما في الإحباط . والعامل المرائي موزور غير مشكور .

القسم الثاني :

العامل في العبادة الذي يقصد بها ثواب الآخرة وشيئا آخر من أغراض الدنيا « كالرجل يبتغي الجهاد وهو يريد من عرض الدنيا » وقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذا فقال : لا أجر له . رواه أبو داود وابن حبان . وعلى وزانه نقول : من قصد الهجرة والتزوج بامرأة معا ، أو قصد الوضوء والتبرد ، أو قصد الصوم والحمية - وأن صحت عبادته - لان الصحة تتوقف على نية القصد ، والثواب يستوقف على نية الاخلاص - لا أجر له . هذا اذا سوى ما بينهما في القصد كما هو ظاهر لفظ الحديث . وأما اذا كان الغالب هو قصد العبادة فالظاهر انه له من الاجر بقدر ما غلب من قصده .

القسم الثالث :

العامل فى العبادة الذى يكون قصده الى ثواب الآخرة ، وما عداه من منافع تلك العبادة ملحوظ له على سبيل التبعية لها ، من حيث إنه مصلحة شرعية معتبرة فى التشريع . والاحكام الشرعية الممللة بفوائدها فى الآيات والاحاديث لا تحصى كثرة ومنها فى الحج : « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » .

ومن منافع الحج الحركة الاقتصادية لغير تلك البقاع ومصلحة أهلها وغزارة عمرانها ، ولذا قال تعالى :

« لَيَسِّرَ عَلَيْكُمْ جَنَاحُ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » .

والفضل هو الاتجار فى مواسم الحج . فكل منفعة تجلبها عبادة أو مضرة تدفعها فملاحظتها عند قصد العبادة لا تنافى الاخلاص ولا تنقص من أجر العامل ، وهى مثل الثواب المرتب على العمل . هى فى الدنيا وهو فى الآخرة، وكلاهما من رحمة الله التى نرجوها بأعمالنا ، ويشملها لفظ دعاء القنوت : « نرجو رحمتك » اذ هو تبارك وتعالى رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها .

القسم الرابع :

العامل لعمل عادى دنيوى من أكل وشرب ونوم وجماع ونحوها ، فهذا اذا قصد بعملها النفع الدنيوى ، ولا قصد له فى الثواب ، فهو غير ماجور ولا مازور . وهذه هى حالة أهل الغفلة والجهل .

القسم الخامس :

عامل الاعمال العادية الذى يتناولها بنية كونها مباحا تناولها شرعا ويقصد بها التوصل الى ما يتوقف عليها من أعمال واجبة ومندوبة ، والى الانكفاف بها عن المحرمات والمكروهات . كمباضعة زوجته للقيام بواجب حقها ، وكف نفسه وكفها ، وكالنوم لهقوى على العبادة ، والرياضة ليصح للطاعة ، فهذا مثاب وسعيه مشكور . وله ما نوى . وبهذه السبيل يستطيع

العبد الموفق أن تكون حركته وسكناته كلها لله ، وفي طاعته ، دائس
الذكر له يعبد كانه يراه . لان من كان يعبد كانه يرى مولاه ، لا يمكن
أن يغفل عنه قلبه ويشغل بسواه ، حتى اذا اشتغل بشئ كان باذنه
ورضاه ، فلم يخرج فى أى عن حضرة قدس الله . ومن ادلة هذا قوله
- صلى الله عليه وآله وسلم - فى حديث أبى ذر رضى الله عنه عند مسلم :
(وفى بضع احدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله ، آياتى احدنا شهوته
ويكون له فيها اجر ؟ قال : أرايتم لو وضعها فى حرام آكان عليه وزر ؟
فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له اجر) .

المبحث الثالث :

من الناس من يخترع أعمالا من عند نفسه ويتقرب بها الى الله ، مثل
ما اخترع المشركون عبادة الاوثان بدعائها ، والذبح عليها،والخضوع لديها،
وانتظار قضاء الحوائج منها ، وهم يعلمون أنها مخلوقة لله مملوكة له ،
وانما يعبدونها - كما قالوا - لتقربهم الى الله زلفى . وكما اخترع طوائف
من الهنود أنواع التعذيب بقتل أنفسهم واحراقها طاعة - زعموا - وتقربا،
وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول
القبور والنذر لها،والذبح عندها،ونداء أصحابها،وتقبيل احجارها، ونصب
التواييت عليها، وحرق البخور عندها، وصب المطور عليها . فكل هذه
الاختراعات فاسدة فى نفسها لانها ليست من سعى الآخرة الذى كان يسعاه
محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه من بعده ، فساعياها موزور
غير مشكور .

المبحث الرابع :

شكر الرب لعبده هو جزاء شكر عبده له ، وانما يكون العبد شاكرا
لربه اذا كان عاملا بطاعته مؤمنا به . فاذا انعدم الايمان لم يتصور شكران،
وهذا مستفاد من قوله تعالى : « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ، وافادت الجملة الاسمية
ثبوت الايمان ورسوخه حال العمل ، وعلى قدر ثبوت الايمان ورسوخه

يكون الثبات والدوام على الاعمال • فالمؤمن بالله يعمل موقنا برضاه ، موقنا ببلقائه وعظيم جزائه ، فهو يعمل ولا يفشل • وسواء عليه أوصل الى الغاية التي يسمى اليها أم لم يصل اليها حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت، كانت مما تجنى ثماره في جيله أو لا تجنى ثماره الا بعد اجيال • فافادات الجملة المذكورة شرط القبول للعمل ، وسر الدوام عليه ، والمضى بخبطة وسرور فيه •

امكان العمل بالآية لجميع المسلمين :

خاتمة : ان المسلمين كلهم - والحمد لله - اهل إيمان فليستشعروه عند جميع الاعمال ولا يخلون من عمل لماعشهم أو لمعادهم ، فليقصدا بذلك كله وجه الله وامثال أمره وحسن جزائه وليقتصروا في عبادتهم على ما ثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليكونوا على يقين من موافقة رضى الله وسلوك طريق النجاة • فاذا فعلوا هذا وصمدوا اليه وجاهدوا أنفسهم في حملها عليه كانوا شاكرين مشكورين على تفاوتهم في منازل العاملين عند رب العالمين ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل (1) •

(1) الشهاب - ج 1 ، م 6 - رمضان 1348 هـ / فيفري 1930 م •

عموم النوال من الكبير المتعال

« كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ... »

(سورة الاسراء - الآية : 20)

ان هذه الموجودات كلها ، علويها وسفليها ، مشمولة برحمة الله ، مضمورة بنعمته . وأول تلك النعم هو وجودها ، وذلك الوجود من مقتضى الرحمة . ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع أجناس الموجودات وأنواعها وأصنافها وأفرادها ، وتتفاوت أيضا حسب ذلك . وينال كل حظه منها بتقدير الحكيم العليم . ومن مظاهر هذه الرحمة العامة أن كل موجود قد أعطى من التكوين ما يناسب وجوده وما يتوقف عليه بقاؤه أو ارتقاؤه ، سواء أكان من عالم الجماد أو عالم النبات أو عالم الحيوان .

وقد مضى قبل هذه الآية ذكر مريدى العاجلة الذين لا يعملون الا لها ، وما أعد لهم من عذاب النار . وذكر مريدى الآخرة بأعمالهم فى الدنيا وما أعد لهم من حسن الجزاء ، فحالتهم فى الآخرة متباينة : هؤلاء فى النعيم المقيم ، وأولئك فى العذاب الاليم ، هذا فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فانهم قد أعطوا من نعم الحياة ومكنوا من أسبابها فقد تساوا فى الخلقة البشرية ، وفى العقل المميز المفكر ، وفى الإرادة الحرة ، وقد أظلمتهم السماء ، وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء ، وقد أقلتهم الأرض ، وشملتهم نعمة الهواء والماء والغذاء والدواء من النبات والحيوان والجماد وكل ما يخرج من الأرض . وشاهدوا كلهم آيات الله الكونية الدالة عليه ، وجاءتهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية اليه . فاختار كل بعقله - وهو حر فى إرادته حرة لا يمكن لأحد أن يكابر فيها - ما اختار لنفسه .

وحجة الله بما تقدم قائمة عليه . وبقوا بعد ذلك الاختيار الذى اختلفت به منازلهم عند الله فيما اعد لهم يوم لقائه سواء ، فى تلك النعم الدينية والتمكن من اسباب بقائها والتقدم فيها . لا فرق فى ذلك بين بر وفاجر ، ومؤمن وكافر ، وهذا معنى قوله تعالى : « كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ » ، وليس الله تعالى مانعا كافرا لكفره او عاصيا لعصيانه من هذه الحياة واسبابها ، وليس احد على منع ما لم يمنعه الله بقادر . وهذا معنى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » ، والحظر المنع والمحظور المنوع ، وتركيب الآية يفيد ان عطاء الرب لا يمنع ولا يجوز ان يمنع ، لان من مقتضى ربوبيته دوام عطائه ومدده لموم خلقه بعلمه وحكمته .

وقدم المفعول وهو (كلا) ردا على من يعتقد ان الله تعالى يمد بمضا دون بعض . وفيه ايجاز بالحذف ، والاصل كلا الفريقين ، يعنى فريق مريدى العاجلة ومريدى الآخرة ، و (نمد) من الامداد وهو المواصلة بالشئ ، وذلك الشئ يسمى مددا . واصل المد البسط للشئ ، فيستطيل ويتسع ، ومنه مد يده ومد شبكته ، ومنه مد الله لك اسباب السعادة ، أى بسطها ووسعها ، والامداد بالشئ والمواصلة به يكون به دوام فائدته وامتداد النفع به . والخلق كلهم فى حاجة دائمة وفاقية مستمرة الى مدد الله وعطاؤه وأنواع بره واحسانه . وهو تبارك وتعالى لا يزال يواصلهم فى كل لحظة من وجودهم بما يحتاجون اليه من فيض عطائه . وأضاف العطاء لرب لانه من مقتضى ربوبيته بتكوينه للخلق وتطويرهم وامطائهم ما يحفظهم فى تلك الاطوار ، وأضاف الرب الى ضمير المخاطب ، هو النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - لتشريفه بهذه الاضافة . ولما تشرف بهذه الاضافة الربانية . والرب جل جلاله قد مضى من وصفه فى الآية انه عام الرحمة والنعمة والنواتل - فمن شكر نعمة هذا الشرف ان يتخلق المبد وهو محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بما هو من مقتضى وصف ربه . هذا من فوائد هذه الاضافة فى هذا المقام . وقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - رحمة للعالمين ، شديد الشفقة على الخلق اجمعين ، حريصا على

هدايتهم الى الصراط المستقيم . حتى خاطبه ربه بقوله : « لَعَلَّكَ بِاِحْسَانٍ
نَفْسَكَ اَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » اى قاتل نفسك غما لعدم ايمانهم . وكان
اساس شرعه على العدل ، والاحسان العدل مع كل واحد ، والاحسان الى
كل شيء فقال تعالى : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَنْ لَا تَعْلَمُوْا » اى
لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل فيهم وقال صلى الله عليه واله
وسلم - : (ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فاحسنوا
القتلة واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة) ولما كان هو عليه الصلاة والسلام
قدوتنا فنحن مخاطبون بان نكون مثله فى عموم رحمته وشفقته وعدله
وبره واحسانه . نفعل الخير عاما ، كما تم خيرات الله تعالى العباد ،
نفعله لانه خير نستظم لذته ، غير منتظرين جزاء ، الا من الله . لان من
انتظر الجزاء من الناس وفى هذه الحياة لابد ان يميل بخيره عن جهة الى
جهة ، وربما يكون فى ميله قد اخطأ وجه الصواب ، ولا بد ايضا ان يياس
فيفتر فى العمل او ينقطع عنه عند ما يرى عدم المكافاة من الناس وعدم
ظهور اثر خيره فى الحياة وابناء الحياة .

وقد افادت الآية - حسبما تقدم - ان اسباب الحياة والعمران والتقدم
فيهما مبذولة للخلق على السواء ، وان من تمسك بسبب بلغ - باذن الله -
الى مسببه ، سواء اكان برا او فاجرا مؤمنا او كافرا . وهذا الذى افادته
الآية الكريمة مشاهد فى تاريخ المسلمين قديما وحديثا ، فقد تقدموا حتى
سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقبة بالعلوم والصنائع ، لما أخذوا
باسبابها كما يأمهم دينهم . وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الامم
كلها باهمال تلك الاسباب ففسدوا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا
بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط ، ولن يعود اليهم ما كان لهم
الا اذا عادوا الى امتثال أمر ربهم فى الاخذ بتلك الاسباب .

فهذه الآية من انجح الدواء لفتنة المسلم المتأخر بخيره ، المتقدم لما فيها من
بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب اسلامه ، وأن غيره ما تقدم بعدم اسلامه .
وأن السبب فى التقدم والتأخر هو العزم والترك للاسباب . ولو أن
المسلم تمسك بها كما يأمره الاسلام ، لكان - مثل سالف ايامه - سيد
الانام .

النظر في تفاضل البشر

« أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ
دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » .

(سورة الاسراء - الآية : 21)

ان من أعظم المعبر ما نشاهده في أحوال الخلق أما وجماعات وافرادا من الاختلاف الشديد . فقد اختلفت بواطنهم النفسية ، كما اختلفت ظواهرهم الجسدية ، وانك كما تجد أبناء الامة الواحدة يتشابهون في تركيب أجسامهم ، ثم لابد من فروق تميز بها شخصياتهم ، ويتبع هذا الاختلاف اختلافهم في ادراكهم وتمييزهم وأخلاقهم وعاداتهم في ضلالهم وهداهم ، وفي درجات الهدى ودركات الضلال . كل هذا دال على يدع صنع الخالق القدير ، وعجيب وضع العليم الحكيم . فمكنهم تعالى كلهم من الاسباب وادراك العقل وحرية الارادة ، ثم فضل بينهم هذا التفضيل . فكان منهم المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والشقي والسعيد ، الى تقسيم كثيرة . وفقه اسباب هذا التفضيل هو فقه الحياة والعمران والاجتماع ، فلذا امر تعالى بالنظر في أحوال هذا التفضيل بقوله : « أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » وكيف سؤال عن الاحوال ، والنظر المأمور به هو نظر القلب بالفكرة والاعتبار ، والجملة في محل نصب على العامل عن لفظهما بكلمة الاستفهام .

وكما فضل بعض خلقه على بعض في دار الابتلاء ، كذلك فضل بعضهم على بعض في دار الجزاء ، لكن التفضيل هنالك اكبر ، والتفاوت بين العباد اظهر . في مواقف القيامة ، وفي داري الاقامة ، ويا بعد ما بين من في الجنة ومن في النار . وأهل النار متفاوتون في دركاتهما ، وأهل الجنة متفاوتون في درجاتها .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : (ان في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض) .

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : (ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم • قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم • قال : بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) •

وقال تعالى : « إِنَّ الْمُتَنَافِعِينَ فِي الْتَرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » ، وهذا التفضيل الاخرى هو المراد بقوله تعالى : « وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » • وفى هذا ترغيب للخلق فى تحصيل الفضل فى درجات الآخرة • فانهم انما يتهالكون فى الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضا فى شىء منها ، وهى الدار الفانية ، فلم لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل فى الدار الباقية مع أن من عمل لنيل الفضل فى الآخرة - وما عملها الا الخير والمعروف - حاز الفضل والسعادة فيهما على افضل وجه واكمل حال • فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون (1) •

(1) الشهاب - ج 2 ، م 6 - شوال 1348 هـ / مارس 1930 م •

أصول الهداية في ثمان عشرة آية

« لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا - إِلَى -
وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا »
(سورة الاسراء - الآية : 22)

تمهيد : قد أوتي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جوامع الكلم ،
واختصر له الكلام اختصارا ، فالآية من كتاب الله والاثر من حديث رسول
الله تجد فيه من أصول الهداية ودقيق العلم ولطيف الإشارة في لفظ
قليل وكلام بين ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومنح التوفيق .
فهذه ثمان عشرة آية من سورة الاسراء قد أتت في إيجاز ووضوح على
أصول الهداية الإسلامية كلها . واحاطت بأسباب السعادة في الدارين
من جميع وجوها . وهي - فوق بلاغتها التي عرف العرب اعجازها
بسليقتهم وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم - قد جاءت معجزة للخلق
من أي جنس كانوا وبأي لغة نطقوا بما جمعت من أصول الهداية التي
تدركها الفطر وتسلمها العقول . وانك لست واجدا مثلها في مقدارها
واضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هدى وبيان . وهذا
أحد وجوه اعجاز القرآن العامة التي تقوم بها حجته على الناس أجمعين .
ارتباط الآيات بما قبلها : موقع هذه الآيات موقع البيان والتفصيل
للمسمى المشكور في قوله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » ووقعها
بلمصق قوله تعالى : « وَلَٰلِآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا » ، إشارة إلى

ان التفاضل فى تلك الدرجات مرتبط بالتفاضل فى السلوك والسعى المشكور
المستفاد من هذه الآيات .

التوحيد : « لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا » ، هذا هو
أساس الدين كله ، وهو الأصل الذى لا تكون النجاة ولا تقبل الاعمال الا به .
وما أرسل الله رسولا الا داعيا اليه ومذكرا بعججه ، وقد كانت أفضل
كلمة قالها الانبياء عليهم الصلاة والسلام هى كلمة : « لا اله الا الله »
وهى كلمته الصريحة فيه . ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره
والامر به والنهى عن ضده . وأنت ترى ان هذه الآيات الجامعة قد جعلت
بين آيتين صريحتين فيه . « لَا تَجْعَلْ » الجعل يكون عمليا ، كجعلت الماء
مع اللبن فى اناء واحد ، ويكون اعتقاديا ، كجعلت مع صديقى صديقا
آخر . والجعل فى الآية من هذا الثانى . « مَعَ اللَّهِ » المعية هنا أيضا هى
معية اعتقادية . « إِلَهًا آخَرَ » الاله هو المعبود والعبادة نهاية الذل والخضوع
مع الشعور بالضعف والافتقار واطهار الانقياد والامثال ودوام التضرع
والسؤال . « فَتَقْعَدَ » القعود ضد القيام والعرب تكنى بالقيام عن الجد
فى الامر والعمل فيه سواء اكان العامل قائما او جالسا ، فتقول : قام
بحاجتى ، اذا جد وعمل فيها ، ولو كان لم يمش فيها خطوة ، وانما قضائها
بكلمة قالها او خطاب أرسله . وتكنى كذلك بالقعود عن الترك للعمل
وانحلال العزيمة وبطلان الهمة سواء كان الشخص واقفا او جالسا فتقول :
قعد زيد عن نصره قومه ، اذا لم يعمل فى ذلك عملا ، ولم تكن له فيه همة
ولا عزيمة ، ولو كان قائما يمشى على رجله ، فالقعود فى الآية بمعنى
المكث كناية عن بطلان العمل وخيبة السعى وخور القلب وفراغ اليد من
كل خير . « مَذْمُومًا » مذكورا بالقبيح موصوفا به . « مَخْذُولًا » متروكا
بلا نصير مع حاجتك اليه .

فنهى الله الخلق كلهم عن أن يمتقدوا معه شريكا فى الوهيته فيعبدوه
معه ، ليمتقدوا أنه الاله وحده فيعبدوه وحده . وبين لهم أنهم ان اعتقدوا

معهم شريكا وعبدوه معه فان عبادتهم تكون باطلة وعملهم يكون مردودا عليهم وأنهم يكونون مذمومين من خالقهم ومن كل ذى عقل سليم من الخلق ، ويكونون مخذولين لا ناصر لهم • فأما الله فانه يتركهم وما عبدوا معه ، وأما معبوداتهم فانه لا تنفعهم لانها عاجزة مملوكة مثلهم ، فما لهم - قطعا - من نصير •

والخطاب وان كان موجها للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فانه عام للمكلفين ، وسر مثل هذا الخطاب تنبيه الخلق الى أن شرائع الله وتكاليفه عامة للرسول والمرسل اليهم ، وان كان هو قد عصم من المخالفة فلا يبقى بعد ذلك وجه لدعوى مدع خروج فرد من أفراد الامة المكلفين عن دائرة التكليف •

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » القضاء يكون بمعنى الارادة ، وهذا هو القضاء الكونى التقديرى الذى لا يتخلف متعلقه ، فما قضاء الله لا بد من كونه • ويكون القضاء بمعنى الامر والحكم ، وهذا هو القضاء الشرعى الذى يمثلته الموفقون ويخالفه المخذولون والذى فى الآية من هذا الثانى • « ربك » الرب هو الخالق المدبر المنعم المتفضل • « أن » مصدرية والتقدير بالآية • فبالآية تعبدوا الا اياه ، أى بعدم عبادتكم سواه بأن تكون عبادتكم مقصورة عليه • فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون الا له • فذل القلب وخضوعه والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال هذه كلها لا تكون الا لله • فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده • ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك اعطائه أو منعه فقد عبده ، ومن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت الى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده • ومن توجه لمخلوق فدعا ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضرر فقد عبده • قاله تعالى يعلم الخلق كلهم فى هذه الآية بانه أمر أاما وحكم حكما جازما بأن العبادة لا تكون الا له •

وجيء باسم الرب فى مقام الامر بقصر العبادة عليه تنبيهها على أن الذى يستحق العبادة هو من له الربوبية بالخلق والتدبير والملك والانعام ، وليس ذلك الا له ، فلا يستحق العبادة بأنواعها سواء • فهو تنبيه بوحدانية الربوبية التى من مقتضاها انفراد بالخلق ، والامر الكونى والشرعى على وحدانية الالهية التى من مقتضاها استحقاقه وحده عبادة جميع مخلوقاته • وكما انتظمت هذه الجملة توحيد الربوبية وتوحيد الالهية كذلك انتظمت مع الآية السابقة التوحيد العلمى والتوحيد العملى . فالاولى نهى عن أن تعتقد الالهية لسواه وهو يتضمن النهى عن اعتقاد ربوبية سواه ، وهذا من باب العلم • والثانية : أمر بأن تكون عبادتك مقصورة عليه ، لانه هو ربك وحده وهذا من باب العمل • فمن وحد الله جل جلاله فى ربوبيته والوهيته علما وعملا فقد استكمل حفظه من مقام هذا الاساس العظيم ، ومن أخل بشيء من ذلك كان ذلك نقصا فى دينه بقدر ما أخل ، حتى ينتهى الامر الى خنص المشركين • نعوذ بالله من الشرك جليه وخفيه انه سميع عليم •

بيان واستدلال : يكون الذل بمعنى ضعف الحال، وهذا قد يكون لاهل التوحيد والايان كما فى قوله تعالى : «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَكْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» ويكون بمعنى اللين المشوب بالعطف ، وهذا من صفات المؤمنين الممدوحة اذا وقعت فى محلها كما فى قوله تعالى : « أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » • ويكون الذل بمعنى خنوع القلب وخضوعه وانكساره للضعف والافتقار ، وهذا هو الذى لا يكون من المؤمن الموحد الا لربه كما فى حديث دعاء القنوت « ونخضع لك » أى نذل ونخضع لك ، وهذا الخنوع هو اساس العبادة القلبية ، فلذلك لا يكون الا لله ، وان من أسرار كلمة « الله اكبر » التى يأتى بها المؤمن مرات كثيرة فى صلواته وغيرها من أحواله حفظ القلب من الخضوع للخلق باستشمار عظمة الخالق التى يصغر عندها كل مخلوق •

فلا يزال المؤمن لهذا قوى القلب عزيز النفس بالله لا ينتظر قوة ضعفه الا به ولا سد مفارقة الامنه ، ولقلب المؤمن الموحد امام من يحب فى الله ويعظم بتعظيم الله خضوع أيضا ، ولكنه خضوع هيبة وتوفير واجلال ، لا خضوع ذل وخنوع وضعف وافتقار ، اذ هذا - كما قدمنا - لا يكون الا للغنى القوى المميز القهار .

من مظاهر هذا الخنوع الذى لا يكون الا لله الطاعة والانقياد ، وهى ايضا لا تكون الا له وقد قال تعالى : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » اى اطاعه واتبعه كما قال تعالى : « وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ » فمن تبع مخلوقا واطاعه فيما يأمره وينهاه دون أن يكون فى طاعته مراعىا طاعة الله فقد عبده واتخذة ربا فيما اطاعه فيه . وفى حديث عدى بن حاتم الذى رواه الترمذى وغيره لما جاء للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وسمعه يتلو قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » .

فقال عدى : يا رسول الله انهم لم يكونوا يعبدونهم ؟ قال : اليس كانوا اذا حرموا عليهم شيئا حرموه ، واذا أحلوا لهم شيئا أحلوه . قال : قلت نعم . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فتلک عبادتهم اياهم ، فالؤمن الموحد لا تكون طاعته الا لله او لمن طاعته طاعة لله) - ومن مظاهر ذلك الخنوع : الدعاء والسؤال والتضرع والجوار « رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة اليه » قال تعالى : « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ » « أَمَنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » فى آيات كثيرة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : - من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن الترمذى - : (اذا سألت فسل الله) فى احاديث كثيرة . فلا يدعو المؤمن الموحد غير الله ولا احدا مبع الله اذ الدعاء عبادة ، كما فى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه يرفعه « الدعاء هو العبادة » رواه أحمد واصحاب السنن الاربعة . وكما فى حديث انس رضى الله عنه يرفعه « الدعاء مع العبادة » رواه الترمذى

وكل عبادة لا تكون الا لله فالدعاء لا يكون الا لله ، وانما كان من العبادة
هاته المنزلة لان حقيقة العبادة هي التذلل والخضوع ، وهو حاصل في
الدعاء غاية الحصول ، وظاهر فيه اشد الظهور •
الهمنا الله رشدنا وأعاذنا من شرور أنفسنا انه سميع قريب مجيب •

(1) الشهاب - ج 3، م 6 - ذو القعدة 1348 هـ / افريل 1930 م •

بر الوالدين

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. »

(سورة الاسراء ، الآية 23)

والله : هو الخالق ، والوالدان - بوضع الله - هما السبب المباشر في التخليق . والله هو المبتدىء بالنعم عن غير عمل سابق ، وهما يبتدئان بالاحسان عن غير احسان تقدم ، والله يرحم ويلطف وهو الغنى عن مخلوقاته وهم الفقراء اليه ، وهما يكتفان بالرحمة واللطف الولد . وهما فى غنى عنه ، وهو فى افتقار اليهما ، والله يوالى احسانه ، ولا يطلب الجزاء ، وهما يبالغان فى الاحسان دون تحصيل الجزاء . فلهذه الحالة التى خصهما الله بها ، واعانهما بالفطرة عليها ، قرن ذكرهما بذكره ، فلما أمر بمبادنة أمر بالاحسان اليهما فى هذه الآية . وفى قوله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » ولما أمر بشكره أمر بشكرهما فقال تعالى : « أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » وفى هذا الجمع فى القضاء والحكم بالاحسان،والامر بالشكر لهما مع الله تعالى ، ابلغ التاكيد واعظم الترغيب ، ثم زاد هذا الحكم ، وهذا الامر ، تقريراً بلفظ التوصية بهما فى قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » ليحفظ حكم الله وأمره فيهما ولا يضيع شيء من حقوقهما ، فكان حقهما بهذه الوصاية أمانة خاصة ووديمة من الله عظيمة عند ولدهما . وكفى بهذا داعياً الى العناية بهذه الامانة وحفظها وصيانتها . وكما جاء هذا الجمع فى باب الامر فى القرآن، كذلك جاء الجمع بينهما فى باب النهى وكبر المعصية فى السنة . ففى الصحيح عن أبى بكر رضى الله عنه قال رسول الله

– صلى الله عليه وآله وسلم – « الا اخبركم باكبر الكبائر : قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الاشرار بالله وعقوق الوالدين » .

وتقدير نظم الآية هكذا : وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبأن تحسنوا للوالدين احسانا . فحذف أن تحسنوا لوجود ما يدل عليه وهو احسانا . وفي تنكيره افادة للتعظيم، فهو احسان عظيم فى القول والفعل والحال . وتقول : احسنت اليه واحسنت به ، واحسنت به أبلغ لتضمن احسنت معنى لطف ، ولما فى الباء من معنى اللصوق . ولهذا عدى فى الآية بالباء ليفيد الامر باللطف فى الاحسان والمبالغة فى تمام اتصاله بهما ، فلا يريان ويسمعان ولا يجدان من ولدهما الا احسانا ، ولا يشعيران فى قلوبهما منه الا بالاحسان . ومن الاحسان ما يكون ابتداء وفضلا ، ومنه ما يكون جزاء وشكرا ، فعليه أن يعلم أن كل احسانه هو شكر لهما على سابق احسانهما الذى لا يمكنه أن يكافئه بمثله . لثبوت فضيلة سبقه ، وفى تعليق الحكم – وهو الامر بالاحسان – بلفظ الوالدين المشتق من الولادة ايدان بعليتهما فى الحكم ، فيستحقان الاحسان بالوالدية سواء اكانا مؤمنين أم كافرين ، بارين أو فاجرين ، محسنين اليه أو مسيئين ، وقد جاء هذا صريحا فى قوله تعالى : « وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » فامر بصاحبتهما بالمعروف على كفرهما . وفى الصحيح عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : قدمت على أمي وهى مشركة فى عهد رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – ، فاستفتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قلت : قدمت على أمي وهى راغبة (أى فى العطاء والاحسان) فأصل أمي ؟ قال : نعم ، صلي أمك . وهذا الاحسان الواجب لهما جانب الام أوكد فيه من جانب الأب ، وحظها فيه أوفر من حظها ، ويشير الى هذا تخصيصها بذكر اتباعها فى قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ (ضمنا على ضعف) وَفِصَالُهُ فِي عَمَتَيْنِ ، وفى الاخرى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا »

وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، • فذكر ما تعانیه من ألم الحمل ومشقة الوضع ومقاساة الرضاع والتربية ، وجاء التصريح بهذا فى الحديث الصحيح : فقد جاء رجل الى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : من أحق الناس بحسن صحابتي (أى صحبتى من حسن العشرة والبر والتكرمة) قال : أمك • قال : ثم من ؟ قال : أمك • قال : ثم من ؟ قال : أبوك • فذكر الأب فى الثالث • وفى طريق آخر للحديث ذكره فى الرابعة • ولقد كان لها هذا من مزيد أتعابها وضعف جانبها ورقة عاطفتها وشدة حاجتها ، فكان هذا الترجيح لجانبها من عدل الحكيم العليم ، ومحاسن الشرع الكريم • ومن الاحسان اليهما طاعتهما فى الامر والنهى ، ومن عقوقهما مخالفتهما فيهما • وانما تحل له مخالفتها اذا منعه من واجب عينى أو امرأ بمعية ، لما فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم - : (لا طاعة لأحد فى معصية الله انما الطاعة فى المعروف) وعند الحاكم وأحمد : (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) • ومن الدليل على رجحان جانبها على الواجب الكفائى ما ثبت فى الصحيح من حديث الرجل الذى أتى النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - يستأذنه فى الجهاد فقال : « أحبب والداك ؟ » قال : نعم • قال : « ففیهما فجاهد » وفى الطريق الثانى قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه : أقبل رجل الى النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ابتغاء الأجر من الله ، قال : (فهل من والديك أحد حي ؟) قال : نعم ، بل كلاهما قال : (فتبني الأجر من الله ؟) قال : نعم • قال : (فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما) • هذا لان القيام عليهما فرض عينى ، والجهاد كان عليه فرض كفاية ، ولو تعين عليه ، ولم يكونا فى كفاية قدم القيام عليهما وكفايتهما عليه • ومن حقوقهما عليه أن لا يخرج الى ما فيه خوف ومخاطرة بالنفس الا باذنها بدليل ما جاء فى سنن أبى داود : (أن رجلا من أهل اليمن هاجر الى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : (هل لك أحد باليمن ؟) قال : أبواى • قال : (أذن لك ؟) قال : لا • قال : (فارجع اليهما فاستأذنهما فان أذن لك فجاهد ، والا فبرهما) • أما اذا أراد تعاطى

ما لا خطر فيه ولا فجعة من شؤون الحياة ووجوه التصرفات فليس عليه أن يستأذنها وليس لهما منعه ، ولكن اذا منعه من شيء امتنع لوجوب برهما ، وطاعتها • - فى غير المعصية - من برهما •

تفضيل الإحسان اليهما فى القول والعمل وتأكيده فى حالة الكبر

« إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » (24) .

الامر بالاحسان اليهما عام فى جميع الاحوال ، وخصصت حالة بلوغ احدهما او كليهما الكبر بالذكر لانها حالة الضعف ، وشدة الحاجة ، ومظنة الملل والضجر منهما ، وضيق الصدر من تصرفاتهما ، فهما فى هذه الحالة قد عادا فى نهايتهما الى ما كان ولدهما عليه فى بدايته • وليس عنده من فطرة المحبة مثل ما عندهما ، فكان بأشد الحاجة الى التذكير بما عليه من تمام العناية بهما ، ومزيد الرعاية لهما ، وشد التوقى والتحفظ من كل ما يمس بسوء جانبهما فى هاته الحال على الخصوص ، وان كان ذلك واجبا عليه فى كل حال على العموم • وطول بقائهما عنده فى كنفه وثقل مؤنتهما عليه ، وما يكون من ضروريات الكبر والمرض مما يستقذره فى بيته ، كل هذا قد يؤديه الى الضجر والتبرم فيقول ما يدل على ضجره وتبرمه • فنهى عن التفوه بأقل كلمة تدل على ذلك ، وهى كلمة أف بقوله تعالى : « فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ » ، فاحرى وأولى ما فوقها ، وهذا أمر يتحمل كل ذلك منهما ونهى عن التضجر منهما • ومن ضرورة مباينتهما لولدهما فى السن وفى النشأة أنهما كثيرا ما يخالفانه فى آرائه وأفكاره ، وقد يتناولان

ما لا يجب أن تصل يدهما اليه ، وقد يسألانه للمعرفة أو للحاجة ، وكل هذا قد يؤديه الى نهرهما ، أى زجرهما بصياح واغلاظ أو اظهار للفضب فى الصوت واللفظ ، فنهى عن هذا بقوله تعالى : **وَلَا تَنْهَرُهُمَا** . وفى هذا أمر بالتلفظ معهما فى الطلب والعرض والدلالة على وجه الصواب فى الامر وأبواب الفعل والترك ، وبحسن التلقى لكل ما يسألان ويطلبان ، ونهى عن أى اغلاظ فى اللفظ والصوت وحالة الكلام . ولما نهى عن القول القبيح المؤذى أمره بالقول اللين السهل الحسن فى لفظه وفى معناه وفى قصده وفى منشأه السالم من كل عيب ومكروه بقوله تعالى : **« وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا »** . وفى هذا أمر بأن يخاطبهما بجميل القول ويؤنسهما بطيب الحديث ، ونهى عن أن يؤذيهما فى قوله أو يوحشهما بطول السكوت فليس له أن يتركهما وشأنهما ، بل عليه مجالستهما، ومحدثتهما، وجلب الانس اليهما، وادخال السرور عليهما . ثم إن القول انما هو عنوان ما فى الضمير، ولا يكون كريما شريفا الا اذا كان عنوانا صادقا حسن مظهره ومخبره وعذب جناه وطاب مفرسه ، وما ثماره الا معانيه ، وما مفرسه الا القلب الذى صدر عنه . فيفيد هذا أن على الولد أن يكون معهما باللطف والمطف من صميم قلبه كما هو يعرب لهما عنهما بلسانه فيكون محسنا لهما حينئذ فى ظاهره وباطنه وذلك هو تمام البر الذى أمر به .

« وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ » . مضى فيما تقدم أدب القول، وهذا أدب الفعل وبيان الحال التى يكون عليهما . فالوالدان عند ولدهما فى كنفه كالفراخ الضعيفة المحتاجة للقوت والدفع والراحة . وولدهما يقوم لهما بالسعى كما يسمى الطائر لفراخه ويعيطهما بحنوه وعطفه، كما يعيط الطائر فراخه ، فشبه الولد فى سعيه وحنوه وعطفه على والديه بالطائر فى ذلك كله على فراخه ، وحذف المشبه به وأشير اليه بلازمه وهو خفض الجناح ، لان الطائر هو ذو الجناح ، وانما يخفض جناحه حنوا وعطنا وحيطة لفراخه ، فيكون فى الكلام استعارة بالكناية . وأضيف الجناح الى الذل - وهو الهون واللين - اضافة موصوف الى صفة . أخفض

لهما جناحك الذليل ، وهذا ليفيد هونه وانكساره عند حياتتهما حتى يشعر بأنهما مخدومان للاستحقاق لا متفضل عليهما بالاحسان، وفي ذكر هذه الصورة التي تشاهد من الطير تذكير بليغ مرقق للقلب موجب للرحمة وتنبيه للولد على حالته التي كان عليها معها في صغره ، ليكون ذلك ابعد له على العمل وعدم رؤية عمله امام ما قدما اليه . ومن في قوله تعالى : **« مِنْ أَرْحَمَةٍ »** للتعليل متعلقة بأخفض ، فتفيد مع متعلقها الامر بأن يكون ذلك الخفض ناشئا على الرحمة الثابتة في النفس لا عن مجرد استعمال ظاهر كما كان يكنفانه ويعطفان عليه عن رحمة قلبية صادقة ، فيكون هذا مفيدا ومؤكدا لما قدمناه من لزوم أن يتطابق على الاحسان اليهما، الظاهر والباطن ، لينم البرور .

« وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » . مهما اجتهد الولد في الاحسان الى أبيه فانه لا يجازى سابق احسانهما ، فأمر بأن يتوجه بسؤال الرحمة لهما من الله تعالى وهي النعمة السائلة بخير الدنيا والآخرة اظهارا لشدة رحمته، ورغبة في وصول الخير العظيم من المولى الكريم اليهما، واعترافا بعجزه عن مجازاتهما . يدعو لهما هكذا في حياتهما وبعد مماتهما، اما في حياتهما فيدعو لهما بالرحمة سواء كانا مسلمين أم كافرين ، ورحمة الكافرين بهدائتهما الى الاسلام ، واما بعد الموت فلا يسأل الرحمة لهما الا اذا ماتا مسلمين لقوله تعالى : **« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ »** . والكاف في قوله تعالى : **« كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا »** . للتعليل . أى : رب ارحمهما لتربيتهما لي، وجزاء على احسانهما الي في حالة الصغر . حالة الضعف والافتقار . وفي هذا اعتراف بالجميل، وعلان لسابق احسانهما العظيم، وتوسل الى الله تعالى في قبول دعائه لهما بما قدما من عمل لانه وعد انه يجزى العاملين ، وقد كانت تربيتهما لولدهما من أجل مظاهر الرحمة ، وهو قد أخبر تعالى على لسان رسوله انه يرحم الراحمين . ولا أرحم - بعده تعالى - من الوالدين .

خاتمة : من بر الوالدين أن نتحفظ من كل ما يجلب لهما سوءاً من غيرنا فإن فاعل السبب فاعل للمسبب ، ومن هذا أن لا نسب الناس حتى لا يسبوا والدينا ، لانا اذا سببنا الناس فسبوهما كنا قد سببناهما ، وسببهما من أكبر الكبائر . ففى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه) ، قيل : يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : (يسب أباه الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) .

ومن برهما ، حفظهما بعد موتهما بالدعاء والاستغفار ، وانفاذ عهدهما واکرام صديقهما وصلة رحمهما . فقد روى ابن ماجه وأبو داود وابن حبان فى صحيحه عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى البدرى رضى الله عنهم أجمعين - قال : (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة (أى الدعاء) عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما واکرام صديقهما) . وفى اکرام صديقهما جاء فى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن رجلا من الاعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه واعطاه عمامة كانت على رأسه . قال ابن دينار فقلنا له : اصلحك الله انهم الاعراب وأنهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله : ان أباه هذا كان ودا لعمر ابن الخطاب ، وانى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول : (ان ابر البر صلة الولد أهل ود أبيه) .

هذا وان من راض نفسه على هذه الاخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والاقوال الطيبة التى أمر بها مع والديه حصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع الناس أجمعين ، وكان ذلك من ثمرات امتثال أمر الله وطاعة الوالدين .

والله يوفقنا ويهدينا سواء السبيل . انه المولى الكريم رب العالمين (1) .

(1) الشهاب - ج 4 ، م 6 - ذو الحجة 1348 هـ / 1930 م .

صلاح النفوس وإصلاحها

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً »
(سورة الاسراء - الآية : 25)

صلاح الشيء : هو كونه على حالة اعتدال فى ذاته وصفاته ، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال . وفساده : هو كونه على حالة اختلال فى ذاته أو فى صفاته بحيث تصدر عنه أو به تلك الاعمال على وجه النقصان . اعتبر هذا فى البدن ، فان له حالتين : حالة صحة . وحالة مرض . والاولى : هى حالة صحته باعتدال مزاجه ، فتقوم أعضاؤه بوظائفها وينهض هو بأعماله . والثانية : هى حالة فساد باختلال مزاجه فتتمطل أعضاؤه أو تضعف كلها أو بعضها عن القيام بوظائفه ، ويقعد هو أو يثقل عن أعماله . هذا الذى تجده فى البدن هو نفسه تجده فى النفس ، فلها صحة ولها مرض ، حالة صلاح وحالة فساد .

والاصلاح : هو ارجاع الشيء الى حالة اعتداله بازالة ما طرأ عليه من فساد . والافساد : هو اخراج الشيء عن حالة اعتداله باحداث اختلال فيه . فاصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء ، واصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة . وافساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر ، وافساد النفس بمقارفة الماصى والذنوب ، هكذا تعتبر النفوس بالأبدان فى باب الصلاح والفساد . فى كثير من الاحوال . غير أن الاعتناء بالنفوس أهم والنزيم لان خطرهما أكبر وأعظم .

ان المكلف المخاطب من الانسان هو نفسه ، وما البدن الا آلة لها ، ومظهر تصرفاتها . وان صلاح الانسان وفساده انما يقاسان بصلاح نفسه

وفسادها ، وانما رقيه وانحطاطه باعتبار رقى نفسه وانحطاطها ، وما فلاحه الا بزكائها وما خيبته الا بخيبتها . فقد قال تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

وفى الصحيح : « ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » ، وليس المقصود من القلب مادته وصورته ، وانما المقصود النفس الانسانية المرتبطة به . وللنفس ارتباط بالبدن كله ، ولكن القلب عضو رئيسى فى البدن ومبمث دورته الدموية على قيامه بوظيفته تتوقف صلوحية البدن لارتباط النفس به ، فكان حقيقيا لان يعبر به عن النفس على طريق المجاز . وصلاح القلب بمعنى النفس بالعقائد الحقة والاخلاق الفاضلة وانما يكونان بصحة العلم وصحة الارادة ، فاذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله بجريان الاعضاء كلها فى الاعمال المستقيمة ، واذا فسدت النفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية الارادة فسد البدن وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد . فصلاح النفس هو صلاح الفرد ، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع ، والعناية الشرعية متوجهة كلها الى اصلاح النفوس ، اما مباشرة واما بواسطة ، فما من شئ مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق ، والخير ، والعدل ، والاحسان ، الا وهو راجع عليها بالصلاح ، وما من شئ نهى الله تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء ، الا وهو عائد عليها بالفساد ، فتكميل النفس الانسانية هو أعظم المقصود من انزال الكتب وارسال الرسل ، وشرع الشرائع ، وهذه الآيات الثمان عشرة قد جمعت من أصول الهداية ما تبلغ به النفوس اذا تمسكت به غاية الكمال .

قد أمر تعالى فى الآيات المتقدمة بعبادته ، وتوحيده ، والاخلاص له ، وأمر ببر الوالدين والاحسان اليهما فى الظاهر والباطن ، كما أمر بغير ذلك فى الآيات اللاحقة ، ووضع هذه الآية أثناء ذلك ، وهى متعلقة بالنفس وصلاحها ، لينبه الخلق على أصل الصلاح ، الذى منه يكون ، ومنشأ الذى

منه يبتدىء ، فاذا صلحت النفس قامت بالتكاليف التى تضمنتها هذه الآيات الجامعة ، لاصول الهداية ، وهذا هو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها وما بعدها ، الذى قد يكون قبل التدبر خفيا . ونظير هذه الآية فى موقعها ودلالاتها على ما به يسهل القيام بأعباء التكليف . - قوله تعالى : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فقد جاءت أثناء آيات احكام الزوجية أمرة بالمحافظة على الصلوات تنبيها للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها تسهل القيام بأعباء تكاليف تلك الآيات لانها تزكى النفس بما فيها من ذكر وخشوع وحضور وانقطاع الى الله تعالى وتوجه اليه ومناجاة له ، وهذا كله تعرج به النفس فى درجات الكمال والنفوس الزكية الكاملة تجد فى طاعة خالقها لذة وأنسا تهون معها أعباء التكليف . ثم ان العباد بنقص الخلقة وغلبة الطبع معرضون للتقصير فى ظاهريهم وباطنهم ، فى صور أعمالهم ودخائل أنفسهم - وخصوصا فى باب الاخلاص - فذكروا بعلم ربهم فى نفوسهم فى قوله تعالى : « رَبُّكُمْ أَغْلَمُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ » ليبالغوا فى المراقبة فيتقنوا أعمالهم فى صورها ويخلصوا بها له . وهذه المراقبة هى الاحسان الذى هو عبادتك الله كأنك تراه ، وذكر اسم الرب لانه المناسب لاثبات صفة العلم ، فهو الرب الذى خلق النفوس وصورها ودبرها . ولا يكون ذلك الا بعلمه بها فى جميع تفاصيلها . وكيف يخفى عليه شئ منها وهو خلقها . « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْغَيْرُ » . والصالحون : فى قوله تعالى : « إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ » هم الذين صلحت أنفسهم فصلحت أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، وصلاح النفس وهو صفة لها خفى كخفائها . وكما أننا نستدل على وجود النفس وارتباطها بالبدن بظهور أعمالها فى البدن كذلك نستدل على اتصافها بالصلاح وضده بما نشاهده من أعمالها . فمن شاهدنا منه الأعمال الصالحة - وهى الجارية على سنن الشرع وآثار النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - حكمنا بصلاح نفسه وأنه من الصالحين . ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساد نفسه وأنه ليس منهم . ولا طريق لنا فى معرفة

صلاح النفوس وفسادها الا هذا الطريق . وقد دلنا الله تعالى عليه في قوله تعالى :

« مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَانِئَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْوَفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » . فذكر الاعمال ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين .

فأفادنا أن الاعمال هي دلائل الصلاح ، وأن الصلاح لا يكون الا بها ولا يستحقه الا أهلها . ثم ان العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الاعمال . ويكون لنا أن نقضى بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد ، ولكن ليس لنا أن نقضى بين أهل الاعمال الصالحة في تفاوتهم عند الله في الباطن فندعى أن هذا أعلى درجة في صلاحة عند الله تعالى من هذا ، لان الاعمال قسمان : أعمال الجوارح وأعمال القلوب ، وهذه أصل لأعمال الجوارح ، وقد قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - التقوى ها هنا ، ويشير الى صدره ثلاث مرات . فمنازل الصالحين عند ربهم لا يعلمها الا الله ، والاولاؤون في قوله تعالى : « فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا » هم الكثير الرجوع الى الله تعالى . والاولية في كلام العرب هي الرجوع . قال عبيد :

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

والتوبة : هي الرجوع عن الذنب . ولا يكون الا بالاقلاع عنه . واعتبر فيها الشرع الندم على ما فات والعزم على عدم العود وتدارك ما يمكن تداركه ، فيظهر أن الاولوية اعم من التوبة ، فتشمل من رجع الى ربه تائباً من ذنبه ، ومن رجع اليه يسأله ويتضرع اليه أن يرزقه التوبة من الذنب . فنستفيد من الآية الكريمة سعة باب الرجوع الى الله تعالى . فاذا تاب العبد فذاك هو الواجب عليه والمخلص له - بفضل الله - من ذنبه . وان لم يتب فليدم الرجوع الى الله تعالى بالسؤال والتضرع والتعرض لمظان

الإجابة ، وخصوصا فى سجود الصلاة فقم - ان شاء الله تعالى - ان
 يستجاب له . وشر العصاة هو الذى ينهمك فى المعصية مصرا عليها غير
 مشمئز منها ولا سائل من ربه بصدق وعزم التوبة منها ويبقى معرضا عنه
 ربه كما أعرض هو عنه ، ويصر على الذنب حتى يموت قلبه . ونموذ بالله
 من موت القلب ، فهو الداء العضال الذى لا دواء له . وجاء لفظ الاوابين
 جمعا لاواب وهو فعال من أمثلة المبالغة ، فدل على كثرة رجوعهم الى الله ،
 وأفاد هذا طريقة اصلاح النفوس بدوام علاجها بالرجوع الى الله . ذلك
 أن النفوس - بما ركب فيها من شهوة ، وبما فطرت عليه من غفلة ، وبما
 عرضت له من شؤون الحياة وبما سلط عليها من قرناء السوء من شياطين
 الانس والجن - لا تزال - الا من عصم الله - فى مقارفة ذنب ومواقعة
 معصية صغيرة أو كبيرة من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى ، وكل ذلك
 فساد يطرأ عليهما فيجب اصلاحها بازالة نقصه ، وابعاد ضرره عنها ،
 وهذا الاصلاح لا يكون الا بالتوبة وبالرجوع الى الله تعالى . ولما كان طرؤ
 الفساد متكررا ، فالاصلاح بما ذكر يكون دائما متكررا ، والمداومة على
 المبادأة الى اصلاح النفس من فسادها والقيام فى ذلك والجد فيه والتصميم
 عليه هو من جهاد النفس الذى هو أعظم الجهاد . ومن معنى هذه الآية
 قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » وهم الذين كلما
 أذنبوا تابوا ، والتوبة طهارة للنفس من دنن المعاصى . وَالْغَفُورُ : فى
 قوله تعالى : « فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا » هو الكثير المغفرة ، لانه على وزن
 فعول ، وهو من أمثلة المبالغة الدالة على الكثرة . والمغفرة : ستره للذنب
 وعدم مؤاخذته به ، ولما ذكر من وصف الصالحين كثرة رجوعهم اليه ،
 ذكر من اسمائه الحسنى ما يدل على كثرة مغفرته ، ليقع التناسب فى
 الكثرة من الجانبين . ومغفرته أكثر . وليعلم أن كثرة الرجوع اليه يقابلها
 كثرة المغفرة منه فلا يفتا العبد راجعا راجيا للمغفرة لا تقعه كثرة ما يذنب
 عن تجديد الرجوع ولا يضعف رجاؤه فى نيل مغفرة الغفور، كثرة الرجوع .
 وقد أكد الكلام بـ أن لتقوية الرجاء فى المغفرة ، وجيء بلفظة (كان) لتفيد

ان ذلك هو شأنه مع خلقه من سابق ، وهنا مما يقوى الرجاء فيه فى اللاحق
 فقد كان عباده يذنبون ويتوبون اليه ويغفر لهم ، ولا يزالون كذلك ،
 ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفورا ، وانما احتيج الى هذا التأكيد كله فى
 تقوية رجاء المذنب فى المغفرة ليبادر بالرجوع على كل حال ، لأن العبد
 مأخوذ بأمرين يضعفان رجاءه فى المغفرة أحدهما كثرة ذنوبه التى يشاهدها
 فتحجبها كثرتها عند رؤية مغفرة الله تعالى التى هى أكبر وأكبر . والآخر
 رؤيته لطبعه البشرى وطبع بنى آدم من المنع عند كثرة السؤال كما قال
 شاعرهم - أى البشر - لان الشاعر العربى عبر عن طبع بشرى :

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسأل يوما سيحرم

فيقوده القياس - وهو من طباع البشر أيضا - انقياس الفاسد الى ترك
 الرجوع والسؤال من الرب الكريم العظيم النوال . فهذان الامران
 يقعدانه عن الرجوع والتوبة فيستمر فى حماة المعصية وذلك هو الهلاك
 المبين . فكان حاله مقتضيا لان يؤكد له حصول المغفرة عند رجوعه بتلك
 المؤكدات .

وقد كان مقتضى الظاهر فى تركيب الآية أن يقال : ان تكونوا
 صالحين فانه كان لكم غفورا ، لان المقام للاضمار ، لكنه عدل عن الضمير الى
 الظاهر ف قيل فانه كان للوابين غفورا لينص على شرط المغفرة وهو الاوبة
 والرجوع . وعلم من ذلك ان الصالح عند ما تقع منه الذنوب مطالب
 - كغيره - بالاوبة لتحصيل المغفرة ، لان فرض الاوبة الى الله من المعاصي
 عام على الجميع . وقد اشتملت الآية من فعل الشرط وهو ان تكونوا
 صالحين ، وجوابه وهو فانه كان للوابين غفورا . . . على الحالتين اللازمتين
 للانسان لتكميل نفسه وهما الصلاح المستفاد من الاول والاصلاح بالاوبة
 المستفاد من الثانى . وما دام الانسان يجاهد فى تزكية نفسه بهذين
 الاصلين فانه بالغ - باذن الله - درجة الكمال . ثبتنا الله والمسلمين
 عليهما وحشرنا فى زمرة الكاملين المكملين انه المولى الغفور الكريم (1) .

(1) الشهاب - ج 5 ، م 6 - غرة محرم 1349 هـ - جوان 1930 م .

إيتاء الحقوق لأربابها

« وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ... »

(سورة الاسراء - الآية : 26)

الناس كلهم فى حاجة مشتركة الى بعضهم . وما من أحد الا وله حقوق على غيره ، ولغيره حقوق عليه . ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق المترتبة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشرى واطراد نظامه ، وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذى يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس . وعند ما يؤدى كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده ، بل هى خدمة للمجتمع كله . وبالأحرى هى خدمة له هو فى نفسه لانه جزء من المجتمع وما يصيب الكل يعود على جزئه . فاذا تواردت أفراد المجتمع على هذه النأدية سعدت وسعد مجتمعا بنيله حاجيات الحياة ولوازم البقاء والتقدم فى العمران . أما اذا توانى الافراد فى القيام بالحقوق وقصروا فى تاديتها الى بعضهم فان الحاجة المشتركة من العلم والثقافة وحفظ الصحة والاخلاق وأنواع الصناعة - تتعطل ، وبتعطلها يختل نظام الاجتماع ويعود الى الانحلال والتفقر ، وينحط بأفراده الى أسفل الدركات ، فلهذا بعد ما أمر الله تعالى بإيتاء حقه - وهو توحيده فى عبادته - أمر بإيتاء حقوق العباد ، القريب منهم والبعيد .

حقوق القريب : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ » .

ابتدا بحق القريب لوجوه : الاول : انه هو مقتضى طبيعة الترتيب .
الثانى : تأكيد حق القريب . الثالث : ان من حكمة التربية ان يبدأ من

الاورام بما تعين فطرة النفوس الانسانية على قبوله ببداية الفكرة أو بشعور العاطفة . وكلتا هاتين يحجب للنفس ايتاء حق القريب فابتدئ به فى الامر ليكون تقبلها له اسهل ومباذرتها للامتثال أسرع ، فاذا سخت النفوس بايتاء حق القريب ومرنت عليه اعتادت الايتاء وصار من ملكاتها فسهل عليها ايتاء كل حق ولو كان لابعد الناس . وشئ آخر ، وهو أن الاقارب قد تكون بينهم المنافسات والمنازعات لقرب المنازل ، أو تصادم المنافع أو التشاح على الموارث ما لا يكون بين الاباعد ، فيقطعوا حق القرابة ويهدموا بناء الاسرة . ويعود ذلك عليهم أولا بالوبال ، ويرجع ثانيا على مجتمعتهم - والمجتمع مؤلف من الاسر - بالتضعف ، فكان هذا من جملة ما يقتضى الابتداء بحقهم الى المقتضيات المتقدمة الاخرى .

وقوله تعالى : « ذَا الْقُرْبَى » عام يشمل الاصل - وهو الابوان - وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من اصولهما وفصولهما ، ويشمل الفضل - وهو الابناء والبنات - وما يتصل به منهما من فصول ، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصوصا بالذكر فى الآيات المتقدمة وان كانا داخلين فى هذا العموم .

والحق فى قوله تعالى : « حَقَّة » هو الثابت له شرعا المبين فى آيات من الكتاب من صلة رحم ونصيب ارث ونفقة فرض وندب واحسان بالقول والفعل ومواساة عن محبة وعطف .

حق المسكين : « وَالْمَسْكِينِ » .

قد ذكر فى آية الزكاة الفقير والمسكين . والحق انهما متغايران ، والراجع أن الفقير من له بلغة لا تكفيه ، والمسكين من لا شئ له ، فهو اشد حالا من الفقير ، ولذا لما أريد هنا ذكر أحدهما اقتصر عليه تنبيهها بالا على فى الفقر على الأدنى ، فالمراد أهل الفقر والحاجة كلهم .

وحق المساكين ما ثبت لهم من الزكاة ، وكذلك ما تدعو اليه الحاجة من تعليمهم وايوائهم وطبهم وتجهيز موتاهم ، مما تقوم به الجمعيات

الخيرية في هذا العصر ، فكل هذا مما تصرف اليه الزكاة ويجب القيام به عند عدم الزكاة أو فنائها أو قصورها عنه ، ويجب القيام به واجبا موزعا على كل واحد ما استطاع ، فاذا لم يقدّم به المجتمع عاد الاثم على جميع الافراد كل بقدر ما قصر فيما استطاع ، ثم ما الى هذا من عموم الصدقة والاحسان .

حق ابن السبيل : « وَابْنُ السَّبِيلِ » .

السبيل هي الطريق ، وابنها هو المسافر ، لأنه منها أتى كما أتى الابن من امه . وحقه هو الثابت له في الزكاة ، فيأخذ منها اذا قطع به ولم يكن معه ما يبلّغه ولو كان غنيا في بلده ، وعلى جماعة المسلمين تبليغه اذا لم تكن ثم زكاة . ومن حقه ضيافته حسب السنة ، وارشاده ودلالته على ما يريد معرفته من طريقه أو مرافقها .

وبذكر ابن السبيل والمساكين مع ذي القربى جمعت الآية القريب والبعيد من ذوى الحقوق . وبذكر ابن السبيل والمساكين جمعت ذا الحاجة الثابتة وهو المسكين ، والحاجة العارضة وهو ابن السبيل ، وقدم الاول لأصالة حاجته . وفى ذكرهما أيضا جمع ما بين القريب الدار والبعيد الدار والمسافر . كل هذا ليعلم ان ذا الحق يعطى حقه على كل حال ، وبقطع النظر عن أى اعتبار . وسمى هؤلاء الثلاثة بأسمائهم المذكورة لأنها ترقق عليهم القلوب من القرابة والمسكنة وغربة الطريق . وسمى ما ينالونه حقا ليشعر المكلف بتناكده . ويحذر المعطى من المن به ولا ينكس قلب أخذه .

الإنفاق في غير وجه شرعي

« وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا » .

المال قوام الاعمال ، واداة الاحسان ، وبه يمكن القيام بالحقوق ، فصاحبه هو مالكة ، ولكن الحقوق فيه تشاركه ولا يقوم له بوجوده الحق الا اذا امسكه عن وجوه الباطل ، ثم لا يقوم له بجميع تلك الوجوه الا اذا أحسن التدبير في التفريق وأصاب الحكمة في التوزيع . فلذا بعدما أمر

الله تعالى باعطاء الحقوق لاربابها نهى عن تبذير المال الذى هو أصلها وبه يمكن اعطاؤها .

والتبذير هو التفريق للمال فى غير وجه شرعى أو فى وجه شرعى دون تقدير فيضرب بوجه آخر . فالانفاق فى المنهيات تبذير وان كان قليلا . والانفاق فى المطلوبات ليس بتبذير ولو كان كثيرا . الا اذا انفق فى مطلوب دون تقدير فاضر بمطلوب آخر كمن أعطى قريبا واضاع قريبا آخر أو أنفق فى وجوه البر وترك أهله يتضورون بالجوع وقد نبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم على هذا بقوله : « وابدأ بمن تعول » . والانفاق فى المباحات اذا لم يضيع مطلوبا ولم يؤد الى ضياع رأس المال بحيث كان ينفق فى المباح من فائده ليس بتبذير ، فاذا توسع فى المباحات وقعد عن المطلوبات أو آداه الى إفناء ماله فهو تبذير مذموم . وأفادت النكرة دهمى قوله « تبذير » بوقوعه بعد النهى – العموم فهو نهى عن كل نوع من أنواع التبذير القليل منه والكثير حتى لا يستخف بالقليل ، لان من تساهل فى القليل وصلت به العادة الى الكثير .

إخوان الشياطين

« إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 27)

ان الشيطان يعمل وأعماله كلها فى الضلال والاضلال . فقد ضيع أعماله فى الباطل ، وقد كان يمكنه أن يجعلها فى الخير . وهو جاد فى ذلك ضار عليه لرسوخه فى نفسه . والمبذر يضيع أمواله فى الباطل وقد كان يمكنه أن يجعلها فى الخير . وقد أخذت عادة التبذير بخناقه واستولت عليه . فهو اخو الشيطان لمشاركته له فى وصفه كمشاركة الاخ لآخيه .

وهو أخوه بامتثاله لأمره وصحبته له فى الحال وفى المال وفى سوء العاقبة
فى العاجل والآجل .

المال كما هو أداة لكل خير ، كذلك هو أداة لكل شر ، فالمبذر المفرق
لماله فى وجوه الباطل بالغ - لا محالة - بماله الى شر كثير وفساد كبير ،
ولذلك وصف بانه أخ الشيطان الذى هو أصل الشر والفساد . ووصف
تعالى الشيطان بقوله : « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » ، لانه انعم عليه بنعمته
فبدلا من أن يستعملها فى طاعته فى الخير قصرها على المصيبة والشر .
وذكر هذا من وصف الشيطان بعدما تقدم يفيد أنه من وصف المبذر ايضا .
فالمبذر أخو الشيطان ، والشيطان كان لربه كفورا . فالمبذر كان لربه
كفورا . ذلك لان الله تعالى انعم عليه بالمال الذى هو أداة لكل خير وعون
عظيم على الطاعة فجعله أداة فى الشر واستعان به على المصيبة . ومكنه
بالمال من نعمة القدرة على القيام بالحقوق فضيعها وقام بالشرور والمفاسد .
وهذا من أقبح الكفر لنعمة ربه الذى كان به مضارعا للشيطان أخيه .
والعياذ بالله .

حسن المقال ، عند العجز عن النوال

« وَإِمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أُبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ
لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا » (28) .

للمؤمنين حالتان حالة وجد وحالة عوز . فلما علمنا الله تعالى ما نصنع
فى حالة الوجد من إيتاء لذوى القربى واليتامى والمساكين - علمنا ما نصنع
فى حالة العوز من الرد الجميل والقول اللين الحسن .

وقوله تعالى : « تُعْرِضْنَ » من الاعراض وهو الانصراف عن الشيء ،
وهو هنا كناية عن عدم العطاء ، لان من يابى أن يعطى يعرض بوجهه ولو
اعراضا قليلا . ولما كان الاعراض كناية عن عدم العطاء فانه يشمل عدم

المعطاء عند السؤال الذى قد يكون معه الاعراض بالفعل ولو قليلا ، ويشمل
عدم المعطاء لمن هو اهل لان يعطى مع عدم وجود السؤال .

وقوله تعالى : « اُبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . الابتغاء هو الطلب
باجتهاد ، وذلك بالاخذ فى الاسباب والاعتماد على مسببها وهو الله
تعالى . ورحمة الرب هنا رزقه . ورجاؤها هو انتظارها مع الاخذ فى
اسبابها بالقلب والعمل . وابتغاء رحمة الرب ورجاؤها كناية عن حالة
الموئذ والاعسار لان شأن الموئذ المزمع ان يكون كذلك .

وقوله تعالى : « فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا » . تقول : يسرت له القول اذا
لينته له . فالقول الميسور هو القول الملين . وحاصل المعنى : ان اعرضت
عنهم فلم تعطهم لانك لم تجد ما تعطهم - وهى الحالة التى تكون فيها تطلب
رحمة من ربك راجيا رزقه - فقل لهم قولا ليينا سهلا فتواسيهم بالقول عند
عدم السؤال ، ولا تتركهم فى ساحة الاهمال ، ورددهم الرد الجميل عند
السؤال فتقول لهم يرزق الله ونحوه من لين الكلام .

وفى الآية تعليم وتربية للمعسر من ناحيتين ، الاولى : معاملته لنوى
القربى واليتامى والمساكين عند السؤال وعدمه . وعرف من الآية أنه
مطالب بحسن المقال بدلا مما عجز عنه من النوال . والثانية : ادبه ، هو
فى نفسه والحالة التى ينبغى له أن يكون عليها . فان حالة العسر حالة شدة
وبلام يحتاج المكلف أشد الحاجة أن يعرف دواءه فيها لسيرته العملية ،
وحالته النفسية . فاعطته هذه الآية الكريمة الدواء لهما . فاما فى سيرته
العملية فعليه أن يكون ساعيا فى الاسباب حسب جهده وذلك هو ما يفيد
قوله : « اُبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ » . وان يكون مطمئن القلب بالله معتمدا
عليه قوى الثقة فيه . وذلك هو ما يفيد قوله : « تَرْجُوهَا » . وقد ذكر
برحمة الرب - جل جلاله - لوجوه ، الاول : تقوية رجائه ، فانه يعلم
سعة رحمة الله وغمره بها فى كل حين . ومن ذا الذى لم يجد نفحات
الرحمات فى اكثر الاوقات فى اخرج الساعات . الثانى : بعثه على الصبر
والتسليم وعدم الضجر والسأم من الطلب والانتظار ، فانها رحمة الرب ،

ومن مقتضى ربوبيته تدبيره للخلق بحكمته فما جاء منه كيف جاء وفى أى وقت جاء أبداً أم تأخر - هو مقبول منه محمود منا عليه . الثالث : بعث عاطفة الرحمة على غيره - فان من كان يرجو رحمة ربه جدير بأن يكون رحيماً بعباده . ورحمته بعباد الله تعينه على القيام بما أمر به من حسن المقال عند العسر وجميل النوال عند اليسر . وتكون سبباً له فى رحمة الله إياه والراحمون يرحمهم الرحمن وانما يرحم الله من عباده الرحماء .

العدل فى الإنفاق

« وَلَا تَجْمَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّخْسُورًا » (29) .

لما أمرنا تعالى بالإنفاق علمنا كيف ننفق ، وبين لنا أدب الإنفاق فى هذه الكلمات . شبهت حالة وهيئة البخيل المسيك الذى لا يكاد يرشح بشيء ولا يقدر لبخله على اخراج شيء من ماله بحالة وهيئة الذى جعل يده مغلولة مجموعة بغل الى عنقه . فذاك لا تتوجه نفسه للبذل ولا تمتد يده للعطاء وهذا لا تمتد يده للتصرف . ونقل الكلام المركب الدال على المشبه به فاستعمل فى المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية لتقبيح حالة البخيل . والمعنى : لا تبخل بالنفقة فى حقوق الله ولا تمسك امساك المغلوله يده الذى لا يقدر على الاخذ بها والاعطاء .

وشبهت حالة المسرف الذى لا يبقى على شيء بحالة الشخص الباسط لكفيه ، فلا يسكان عليه من شيء ، فذلك يملك المال ولكنه يسرفه لا يبقى له منه شيء ، وهذا قد يمر الشيء على يده ، ولكنه لا يبقى فيها شيء ونقل المركب الدال على المشبه به الى المشبه استعارة تمثيلية ايضا .

والمعنى : ولا تنرج جميع ما تملك مع حاجتك اليه ولا تنفق جميع مالك . وبهذا يعلم أن كل البسط المنهى عنه هنا غير التبذير المنهى عنه

فى الآفة - المقمءة ، ذاك ءوزفء المالم ءبءفءه فى رفء وفوءه ، وهذالم ءءافوز فى المفاق المفلوب والموسع فى المفاق المافون ءفى فبففى بلا شفء .

نفى ءعالى بهذه الآفة عن طرفى المافراط والمففرفط وهما الماسراف والمفففر . فالمأمور به هو العءل الوسط ، فعلى ذى المالم أن فأكء فى انفاقه بهذا المفزان لفكون انفاقه مموموا . فلا فمسك عما فسففطف ولا فءفأوزه الى ما لا فسففطف أو الى ما فوقعه فى عسر وضرر .

وكان النهى عن كل البسطف لانه هو الذى ففه اسراف ، وأما أصل البسطف الذى هو ءوسعه بفكمفة فففر مئهى عنه لانه لا ضرر ففه .

وحذر ءعالى من سوء عاقبة الماسراف والمفففر بفوله : « فَفَقَعْدُ مَلُومًا مَحْسُورًا » . البففل الممسك ملوم من الله ءعالى ومن المباء اذا لم ءلمه نفسه الءبفئة لموت قلبه . على أنه سفلوم هو نفسه بعء الموت . والمسرف ملوم من الفمفع ومن نفسه بعء ضفباع ما فى فءه . والممسور المءب المضى الذى انكشفت عنه القوة ولم ءبق به قءرة على شفء . ءقول العرب : ءسرت البفر ، أى انضفئته واءعبئته بالسفر ءفى لم فبق به قءرة علىه . والءمل لا فقفطع الطرفق وفصل الى الفافة الا اذا ءافظ صاءبه على ما ففه من قوة فسار به سفرا وسطا . أما اذا أءهءه واستننزف قوته فانه فسقط كلفلا ممسورا ، فلا قطفط طرفقه ولا وصل منزله ولا أبفى ءمله . فكذلك الانسان فى طرفق هذه الءفاة مءءاف الى قوة المالم ، فاذا أنفقه بفكمفة نففع به وانفففع ، وبلفع فافة ءفاة هاءئا رضفا ، واذا بسط فءه ففه كل البسطف اءى علىه فانقفطع النففع والانتفاع ولم فبلفع فافة ءفاة الا باءعاب ومשאق .

وعلم من هذا أن قوله «مَلُومًا» فرءع للمفففر والمسرف، وقوله : «مَحْسُورًا» فرءع للمسرف فقط . ولكن لما كان الممسور هو الذى ذهبت قوته فلا قءرة له على شفء ، فقد ءقول أن البففل أفضا مبفوض من الناس مءذول منهم ، فلا فءء فى ملماته مفعنا ولا فى نوافبه ممزفا ، فهو أفضا ضعفف الءافب

لا قوة له . فالمسرف ضيع المال . والبخيل ضيع الاخوان ، فكلاهما مكسور
الظهر عديم الظهير . والمخاطب بهذا الخطاب اما مفرد غير معين ، فيشمل
جميع المكلفين غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم لانه كان يأخذ لعياله
قوت سنتهم حين آفاء الله عليه النصير وفدك وخير ، ثم يصرف ما بقى
فى العاجات حتى يأتى أثناء الحول وليس عنده شئ ، وما كان ملوما ولا
محسورا ، بل كان على ذلك صبارا شكورا مشكورا - واما هو النبي صلى
الله عليه وآله وسلم ، والمراد امته ، وعادة العرب أن تخاطب سيد القوم ،
تريد القوم ، وتعبّر بالمتبوع عن اتباعه ، ونظير هذه الآية فى ذلك :
« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » « لِيُنْزِلَ لَكَ الْبَيِّنَاتِ »
فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم غير داخل فى هذا الخطاب باجماع ، وقد
تقدم قوله تعالى : « إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ » ، يعنى الوالدين ، وكان والداه
عليهما الرحمة توفيا ، فلم يدخل فى الخطاب قطعا ، فكذلك هنا .

قال الامام ابن العربي - رضى الله عنه - فى تحليل عدم دخوله فى
هذا الخطاب : لما هو عليه من الخلال والجلال . وشرف المنزلة ، وقوة
النفس على الوظائف وعظيم العزم على المقاصد . فاما سائر
الناس فالخطاب عليهم وارد والامر والنهى - كما تقدم - اليهم متوجه .
الا أفرادا خرجوا من ذلك بكمال صفاتهم وعظيم أنفسهم ، منهم أبو بكر
الصديق خرج عن جميع ماله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقبله منه الله
سبعائه ، وأشار على أبى لبابة وكعب بالثلث من جميع مالهم لنقصهم عن
هذه المرتبة فى احوالهم . وأعيان من الصحابة كانوا على هذا ، فأجزاهم
النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه ، واثمروا بأمر الله واصطبروا على
يلائه ، ولم تتعلق قلوبهم بدنيا ، ولا ارتبطت أبدانهم بمال منها ، وذلك
لثقتهم بموعد الله فى الرزق وعزوب انفسهم عن التعلق بغضارة الدنيا .
وقد كان اشيأى من ارتقى الى هذه المنزلة فما ادخر قط شيئا لغد ولا نظر
بموخر عينه الى أحد ، ولا ربط على الدنيا بيد .

فهنا ثلاثة اصناف من الخلق : الاعم الاكثر ، وهم اهل الحظوظ البشرية ، والقليل وهم الذين ضعفت فيهم حظوظهم ، والاقول الاندر وهم الذين زالت منهم تلك الحظوظ . وقد افادتنا السنة العملية المتقدمة فى كلام الامام ابن العربي أن لاهل الصنف الثانى أن يخرجوا عن كثير من اموالهم على مقدار ما بقى من حظوظهم ، وأن لاهل الصنف الثالث أن يخرجوا منها كلها ، وأما اهل الصنف الاول فلا يخرجون من الوسط الذى بينته الآية .

وقد جاءت الآية الكريمة على مقتضى حال الاعم الاكثر لانها قاعدة عامة فى سياسة الانفاق ، وشأن القواعد العامة أن يعتبر فيها جانب الاعم الغالب ولا يلتفت للنادر . وقد وكل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بيانه فجاء مبينا فيما تقدم من سنته . وتقررت القاعدة واستثنأها من الكتاب والسنة وهما مصدر التشريع .

تفاوت الارزاق من حكمة الخلاق

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » (30) .

لما ارشدنا تعالى الى السلوك الاقوم فى العمل فى باب الانفاق ارشدنا الى العقد الصحيح فى مسألة تفاوت الارزاق وفى ذلك تمام الهداية الى الاستقامة فى الظاهر والباطن . وان أحوال العباد فى الغنى والفقر والسعة والضيق وتماقبها عليهم بسرعة وبمهل ، وتفاوتهم فيها لما يخفى ولما يظهر من العلل - لامر عجب عجاب يحير الالباب . فعلمنا الله تعالى فى هذه الآية أن الرب هو الذى يربى المربوب فى أحواله وأطواره بمقتضى الاصلاح والصواب هو الذى يبسط ويوسع على من يشاء - ولا يشاء الا ما هو حق وعدل وصواب وان خفى علينا وجهه - ويقدر ، أى يضيق على من

يشاء ، وكل أحد هو حقيق بالحال الذى هو فيه . وأنه كان بعباده خبيرا
مطلعا على دواخل أمورهم وبواطن أسرارهم من أنفسهم ، ومما يرتبط بهم
ومن سوابقهم ومصائرهم بصيرا منكشفا له جميع أمورهم .

وكما أنه بالمعمل بآية الانفاق ينتظم أمر العباد فى معاشهم ، كذلك
بالإيمان بهذه العقيدة تزول حيرتهم وتطمئن قلوبهم فيما يرونه من أحوال
الرزق فى أنفسهم وفى غيرهم . والله يبصر القلوب ويقوم الأعمال انه
سميع مجيب .

حفظ النفوس

بحفظ النسل وحفظ الفرج وعدم العدوان

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ، وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » .

(سورة الاسراء ، الآية : 31 - 33)

ان الارواح الانسانية كريمة الجوهر لانها من عالم النور ، فقد خلقت من نفخ الملك ، كما فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه الثابت فى الصحيح : و ان احدم يجمع خلقه فى بطن امه اربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح . . الخ ، والملائكة - كما فى الصحيح ، خلقوا من النور وانها كريمة الخلقة ايضا لانها فطرت على الكمال ، ولذا اضافها الله تعالى الى نفسه فى معرض الامتنان فى قوله : « ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ ، دَعَا مَا يَبْتَغَىٰ عَلَيْهَا بَعْدَ اتِّصَالِهَا بِالْبَدَنِ مِنْ تَرْكِيبِ تَرْقِيٍّ بِهَا فِي مَعَارِجِ الْكَمَالِ أَوْ تَدْسِيَةٍ تَنْحَطُّ بِهَا إِلَىٰ أَسْفَلِ سَافِلِينَ ، وَبَعْدَ ارْتِبَاطِهَا بِالْبَدَنِ يَتَكُونُ مِنْهُمَا الْمَخْلُوقُ الْمَظْمُونُ الْعَجِيبُ الْمُسَمَّى بِالْإِنْسَانِ ، الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ لِيَعْمَرَهَا وَيَسْتَشْمِرَهَا ، وَيَعْبُرَهَا إِلَىٰ دَارِ الْكَمَالِ الْحَقِّ وَالْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ الْأَبَدِيَةِ » .

هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها . فكان حفظها أصلا قطعيا وكلية عامة في الدين ، وجاءت هذه الآيات في تقرير هذا الحفظ من وجوه ثلاثة سنتكلم عليها واحدا واحدا : -

(1) - حفظ النسل : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » .

العرب في زمان البعثة هم المخاطبون قبل الناس بالقرآن ، وهم المأمورون أول الناس - لمعوم الرسالة - بالبلاغ وعلى اهتدائهم كان يتوقف اهتداء غيرهم ، فمن الحكمة توجه القصد الى تطهيرهم من مفاسدهم ، وقد كانوا في الجاهلية منهم من يقتل البنات خشية الفقر وليوفر ما ينفق عليهن لينفق على نفسه وبيته وبنيه . ويرى النفقة عليهن ضائعة لأنه لا ينتظر منهن سعيا للكسب ولا نصرة على العدو ، وهذه هي الموءودة المذكورة في قوله تعالى : « وَإِذَا أُلْمُودَةٌ سَأَلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » ، على أنه قد كان من ساداتهم من يحيى الموءودة ، فيشتريها من عند أبيها وينجيها من القتل ، كزيد ابن نضيل القرشي أبى سعيد بن زيد أحد العشرة المشركين رضى الله عنهم ، وصمصمة ابن ناجية التميمي الصحابي جد الفرزدق الشاعر المشهور . وقد كان قتل البنات شائعا فيهم مستفيضا ومنهم - كما في « لسان العرب » - من كان يئد البنين عند المجاعة ، فجاء النهي عن القتل في الآية متعلقا بلفظ الولد شاملا للبنات والبنين ، ومعه السبب الذي كان يحملهم على القتل ، وهو خشية الاملاق : أى خوف الفقر والافتقار ، والمملق هو الذى خرج ماله من يده فلم يبق بها شيء ، ومن مادته الملقاة ، وهى الصفاة المساء ، فنهوا عن هذا القتل الفظيع مع ذكر سببه لتصوير حالتهم بوجه تام ، وليتخلص من ذكر السبب الى ابطاله رده .

معالجة هذه الرذيلة ؛ بإبطال سببها ، وعظيم قبورها، وسوء عاقبتها :

أبطل تعالى خوفهم من الفقر بقوله : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » ، فآخبر أن رزق الجميع عليه ، وأنه متكفل برزق خلقه بما يسر لهم من أسباب جليلة او خفية ، لا فرق في ذلك بين الذكر والانثى والكبير والصغير . كما أنه

تعالى هو ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، كما فى الآية السابقة ، فهما مرتبطان بهذه المناسبة ، ومن ضلالهم أنهم نظروا الى قوة الكبير فحسبوه مرزوقا من نفسه فهدهم بقوله : « وَإِيَّاكُمْ » الى أن الكبار مرزوقون من الله بتقديره وتيسيره . ولما كان لا فرق بين الكبير والصغير فى الحاجة الى لطف الله وضمان الرزق من الله فلا وجه لخوف الفقر من وجود الاولاد وكثرتهم ، لانه ما من واحد منهم الا ورزقه مضمون من خالقه جل جلاله .

وبين تعالى فظاعة هذا القتل بقوله : « أَوْلَادُكُمْ » ، باضافة الاولاد اليهم فان الاولاد اقلاد الاكباد ، وبضمة من لحم المرء ودمه ونسخة من ذاته ، لمحبتهم فطرة ، والمعطف التام عليهم خلقة ، فكيف يكون قبح وفظاعة فعل من بلغ بهم القتل ؟ واى خير يرجى من قاتل ولده لغيره من الناس بعد ما جنى أفظع الجنایات على الصق الناس به ؟

وبين تعالى سوء الماقبة لهذا القتل بقوله : « إِنْ قَتَلْتُمْ كَبِيرًا » ، أى اثما كبيرا لما فيه من قتل النفس وقطع النسل وهلاك الجنس وخراب العمران وسوء الظن بالله وعدم خشيته وعدم الشفقة على خلقه ، يقال : خطيء يخطئ خطئا اذا قصد الفعل القبيح ففعله . وأخطأ يخطئ خطئا اذا قصد شيئا فأصاب غيره . ومن مثل وعيد الآية ما ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سئل أى ذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » ، قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » .

عموم حكم الآية وتروغيها : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والحكم بهم بعموم اللفظ كما أن ذكر سبب القتل فى الآية لا يقتضى التخصيص لانه ذكر لتصوير الحال الذى كانوا عليه ، فالقتل حرام لاي سبب كان .

وهذا الفعل الذى كان فى الجاهلية على الوجه المتقدم وهو فعل مؤد الى قطع النسل وخراب العمران ، لا تسلم منه الامم الاخرى فى مختلف

الازمنة والبلدان ، اما بالقتل بعد الولادة ، واما بافساد الحمل بعد التخليق ، وهو حرام باتفاق . وقد يكون بالامتناع من التزويج أو بعدم الانزال فى الفرج وهو العزل ، والآية كما نهت عن القتل ، قد رغبت فى النسل بذكر ضمان الرزق ، فعلى المؤمن أن يسعى لذلك من طريقه المشروع وان يتلقى ما يعطيه الله من نسل ابن أو بنت بفرح لنعمة الله وثقة برزق الله وايمان بوعده .

(2) - حفظ الفرج : «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» .

فى الزنى اراقة للنطفة وسفح لها فى غير محلها ، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب مقطوع الصلة ساقط الحق . فمن تسبب فى وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله . ولهذا بعد ما نهى عن قتل الاولاد نهى عن الزنى الذى هو كقتلهم لانه سبب لوجودهم غير مشروع .

قال الجوهري «قريبته اقربه قربانا، أى (دنوت منه)» فقوله تعالى : «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ» أبلغ فى النهى من ولا تزنوا ، لانه بمعنى : ولا تدنوا من الزنى . وأفاد هذا تحريم الزنى وتحريم الدنو منه لا بالقلب ولا بالجوارح ، فقد جاء فى الصحيح : «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى ، فهو مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليدان زناهما البطش . والرجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فزنى هذه الجوارح دنو من الزنى الحقيقى ومؤد اليه ، وقد حمى الشرع الشريف العباد من هذه الفاحشة بما فرض من الحجاب الشرعى . وهو ستر العرة ما عدا وجهها وكفيها وجمع ثيابها عند الخروج بالتجليب ، وبما حرم من تطيب المرأة، وقمعة حليها عند الخروج ، وخلوتها بالاجنبى، واختلاط النساء بالرجال، فتظافر النهى والتشريع على ابعاد الخلق عن هذه الرذيلة . والمسلم المسلم من تعزى مقتضى هذا النهى وهذا التشريع فى الترك والابتعاد .

معالجة هذه الرذيلة بتقبيحها وسوء عاقبتها : بين تعالى قبحها بقوله : **« إِنَّهُ كَانَ قَاحِشَةً »** ، والفاحشة هي الرذيلة التي تجاوزت الحد في القبح ، وعظم قبح الزنى مركز في العقول من أصل الفطرة كان ولم يزل كذلك معروفا . ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن ركز في فطرهم ادراك اصول القبايح والمحاسن ليسهل انقيادهم للشرع عندما تدعوهم الرسل الى فعل المحاسن وترك القبايح وتأتيهم بما هو معروف في الحسن أو القبح لهم ، فتبين لهم حكم الله فيه وما لهم من الثواب أو العقاب عليه .

وبين تعالى سوء عاقبة الزنى بقوله : **« وَسَاءَ سَبِيلًا »** ، أى بشس طريقا طريقه ، طريق مؤد الى شرور ومفاسد كثيرة في الدنيا ، وعذاب عظيم في الآخرة ، فهو طريق الى هلاك الابدان ، وفساد الاعراض ، وضياع الاموال ، وخراب البيوت ، وانقطاع الانساب ، وفساد المجتمع وانقراضه ، زيادة على ما فيه من معنى القتل للنفوس الذى تقدم فى صدر الكلام . . .

فعلى المؤمن اذا وسوس له الشيطان بهذه الرذيلة أن يتموز بالله منه ، ويستحضر قبحها ، والمفاسد التي تجر اليها ، والاثم الكبير الذى يعقبها ، وقبل ذلك كله حرمة النهى الشرعى عنها ، فيكون ذلك له - باذن الله - وقاية منها . . .

(3) - **عن العدوان : - « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا »** ، جاء أسلوب هذه الآيات تدريجا من الخاص الى العام ، فقتل الاولاد قتل للنفس التي حرم الله ، والزنى كالقتل للنفس كما قدمناه ، وجيء هنا بالنهى الصريح عن قتل النفس ، وأكد مقتضى النهى بوصف النفس بقوله : **« الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ »** ، والتحريم هو المنع ، فحرم الله معناه منع الله ، والتقدير حرم الله قتلها ، فحذف لدلالة : **« لَا تَقْتُلُوا »** ، عليه ، فالمنهى عنه هو القتل ، والمحرم هو القتل ، فتأكد المنع بالنهى والتحريم . وفى اسناد التحريم الى الله بعث للنفوس على الخشية من الاقدام على المخالفة وتنبيه لها على ما يكفها عن الاقدام وهو استشعار عظمة الله .

القتل المحرم : بين تعالى بقوله : « **إِلَّا بِالْحَقِّ** » ان القتل المحرم هو القتل بالباطل ، وان القتل بالحق ليس بمنهى عنه ، وبين الحق فى الحديث الصحيح بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث : الزانى الثيب ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » فى غير هذه الثلاث مما جاء فى بيانات أخرى عند بعض الائمة ، ويرجع الى احدى هذه الثلاث او يقال بتقديم هذا الحصر فى الورود عليها ، وهذا القتل الحق لا يتولاه أفراد الناس فى بعضهم ، وانما يتولاه الامام الذى اليه القيام بتنفيذ الاحكام وفصل الحقوق .

الردع عن العدوان بشرع القصاص : القتل وسفك الدم عمل قديم فى البشر فلم – على الجملة – ضاوة عليه والى به ، وأعظم ما يكف الشخص عن نفس أخيه خوفا على نفسه ، فلذلك شرع الله تعالى القصاص بين النفوس ، وبين تعالى ذلك بقوله : « **وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا** » المظلوم من قتل عمدا عدوانا ، والولى هو القريب ، والسلطان التسلط . والمعنى : ومن قتل عمدا عدوانا ، فقد جعلنا لقريبه تسلطا بتمكينه من القصاص .

لا يحفظ النفوس الا العدل : كفاء النفس نفس ، فلا يقتل الا القاتل بما قتل ، دون غيره ودون تمثيل به ، وبين تعالى هذا بقوله : « **فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ** » أى لا يتجاوز القصاص المشروع ، لان الاسراف ظلم ومثير للحقائظ فيتسلسل الشر .

تسكين نفس الموتور : الموتور هو من قتل قريبه ، ولنفقد القريب لوعة ربما تذهب بالنفس الى شر غاية ، فذكر بقوله تعالى : « **وَأَنَّهُ كَانَ مِصْرُورًا** » فان قريب المقتول قد نصره الله بما جعل له من القصاص ، فاذا لم يستوف له فى الدنيا ، استوفى له فى الآخرة .

والمؤمن بيقينه لا يرى يوم القيامة الا قريبا ، وكفى بالله حسيبا . (٥)

(٥) الشهاب - ج 7 ، م 6 - غرة ربيع الاول 1349 هـ / اوت 1930 م .

حفظ الأموال باحترام الملكية

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ... » .

(سورة الاسراء ، الآية 34)

مال الشخص : هو ما كان ملكا له . **واليتم :** هو من عدم أباه ، من اليتيم ، بمعنى الانفراد ، ومن الدرة اليتيمة ، ومن عدم أباه فقد عدم ناصره ، فاذا بلغ النكاح فقد بلغ القوة فاستغنى عن الناصر ، فلا يقال فيه يتيم في اللغة ، واعتبر الشرع الشريف وجود قوة العقل فمنع استقلاله ودفع ماله اليه بعد البلوغ حتى يؤنس منه الرشده . **والتي هي احسن :** النعلة والخصلة التي هي انفع ، **والبلوغ الى الشيء :** الوصول والانتهاه اليه . **والاشد :** جمع شدة ، كأنهم جمع نعمة ، فالاشد هو القوى ، وبلوغ الاشد هو بلوغ القوى والوصول الى الحالة التي تحصل فيها القوى للانسان ، القوى البدنية والقوى العقلية ، ولا يقال في الشخص قد بلغ أشده الا اذا حصل على قواء من الجهتين ، فاما القوى البدنية فعلامة حصولها هو البلوغ . واما القوى العقلية فعلامة حصولها هو الرشده الذي يظهر في حسن التصرف ، وقد جمع العلامتين قوله تعالى في سورة النساء : -

« وَابْتَئُوا أَلْيَتَانِيَّ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَقْوَالَهُمْ » . فابتداء الاشد من البلوغ اذا كان معه رشده ، ولا يزال يتدرج حتى يستكمل في الاربعين كما قال تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » . فالاربعون هي سن الاستكمال والاستواء والتمام في القوى ، وهي السن التي بعث الله فيها النبي صلى الله عليه

واله وسلم للعالمين بشيرا ونذيرا ، ولا يزال الانسان فى قوته - ما لم
تمرض الطوارىء - الى الخمسين ، قال الشاعر : -
أخو الخمسين مجتمع أشدى ونجّذنى مداوَرَةُ الشؤون
ثم ياخذ فى التراجع .

مال المرء قطعة من بدنه ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه ، وبه قوام
أعماله فى حياته . فالامور مقرونة بالنفوس كما فى الاعتبار ، فقرنت فى
النظم آية حفظ الاموال بآيات حفظ النفوس ، كما قرن بينهما النبى صلى
الله عليه وآله وسلم فى قوله : « فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم
حرام » .

نهى تعالى عن قربان مال اليتيم الا بالوجه الذى هو أنفع ، فلا بد لكافل
اليتيم من النظر والتحرى عند التصرف فى ماله حتى يعرف ما هو ضار
وما هو نافع ، وما هو ضار ولا نافع وما هو أنفع ، فلا يتصرف الا بما
هو نافع . فاذا تعارض وجهان نافعان تحرى أنفعهما لليتيم ، وفى هذا
النهى - بطريق الاخرى - تحريم أخذ مال اليتيم بالباطل والتعدي عليه
ظلمًا ، ومثل اليتيم فى وجهى النهى المتقدمين غيره ، فكل ذى ولاية أو أمانة
على مال غيره يجب عليه أن يتحرى التحريم المذكور . كما يحرم على كل
أحد أن يتعدى على مال غيره . وانما خص اليتيم بالذكر لانه ضعيف
لا ناصر له ، والنفوس أشد طمعا فى مال الضعيف . فالعناية به أوكد ،
والعقوبة عليه أشد . ومن تأدب بأدب الآية فى مال الضعيف ، كاليتيم ،
كان حقيقا أن يتأدب بأدبها فى مال غيره . ومن بليغ إيجاز القرآن فى بيانه
انه يذكر الشيء ليدل به على نظيره ، أو الذى هو آخرى بالحكم منه ،
أو لكون امتثال الحكم الشرعى فيه داعيا الى امتثاله فى غيره بالمساواة أو
الاخرى .

وأجاز تعالى لولي اليتيم أن يتصرف فى ماله بالاستثناء فى قوله :
« إِلَّا بِاتِّفَاقٍ هِيَ أَحْسَنُ » فيجوز له تسميته لليتيم بوجوه التجارة .

الولاية والاستقلال : الولاية على اليتيم واستقلاله حالتان كلتاهما حق
وخير اذا كانت كل واحدة منهما فى وقتها المناسب لها . وكل واحدة

منهما تكون ظلما وشرا اذا كانت فى غير وقتها . فذلك بين تعالى العاليتين ووقتهما بما قبل (حتى) وما بعدها ، فوق عدم بلوغ الاشد هو وقت الولاية ، فمن الفروض الكفائية على الامة ان يكون ايتامها مكفولين غير مهملين ، ووقت بلوغ الاشد - ببلوغ الحلم والرشد - هو وقت استقلال من كان يتيما ، ووقت دفع ماله اليه ، فلا يجوز حينئذ الاستيلاء على ماله والسيطرة عليه .

الوفاء بالعهد

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنََّّ أَلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » .

اوفى بعهد : اذا اتى بما التزم تاما وافيا ، **والعهد :** من عهد اليه بالشيء اذا اعلمه به . قال تعالى : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ » اى اعلمناه . فالعهد هو الاعلام بالالتزام ، أو الاعلام بما يلتزم . فمن الاول : عاهدت زيدا على كذا . اى اعلمته بالتزامى له ، وتعاهد القوم على الموت ، اى اعلم بعضهم بعضا بالتزامه . ومن الثانى : عهد الله الى العباد اى اعلامهم بما عليهم ان يلتزموه . وقول عبد الله بن عمر رضى الله عنه : الدينار بالدينار ، والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما ، هذا عهد نبينا الينا . وعهدنا اليكم . اى اعلامه لنا واعلامنا لكم بما يلتزم ، والمسؤول من سأل . **وسأل :** بمعنى طلب ، اما طلب علما واما طلب شيئا ، فان كانت الاولى تعدى الفعل الى المفعول الثانى بعد ، تقول سألته عن كذا فاجابنى ، وان كانت الثانية تعدى الفعل اليه بنفسه ، تقول : سألته ثوبا فاعطانيه . فقوله تعالى : « إِنََّّ أَلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » اذا كان من الاولى فالاصل «مسؤولا عنه » فحذف ايجازا لظهور المراد - واذا كان من الثانى فلا حذف ، والمعنى حينئذ مطلوب اى مطلوب الوفاء به .

الوفاء بالعهد شرط ضرورى لحصول السعادتين : عهد الله تعالى لعباده هو ما شرعه لهم من دينه فوفاؤهم بعهده قيام بأعباء ذلك الدين الكريم

وانتظام شؤونهم فى هذه الحياة - أفرادا وجماعات وأما - متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود ، فالوفاء ضرورى لنجاة العباد مع خالقهم ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن . وضرورى - اذا - لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

ولمكانة هذا الاصل وضرورته تكرر فى الكتاب والسنة الامر به على وجه عام بين الافراد والامم بلا فرق بين الاجناس ، والممل • وجاء هنا فى آية الوصاية باليتيم ، وهى آية حفظ الاموال باحترام الملكية ، لوجهين : الاول ان الكافل لليتيم قد أعلن بكفالته - بلسان حاله - انه ملتزم لحفظه فى بدنه وماله ، فهذا عهد منه يطالب بالوفاء به ويسأل عن ذلك الوفاء ، الثانى : ان الآية فى حفظ الاموال وعدم التعدى على ملك أحد ، والناس يتعاملون بحكم الضرورة ، ويبنون تعاملهم على تبادل الثقة والعهود المبذولة من بعضهم لبعض بلسان المقال أو بلسان الحال ، فأمروا بالوفاء بالعهد الذى هو أساس للتعامل ، وفى ذلك سلامة مال كل أحد من التمدى عليه . ولا ينافى هذا عموم اللفظ الذى يقتضى الامر بالوفاء عاما لانه باق على عمومه ، وانما يدخل فيه هذان الوجهان المذكوران فى ارتباط النظم دخولا اوليا • ومن بديع ايجاز القرآن فى نظم الآيات أن يؤتى باللفظ مفيدا للعام ومقويا للخاص •

الترغيب فى الوفاء والترهيب من الخيانة :

«إِنَّ أَلْفَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا»

اذا كان مسؤول بمعنى مطلوب ، أى مطلوب الوفاء به ، فانه مطلوب فى الفطرة وهى الشريعة ، فالعباد فطروا على استحسان الوفاء ومطالبة بعضهم بعضا به ، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهم ووعدهم الثواب عليه • وفى قوله : «إِنَّ أَلْفَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا» ترغيب لهم فى الوفاء بحسنه ومشروعيته وحسن الجزاء عليه • ويتضمن هذا الترغيب بالتخويف من ترك الترغيب بالتخويف من ترك المطلوب • واذا كان مسؤول بمعنى

« مسؤول عنه » فإن المعنى ان الله تعالى يسأل العباد يوم القيامة عن جهودهم هل اوفوا بها ليجازيهم على الوفاء بحسن الجزاء ، وعلى الخيانة بالمذاب والاهانة . فينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ويقال هذه غدرة فلان كما جاء فى الصحيح . ففى الآيه على هذا - ايضا - ترغيب وترهيب .

إيفاء الحقوق عند العامل

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » الآية (35) .

إيفاء الكيل : اتمامه ، والقسطاس : هو الآلة التى يحصل بها الإيفاء من المكيال والميزان على تعدد انواعهما ، والمستقيم : الصحيح الذى لا عيب فيه ، ومما يجعله غير صالح للوفاء بالمدل ككسره او اعوجاجه او أى خلل فى تركيبه . والغير : النافع . والتأويل : مصدر أول ، بمعنى رجع . من آل يؤول أولا ، بمعنى رجع ، وهو هنا بمعنى المرجع والمآل ، أى العاقبة .

الامر بإيفاء الكيل من موضوع ما قبله فى الامر بحفظ الاموال واحترام الملكية . والمكيلات والموزونات مورد عظيم للتعامل ، ومعرضة تعريضا كبيرا للبخس والتطفيف ، واخذ مال الناس بالزيادة او بالتنقيص ، اما بفعل الشخص واما بفساد الآلة ، فامر تعالى بإيفاء الكيل ، وأمر باختيار الآلة الصالحة لذلك ، وبين ان الوفاء يكون عند الكيل بقوله : « إِذَا كِلْتُمْ » على سبيل التاكيد ، حتى لا يتأخر الوفاء عن الكيل بان يكمل ما نقص او يرد ما زاد ، فان الذى يفصل الحق ويطيب النفوس هو الوفاء وقت الكيل .

الترغيب فى إيفاء الكيل

« ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

رغب تعالى فى الإيفاء بوجهين . الأول : أنه خير ، فيفيد العدل والحق واكل الحلال وراحة البال ، وفيه حصول الثقة التى هى رأس مال التاجر ، وفيه حفظ نظام التعامل الذى هو ضرورى للحياة ، وهذه كلها وجوه نفع وخير . الثانى : أنه أحسن عاقبة عاجلا فى نفس الشخص وأخلاقه وفى عرضه وسمته وفى سلامته من المطالبات والمنازعات ، وأجلا بحسن جزائه عند الله بما أعد للموفين من الاجر العظيم .

تركيب على هذا الترغيب : هذان الوجهان اللذان رغب الله تعالى بهما فى الوفاء - ينبى للعاقل أن يجعلها نصب عينيه فى كل ما يتناوله ويعمله ، فيقتصر على ما هو خير ينفعه فى الحال ، وحسن العاقبة بنفعه وعدم ضرره فى المال . والله يوفقنا الى خير الاقوال والاعمال انه الكريم الواسع النوال (1) .

(١) الشهاب - ج ٨ ، م ٦٠ - غرة ربيع الثانى ١٣٤٩ هـ / سبتمبر ١٩٣٠ م .

العلم والأخلاق

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » .

(سورة الاسراء : الآية 36 - 37)

المناسبة : العلم الصحيح والخلق المتين هما الاصلان اللذان ينبني عليهما كمال الانسان . وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة من اصول التكليف فهما أعظم مما تقدمهما من حيث توقفه عليهما فجاء بهما بعده ليكون الاسلوب من باب الترقى من الأدنى الى الأعلى . ولما كان العلم أساس الاخلاق قدمت آيته على آياتها تقديم الاصل على الفرع .

آية العلم :

المفردات والتراكيب : القفو : اتباع الاثر، تقول قفوته أقفوه اذا اتبعت أثره، والمتبع الاثر شخص موال في سيره لناحية قفاه فهو يتبعه دون علم بوجهة ذهابه ولا نهاية سيره . فالقفو اتباع عن غير علم ، فهو أخص من مطلق الاتباع ، ولذلك اختيرت مادته هنا . ولكونه اتباعا بغير علم جاء في كلام العرب بمعنى قول الباطل . قال جرير :

وطال جذارى غربة البين والنوى وأخذوك^٢ من كاشح متفوف

أى متقول بالباطل .

والعلم : ادراك جازم مطابق للواقع عن بيئة . سواء كانت تلك البيئة حسا ومشاهدة أو يرها نا عقليا كدلالة الاثر على المؤثر والصنعة على الصانع

فاذا لم تبلغ البيئة بالادراك رتبة الجزم فهو ظن، هذا هو الاصل ، ويطلق العلم أيضا على ما يكاد يقارب الجزم ويضعف فيه احتمال النقيض جدا .
كما قال تعالى عن اخوة يوسف عليه السلام : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » فسمى القرآن ادراكهم لما شاهدوا : علما .
لانه ادراك كان يبلغ الجزم لانبيائه على ظاهر الحال وان كان ثم احتمال خلافه فى الباطن ، لانه احتمال ضعيف بالنسبة لما شاهدوه .
والسمع : القوة التى تدرك بها الاصوات بآلة الاذن .
والبصر : القوة التى تدرك بها الاشخاص والالوان بآلة العين . وقسم السمع على البصر لان به ادراك العلوم وتعلم النطق فلا يقرأ ولا يكتب الا من كان ذا سمع وقتا من حياته .
والفؤاد : القلب ، والمراد به هنا العقل من حيث اعتقاده لشيء ما واطلاق لفظ الفؤاد والقلب على العقل مجاز مشهور ، **وكان :** تفيد ثبوت خبرها لاسمها وكونها على صورة الماضى لا يدل على انقضاء ذلك الارتباط . ومثل هذا التركيب يفيد فى الاستعمال استحقاق الاسم للخبر ، فالجوارح مستحقة للسؤال ويكون ذلك بالفعل يوم القيامة .
والمسؤول : الموجه اليه السؤال ليجيب .

وأولئك اشارة الى هذه الثلاثة ، وضمير كان عائد على كل ، وضمير عنه عائد على ما ، وضمير مسؤولا عائد على ما عاد عليه ضمير كان .
والتقدير : كل واحد من هذه الثلاثة: السمع والبصر والفؤاد كان مسؤولا عما ليس لك به علم .

العقل ميزة الانسان وأداة علمه : يمتاز الحيوان عن الجماد بالادراك ويمتاز الانسان عن سائر الحيوان بالعقل وعقله هو القوة الروحية التى يكون بها التفكير ، وتفكيره هو نظره فى معلوماته التى ادرك حقائقها وادرك نسب بعضها لبعض ايجابا وسلبا، وارتباط بعضها ببعض نفيا وثبوتا ، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها الى ادراك امر مجهول . فالتفكير اكتشاف المجهولات من طريق المعلومات، والفكر مكتشف ما دام مفكرا .

ولما امتاز الانسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير - امتاز عنه بالتنقل والتحول فى اطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته فمن المشى على الاقدام الى التحليق فى الجو ، مثلا وبقي سائر الحيوان على الحال التى خلق عليها دون أى انتقال .

وبقدر ما تكثر معلومات الانسان ويصح ادراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها - تكثر اكتشافاته واستنباطاته فى عالمي المحسوس والمقول وقسمي العلوم والآداب . وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام بل قرون مدنيتهم . عربوا كتب الامم الى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا . فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم، وأناروا بالعلم عصرهم، ومهدوا الطريق، ووضعوا الاسس لما جاء بعدهم ، فادوا لنوع الانسان بالعلم والمدنية اعظم خدمة تؤديها له أمة فى حالها وماضيها ومستقبلها ، وكما نرى الغرب فى مدنيته اليوم ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الامم الخالية التى حفظتها العربية وأدتها بأمانة وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم فجاه هو أيضا بمكتشفاته التى هى ثمرة علوم الانسانية من أيامها الاولى الى عهده ، وثمره تفكيره ونظره فيها . وقد كانت مكتشفاته اكثر من مكتشفات جميع من تقدمه ، كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن اكثر من مكتشفات عجز القرن الماضى لتكاثر المعلومات فان المكتشفات تضم الى المعلومات فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها وهكذا يكون كل قرن ما دام التفكير عمالا - أكثر معلومات ومكتشفات من الذى قبله .

فاذا قلت معلوماته قلت اكتشافاته . وهذا كما كان النوع الانسانى فى اطواره الاولى .

واذا كثرت معلوماته وأهمل النظر فيها بقى حيث هو جامدا ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهمة حتى تقل أو تضيع لان المعلومات اذا لم تتعاهد بالنظر زالت من العافضة شيئا فشيئا وهذا هو

طور الجود الذى يصيب الامم المتعلمة فى ايامها الاخيرة عندما تتوافر
الاسباب العمرانية القاضية بسنة الله بسقوطها .

واذا لم يصح ادراكه للحقائق او لنسبها او لم يستقم تنظيمه لها كان
ما يتوصل اليه بنظره خطأ فى خطأ وفسادا فى فساد . ولا ينشأ عن هذين
الا الضرر فى المحسوس والضلال فى المقول . وفى هذين هلاك الفرد
والنوع جزئيا وكليا من قريب أو من بعيد . وهذا هو طور انحطاط الامم
الانحطاط التام وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها
الفوضى بأنواعها فتتخذ رؤوسا جهالا لامور دينها وامور دنياها فيقودونها
بغير علم فيضلون ويهلكون ويهلكون ويفسدون ولا يصلحون .
وما اكثر هذا - على اخذه فى الزوال باذن الله - فى أمم الشرق والاسلام
اليوم .

العلم هو وحده الإمام المتبع فى الحياة فى الاقوال والافعال والاعتقادات :
سلوك الانسان فى الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا ، يستقيم باستقامته ،
ويموج باعوجاجه ، ويشمر باثمارة ، ويعقم بعقمه . لأن افعاله ناشئة عن
اعتقاداته ، وأقواله اعراب عن تلك الاعتقادات ، واعتقاداته ثمرة ادراكه
الحاصل عن تفكيره ونظره .

وهذه الادراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة
فى القوة والضعف ، فمنها ما هو قوى معتبر ، ومنها ما هو ضعيف ساقط
عن الاعتبار ، فالاول : العلم وهو ادراك امر على وجه لا يحتمل أن يكون
ذلك الامر على وجه من الوجوه سواء وهو عام الاعتبار . ويليه الظن وهو
ادراك لأمر على وجه هو أرجح الوجوه المحتملة ، وهو معتبر عندما تتبين
قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه الا ذاك ، وهذه هى الحالة التى يطلق عليه
فيها لفظ العلم مجازا . والثانى : الوهم ، وهو ادراك الامر على الوجه
المرجوح . والشك وهو ادراك لامر على وجهين ، وجوه متساوية فى
الاحتمال ، وكلا هذين لا يعول عليه .

ولما كان الانسان - بما فطر عليه من الضعف والاستعجال - كثيرا ما يبنى اقواله وافعاله واعتقاداته على شكوكه واوهامه وعلى ظنونه حيث لا يكتفى بالظن، وفي هذا البناء الضرر والضلال - بين الله تعالى لعباده - في حكم كتابه انه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لاقوالهم واعمالهم واعتقاداتهم الا على ادراك واحد وهو العلم فقال تعالى : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تتبع ما لا علم لك به ، فلا يكن منك اتباع بالقول أو بالفعل أو بالقلب لما لا تعلم . فنهانا عن أن نعتقد الا عن علم ، أو نفعل الا عن علم ، أو نقول الا عن علم . فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوى عليه عقد قلوبنا ، بل علينا أن ننظر فيه ونفكر فاذا عرفناه عن بينة واعتقدناه والا تركناه حيث هو فى دائرة الشكوك والاوهام أو الظنون النى لا تعتبر . ولا كل ما نسمعه أو نراه أو نتخيله أو نقوله ، فكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع كما جاء فى الصحيح ، بل علينا أن نعرضه على محك الفكر فان صرنا منه على علم قلناه ، مراعين فيه آداب القول الشرعية ومقتضيات الزمان والمكان والحال . فقد أمرنا أن نحدث الناس بما يفهمون ، وما حدث قوم بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان عليهم فتنة والا طرحناه . ولا كل فعل ظهر لنا نفعله ، بل حتى نعلم حكم الله تعالى فيه لنكون على بينة من خيره وشره ونفقه وضره .

فما أمر تعالى الا بما هو خير وصالح لعباده ، وما نهى تعالى الا عما هو شر وفساد لهم أو مؤد الى ذلك . واذا كان من المباحات نظرنا فى نتائجه وعواقبه ووازننا بينها . فاذا علمنا بعد هذا كله من أمر ذلك الفعل ما يقتضى فعله فعلناه والا تركناه .

فلا تكون عقائدنا - اذا تمسكنا بهذا الاصل الاسلامى العظيم - الا حقا ، ولا تكون اقوالنا الا صدقا ، ولا تكون افعالنا الا سدادا .

ولعمر الله انه ما دخل الضلال فى عقائد الناس ولا جرى الباطل والزور على السنتهم ولا كان الفساد والشر فى أفعالهم، الا باهمالهم أو تساهلهم فى هذا الاصل العظيم .

تفصيل : نهينا عن أن نتبع ما ليس لنا به علم ، فالذى نتبعه هو ما لنا به علم ، أى لنا علم يقتضى اتباعه بأن يكون من عقائد الحق وأقوال الصدق وأفعال السداد . فاما ما كان من عقائد الحق فى أمر الدين أو فى أمر الدنيا فلا حضر فى اعتقاد شيء منه . وأما ما كان من أفعال السداد فكذلك . وأما ما كان من أقوال الصدق ففيه تفصيل اذ ليس كل قول صادق يقال ، فالتقاض الشخصية فى الانسان لا تقال فى غيبته لانها غيبة محرمة ولا يجابه بها فى حضوره لانها اذائية ، الا اذا وجه بها على وجه النصيحة بشروطها المعتمدة التى من أولها أن لا تكون فى الملأ . وهكذا يجب فى مثل هذه الاصول الكلية عندما يتفقه فيها أن ينظر فيما جاء من الآيات والاحاديث مما فى البيان لها والتفصيل فى مفاهيمها .

تفريع : الفرع الاول : من اتبع ما ليس له به علم فاعتقد الباطل فى أمر الدين أو فى حق الناس أو قال الباطل كذلك فيهما ، أو فعل المحذور فهو آثم من جهتين : اتباعه ما ليس له به علم ، واعتقاده أو قوله للباطل وفعله للمحذور . ومن اعتقد حقا من غير علم أو قال فى الناس صدقا عن غير علم أو فعل غير محذور عن غير علم فانه - مع ذلك - آثم من جهة واحدة ، وهى اتباعه ما ليس له به علم ومخالفته لمقتضى هذا النهى .

الفرع الثانى : المقلد فى العقائد الذى لا دليل عنده أصلا ، وانما يقول سمعت الناس يقولون فقلت - هذا آثم لاتباعه ما ليس له به علم . فاما اذا كان عنده دليل اجمالى كاستدلاله بوجود المخلوق على وجود خالقه فقد خرج من الاثم لتحصيل هذا الاستدلال له العلم . والمقلد فى الفروع دون علم بأدلتها متبع لمفتيه فيها ، يصدق عليه باعتبار الأدلة التى يجهلها انه متبع ما ليس له به علم ، ولكنه له علم من ناحية أخرى وهى علمه بان التقليد هو حكم الله تعالى فى حق مثله من العوام بما أمر تعالى من سؤال أهل العلم وما رفع عن العاجز من الاصر وهو من العامة الماجزين عن درك أدلة الاحكام .

نصيحة على هذا الفرع : أدلة العقائد مبسطة كلها فى القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير . وأدلة الاحكام أصولها مذكورة كلها فيه ، وبيانها وتفاصيلها فى سنة النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - الذى أرسل ليبين للناس ما نزل اليهم ، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم . اذ يجب على كل مكلف أن يكون فى كل عقيدة من عقائده الدينية على علم . ولن يجد العامى الادلة لعقائده سهلة قريبة الا فى كتاب الله ، فهو الذى يجب على أهل العلم أن يرجعوا فى تعليم العقائد للمسلمين اليه . أما الاعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فانه من الهجر لكتاب الله ، وتصعيب طريق العلم الى عباده وهم فى أشد الحاجة اليه . وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم فى عامة المسلمين من الجهل بعقائد الاسلام وحقائقه .

ومما ينبغى لأهل العلم أيضا - اذا أفتوا أو أرشدوا - أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين الى أصل دينهم ، ويذيقوهم حلاوته ، ويمرفوهم منزلته ، ويجعلوه منهم دائما على ذكر ، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ فى القلوب وأثر فى النفوس . فالى القرآن والسنة - أيها العلماء - أن كنتم للخير تريدون .

الفرع الثالث : المجتهد اذا أفتى مستندا الى ما يفيد الظن من أخبار الآحاد أو الاقيسة أو النصوص الاخرى الظنية الدلالة ، هل هو متبع لغير العلم ؟ والجواب لا ، بل هو متبع للعلم وذلك من ثلاثة وجوه :

الوجه الاول : أن كل دليل يكون ظنيا بمفرده - يصير يقينا اذا عرض على كليات الشرع ومقاصده وشهدت له بالصواب . وهذا هو شأن المجتهدين فى الادلة الفردية .

الوجه الثانى : أن المجتهد يعتمد فى الاخذ بالادلة الظنية لما له من العلم بالادلة الشرعية الدالة على اعتبارها .

الوجه الثالث : أن تلك الأدلة بمفردها تفيد الظن القوي الذي يكون جزماً ويسمى - كما تقدم علماء فما اتبع المجتهد إلا العلم .

الفرع الرابع : لا نعتمد في اثبات العقائد والاحكام على ما ينسب للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من الحديث الضعيف لانه ليس لنا به علم ، فاذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل قيام الليل ثم وجدنا حديثاً في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه ما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديداً على وجه الترغيب . ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات اليه وهذا هو معنى قولهم : « الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الاعمال » أي في ذكر فضائلها المرغوبة فيها في أصل ثبوتها .

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين .

الفرع الخامس : أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب فلا نقول فيها إلا ما كان لنا به علم بما جاء في القرآن العظيم أو ثبت في الحديث الصحيح وقد كثرت في تفاصيلها الاخبار من الروايات مما ليس بثابت ، فلا يجوز الالتفات الى شيء من ذلك . ومثل هذا كل ما كان من عالم الغيب مثل الملائكة والجن والمرش والكرسي واللوح والقلم واشراط الساعة وما لم يصل اليه علم البشر .

سؤال الجوارح يوم الهول الاكبر :

« إِنْ أَسْمَعَ وَأَبْصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » .

من قال ما لم يسمع سئل يوم القيامة سماعه فشهد عليه، ومن قال رأيت ولم ير سئل بصره فشهد عليه ، ومن قال عرفت ولم يعرف أو اعتقد ما لم يعلم سئل فؤاده فشهد عليه، لانه في هذه الاحوال الثلاثة قد اتبع ما ليس له به علم . وهذه الشهادة كما قال تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَوَّجِلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

هذه الثلاثة تسال على وجوه منها ما تقدم وهو الذى يرتبط به هذا الكلام بما تقدم من النهى . ومنها سؤال السمع لم يسمع ما لا يحل له ولم يلم يسمع ما يجب ، وسؤال البصر لم رأى ما لا يحل ، وعن جميع أعمال البصر من نظر البغض والاحتقار ونحو ذلك . وسؤال الفؤاد عما اعتقد وعما قصد وجميع أعمال القلوب .

فوائد ختام الآية : فختام هذه الآية تأكيد للنهى السابق وتفصيل لطرق العلم وتنبيه على لزوم حفظها واحدة واحدة ، وترهيب للانسان من اتباع ما لا يعلم بما يؤول اليه امره من فضيحة يوم القيامة وخزى بشهادة جوارحه عليه .

فالله نسال أن يجعلنا متبعين للعلم فى جميع ما نعمل ، ويثبت لنا ما نعمل ويثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . انه يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

آية الأخلاق

« وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا . إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » .

المفردات والتراكيب : المرح : مشية فيها خفة ونشاط واختيال ناشئة عن شدة فرح بالنفس ، تقول العرب : أمرح الكلاً الفرس فمرح فهو فرس مرح وممرح ، اذا شبع فاخذ يمشى بخفة ونشاط واختيال . ويقال مرح الرجل اذا اختال فى مشيته ونظر فى عطفه ، ولا يكون ذلك الا لفرحه بنفسه واعجابه بها ، وخرق الارض : ثقبها ، والطول ارتفاع القامة .

نصب مرحا بتمشى لانه متضمن له تضمن الكل لجزيه ، اذ المرح جزئى من جزئيات المشى ، فكانه قال لا تمرح مرحا . ونظيره قول الشاعر :

يعجبه السخون والبرود والتمر حبا ما له مزيد

فنصب حبا بيعجب لان الاعجاب متضمن للحب ، او نصب على أنه حال كجاءنى زيد ركضا . ونصب طولا على أنه تمييز أى جهة الطول . والتقدير : ولن يبلغ طولك طول الجبال .

التفسير : حب الانسان لنفسه غريزة فيه ، وذلك يحمله على الاعجاب والفرح بها وبكل ما يصدر عنها ويستخفه ذلك حتى يتركه يمشى بين الناس مختالا متبخترا ، وهذه هى مشية المرح التى نهى الله تعالى فى هذه الآية عنها . ولما كانت هى فرعا عن الاعجاب بالنفس والفرح بها ، فاللهى منصب على أصلها كما أنصب عليها .

ولما كانت هذه العلة ناشئة عن علة العجب أعقب الله تعالى بيان الداء الذى نهى عنه بذكر الدواء الذى يقلعه من أصله . فقال تعالى : « إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا » . فذكر الانسان بضعفه بين مخلوقين عظيمين من فوقه ومن تحته ، فاذا ضرب برجليه الارض فى مرحة فهو لا يستطيع خرقها ، واذا تطاول بعنقه فى اختيال فهو لن يبلغ طول الجبال . فقد أحاط به المعجز من ناحيتيه ، وذكر الانسان لضعفه وعجزه أنجع دواء لمرض اعجابه بنفسه .

نعم الانسان أعظم من الارض والجبال بعقله ، ولكنه لو سار على نور عقله لما مشى فى الارض مرحا ، لان عقله يبصره بعيوب نفسه ونقائص بشريته ، فلا يدعه يعجب بها فلا يكون من المرحين فما مرح الا وهو محروم من نور العقل مفتون بمادة الجسم . فذكر بضعف هذا الجسم وصغارته .

العجب أصل الهلاك : اذا أعجب المرء بنفسه عمى عن نقائصها ، فلا يسعى فى ازالتها . ولها عن الفضائل فلا يسعى فى اكتسابها فماشى ولا أخلاق له مصدرا لكل شر بعيدا عن كل خير .

وعن العجب بالنفس ينشأ الكبر على الناس والاحتقار لهم ، ومن احتقر الناس لم ير لهم حقا ، ولم يعتقد لهم حرمة ولم يراقب فيهم الا ولا ذمة ، وكان عليهم - مثل ما كان على نفسه - اظلم الظالمين .

وابليس اللعين - نعوذ بالله تعالى منه - كان أصله هلاكه من مجبه بنفسه ، وانه خلق من النار ، وانه خير من آدم ، فتكبر عليه فكان من الظالمين الهالكين .

ترك العجب شرط في حسن وكمال الأخلاق : تربية النفوس تكون بالتخليّة من الرذائل ، والتحلية بالفضائل ، والعجب هو أساس الرذائل . فاول الترك تركه ، وهو المانع من اكتساب الفضائل ، فشرط وجودها تركه كذلك ، ومن لم يكن معجباً بنفسه كان بمدرجة التخلق بمحاسن الاخلاق والتنزّه عن نقائصها ، لان الانسان مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص . فاذا سلم من العجب فان تلك الجبلة تدعوه الى ذلك التخلق والتنزّه . فاذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة . واذا رغب في الكمال كانت له واليه هزة فلا يزال بين التذكيرات الالهية والجبلة الانسانية الخلقية يتهذب ويتشذب حتى يبلغ ما قدر له من كمال . ولهذه المعاني التي تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة - وهي اصول في علم الاخلاق - عنونا عليها بآية الاخلاق .

تأكيد الأوامر والنواهي المتقدمة بطريق الإيجاز

« كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا » الآية (38) .

المناسبة : ان الغاية التي يسعى اليها كل عاقل هي السعادة الحقّة ، وان التكاليف الاسلامية كلها شرعت لسوقه اليها ، ولما كانت اصولها قد تضمنتها الآيات السابقة أمراً ونهياً بطريق الاطناب والتفصيل - أعيد الحديث عنها في هذه الآية بطريق الإيجاز والاجمال . قصداً للتأكيد وتقرير هذه الاصول العظيمة في النفوس ، مع اشتمال هذه الآية الموجزة على ما لم يشتمل عليه ما تقدمها وهذا من بدیع التأكيد ، لاشتماله على السابق مع شيء جديد .

المفردات والتراكيب : السوء : هو القبيح والقبايح المنهى عنها فيما تقدم ، قبيحة لذاتها ، ولنهى الله تعالى عنها ، **والمكروه :** هو المبغوض المسخوط عليه ، وهو ضد المحبوب المرضى عنه . والمحاسن محبوبة لله أمر بها ويثيب عليها ويرضى على فاعلها ، والمقايح مبغوضة له تعالى نهى عنها ، ويعاقب عليها ويستخط على مرتكبها ، وليس المكروه بمعنى عدم المراد لانه لا يكون فى ملكه تعالى ما لا يريد وما تشاءون الا أن يشاء الله . وليس بمعنى المنهى عنه نهيا غير جازم لان ذلك اصطلاح فقهي حادث بعد نزول القرآن والقرآن لا يفسر الحادثة باصطلاحات .

ذلك : اشارة الى جميع ما تقدم من المأمورات والمنهيات على قراءة (سيئه) ، فالمكروه هو سوء ما تقدم وهو القبايح المنهى عنها . او اشارة الى خصوص القبايح على قراءة (سيئة) ، ومكروها خبر كان على القراءة الاولى ، وخبر ثان على القراءة الثانية ، وتقدير الكلام على القراءة الاولى ، كل ذلك المذكور كان سيئه - وهو المنهيات - مكروها عند ربك ومفهومه ان حسنه - وهو المأمورات - محبوب عنده ، وعلى الثانية كل ذلك المنهى عنه كان سيئة مكروها عند ربك . ومفهومه أن المأمور به حسن عنده .

التفسير : عَرَفَ - تعالى - عباده فى هذه الآية بمنطوقها ومفهوما - على ما تقدم فى التقرير - أن ما أمرهم به هو الحسن المحبوب ، وأن ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض . فعملوا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيها على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة ، وأنه - تعالى - لا يأمر بقبيح ولا ينهى عن حسن ، وفى علمهم بهذا ما يحملهم على الامتناع ويرغبهم فيه ، فان الحسن تميل اليه النفوس ، والقبيح تنفر منه . وفى قوله تعالى : « **عنده وبك** » غاية الترغيب فى الحسن ، والتنفير من القبيح فان الحسن جد الحسن ما كان حسنا عند الله تعالى ، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحا عنده ، وفى اسم الرب تنبيه على أن العلم بالحسن والقبيح على وجه التفصيل والتدقيق حتى يكون المأمور به حسنا قطعاً

والمنهى عنه قبيحا قطعا انما هو له تعالى ، وأن أوامره ونواهيه – تعالى –
الجارية على مقتضى ذلك هي من مقتضى ربوبيته – تعالى – وتدييره لخلقه •

مكانة هذه الأصول علما وعملا

« ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » .

المناسبة : لما بينت الاصول تمام البيان وقررت غاية التقرير جاءت
هذه الآية للتنويه بما يحث العباد على تحصيل ما فيها من علم والتحلي بما
دعت اليه من عمل •

المفردات والتراكيب : الحكمة : هي العلم الصحيح والعمل المتقن
المبنى على ذلك العلم ، وقال مالك بن انس رضى الله عنه : هي الفقه فى
دين الله والعمل به • والقرآن حكمة لدلالته على ذلك كله •

ذلك : اشارة الى ما تضمنته الآيات المتقدمة من قوله تعالى : « لَا تَجْعَلْ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » ومن فى (مِمَّا) تبعية • ومن فى (مِنَ الْحِكْمَةِ)
بيانية ، مجرورها بين المبهم وهو ما فى قوله (مِمَّا) والتقدير ذلك الذى
تقدم بعض الحكمة التى اوحاها اليك ربك •

المعنى : هذا ضرب آخر من تأكيد العمل بما تقدم والترغيب فيه ،
فبين تعالى أن ما تضمنته الآيات المتقدمة كله حكمة ، فالمتحقق بما فيها من
علم والمتحلى بما حثت عليه من أعمال هو الحكيم الذى كمل من وجهته
العلمية وجهته العملية وتلك أعلى رتب الكمال للانسان •

وفى ذكر انها بعض من كل تنبيه على جلاله كلها ، وهو عموم ما أوحى
الله تعالى الى نبيه – صلى الله عليه وآله وسلم – وتنبيه أيضا على أن شرح
هذه الاصول فيما أفادته من علم وعمل ، والتفقه فيها يرجع فيه الى الوحي
ويعتمد فى ذلك على بيانه ، وفيه بيان أن الوحي هو المرجع الوحيد لبيان
دين الله تعالى وشرعه وما أنزله لعباده من الحكمة ، وذلك الوحي هو

القرآن العظيم وسنة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الذى أرسل ليبين للناس ما نزل اليهم .

ختم الآيات

« وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا » (39) .

المناسبة : لما كانت هذه الآيات فى اصول الهداية واساس الهداية ، وشرطها هو التوحيد ختمت الآيات بالنهى عن الشرك كما بدأت به .

المفردات والتراكيب : الالقاء : هو الطرح ، والملوم : هو الذى يقال له لم فعلت القبيح وما حملك عليه ونحو هذا . والمدحور : المبعد ، وانتصباً على الحال .

المعنى : نهى تعالى عن الشرك وأن يعبد معه سواه ، فالعبادة بالقلب واللسان والجوارح لا تكون الا له . وكما حذر فى فاتحة الآيات بقعود المشرك فى الدنيا مذموماً بالشرك الذى ارتكبه مخذولاً لا ناصر له . كذلك حذر هنا بمثال المشرك فى آخرته بالقائه فى جهنم ملوماً على ما قدم مطروداً مبعداً فى دركات الجحيم .

نظرة عامة فى الآيات المتقدمة : قد تضمنت هذه الآيات على قلتها الاصول التى عليها تتوقف حياة النوع البشرى وسعادته من حفظ النفوس والمقول « وَلَا تَقْفُ » الآية . والانساب والاموال والحقوق (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، وَأَوْفُوا أَلْكَيلَ) والاعراض (وَلَا تَقْرَبُوا أَلْرَنَّا - وَلَا تَقْفُ) والدين الذى هو عملة ذلك كله ، وفى حفظه حفظ لجميعها ، وفى افتتاح الآيات بقوله تعالى : « لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا » وختمها بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا » بيان من الله تعالى لخلقهم بأن الدين هو أصل هذه الكمالات كلها ، وهو

سياج وقايتها وسوء حفظها ، وأن التوحيد هو ملاك الاعمال وقوامها ومنه
بدايتها واليه نهايتها •

وكذلك المسلم الموفق يبتدىء حياته بكلمة التوحيد حتى يموت عليها
فأله نسال - كما من علينا فى البداية - أن يمن علينا بها فى النهاية •
اللهم هذا لنا وللمسلمين اجمعين • (٥)

القول الحسن

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

(الاسراء - 53)

اللسان أداة البيان ، وترجمان القلب والوجدان . والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون ، وبه يتحاجون ويتفاوضون ، ولولاه لما ظهرت ثمرات العقول والمدارك ، ولما تلاقت الافكار والمشاعر ، ولما تزايدت العلوم والمعارف ، ولما ترقى الانسان في درجات انواع الكمالات ، ولما امتاز على بقية الحيوانات .

فهو رابطة افراد النوع الانساني وعشائره وأمه ، وبريد عقله وواسطة تفاهمه . فأذا حسن قويت روابط الالفة ، وتمكنت أسباب المحبة . وامتد رواق السلام بين الافراد والعشائر والامم . وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم ، وتشابكت الايدي على التعاون والتوازر ، وجنى العالم من وراء ذلك تقرر الامن واطراد الممران . واذا قبح كان الحال على ضد ذلك . فالكلام السوء قاطع لاواصر الاخوة ، باعث على البغضاء والنفسرة ، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستمداد والتعاون بين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة . وهما اشرف ما تتحلى به القلوب ، واذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الالفة والتعاون ، وحلت القساوة والمداوة ، وتبعهما التخاصم والتقاتل . وفي ذلك كل الشر لأبناء البشر .

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم ، والمبعد لهم عن شقاوتهم وهلاكهم هو القول الحسن . ولهذا أمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن

يرشد العباد الى قول التى هى احسن فقال تعالى : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

والعباد المأمورون هنا هم المؤمنون لوجهين : الاول انهم اضيفوا اليه وهذه اضافة شرف لا يكون الا للمؤمنين به ، الثانى ان الذين يخاطبون بهذا الارشاد ويكون منهم الامثال انما هم من حصلوا على اصل الايمان .

والتى هى احسن هى الكلمة الطيبة والمقالة التى هى احسن من غيرها فيعم ذلك ما يكون من الكلام فى التخاطب العادى بين الناس حتى ينادى بعضهم بعضا بأحب الاسماء اليه ، وما يكون من البيان العلمى فيختار اسهل العبارات وأقربها للفهم حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون فيكون عليهم حديثه فتنة وبلاء وما يكون من الكلام فى مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله الى حقه فى حدود الموضوع المتنازع فيه ، دون اذاية لخصمه ولا تعرض لشان من شؤونه الخاصة به - وما يكون من باب اقامة الحجة وعرض الادلة فيسوقها بأجلى عبارة وواقعها فى النفس خالية من السب والقبح ، ومن الغمز والتعريض ومن أدنى تلميح الى شئ قبيح وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم او بينهم وبين غيرهم ، وقد جاء فى الصحيح ان رهطاً من اليهود دخلوا على النبی - صلى الله عليه وآله وسلم - فقالوا السام عليكم فنهمتها عائشة - رضى الله عنها - فقالت : وعليكم السام واللعنة . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مهلا يا عائشة ان الله يحب الرفق فى الامر كله . فقالت : ألم تسمع ما قالوا ؟ فقال قد قلت : وعليكم . فكان الرد عليهم بمثل قولهم بأسلوب العطف على كلامهم وهو قوله وعليكم احسن من الرد عليهم باللعنة . فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - القولة التى هى احسن وهذا هو أدب الاسلام للمسلمين مع جميع الناس .

وأفاد قوله تعالى « أَحْسَنُ » بصيغة اسم التفضيل ان علينا ان نتخير فى العبارات الحسنة فننتقى احسنها فى جميع ما تقدم من انواع مواقع الكلام ، فحاصل هذا التأديب الربانى هو اجتناب الكلام السئ جملة والاقتصار على الحسن وانتقاء واختيار الاحسن من بين ذلك الحسن وهذا يستلزم استعمال

العقل والروية عند كل كلمة تقال ولو كلمة واحدة ، فرب كلمة واحدة أوقدت حربا . وأهلكت شعبا ، أو شعوبا . ورب كلمة واحدة أنزلت أمنا ، وأنقذت أمة أو أمما . وقد بين لنا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مكانة الكلمة الواحدة من الاثر فى قوله : « الكلمة الطيبة صدقة ، واتقوا النار ولو بكلمة طيبة ، »

وهذا الادب الاسلامى - وهو التروى عند القول واجتناب السوء واختيار الاحسن - ضرورى لسعادة العباد وهنائهم . وما كثرت الخلافات وتشعبت الخصومات وتنافرت المشارب وتباعدت المذاهب حتى صار المسلم عدو المسلم ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : المسلم أخو المسلم - الا بتركهم هذا الادب وتركهم للتروى عند القول والتعمد للسوء بل للاسوا فى بعض الاحيان .

التحذير من كيد العدو الفتان

« إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا » .

نزغ الشيطان وسوسته ليهيج الشر والفساد . وعداوته باعتقاده البغض وسعيه فى جلب الشر والضرر . وابانته لعداوته باعلانه لها كما علمنا القرآن .

وهو يلقي للانسان كلمة الشر والسوء ويهيج غضبه ليقوله ويهيج السامع ليقول مثلها وهكذا حتى يشتد المراء ويقع الشر والفساد . ولون آخر من نزغه ، وهو أنه يحسن للمرء قول الكلمة التى يكون فيها احتمال السوء ويلسح عليه فى قولها ويبالغ فى تحسين الوجه السالم منه وفى تهوين أمر وجهها القبيح - حتى يقولها . فاذا قالها أعاد لسامعه بالنزغ يطمس عنه الوجه السالم منها ويكبر له الوجه القبيح ولا يزال به يشير نخوته ويهيج غضبه حتى يثور فيقع الشر والفساد بينه وبين صاحبه .

فحذر الله تعالى عباده من كيده حتى يحترسوا منه اذا تكلموا واذا سمعوا فيتباعدون عما فيه احتمال السوء فضلا عن صريحه ويحملون الكلام على وجهه الحسن عند احتماله له ويتجاوزون عن سيئه الصريح ما امكن التجاوز .

المعاسنة على الحال والظاهر

والتفويض الى الله تعالى فى العواقب والسرائر

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » .

أقوى الاحوال مظنة لكلمة السوء هى حالة المناظرة والمجادلة ، وأقرب ما تكون الى ذلك اذا كان الجدال فى أمر الدين والعقيدة ، فما اكثر ما يضلل بعض بعضا أو يفسقه أو يكفره فيكون ذلك سببا لزيادة شقة الخلاف اتساعا ، وتمسك كل برأيه ونفوره من قول خصمه . دع ما يكون عن ذلك من البغض والشر . فذكر الله تعالى عباده بأنه هو العالم ببواطن خلقه وسرائرهم وعواقب أمرهم ، فيرحم من يشاء ويعذب من يشاء بحكمته وعدله ، فلا يقطع لاحد بأنه من أهل النار لجهل العاقبة سواء كان من أهل الكفر أو كان من أهل الفسق أو كان من أهل الابتداع كما لا يقطع لاحد بالجنة كذلك . الا من جاء النص بهم .

فلا يقال للكافر عند دعوته أو مجادلته انك من أهل النار ولكن تذكر الأدلة على بطلان الكفر وسوء عاقبته ، ولا يقال للمبتدع يا ضال وانما تبين البدعة وقبحها ، ولا يقال لمرتكب الكبيرة يا فاسق ولكن بين قبح تلك الكبيرة وضررها وعظم اثمها فتقبح القبائح والردائل فى نفسها وتجتنب أشخاص مرتكبيها . اذ رب شخص هو اليوم من أهل الكفر والضلال تكون عاقبته الى الخير والكمال ، ورب شخص هو اليوم من أهل الايمان ينقلب - والمياذ بالله تعالى - على عقبه فى هاوية الوبال .

وخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم - انه لم يرسله وكيلا على
 الخلق حفيظا عليهم كفيلا باعمالهم . فما عليه الا تبليغ الدعوة ونصرة
 الحق بالحق والهداية والدلالة الى دين الله وصراطه المستقيم - خاطبه
 بهذا ليؤكد لخلقه ما أمرهم به من قول التي هي أحسن للموافق والمخالف
 فلا يحملنهم بغض الكفر والمعصية على السوء في القول لاهلها فانما عليهم
 تبليغ الحق كما بلغه نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم ولن يكون أحد احرص
 منه على تبليغه فحسبهم ان يكونوا على سنته وهديه . أحيانا الله عليهما
 وأماتنا عليهما وحشرنا في زمرة اهلها آمين (1) .

(1) الشهاب - ج 11 ، م 6 - رجب 1349 هـ / ديسمبر 1930 م .

دعاء غير الله

من دعا غير الله فقد عبد ما دعاه

وهو في عبادته من الخاسرين

« قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 56)

المفردات : الدعاء : هو النداء لطلب شيء من المدعو ، ولذلك لا يدعى الا العاقل أو ما نزل منزلته مجازا من الجمادات ، أو ما كان له فهم لبعض الاصوات من الجمادات ، وإذا كان لشيء معظم ليطلب منه ما هو وراء الاسباب العادية وفوق الطاقة البشرية فهو عبادة ولا يكون الا من المخلوق لخالقه ، وإذا لم يكن كذلك فهو عادة وهو دعاء المخلوقين بعضهم بعضا لغرض من الاغراض . (والزعم) : القول بغير دليل . و (من دونه) . أى غيره . و (الملك) : الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه و (كشف الضر) : ازالته . و (لا تحويلا) : نقلا له الى شخص آخر .

التراكيب : أمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم فيه بظهور عجز من يدعون . وحذف مفعولا زعم ، والتقدير زعمتهم آلهة ، للملم بهما لانهم ما دعوهم الا لكونهم آلهة فى زعمهم . ولا يملكون : وقع بعد الفاء ولم يجزم فى جواب الامر لانه خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهم لا يملكون ، وهذا لان الفاء قصد بها العطف ولم يقصد بها السببية ، ولا يصح أن تقصد بها السببية لان ذلك يقتضى أن يكون عدم ملكهم متسببا عن الدعاء مثلها فى قول الشاعر :

رب وفقني فلا اعدل عن سنن الساعين في خير سنن
فان عدم المدول متسبب عن التوفيق . وليس كذلك الامر في هذه الآية
فان عدم ملكهم متحقق سواء دعوا ام لم يدعوا ، فلذلك امتنع النصب
ووجب الرفع على التقدير المتقدم .

المعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين اتخذوا آلهة من
دون الله فعبدها ، ادعوا معبوداتكم هذه التي زعمتموها آلهة من دون الله
عندما ينزل بكم الضر ، وانظروا هل تستطيع تلك المعبودات الباطلة أن
تكشف وتزيل عنكم ذلك ، أو أن تحوله عنكم الى غيركم فانكم تجدونها عاجزة
عن ذلك غير قادرة على شيء منه ، وانما يقدر على ذلك الاله الحق وهو الله
الذي خلقها وخلقكم فاعبدوه هو وادعوه هو واقلعوا عن عبادة ودعاء ما
سواه .

الأحكام : تدل الآية على أن دعاء غير الله تعالى لدفع الضر ومثله جلب
النفع - عبادة للمدعو ، فان المشركين كانوا يتمبدون لآلهتهم بهذا الدعاء
الذي نهاهم الله تعالى عنه ببيان خيبتهم فيه ووقوعه في غير محله . وتسمية
الدعاء عبادة ثابتة لغة وشرعا بغير ما دليل ، منها حديث النعمان بن بشير
عند أحمد وأصحاب السنن مرفوعا (الدعاء هو العبادة) وحديث أنس
عند الترمذي مرفوعا (الدعاء مخ العبادة) وهذه لأن العبادة هي الخضوع
والتذلل لمن بيده الخلق والتصرف والمطاء والمنع ، ومظهر هذا الخضوع
والتذلل هو الدعاء لدفع الضر ، أو جلب النفع ، ولذلك عبر عنه في الحديث
الاول بأنه هو العبادة أى معظمها ، وفي الثاني بأنه مخ العبادة أى خالصها
ودلت الآية أيضا على أنه لا يجوز دعاء غير الله من المخلوقين أى مخلوق كان
لدفع ضر - ومثله جلب نفع - لان الآية نعت على المشركين دعاءهم من لا يملك
كشف الضر ولا تحويله . وهذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين فلا مخلوق
يستطيع كشف الضر أو تحويله عن نفسه ولا عن غيره ، فلا مخلوق يجوز
دعاؤه ودلت على أن كشف الضر أو تحويله - ومثله جلب النفع - انما هو
للمعبود الحق لان الآية استدلت عليهم في مقام الامر بتوحيد الله بالعبادة

بانتقام ملك كشف الضر أو تحويله عن غير الله ، فافاد ذلك قصر هذا التصرف عليه تعالى وحده .

استنتاج : لما ثبت شرعا أن الدعاء عبادة فمن دعا شيئا فقد عبده ولو كان هو لا يسمى دعاءه عبادة جهلا منه أو عنادا لان العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلف واعتباره ، الا ترى لو أن شخصا قام للصلاة بدون وضوء مستحلا لذلك فلما أنكرنا عليه قال اننى لا اعتبر هذه الافعال والاقوال عبادة ولا اسميها صلاة ، أترى ذلك يجيز فعله ويدفع عنه تبعته ؟ كلا ، ولا خلاف فى ذلك بين المسلمين . بل قد حكموا بردته ان كان يفعل ذلك ويراه حلالا . لانه يكون قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة فالداعى لغير الله تعالى يطلب منه قضاء حوائجه قد عبد من دعاه وان لم يعتبر دعاءه عبادة ، لان الله قد سماه عبادة ، واذا استمر على فعله ذلك مستحلا له بعد تعليمه وارشاده يكون قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة وهو أن العبادة - والدعاء منها - لا تكون الا لله فيحكم بردته نظير مستحل الصلاة بلا وضوء بلا فارق .

تطبيق : اذا علمت هذه الاحكام فانظر الى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين ، تجد السواد الاعظم من عامتنا غارقا فى هذا الضلال ، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الاحياء والاموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر ، وجلب النفع ، وتيسير الرزق ، واعطاء النسل ، وانزال الفيت وغير ذلك مما يسألون ويذهبون الى الاضرحة التى شيدت عليها القباب ، أو ظلمت بها المساجد ، فيدعون من فيها ويدقون قبورهم ويندرون لهم ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم وقد يهددونهم بقطع الزيارة ، وحبس النذور ، وتراهم هنالك فى ذل وخشوع وتوجه قد لا يكون فى صلاة من يصلى منهم ، فاعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعويين وان لم يعتقدوها عبادة ، اذ العبادة باعتبار الشرع لا باعتبارهم ، فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباسا مقلوبا حتى أصبحنا فى هذه الحالة السيئة من الضلال .

تعذير وارشاد : فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله وليحذروا غيرهم منه . ولينشروا هذه الحقائق بين اخوانهم المسلمين بما استطاعوا عسى أن يتنبه الغافل ، ويتعلم الجاهل ، ويقلع الضالون عن ضلالتهم ، ولو بطريق التدريج ، وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم وقاموا بفريضة النصح ، وخدموا الإسلام والمسلمين .

نجاة المعبودين بهداهم وهلاك العابدين بضلالهم

« أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 57)

المفردات : يبتغون : يطلبون باعتناء واهتمام . (الوسيلة) سبب الوصول الى البغية والقرب من المطلوب ، والوسيلة الموصلة الى الله هي عبادته ، وطاعته بامتثال أوامره ونواهيه ، والتزام محابه واجتناب مكارهه ، وهذا المعنى هو المراد هنا . (أقرب) : أى فى المكانة والمنزلة (يرجون رحمته) : ينتظرون انعاماته لافتقارهم اليه . (ويخافون عذابه) : يخشون عقوبته ، وانتقامه لعلمهم بقوته وسلطانه ، وقصورهم عن القيام بجميع واجب حقه . (محذورا) مخيفا متحذرا منه .

التراكيب : أولئك : اشارة الى المعبودين الذين وصفهم . ويدعون ضميره للداعين . وأصله يدعونهم ، يبتغون خير أولئك . و (أيهم) : اسم موصول مضاف الى ضمير المبتغين ، وهو بدل بعض من كل من الواو فى يبتغون « وأقرب » خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة صلة الموصول ، ويحتمل أن يكون أيهم استفهاما مبتدأ وأقرب خبر ، وتقدير الكلام ينتظرون أيهم أقرب .

نزول الآية : قال ابن مسعود : هي في نفر من الانس كانوا يعبدون نفرا من الجن ، فأسلم الجن وبقي الانس على عبادتهم ، وجاء عنه وعن غيره انها في الذين كانوا يعبدون الملائكة من العرب .

المعنى : أولئك الجن والملائكة الذين يدعوه هؤلاء المشركين أربابا قد أسلموا فصاروا من عباد الله المؤمنين يطلبون أسباب الزلفة والقرب عند ربهم ينظرون من هو الذي يكون منهم أقرب مكانة باجتهاده ، وصالح عمله (هذا على الاعراب الثاني وعلى الاعراب الاول : يطلب الذي هو أقرب منهم أسباب الزلفة عند الله فأحرى وأولى غيره) ويرجون بأعمالهم الصالحة رحمته ويخافون بمخالفتهم عذابه . ان عذاب ربك كان من حقه وشأنه ان يتقى ويحذر لما فيه من عظيم الخزي وشديد الألم .

الاحكام : أفادت الآية أن العباد لا تنفع صاحبها الا اذا كانت على الوجه الحق والا فانه لا يحصل منها الا على الخيبة والوبال ، وأن المكلف لا يحمل شيئا من اثم عمل غيره اذا لم يكن راضيا به ولو كان ذلك العمل متسببا عنه اذا لم يكن متسببا هو فيه . وأن المكلف مطالب بأن يطلب أسباب القرب الى الله بجهد واجتهاد وأن يكون جامعا بين الرجاء والخوف في سلوكه .

التطبيق : نعرف كثيرا من الصالحين - رحمهم الله تعالى - قد شيدت عليهم القباب ونذرت لهم النذور وقصدوا لقضاء الحاجات ودعوا في المهمات وكان ذلك كله مما أحدثه المحدثون بمداهم وبالغ فيه المستغلون له ممن ينتمون اليهم فهم - ان شاء الله تعالى - برآء من اثم ذلك كله وانما اثمه على فاعليه .

عبرة وتحذير : يأتي يوم القيامة أولئك الذين كانوا يدعون الملائكة والجن المسلمين وعباد الله الصالحين ويحسبون أنهم ينفعونهم في ذلك اليوم . فيتبرأ منهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم بدعائهم ويتركونهم في ذلك الموقف العصيب . فما أمر خيبتهم يومذاك وما أعظم حسرتهم ويا لها من عبرة لقوم يعقلون .

فعداز يا اخواننا من هذه الماقبة السيئة وهذا الموقف المخزى ، فبادروا
الى توحيد الله بالدعاء الذى هو مخ العبادة واقتصروا فى جانب المالحين
على محبتهم والترضية عليهم وسؤال الرحمة لهم والافتداء بهم فيما كان
منهم من طاعة وخير ولا تعظموهم بما لا يكون الا لله رب العالمين •
والله ينصرنا بالحق ويهدينا اليه ويجعلنا من حزبه ويبيتنا عليه
آمين يا رب العالمين (1) •

(1) الشهاب : ج 12 م 6 ، شعبان 1349 هـ جانفى 1930 م •

الطور الأخير لكل أمة وعاقبته

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 59)

تمهيد : الامم كالأفراد ، تمر عليها ثلاثة اطوار : طور الشباب ، وطور الكهولة ، وطور الهرم ، فيشمل الطور الاول نشأتها الى استجماعها قوتها ونشاطها مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة . ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان الى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها ان تبلغه من ذلك بما كان فيها من مواهب وما كان لها من استعداد وما لديها من أسباب ، ويشمل الطور الثالث ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال ، الى ان يحل بها الفناء والاضمحلال . اما بانقراضها من عالم الوجود ، واما باندراسها من عالم السيادة والاستقلال ، وما من أمة الا ويجرى عليها هذا القانون العام وان اختلفت اطوارها في الطول والقصر كما تختلف الاممار .

هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الامم في هذه الدنيا أشار اليها في كتابه العزيز في غير ما آية .

فذكر أعمال الامم وانها مقدرة محددة بأجالها في مثل قوله تعالى : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ كَذَٰلِكَ جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » ، وذكر انشاء الامم على اثر الهالكين في مثل قوله تعالى : « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظِلَّةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ » ، وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى : « نَحْنُ وَبَنُوكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ » .

وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَقْعَلُونَ ، فان بنى اسرائيل ما استخلفوا فى الارض حتى قواوا واشتدوا وتكونت فيهم اخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والافنة بعد خروجهم من التيه وذلك هو الطور الاول طور الشباب للامة الاسرائيلية ، وذكر الطور الثانى وهو طور الكهولة واستكمال القوة وحسن الحال ورغد العيش فى مثل قوله تعالى : « وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ » وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال فى مثل قوله تعالى : « وَتِلْكَ الْأُقْىُ أَهْلَكْنَاهُمْ كَمَا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِقَلِبِهِمْ مَوْعِدًا » واهلاكهم يكون بعد اسباغ النعمة واقامة الحجة عليهم وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم . فاهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من اطوار الالمم الثلاث . والى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء البيان فى قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » .

الالفاظ : « القرية » : المساكن المجتمعة ومادة (ق ر ي) تدل على الجمع ، فتصدق على القرية الصغيرة والمدينة الكبرى وتطلق القرية مجازا على السكان اطلاقا لاسم المحل على الحال . ومنه هذا . و « الاهلاك » : الابادة والافناء بالاستئصال كما فعل بعاث وشمود . و « قبل يوم القيامة » اى فى الدنيا و « العذاب الشديد » : كامراض الابدان وفساد القلوب وانحطاط الاخلاق وافتراق الكلمة وتسليط الظلام كما أرسل على بنى اسرائيل عبادا اولى باس شديد فساءوا وجوههم وجاسوا خلال ديارهم ، وكثسليط اهل الحق على اهل الباطل ، وكالجذب والقحط وجوائح الارض وجوائح السماء . و « فى الكتاب » : اى اللوح المحفوظ و « مسطورا » اى مكتوبا اسطارا مبينا .

التراكيب : « ان » نافية و « من » زيت لاستغراق الجنس وتاكيد الموم و « الا » افادت مع ان النافية حصر كل قرية فى احد الامرين من الهلاك والعذاب الشديد ليعلم ان لا نجاة لكل قرية من احدهما قطعا .

و « أو » تنفيذ احد الشئتين المذكورين على الابهام وعدم التعيين و « ذلك »
اشارة الى المذكور من الهلاك والتعذيب .

المعنى : يقول تعالى ما من قرية على وجه الارض الا ولابد أن يحل بها
منا هلاك وفناء بما يبيدها ويقنيها أو عذاب شديد لا يقنيها ولكنه يذيقها
أنواع الآلام وشديد النكال . كان هذا قضاء سابقا فى علمنا ماضيا فى
ارادتنا مكتوبا أسطارا فى اللوح المحفوظ .

الاحكام : احكام الله تعالى قسمان : احكام شرعية وهى التى فيها بيان
ما شرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم اذا ساروا عليه ،
واحكام قدرية وهى التى فيها بيان تصرفه فى خلقه على وفق ما سبق فى
علمه وما سبق فى ارادته .

والاحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها فيتخلف مفتضاها من الفعل
أو الترك ، والاحكام القدرية لا تتخلف أصلا ولا يخرج المخلوقات عن
مقتضاها قطعا . وفى هذه الآيه حكم من احكامه القدرية وهو ان كل قرية
لا بد ان يصيبها احد الامرين المذكورين بما سبق من علمه وما مضى من
ارادته فلا يتخلف هذا الحكم ولا تخرج عنه قرية .

إيضاح وتعليل : الله حكم عدل حكيم خبير ، فما من حكم من احكامه
الشرعية الا وله حكمته . وما من حكم من احكامه القدرية الا وله سبب
وعلته . لا لوجوب أو ايجاب عليه . بل بمحض مشيئته ، ومقتضى عدله
وحكمته . وقد قضى على كل قرية بهذه العاقبة من الهلاك أو العذاب الشديد
فى هذه الآيه ، وبين فى غيرها سبب استحقاقها لهما فقال تعالى :
« وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ أُولَئِكَ أَهْلُكُمْ لَمْ ظَلَمُوا » « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفُرَى بِظُلْمٍ
وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » « وَكَمْ قَصَمْنَا
مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً » « وَكَانَتْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ
فَعَاسَيْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا » « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً
كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ
فَإِذَا هِيَ لِلَّهِ لِبَاسٍ أَلْبُسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » فانادت هذه

الآيات ان سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعتو والتمرد عن امر الله ورسله والكفر بانعم الله . وما ربك بظلام للعبيد .

توجيه : الطور الاخير للام هو الذى ذكر فى الآيات كثيرا دون الطور الاول والثانى . ووجه ذلك انه هو الطور الذى ينتشر فيه الفساد ويعظم فيه الظلم وينتهى فيه الاعذار للامة ويحل فيه اجلها فينزل بها ما تستحقه من هلاك او عذاب . فكرر ذكر هذا الطور لزيادة التحذير منه والتخويف من سوء عاقبته والحث على تدارك الامر فيه بالاقلاع عن الظلم والفساد والرجوع الى طاعة الله واعمال يد الاصلاح فى جميع الشؤون فيرتفع العذاب ، بزوال ما كان لنزوله من أسباب .

استنتاج وتطبيق : القرى التى قضى عليها بالهلاك والاستئصال هذه قد انتهى امرها بالموت وفات عن العلاج مثل عاد وشمود من الامم البائدة . واما القرى التى قضى عليها بالعذاب الشديد فهذه لا تزال بقيد الحياة فتداركها ممكن وعلاجها متيسر . مثل الامم الاسلامية الحاضرة . فمما لا شك ان فينا لظما وعتوا وفسادا وكفرا بانعم الله ، واننا من جراء ذلك لقى عذاب شديد . ولا نعى بهذا ان الامم الاسلامية مخصوصة بهذا بل مثلها واغوى منها فى أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الارض . وان لهم لقسطهم من العذاب الشديد ، واذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك او العذاب لما عندهم من أسبابهما فلأنه لكل أمة أجل ولما يأت ذلك الاجل بعد . فاذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

ارشاد واستنهاض : قد ربط الله بين الاسباب ومسبباتها خلقا وقدرنا بمشيئته وحكمته لنهتدى بالاسباب الى مسبباتها ونجتنبها باجتناى أسبابها وقد عرفنا فى الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقى تلك الاسباب فنسلم أو نفلح عنها فننجو . فان بطلان السبب يقتضى بطلان المسبب . وقد ذكر لنا فى كتابه أمة اقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعدما كان ينزل بها ليؤكد لنا ان الاقلاع عن السبب ينجى من المسبب فقال تعالى: **«إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ»** فمبادرتهم للايمان واقلاعهم عن الكفر كشف عنهم

العذاب ، وارشدنا فى ضمن هذا الى العلاج الناجع فى كشف العذاب وابطال اسبابه وهو الايمان ، كما ارشدنا الله اليه ايضا فى قوله تعالى قبل هذا : « قُلْ لَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا » أى نجاها من العذاب وذكر قوم يونس دليلا على ذلك . وارشدنا اليها ايضا فى قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » فالإيمان والتقوى - هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لاننا اذا التزمناهما نكون قد اقلعنا عن أسباب العذاب . ولا ننهض بهذا العلاج العظيم الا اذا قمنا متعاونين أفرادا وجماعات فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه وبدأ به فى نفسه ثم فىمن اليه ثم فىمن يليه من عشيرته وقومه ثم جميع أهل ملته ، فمن جعل هذا من همه وأعطاه ما قدر عليه من سعيه كان خليقا أن يصل الى غايته أو يقترب منها . ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد واعمالنا من المخلفات ، ولنستشعر أخوة الإيمان التى تجعلنا كجسد واحد ولنشرع فى ذلك غير محتقرين لانفسنا ولا قانطين من رحمة ربنا ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا . فبدوام السعى واستمراره يأتى ذلك القليل من الاصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله ، وليكن دليلنا فى ذلك وامامنا كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وسيرة صالح سلفنا . ففى ذلك كله ما يعرفنا بالحق ويبصرنا فى العلم ويفقهنا فى الدين ويهدينا الى الاخذ بأسباب القوة والمز والسيادة العادلة فى الدنيا ونيل السعادة الكبرى فى الاخرى . وليس هذا عن العاملين ببعيد ، وما هو على الله بعزيز .

رجاء وتفاهل : ان المطلع على أحوال الامم الاسلامية يعلم انها قد شعرت بالداء ، واحسست بالعذاب ، واخذت فى العلاج . وان ذلك وان كان يبدو اليوم قليلا لكنه بما يحوطه من عناية الله وما يبذل فيه من جهود المصلحين - سيكون باذن الله كثيرا وعسى أن يكون فى ذلك خير للامم الارض أجمعين .

حقيق الله الآمال وسدد الاعمال بلطف منه وتيسير ، انه نعم المولى ونعم النصير (1) .

(1) الشهاب - ج 1 ، م 7 - رمضان 1349 هـ / فيفري 1931 م .

التكريم الرباني للنوع الانساني

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » .

(سورة الاسراء - الآية : 70)

اللفظة : (كرمنا) : الكرم ضد اللؤم ، يوصف به الشيء لشرفه في ذاته
بكمال صفاته أو لحسن أفعاله وما يصدر عنه من النفع لغيره ، فيقال فرس
كريم وشجرة كريمة وأرض كريمة اذا حسنت هذه الاشياء في ذواتها
وكملت فيها صفات انواعها ، ويقال: نفس كريمة اذا كملت بحاسن
الاخلاق التي بها كمال النفوس . وقالت بلقيس في كتاب سليمان عليه
السلام : « إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكِ كِتَابَ كَرِيمٍ » لانه كان على أكمل ما تكون عليه الكتب
من بيان اسم مرسله وذكر اسم الله تعالى في أوله وختم على ما فيه ،
هذا كله من كرم الذات بما كمل فيها من صفات . ووصف جبريل بانه
رسول كريم لشرف ذاته الملكية وحسن أفعاله بما كان على يده من نفع
للخلق بتبليغ الوحي والهدى وهذا من كرم الذات والافعال ، وهو الكرم
الكامل الذي يكون بشرف الذات ونفع الافعال . ويقال كرم الشيء - بضم
الراء - لازما ، ويتعدى بالهمز والتضعيف ، فيقال أكرمته وكرمته بمعنى
واحد ، أى فعلت له فعلا فيه رفعة له ومنفعة . فكرمنا بنى آدم ، أى فعلنا
لهم ما فيه رفعتهم ومنفعتهم ، من انعاماتنا عليهم . (وحملناهم) : من
الحمل بمعنى الرفع أى أركبناهم ورفعناهم عل. المركوبات مثل قوله تعالى :

« وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » (1) •
« وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ » (2) « ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ » (3) •
و (الطيبات) : ما يطيب للأكل والشرب مما يلذ في الطعم وتحمد عاقبته ،
فلا يكون الطيب الا حلالا غير الحلال - وان لذ طعمه في بعض أقسامه -
فانه لا تحمد عاقبته بما فيه من اثم ، وتبعة وما يكون فيه من ضرر •
(وفضلناهم) : من الفضل بمعنى الزيادة أى صيرناهم ذوى فضل وزيادة
فى الكرامة كما تقول : فضلت زيدا على عمر فى العطاء أى صيرته ذا فضل
وزيادة عليه فيه •

التراكيب : متعلق (حملناهم) محذوف لقصد التعميم المناسب لمقام
الامتنان بالتكريم مع الاختصار ، تقديره : على كل ما يصلح لحملهم عليه •

المعنى : يقول تعالى : ولقد أنعمنا على بنى آدم نعمًا عظيمة كثيرة فى
خلقتهم من تركيب أبدانهم وأرواحهم وعقولهم ، وفى حياتهم بما مكناهم
من أسباب السلطان على غيرهم من الخلق من عالم الجماد والنبات والحيوان
وتسخير هذه العوالم لهم يحصلون منها منافعهم ، فأوصلنا اليهم هذه النعم
وكرمناهم بها فنفعناهم ورفعنا أقدارهم • ومن هذا التكريم والانعام
الذى فيه المنفعة وفيه الرفعة أننا سخرنا لهم ما يركبونه فى البر والبحر
ومكناهم من أسباب تسييره والانتفاع به ، وأتينا بثمننا لهم على وجه الارض
أنواعا من المأكول والمشارب اللذيذة المباحة من النبات والحيوان والجماد ،
فخلقناها صالحة لغذائهم ومكناهم من أسباب تحصيلها واصلاحها والتفنن
فيها • فكان لهم بذلك كله زيادة بينة من نعمتنا ، وفضل محقق على كثير
من مخلوقاتنا •

(1) سورة التوبة

(2) سورة القمر

(3) سورة الاسراء

مسائل :

المسألة الاولى : تكريم الله تعالى لخلقه ، قسمان : أحدهما عام والآخر

خاص .

فأما العام : فهو اخراجه لهم من العدم الى الوجود واعطاؤه لكل شيء منهم خلقته اللائقة به من تركيب أجزاء ذاته وتعديل مادة تكوينه ومن أعضائه - اذا كان من ذوى الاعضاء - التى يحتاج اليها فى حياته لجلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، وهدايته والهامه ما خلق صالحا لذلك الى استعمال تلك الاعضاء وطرق الجلب والدفع بها .

وأما الخاص : فهو تكريمه وانعامه على عباده المؤمنين بنعمة الاسلام فى الدنيا ، وبقدر السلام فى الاخرى . والتكريم المذكور فى هذه الآية من القسم الاول العام كما سيتبين فى المسألة الرابعة .

المسألة الثانية : جميع المخلوقات التى أخرجها الله تعالى من الوجود الى العدم وان كانت متساوية فى أصل التكريم العام فانها متفاوتة فيه بحسب تفاوتها فى شرف الذات وكمال الخلقة ، فعالم النبات أكثر حظا فى التكريم من عالم الجماد ، وعالم الحيوان أكثر حظا منهما ، ونوع الانسان أكثر حظا فى التكريم العام من جميع الحيوان .

المسألة الثالثة : عظم حظ الانسان من هذا التكريم من جهة ذاته بحسن صورته واعتدال مزاجه ، ومن جهة روحه بأنها من العالم النوراني العلوى وبأنها مع اتصالها بالبدن قابلة للتحلل بأكمل الصفات وأطهر الاخلاق ، وعرف الاسباب ومسبباتها ووجوه ارتباطاتها واتصالاتها ونسبة بعضها الى بعض ، فملك وساد واستفاد وأفاد .

المسألة الرابعة : هذا التكريم المذكور فى المسألة السابقة هو عام للنوع الانساني من حيث هو انسان لا فرق فيه بين من آمن ومن كفر لانه راجع للخلقة الانسانية التى يتساوى فيها الجميع ، والتمكين من اسباب المنافع الذى هو ثابت لجميع النوع بما عنده من عقل وتفكير وهذا هو مقتضى

العموم المستفاد من لفظ (بنى آدم) ومثل هذا التكرير فى العموم الحمل فى البر والبحر والرزق لانهما من جملة التكرير ، كما تقدم فى فصل بيان المعنى :

المسألة الخامسة : تفضيل الله تعالى لمن يشاء من خلقه قسمان : تفضيل فى الخلقة وتفضيل فى الجزاء والثوبة . فمن الاول تفضيل بنى آدم المذكور فى هذه الآية بما كرموا به واعطوه فى خلقتهم من الوجوه المتقدمة زائدا على كثير من مخلوقات الله مما كانت لهم به الرفعة والمنفعة لجميع نوعهم على العموم . ومن الثانى تفضيل المجاهدين على القاعدين فى قوله تعالى : « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » (1) .

المسألة السادسة : اقتضى قوله تعالى : « وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ » أى بما كرمناهم به فى خلقتهم أنهم لم يفضلوا على جميع مخلوقات الله وأن بعض المخلوقات أفضل منهم فى الخلقة وأكثر منهم كرما فى الجنس فمن هو هذا المخلوق المفضل عليهم ؟ هذا ما نبينه فى المسألة التالية :

المسألة السابعة : اذا نظرنا فى عوالم المخلوقات فاننا نجدها منقسمة الى قسمين : قسم مشاهد ، وقسم غير مشاهد علمناه بالوحى الصادق من الكتاب والسنة .

فالقسم الأول : هو عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان ، وهذا القسم كله قد فضل عليه الانسان بميزة عقله التى ساد بها الجميع وبغيرها مما تقدم .

والقسم الثانى : هو الملائكة والجن فاما الجن ، فالانسان اشرف منهم خلقة واكرم عنصر ، فهم ظلماتيون خلقوا من النار . وهو ترابى وروحه من عالم النور الذى هو عالم الملائكة . فلذا كان اهلا لاصطفاء الرسل منه كما اصطفيت من الملائكة ولم يصطف من الجن رسول ولا نبي ، واما الملائكة فخلقتهم اشرف من خلقة الانسان واكرم لانهم خلقوا

(1) سورة النساء .

من نور محض منزّه أجسامهم النورانية عن كثافة الاجساد الانسانية
الترابية واخلاطها وظلمتها ، فلم يفضل عليهم النوع الانسانى عن الخلقة
بل فضلوا عليه فهم غير الكثير الذى فضل عليه الانسان .

المسألة الثامنة : المفاضلة تقع بين الملائكة وبنى آدم على وجهين : اما من
جهة الخلقة واما من جهة المثوبة . فاما من جهة الخلقة فقد عرفنا فى المسألة
المتقدمة ان الملائكة افضل ، والآية ظاهرة فى ذلك ظهورا بينا . واما من جهة
الاجر والمثوبة فهو خارج عن معنى الآية وموضوعها ، وأفضل الخلق
- صلى الله عليه وآله وسلم - أفضل منهم قطعا ، وفى المفاضلة بين الانبياء
والملائكة فى الاجر والثواب خلاف كبير وتفويض أمر ذلك الى الله تعالى فى
مقام التذكير أسلم .

سلوك المكرمين - حكمة الامتنان بتكريم الانسان :

امتن الله تعالى على بنى آدم بهذا التكريم لهم فى شرف الخلقة ورفعتهما ،
وكثرة المنفعة وتيسير اسبابها تذكيرا لهم بنعمته ليشكروها فيزيدهم منها ،
وتعريفا لهم بشرف أنفسهم ليقدروها فينتفعوا بها . فهذان الامران هما
الحكمة المقصودة بهذا الامتنان فلتتكلم عليها فى الفصلين التاليين .

شكر العبد لنعمة ربه : قد ابتدأنا بهذه الكرامة فى الخلقة بدون سمي
منا ولا عمل ، وهو المبتدئ بالنعم قبل استحقاقها . فمن عرف هذه الكرامة
وشكرها كان من المكرمين ، ومن لم يعرف قيمتها وكفرها كان من المهانين .
« وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ » ، فلنقابل هذا التكريم فى الخلقة بالشكر
الجزيل بأن نعقد قلوبنا على تعظيم النعمة به ، ونطلق السنتنا بالاعتراف
والثناء على مسديه ، ونستعمل هذه الخلقة الكريمة فى مرضى ربنا وطاعته .
متوسلين بشكر ما ابتدأنا به خالقنا من تكريم الخلقة الى ما وعد به الشاكرين
من تكريم الجزاء والمثوبة بأنواع الطافه وانعامه وجزيل فضله واکرامه .
فسبحانه ذا الجلال والاکرام .

معرفة العبد لقدر نفسه : قد استودعنا خالقنا خلقه كريمة ، فعلينا ان
نعرف قيمتها وأن نقدرها قدرها . وحق على من كرمه ربه أن يكرم نفسه ،

فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوئ الأخلاق
وتحليتها بمكارمها ، وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الاوهام والشكوك
والخرافات والضلالات ، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات
وتكريم جوارحنا بتنزيهها عن المعاصي، وتجميلها بالطاعات فنتحرى بأقوالنا
وأفعالنا أكرم الأقوال وأكرم الأعمال ، ونترفع عن جميع الرذائل والدنایا ،
ونبتاعد عن كل مواطن السوء والسفالة، ونحفظ كرامتنا وشرفنا أمام الله
والناس، ونجهتد أن لا يمسنا بسوء لا منا ولا من غيرنا . فإذا قدرنا - هكذا -
أنفسنا وشكرنا - كما تقدم - ربنا بلغنا - باذن الله تعالى - أبعد الغايات
من التكريم والتفضيل . يسرنا الله والمسلمين أجمعين لما يسر له عباده
المكرمين المفضلين برحمتك يا أرحم الرحمن (1) .

(1) الشهاب - ج 2 ، م 7 - شوال 1349 هـ - مارس 1931 م .

الصلاة لأوقاتها

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ
إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » .

(سورة الاسراء - الآية : 78)

المفردات : (أقم) : أمر من أقام أى اجعلها قائمة وذلك بحفظها والمحافظة عليها وحفظها صونها من الخلل فى شروطها وأركانها من أقوالها وأعمالها فى الظاهر والباطن . والمحافظة عليها بالمداومة عليها فى أوقاتها . (الصلاة) : المراد الصلوات الخمس المكتوبة . (للذلوك) : اللام لام الاجل والسببية (للذلوك) هو الميل وبدايته عند الزوال ونهايته بالغروب (الى) لانتهاء الغاية ، ففسق الليل هو نهاية غاية الإقامة . (الفسق) : هو ظلمة الليل، وبداية الظلمة بالغروب وتامها بعد مغيب الشفق عند اشتداد الظلمة . (قرآن الفجر) : ما يقرأ به فى صلاة الفجر - وهى الصبح - من القرآن فسميت قرآنا من تسمية الكل باسم جزئه - تنبيهها على أهمية ذلك الجزء ومكانته . (مشهودا) : محضورا .

التراكيب : أفادت اللام السببية ان ميل الشمس سبب فى وجوب الصلاة والى عند التجرد عن القرائن لا يدخل ما بعدها فى حكم ما قبلها ، لكن هنا قامت القرينة الشرعية - وهى مشروعية الصلاة فى الليل - على ان ما بعد الى داخل فى حكم ما قبلها فهو محل أيضا لإقامة الصلاة فيه. وقرآن الفجر منصوب عطفا على الصلاة وخصصت بالذكر لانها لم تكن عند ميل الشمس ولا عند الفسق . بل تكون عند الوقت الذى اضيفت اليه وهو الفجر . وجملة (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) تذييل لتأكيد اقامة صلاة الفجر .

المعنى : اقم يا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وأمره أمر لأمته لانهم مأمورون بالاعتداء به - الصلاة لاجل ميل الشمس فاد الظهر والعصر ، وفى غسق الليل فاد المغرب والعشاء ، و اقم صلاة الفجر انها صلاة مشهودة •

بيان وتوجيه : هذه الآية قد انتظمت اوقات الصلوات الخمس ، ووجه ذلك بوجوه :

الاول - ان الظهر تكون اول الميل والعصر تكون وسطه •
وان المغرب تكون عند اول الغسق والعشاء تكون عند شدته بمغيب الشفق • والصبح عند الفجر •

الثانى - ان الظهر عند اول الميل والعصر عند وسطه والمغرب عند نهايته والعشاء عند الغسق أى اشتداد الظلمة فانه اذا تم الميل ابتدأت الظلمة •

الثالث - ولم أره لاحد واللفظ يحتمله - ان ميل الشمس يتبدى بالزوال وينتهى فيما يرى لنا بالبحر بمغيب الشفق غير ان ميلها فى الزوال والغروب مشاهد بمشاهدة ذاتها ، وميلها بعد الغروب مستدل عليه بما يشاهد من أخذ الشفق فى المغيب الى ان يغيب بتمامه ، ولا شك ان ذلك نتيجة ميلها من وراء الافق ، فالصلوات الاربع على هذا واجبة لدلوك الشمس • اما غسق الليل فهو اشتداد ظلمته وذلك يكون على اتمه بعد مضى الثلث الاول من الليل فيكون غسق الليل بهذا المعنى خارجا عن حكم ما قبل الى ، لان وقت العشاء ينتهى بانقضاء الثلث الاول فالاوليات تنتهى عند غسق الليل •

تفسير نسوى : اخرج البخارى رحمه الله تعالى فى صحيحه عن ابي هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « تفضل صلاة الجميع صلاة احدثكم وحده بخمس وعشرين جزءا وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر » • ثم يقول ابو هريرة فاقرءوا ان شئتم : « إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » • فاستشهد ابو هريرة بالآية على الحديث ليبين انه تفسير لها وان صلاة الفجر مشهودة

تشهدا ملائكة الليل وملائكة النهار • وجاء هذا عند أحمد عن ابن مسعود مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم • وجاء اجتماع الملائكة بأبسط من هذا عند مالك رحمه الله فاخرج في موطنه عن أبي هريرة (رض) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو اعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » •

استنباط : من تخصيص صلاة الفجر بجملة التذليل المؤكدة ، وما اشتملت عليه من هذه المزية أخذ جماعة من أهل العلم افضليتها على غيرها فان قلت ان صلاة العصر أيضا لها هذه المزية كما تقدم في حديث مالك • قلت : ان ثبوت هذه المزية للفجر قطعى بنص القرآن ومتفق عليه في روايات الحديث بخلاف العصر فقد جاء في بعض الروايات دون بعض ، وتبقى الفجر ممتازة بتخصيصها بالتاكيد في نص الكتاب ، وكفى هذا مرجحا لها •

ترغيب وترهيب : قد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الترغيب في امتثال هذا الامر (أَقِمِ الصَّلَاةَ) وفي الترهيب من مخالفته من الاحاديث ما فيه مقنع ومزدرج، فمما جاء فيها حديث عبادة ابن الصامت (رض) قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ان شاء عذبه وان شاء ادخله الجنة » رواه مالك وغيره •

ومما جاء في الترغيب حديث أبي هريرة (رض) قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « أرايتم لو ان نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا لا يبقى من درنه شيء • قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » • رواه الشيخان في صحيحهما • ومما جاء في الترهيب حديث جابر بن عبد

الله (ض) : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » . رواه مسلم وغيره بنحوه . وحديث بريدة (ض) مرفوعا : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » . رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترميذى وابن حبان والحاكم .

الاحكام : قد قال بكفر تارك الصلاة جماعات كثيرة من الفقهاء والمحدثين سلفا وخلفا مستدلين بحديث جابر وحديث بريدة الصريحين فى كفره ، وذهبت جماعات أخرى كذلك الى عدم كفره على عظم جرمه ، مستدلين بحديث عبادة بن الصامت المتقدم الصريح فى جعله فى المشيئة ، والكافر مقطوع له بدخول النار . ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة هو الكفر العملى .

والكفر قسمان اعتقادى وهو الذى يضاد الايمان ، وكفر عملى وهو لا يضاد الايمان ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كذلك . وبهذا يجمع بين الاحاديث . وكفى زاجرا للمرم عن ترك الصلاة ان يختلف فى ايمانه هذا الاختلاف .

تعليم : فى ربط الصلاة بالاوقات تعليم لنا لربط أمورنا بالاوقات ونجعل لكل عمل وقته ، فللنوم وقته وللاكل وقته وللراحة وقتها ولكل شئ وقته . وبذلك ينضبط للانسان أمر حياته وتطرد له أعماله ويسهل عليه القيام بالكثير من الاعمال . اما اذا ترك أعماله مهمة غير مرتبطة بوقت فانه لابد ان يضطرب عليه أمره ويتشوش باله ولا يأتى الا بالعمل القليل ويحرم لذة العمل، واذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضعف فقل سعيه وكان ما يأتى به من عمل - على قلته وتشويشه - بعيدا عن أى اتقان . وقد كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم مقسما لزمانه على أعماله ، وفيه القدوة الحسنة .

فقد روى عياض فى « الشفا » عن على (ض) قال كان - صلى الله عليه وآله وسلم - اذا أوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء فجزأ لله وجزأ لاهله وجزأ لنفسه ثم جزء جزأ بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئا . فكان من سيرته فى جزء الأمة ايثار أهل

الفضل باذنه قسمته على قدر فضلهم فى الدين ، منهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والامة من مسالته عنهم ، واخبارهم بالذى ينبغى لهم ، ويقول : ليلبغ الشاهد منكم الغائب ، وابلفونى حاجة من لا يستطيع ابلاغى حاجته ، فانه من ابلى سلطانا حاجة من لا يستطيع ابلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة . لا يذكر عنده الا ذلك ولا يقبل احد غيره يدخلون روادا ولا يتفرقون الا عن ذواق ويخرجون ادلة انتهى . فهكذا ينبغى للمسلم ان يقسم اوقاته على اعماله ويمررها كلها بالخير . وكما ربط الله له صلاته بالاوقات وهى من أمور دينه كذلك يربط هو بالاوقات جميع أمور دنياه .

والله نسال لنا ولجميع المسلمين ان يقصرنا على طاعته ويفقهنا فى أسرار دينه ويوفقنا الى اتباع سنة رسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام .

نافلة الليل وحسن عاقبتها

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 79)

الالفاظ : من : للتبويض . الهجود : النوم والهاجد النائم و ج هجود ومنه : (الا طرقتنا والرفاق هجود) والتهجد ترك الهجود ، كالتخرج والتائم فى ترك الانم والخرج ، وبناء تفعل يكسر فى التحصيل كتعلم وتقدم ، وجاء قليلا فى معنى الترك ، والمراد منه هنا ترك النوم للقيام بالعبادة ، (نافلة) ، قال الجوهرى : عطية التطوع من حيث لا تجب ومنه نافلة الصلاة اه . أى ان الصلاة مؤداة على وجه التطوع دون الوجوب ، فلذا قيل فيها نافلة . وهى على كلام الجوهرى بمعنى الشيء الزائد ، فهى اسم غير مصدر . قال ابو البقاء وغيره : النافلة الزيادة ، فهى مصدر كالعاقبة . عسى : للرجاء ، وهى من الله تعالى على الوجوب ، لان اطاعه تعالى لعباده فى الجزاء على اعمالهم هو من وعده ، ومحال عليه تعالى ان يخلفه . مقاما : محل القيام . محمودا : مثنيا عليه .

التراكيب : من الليل متعلق بفعل محذوف دل عليه تهجد تقديره أسهر . الضمير في به عائد على القرآن لتقدم ذكره ولا تراعى الإضافة ، والباء بام الاداة لان التهجد بمعنى التعبد يحصل بالقرآن ، أى بالصلاة ويحتمل أن يكون الضمير عائدا على الليل ، فالباء بمعنى في ، أى فيه ، نافلة : مصدر منصوب بتهجد لا تفاهما في المعنى . والتقدير : تنفل نافلة ، وهذا يجرى على الوجهين في معاد الضمير . ويحتمل أن يكون حالا . وهذا يجرى على عود الضمير على القرآن بمعنى الصلاة . مقاما : اما مصدر من غير لفظ عامله الذي هو يبعثك بمعنى يقيمك من مرقدك . واما ظرف أى يبعثك في مقام ، ومحمودا : صفة لمقام ، ولكن الذي يحمد حقيقة هو القائم في المقام ، فجعل الحمد للمقام توسعا ، تنبيها على عظم الحمد وكثرته ، فانه فاض على صاحب المقام حتى غمر مقامه .

المعنى : أسهر بعضا من الليل فتعبد بالقرآن في الصلاة زيادة على تعبدك به في صلاة فرضك فتكون على رجاء أن يبعثك ربك من مرقدك يوم يقوم الناس لرب العالمين . فيقيمك مقاما يحمدك فيه جميع الناس لما يرون لك من فضل وما يصل اليهم بسببك من خير .

وفي الآية - مسائل :

المسألة الاولى : كيف يكون التهجد ؟ فأما اللفظ فانه يفيد ترك النوم للعبادة فيشمل تركه كله أو بعضه بان لم ينم أصلا أو لم ينم أولا ثم رقد أو نام أولا ثم قام . لكن ثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ينام ثم يقوم ، فبينت السنة العملية أن التهجد المطلوب هو القيام بعد النوم .

المسألة الثانية : هل كان قيام الليل فرضا عليه - صلى الله عليه وسلم - دون أمته بمقتضى قوله تعالى : « نَافِلَةٌ لَّكَ » قد ذهب الى هذا جماعة كثيرة من اهل العلم سلفا وخلفا ، ويرد عليه أن توجيه الخطاب اليه لا يقتضى تخصيص الحكم به كما في آية : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنَ النَّاسِ » وآيات كثيرة ، ولأن قيام الليل يقع من غيره فيسمى نافلة اتفاقا . ولحديث عائشة - رضى الله عنها - : « ان الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة »

- تعنى سورة المزمل - وهى نكية - قم الليل ، فقام النبى - صلى الله عليه وسلم - واصحابه حولا وامسك الله خاتمها اثنى عشر شهرا ، حتى أنزل الله فى آخر هذه السورة التخفيف فصار قيامه تطوعا بعد فرضه ، رواه مسلم .

فهذا يدل على أنهم فهموا أن الامر من قوله تعالى : « قم » لهم معه ، مع أنه موجه اليه بخطاب الافراد ، وأنه كان فرضا عليه وعلى الناس فصار تطوعا عليه وعلى الناس . ولحديث المغيرة بن شعبة فى الصحيحين وغيرهما : « قام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى تورمت قدماه ، وهذا لمدامته على القيام كل ليلة ببضع عشرة ركعة - فقل له قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : (أفلا أكون عبدا شكورا » . فلو كانوا يعلمون أن قيام الليل واجب عليه ويفهمونه من القرآن لما أنكروا مشفقين عليه أن يقوم بما هو واجب عليه ، ولأن قوله : « أفلا أكون عبدا شكورا » يفيد أنه متطوع بهذا القيام باختيار لىؤدى شكر نعمة ربه عليه .

فإن قيل : ان السؤال والجواب راجعان الى تورم قدميه ، وذلك ناشئ على المداومة . قيل اذا أنكر الشيء الناشئ عن المداومة فقد أنكرت المداومة ، والمداومة على الفرض لا تنكر . فبقى الدليل سالما . ولهذا كله قال هؤلاء الموردون ان قيام الليل تطوع ونفل فى حقه وفى حق أمته ، وبقي للاولين أن يقولوا ان قوله تعالى : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّغْمُودًا » خاص به - صلى الله عليه وسلم - اتفاقا ، وقد جعل جزاء لتهجده بالليل ، ولما كان الجزاء خاصا به فالعمل المجزى عنه خاص به ، فلهذا حملنا قوله على معنى دون غيرك ، ولما رأيناه واطب على التهجد ولم يتركه حملناه على أنه كان مفروضا عليه ، وحملنا نافلة على معنى أنها فريضة زائدة فوق الصلوات الخمس ، فيقول المخالفون فى هذا انكم حملتم النافلة على الفريضة ، وهذا خلاف أصل معناها الذى هو التطوع . وإما ما ذكرتم من خصوص الجزاء به فانا نقول ان الخطاب موجه له فى الاول وفى الآخر ، وفى الاول لما لم يعارضنا معارض الحقنا به أمته ، وفى

الثانى لما منعنا مانع وهو اختصاصه بالمقام المحمود لم نلحقهم به ، وبقي
الجزء مساويا للعمل فى صورة اللفظ حيث كان كل منهما موجها اليه ،
وإذا تأملت فى هذا البحث الذى سقناه أدركت أن القول بعدم الخصوصية
هو الراجح ، فالآية حث وترغيب على قيام الليل للعموم ، ووعد له - صلى
الله عليه وآله وسلم - بالمقام المحمود .

المسألة الثالثة : ما هو المقام المحمود ؟ « هو مقامه - صلى الله عليه
وآله وسلم - للشفاعة العظمى » يشفع للخلائق وقد جهدوا من كرب الموقف
فجاءوا الى كبراء الرسل عليهم الصلاة والسلام يسألونهم أن يشفعوا لهم
الى ربهم ليفصل القضاء ويريحهم من كرب الموقف فيندافع الشفاعة أولئك
الرسل - صلوات الله عليهم - ويتنصلون منها بأعذار رهيبة للرب جل
جلاله حتى ينتهوا اليه - صلى الله عليه وسلم - فيتقدم فيشفع ويسأل
فيعطى . كما جاء هذا كله مفصلا فى الاحاديث الصحيحة المستفيضة .
فيحمده الخلق كلهم لما يرون من فضله عند ربه ولما وصل اليهم من الخير
المطلوب بسببه .

اختصاصه - صلى الله عليه وسلم - بالمقام المحمود ودليله : ثم له
- صلى الله عليه وسلم - بعد هذه الشفاعة العظمى شفاعات أخرى بينها
صالح الاحاديث ، ولعموم فضل هذه الشفاعة العظمى لاهل الموقف كلهم ،
قال - صلى الله عليه وآله وسلم - كما فى صحيح مسلم: « أنا سيد الناس
يوم القيامة » . والسيد من يتولى أمر السواد ، فظهر عموم سيادته بعموم
نفعه ، وقد فسر المقام المحمود بمقام الشفاعة عبد الله بن عمر - رضى الله
عنهما - رواه عنه البخارى فى صحيحه وفسره بها غيره .

المسألة الرابعة : هل المقام المحمود خاص به ؟ قد علمت من المسألة
السابقة أنه مقام الشفاعة العظمى ، وهى خاصة به فهو خاص به ويدل
عليه حديث جابر الصحيح : « من قال حين يسمع النداء - الأذان - :
اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة
وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة » فهو
- صلى الله عليه وسلم - الموعود بالمقام المحمود .

تنبيه والحاق : قد جعل الله تعالى جزاء نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - على تجرده وخلوته بربه في مناجاته في هذا المقام الذي يحمد فيه الخلق ، ويتقبل فيه شفاعته ويستجيب دعوته ويفتح عليه فيه بمحامد من ذكره لم يفتح عليه بها قبل ، فمضى هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبة القائمين لربهم في جنح الليل ، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم . فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - في مشروعية هذه العبادة ، كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها ، وإن كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الاعظم، فلهم جزاؤهم من مقامات القرب ، والزلفى والقبول ، والرضا ، على ما يناسب منازلهم جزاء بما كانوا يعملون (1) .

(1) الشهاب : ج 3 م 7 - ذو القعدة 1349 ، مارس 1931م .

صدق المدخل والمخرج

« وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 80)

المناسبة : مضى فى الآيات السابقة ذكر الله تعالى ما كان من المشركين من الكيد لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بمحاولتهم فتنته فى دينه والله يشبته ، ومبالغتهم فى عداوته واذايته ، حتى كادوا يستفزونهم ويزعجونهم من أرض مكة فيخرجونه منها ، وجاء بعدها أمر الله تعالى بإقامة الصلاة والتهجد بالليل ، وفى ذلك أمر الله له بالقيام بعبادة ربه والتوجه والانقطاع اليه وعدم المبالاة والاشغال عن مهام العبادة بهم . فجاء بعد ذلك الامر الذى فى هذه الآية بسؤاله أن يختار له ، وفى ذلك تفويض أمره الى ربه ورضاه بما يختار له . فالآيات السابقة أمر بالتجرد لعبادته ، وهذه أمر بالتسليم لمشيئته ، فبتلك يكون منقطعاً اليه ، وبهذه يكون معتمداً عليه .

الالفاظ : المدخل : يكون بمعنى الادخال ، ويكون بمعنى زمانه أو مكانه . الصديق : أصله وصف القول بمعنى قوله ومطابقته للواقع . ويوصف به الفعل اذا وقع على وجهه ، وكما ينبغى أن يكون . وتضاف اليه الاشياء الكاملة فى أنفسها الحسنة فى ظاهرها وباطنها . لدن : بمعنى عند . السلطان : بمعنى التسلط . يصدق على التسلط على العقول بالحجة وعلى غيرها بالملك والولاية . النصير : بمعنى ناصر .

التراكيب : مدخل ومخرج منصوبان على المصدرية أو على الظرفية .

المعنى : قل يا محمد سائلا ربك متضرعا اليه : يا رب أدخلنى ادخلا حسنا كاملا تساوى فى ظاهره وباطنه فى الحسن والكمال ، وتماثلت بدايته ونهايته وحاله وعاقبته فيهما أكون فيه على بصيرة ويقين ، وثبات وقوة ، وأخرجنى اخراجا كذلك - وإذا كان بمعنى الظرف كان المعنى أدخلنى فى مكان حسن أو زمان حسن . الخ . وأخرجنى كذلك - وأجعل لى من عندك تسليطا بالحق على العقول بالحجة والبرهان ، وعلى الملك بالعدل والاحسان . ينمرنى ويؤيدنى على كل من يقف فى طريق دعوتى اليك ، وهداية خلقك من جبابرة البغى أو رؤوس الضلال .

توجيه : قدمنا احتمال المصدرية فى مدخل ومخرج لانه أعم ، والعموم أنسب بهذا الدعاء الجليل الذى ليس فى ألفاظه ما يدل على التخصص ، ولما كان الذى يضاف الى الصديق لا يكون الا حسنا لا عيب فيه ، ثابتا لا خلل فيه ، وصفنا الادخال والاخراج بما وصفناهما به لان ذلك كله من مقتضى الحسن والكمال والثبوت . ولما كان السلطان المطلوب هو من عند الله ولا يكون الا سلطانا بالحق سواء أكان فى العلم أم فى الحكم فسرناه بالحجة والبرهان والعدل والاحسان .

ترجيح : اذا نظرنا الى ما تقدم من قوله تعالى : « **وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا** » قيل : ان المراد بمدخل الصديق هو المدينة . ومخرج الصديق هو مكة ، وتكون مكة مخرج صدق لانه يخرج منها على حق ويقين وبصيرة وبإذن من الله تعالى وتأييده، وتكون المدينة مدخل صدق لذلك كذلك . واذا نظرنا الى عموم اللفظ حملنا الآية على العموم اعتبارا بحكم اللفظ ، ولا يفوت اعتبار المناسبة لما تقدم ، فان الخروج من مكة ودخول المدينة يكون مما دخل فى العموم دخولا اولياء، فالحمل على العموم - كما رايت - محصل لاعتبار اللفظ واعتبار المناسبة ولذلك اخترناه .

تطبيق : كل فرد من أفراد بنى الانسان فى كل لحظة من لحظات حياته لا ينفك عن المداخل والمخارج ، فكل ساعة يقضيها من حياته هى مدخل باعتبار دخوله فيها من غيرها ومخرج باعتبار خروجه منها الى سواها ، فان قضاها صادق العقد، صادق القول ، صادق العمل، وفارقها كذلك فهى

مدخل صدق ومخرج صدق • وان قضاها وفارقها سوء العقد، سوء القول،
سوء العمل، فهي ليست كذلك بل هي مدخل كذب وفجور، ومخرج كذب
وفجور • فالانسان محتاج في كل لحظة من حياته لتوفيق الله وتأييده •
وحفظه وامداده ، فجاء هذا الدعاء القرآني منبها على هذه العقيدة ، مشتملا
على سؤال ما يحتاج اليه الانسان في جميع شؤونه في حياته وأطواره فيه
— من الطاف ربه • ولما كان الانسان في كل لحظة من حياته — لا بد —
واجدا معارضا وصادا عن الخير والصدق ، وقاطعا في طريق الحق — من
نفسه وشياطين الانس والجن — قرن الدعاء السابق بالدعاء الثاني الذي
فيه طلب التأييد من الله بالسلطان المبين ، فالدعاءان على اختصارهما
وايجازهما — قد جمعا للانسان كل حاجته من تحصيل الخير ودفع الشر ،
فهما من أعظم الادوية الربانية للانسان ، ومن أعظم وسائله الشرعية الى
خالقه ، فما أحرأهما بأن يلهج بهما في كثير من أوقاته •

استنباط : اذا علمنا الله تعالى دعاء ففي ضمن ذلك التعليم تعليم آخر
لنا كيف نعمل ما يناسب ذلك الدعاء ، وكيف نسلك السلوك الذي هو
مظنة الاستجابة • فلما علمنا تعالى — مثلا — كيف ندعوه بقوله :
« **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** » ، كان في ذلك ارشاد لنا الى سلوك الطريق
المستقيم ، والامتناء بأهله ، والمباينة لغيرهم ، فكذلك هنا لما علمنا كيف
ندعوه بالحفظ والتوفيق في المدخل والمخرج كان في ذلك ارشاد لنا الى
ما ينبغي لنا أن نكون عليه في مداخلنا ومخارجنا ، وجميع مصادرنا
ومواردنا من تحرى ما فيه مرضاته واجتناب ما فيه سخطه ، ولما علمنا
كيف ندعوه بالتقوية والتأييد بسلطان من لدنه مبين ، كان في ذلك ارشاد
لنا أن نكون أهل قوة في الايدي ، وقوة في البصائر ، ودفاع عن الحق
بما استطعنا من قوة •

سلوك وامتنال : فعلينا أن لا ندخل في أمر الا على بصيرة به وعلم
بحكم الله تعالى فيه ، وأن دخوله خير ، وأن لا نخرج من أمر الا على بصيرة
وعلم كذلك ، لا فرق بين أمر وأمر من كبير وصغير ، وجيل وحقير، ونكون
— مع بذل غاية ما عندنا من نظر واختيار — معتمدين على ربنا ، واثقين

بحسن اختياره لنا ، مسلمين له فيما اختاره ، ضارين له ، مظهرين فقرنا وحاجتنا في كل حال ، وعلينا أن نحصل من الاسباب ما يحصل لنا قوة العلم وقوة العمل، لنكون أهلا للدفاع عن الحق وحزبه ، ومقيمين لسلطان الله في أرضه بالحق والعدل والاحسان - معتمدين - مع تحصيل تلك الاسباب - على الله وحده ، ومنتظرين منه الفرج والتيسير .

هذان هما الإصلاحان الأساسيان في سلوك أهل الله : التمسك بالحق ، ومدافة الباطل ، فاستمسك بهما تكن - باذن الله - من الفائزين .

مجيء الحق وزهوق الباطل واستجابة دعاء الصادقين

« وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » .
(سورة الاسراء ، الآية 81)

المناسبة : لما أمر الله تعالى نبيه أن يدعو بحسن المدخل والمخرج والنصرة والتأييد ، أمره أن يعلن استجابته لدعوته بمجيء الحق، وفي ذلك نصره ، وذهاب الباطل، وفي ذلك هلاك أعدائه وذهاب دولتهم . هذا على النظر العام ، واما على النظر الخاص فان الله تعالى بعدما ذكر أن أعداءه كادوا يستفزون من الأرض، وأمره أن يتوجه الى عبادته ودعائه، وذكر في هذه الآية ما كان من نصره على المشركين، وفتح مكة عليه، وتنكيس الاصنام التي هي باطلهم، وإعلان كلمة التوحيد الذي هو دينه وهدايته . ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم - يتلو هذه الآية عندما كان يشير الى الاصنام فتسقط الى الأرض . ففي الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - دخل مكة (يعنى عام الفتح) وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بمود في يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

الالفاظ : الحق : الثابت الذي لا يمتريه زوال . الباطل : الذى لا ثبات له فى نفسه، فالاسلام حق ويشمل كل ما هو طاعة . والشرك والكفر

باطل، ومثله كل ما هو معصية • ذهقت الروح : خرجت ، وزهق الباطل
ذهب واضمحل • الزهوق : الهالك الذاهب •

التراكيب : جملة ان الباطل كان زهوقا اطناب بالتذييل ، المخرج
اخراج المثل لتأكيد منطوق الكلام السابق • وشبه الباطل الذي غلب
بادلة الحق فزالت شبهه من الاذهان، وطواغيته من الارض بالحيوان الذي
صرع لذبح فزهقت روحه، وذهب على طريق المكثية حيث حنف المشبه به ،
وهو الحيوان المصروع المذبوح ، وذكر المشبه وهو الباطل المغلوب ، وأشير
الى المعدوف بذكر لازمه وهو الزهوق •

المعنى : وقل يا محمد - معلنا بما أظهر الله على يدك، وما قضى به من
نصرتك، وما أجاب من دعائك - جاء الاسلام والتوحيد بأدلته وحججه وقوته
وسلطانه ، وذهب الكفر والشك فبطلت شبهه ، واضمحلت دولته، وأصبح
الحق غالباً والباطل مغلوباً ، وكذلك كان الباطل شأنه الذهاب والاضمحلال.

صدق وعد الله جل جلاله : نزلت هذه الآية بمكة والنبي - صلى الله
عليه وآله وسلم - وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم، يلقون من المشركين
ما يلقون والمسلمون في ضعف - من العدد - وقلة ، والمشركون في قوة،
وكثرة ، فكانت هذه الآية وعداً بما سيكون من غلبتهم وقوتهم وكثرة عددهم،
فيبطل الشرك ويذهب سلطانه ، وقد صدق الله وعده، ففتح عليهم مكة،
وتمت لهم على المشركين النصرة ، وللإشارة الى انجاز هذا الوعد وصدق
الخبر ، قرأ النبي - صلى الله عليه وسلم - الآية يوم فتح مكة كما تقدم •

تفصيل : مجيء الحق هو بظهور أدلته وقيام دولته ، وزهوق الباطل
هو ببطلان شبهه وذهاب دولته ، فاما القسم الاول فان الامر فيه ما زال
ولن يزال كذلك ولن تزداد على الايام أدلة الحق الا اتضاحا ، ولن تزداد
شبه الباطل الا افتضاحا • وأما القسم الثاني فانه مرتبط بأحوال أهل
الحق وما يكون عليه من تمسك به وقيام فيه أو اهمال له وقعود عنه فيدال
لهم ويدال عليهم بحسب ذلك •

عقيدة : يرتبط قلب المسلم مطمئناً على أن ما هو عليه من الاسلام حق
لا شك فيه، وانه يومئذ منصور ما تمسك به، وانه اذا خذل فانما جاءه ذلك

من ناحية نفسه ، وعلى أن ما عدا الاسلام هو باطل لا شك فيه ، وإن صاحبه هالك عند ربه ، وأن ما يكون له من سلطان لم يات من جهة باطله ، وإنما جاءه من أسباب عمرانية مما يقتضيه الحق وفرط فيه أهله فحرموا ثمرته .

سلوك : على أهل الحق أن يكون الحق راسخا في قلوبهم عقائد ، وجاريا على سنتهم كلمات ، وظاهرا على جوارحهم أفعالا ، يؤيدون الحق حيشا كان ومن كان ، ويخذلون الباطل حيشا كان ومن كان ، يقولون كلمة الحق على القريب والبعيد ، على الموافق والمخالف ، ويحكمون بالحق كذلك على الجميع ، ويبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نشره بين الناس وهدايتهم اليه بدعوة الحق ، وحكمة الحق وأسبابه ووسائله على ذلك يمشون وعليه يموتون ، فلنجعل هذا السلوك سلوكنا وليكن من هنا .
لما وفينا منه حمدنا الله تعالى عليه ، وما قصرنا فيه تبنا واستغفرنا ربنا .
فمن صدقت عزيمته ووطن على العمل نفسه - أعين ويسر للخير . وربك التواب الرحيم (1) .

(1) الشهاب : ج 4 م 7 ، ذى الحجة 1349 هـ - افريل 1931 م .

القرآن شفاء ورحمة

« وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 82)

المناسبة : لما جاء فى الآية السابقة الاخبار بمجىء الحق، وفى مجيئه صحة الارواح والابدان والاحوال ، وبزهوق الباطل، وفى ذهابه ذهاب الملل والامراض كذلك - جاء فى هذه الآية بذكر القرآن والاخبار عما جاء فيه من الشفاء والرحمة، تنبيها على انه هو الشافى من امراض الباطل وعلله ، وانه هو مصدر الحق وحجة ناصره، ومحصل الرحمة لاتباعه والمتمسكين به.

المفردات : من : لا يتبداء الغاية أو للتبويض، لانه نزل مبعضا، فكل بعض نزل منه فهو شفاء ورحمة . الشفاء : البرء من المرض مرض الابدان أو مرض النفوس . الرحمة : النعمة . الظلم : وضع الشيء فى غير محله . كوضع الكفر موضع الايمان .

الخصاوص : النقص والضياع يكون فى الاموال ، يقال خسر ماله اذا ضيعه . ويكون فى النفوس، فيقال خسر نفسه اذا ضيعها ولم يستعملها فيما خلقت له من الطاعة والكمال ، ويكون فى الدين ، فيقال خسر دينه اذا ضيعه ولم يعمل به . فخاسر القرآن هو من ضيعه ولم يؤمن به .

التراكيب : قرنت جملة نزل بالواو مع ان ما قبلها انشائية . وذلك على وجهين : الاول ان تكون معطوفة على جاء الحق، أى وقل نزل، فعطفت الخبرية على الخبرية التى لها محل وهو المفعولية بالقول . الثانى ان يكون الواو للاستئناف، وهى فى الحقيقة صلة فى الكلام لتقويته . وقرنت جملة لا يزيد بالواو، لانه معطوفة على جملة الصلة، وعبر بالمضارع فى نزل

ويزيد، قصدا لمعنى التجدد، لان الآيات كانت تنزل شيئا فشيئا ، وتنكير شفاء ورحمة للتعظيم . وقدم الشفاء لانه برء من النقص، على الرحمة لانها حصول الكمال تقديم التخلية على التعلية ، وآيات القرآن سبب فى حصول الشفاء فجعلت هى شفاء على طريق المبالغة، تنبيهها على تحقق حصوله بها .

المعنى : ونزل عليك يا محمد بحسب الوقائع والمناسبات آيات من القرآن العظيم، هى شفاء يستشفى بها المؤمنون، ونعمة عظيمة انعمنا بها عليهم، يؤمنون بها، ويحلون حلالها، ويحرمون حرامها، ويعملون بما فيها، فينالون سعادة الدنيا والآخرة ، اما الكافرون الظالمون الذين قابلوا بالكفر ما يجب ان يقابل بالايان، وقابلوا بالرد ما يجب ان يقابل بالقبول، فان نزول تلك الآيات، يكون سببا فى زيادة خسارهم وضياح الخير عليهم ، اذ كل آية من تلك الآيات كانت كافية فى شفائهم لو استشفوا بها، ونزول الرحمة عليهم لو اهتمدوا بها الى الاسلام، لكنهم يقابلون كل آية بالكفر والجحود، فيخسرون فى كل مرة كنزا عظيما ، وهكذا يزداد خسارهم بقدر كفرهم المتجدد بنزول الآيات .

تنظير : وصف الله تعالى القرآن بأنه شفاء فى مواضع من كتابه ، منها هذه ومنها قوله تعالى فى سورة يونس عليه السلام : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّلُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »، ومنها فى سورة فصلت : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » . وافادت الآيات كلها انه شفاء لاهل الايمان الذين يؤمنون دون غيرهم - فانهم باعراضهم عنه كانوا من الخاسرين، وجاءت آية يونس بتقييد الشفاء بها فى الصدور الذى هو العقائد ، لان ذلك هو المقصود الاول من هداية القرآن، وأصل لغيره، فانه اذا شفيست الصدور من عقائد السوء، ونزغات الشكوك واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين - زكت النفوس ، واستقام سلوك الانسان . فرده وجماعاته ورقي درجات الكمال ، فلا ينافى ذلك ان القرآن شفاء أيضا للنفوس من سوء الاخلاق، كما هو مقتضى الاطلاق فى آية الاسراء هذه، وآية فصلت، لأن الاخلاق ناشئة عن العقائد، ولازمة لها، ولأنها كليهما - العقائد والاخلاق - لا تكمل النفس الانسانية الا بالشفاء فيها . ولا ينافى أيضا حصول

الشفاء للابدان بالقرآن فى بعض الاحوال، كما هو مقتضى الاطلاق ايضا، ومقتضى ما سيأتى من الآثار، وان كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الاول من شفاء القرآن .

تقسيم : الامراض الانسانية قسمان : امراض ارواح، وامراض ابدان . وكلاهما انواع . وامراض الارواح المقصودة بالذات هنا ترجع الى نوعين : مرض العقول، ومرض النفوس ، فالاول بجمود النظر وفساد الادراك وتقليد الآباء واعتقاد الباطل والشك فى الحق . والثانى : بفساد الاخلاق وانحطاط الصفات ، اما الاعمال فهى تابعة لهما، فتصلح بصلاحهما وتفسد بفسادهما، والقرآن قد جاء داعيا الى النظر والتفكر والاعتبار والتدبر، مبينا - بما ساق من حجج الله وحجج رسله - الطريق الاقوم فى الادراك الصحيح ، والسبيل الاشد فى الفهم والتفهيم ، ناعيا على المقلدين تقليدهم، كاشفا لاهل الباطل عن باطلهم، ذاكرا من قواطع البراهين البينة الواضحة ما لا يبقى معه خفاء فى الحق ولا ريب . وجاء ايضا مبينا للاخلاق الفاسدة، وذاكرا سوء اثرها، وقبح مقبتها ، مبينا كذلك الاخلاق الصحيحة، وعظيم نفعها وحسن عاقبتها، فهذا شفاؤه للنفوس والعقول ، وهو راجع الى تصحيح العقائد، وتقويم الاخلاق، وبهما سلامة الارواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها . على ان القرآن هو شفاء للاجتماع البشرى، كما هو شفاء لافراده فقد شرع من اصول العدل وقواعد الممران ونظم التعامل وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافى، والدواء الشافى لأمراض المجتمع الانسانى من جميع امراضه وعمله . شفاء العقائد والاخلاق، وهما اساس الاعمال - والمجتمع . وهذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو شفاء لها . ولا شفاء لها الا بالقرآن - والبيان النبوى راجع الى القرآن - ومن طلب شفاءها فى غير القرآن فانه لا يزيدها الا مرضا . فهذه الامم الغربية بسجونها ومشانقها ومحاكمها وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة التى تقشعر منها الابدان، وهذه الممالك الاسلامية التى تقيم الحدود القرآنية كالمملكة النجدية الحجازية، والمملكة اليمنية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت

السكينة فيها، دون سجون ولا مشائق مثل أولئك، وما ذلك الا لانهم داووا الملك بدوام القرآن ، فكان الشفاء التام .

واما الامراض البدنية، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ما انزل الله داء الا انزل له شفاء)، رواه البخارى من طريق أبى هريرة ، وقال : (لكل داء دواء ، فاذا أصيب دواء الداء برا باذن الله تعالى)، رواه مسلم من طريق جابر، وثبت عنه انه دوى وتدأوى . وروى الائمة من ذلك عنه الكثير الطيب فى كتاب الطب من صحيح البخارى وغيره . وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه استشفى ، واسترقى ببعض آيات القرآن العظيم ، وأقر على ذلك من فعله من أصحابه . روى البخارى من طريق يونس عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اذا أوى الى فراشه نفث فى كفيه ب : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وبالمعوذتين جميعا ، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده . قالت عائشة : فلما اشتكى كان يأمرنى ان أفعل ذلك به . قال يونس كنت أرى ابن شهاب يصنع ذلك اذا أتى الى فراشه) . وروى الشيخان ، واللفظ للبخارى ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : (انطلق نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من احياء العرب ، فاستضافوهم فابوا ان يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحي ، فسموا له بكل شيء لا ينفعه شيء . فقال بعضهم : لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله ان يكون عند بعضهم شيء ، فاتوهم فقالوا : يا أيها الرهط ان سيدنا لدغ ، وسمينا له بكل شيء لا ينفعه ، فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم والله ، انى لا أرقى ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لئنا جملا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق يتفل عليه ويقول : « اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فكانما انشط (1) من عقال (2) فانطلق يمشى وما به قلبة (3) ، قال فآوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه ، فقال بعضهم ، اقموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فنذكر له

(1) حل . (2) حبل يشد به ذراع البهيمة . (3) بحركات اى علة .

الذى كان، فننظر ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا له فقال : (وما يدريك (4) انها رقية . ثم قال : قد أصبتم ، اقساموا وضربوا لي معكم سهما) فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) فثبت بهذين الحديثين ان فى القرآن شفاء للابدان . وحصل عندنا من جميع ما تقدم انه شفاء للارواح والابدان للافراد والمجتمع .

مداواة الابدان ، بالطب والقرآن : ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم الامر بالتداوى قولاً وعملاً ، وثبت عنه الاستشفاء بالقرآن، ولا منافاة بينهما، فان الانسان مركب من روح من عالم النور، وجسم من عالم المادة المركبة . فمن الحكمة الالهية، ان شرع الله لنا عند الامراض على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجمع بين الادوية المادية التى هى المناسبة للبدن، والآيات القرآنية التى هى المناسبة للروح، مع ما فى الادوية القرآنية من اطمئنان القلب بالله وقوته به وانتعاشه بذكره . وفى ذلك من تقوية للروح ونعيمها ما يهون عليها ألم المرض، ويغلبها باذن الله تعالى عليه . ومثل الآيات القرآنية فى ذلك، كل ما ثبت فى السنة من الرقى النبوية الماثورة .

تحذير : فرط قوم فاهملوا الاستشفاء بالذكر الماثور، واقتصروا على على الدواء المادى، فحرموا أنفسهم من خير كثير اذا لم يكونوا له كالمنكرين ، وافرط آخرون ، فاهملوا الدواء المادى، وزهدوا الناس فيه . وتزيدوا فى جانب الماثور، حتى خرجوا عنه، واتخذوا لهم من ذلك حرفة ومورداً للمعاش، ونسوا انواع اشفية القرآن الروحية والاجتماعية التى هى المقصودة بالقصد الاول من تنزيله، مقتصرين على الوجه الذى وجدوا منه سبيلاً الى الاسترزاق على ما أحدثوا فيه وما ابتدعوا . فعكسوا الامر، وخالفوا السنة ووقعوا فى المحذور من عدة وجوه . هذان الطرفان مذمومان . والعدل هو الوسط الذى لا يهمل هذا ولا ذاك ويقف فى الوارد عندما ورد ، ويتناوله على ما ورد .

(4) تعجب من وقوفه على انها رقية واصابته فى ذلك .

تطبيق : نزول الآيات فى الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم فى مثل الحال الذى انكرته عليهم من المؤمنين، لأن الوصف المذموم مذموم سواء اكان المتصف به مؤمنا أم كان كافرا . فالذين تتلى عليهم الآيات القرآنية والاحاديث النبوية، وتوضح لهم الدلائل الشرعية، وهم عنها معرضون، وعن تدبرها غافلون، وبها متهاونون - يزدادون بكل مرة اثما باعراضهم وغفلتهم وتهاونهم فيخسرون بقدر ما يفوتهم من الهداية على حسب حالهم، واذا لم يكن خسارهم كخسار الكافرين، فهو كخسار المعرضين الغافلين المتهاونين ، وكفى به خسارا يتنزه عنه المؤمنون ويأباه الراشدون .

سلسوك : نتناول القرآن العظيم دواء من عند ربنا، شفاء لأفراض عقولنا ، وأمراض نفوسنا ، وأمراض مجتمعتنا ، فنطلب ذلك منه بتدبر آياته، وتفهم اشاراته، ووجود دلالاته ، وشفاء أيضا لأبداننا، فنعمل كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم اذا أوى الى فراشه على ما تقدم فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها . وعلى ما جاء من نحو ذلك مما ثبت عنه عليه وآله الصلاة والسلام وانتهى اليه علمنا ، غير مقصرين ولا غالين ، وعلى ربنا متوكلين، سائلين ان يشفيانا بالقرآن الكريم أجمعين. آمين يا رب العالمين (1).

(1) الشهاب - ج 5 ، م 7 - محرم 1350 - ماى 1931م .

صفتان من صفات النوع الانساني الإعراض عن النعمة والياس من الرحمة

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنُنَّا بِيْجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ
الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا » .

(سورة الاسراء - الآية : 82)

تمهيد : فى النوع الانسانى غرائز غالبية عليه لا يسلم منها الا من عصم الله او وفق الى الايمان والعمل الصالح . وفى آيات القرآن العظيم بيان لكثير من تلك الغرائز للتحذير من شرها والتنبيه على سوء مفبتها منها هذه الآية الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى أن القرآن يكون شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا ، بين تعالى سبب خسار أولئك الظالمين وهو اعراضهم عن الله وبعدهم منه ويأسهم من رحمته ، وعلم منه أن المؤمنين الذين كان القرآن لهم شفاء ورحمة هم على الضد منهم فهم أهل اقبال على الله تعالى وقرب منه ورجاء فيه .

المفردات : (انعمنا) : اوصلنا أنواع الاحسان . (الانسان) : المراد به النوع باعتبار مجموعه فلا ينافى خروج افراد كثيرين بالعصمة والتوفيق . (اعرض) : صد بوجهه الى ناحية أخرى فأرى عرض وجهه أى ناحية وجهه . (ننا) : بعد . (بجانبه) : بناحيته بشقه الايمن أو الايسر ، والباء للتعدي أى أبعد جانبه . (مسه) : أصابه . (الشر) : البلايا والرزايا بأنواعها . (يئوسا) : شديد اليأس والقنوط وعدم انتظار الفرج .

التراكيب : جرى بفعل الشرط وجوابه ماضين لتحقيق وقوعهما ولذلك كان التعليق بأذا وجواب الشرط والفعل والمطوف عليه فيهما الصورة

التامة للمعرض غاية الاعراض فانه يصرف عنك وجهه وهذا مفاد الفصل الاول، ويلوى عنك عطفه ويبعد جانبه ويوليك ظهره، وهذا مفاد الفصل الثاني. ثم هما كناية عن الاستكبار وعدم الاكتراث والالتفات الى سوى النعم سواء حصلت هذه الصورة بالفعل أو لم تحصل .

المعنى : واذا انعمنا على الانسان اعرض تمام الاعراض إما بعدم قبول تلك النعمة استكباراً أو تهاوناً كما يكون من الذين يكفرون بالقرآن أو يخالفونه وهو من اعظم نعم الله عليهم . وإما بعدم القيام بحق الله في تلك النعمة وعدم شكره عليها كنعمة العقل والبدن والحال وغيرها ، اذا لم تستعمل في طاعة الله ولم يقم بحقه فيها . واذا مس الانسان الشر ونزلت به المصائب وحلت به النوائب استولى عليه اليأس والقنوط، وانسدت في وجهه ابواب الرجاء .

توجيه : يرتبط اليأس من رحمة الله بالاعراض عن نعمته من جهتين :

الاولى : ان من اعرض عن نعمة الله فقد قطع صلته بخالقه وذهب معناه في بعده، فاذا نزلت به المصيبة كان كالمقطع به في الابداء يجد نفسه وحده فيأخذ اليأس والقنوط من كل جانب .

الثانية : ان الاعراض عن النعمة ترك لها ولوليها والآيس متروك لوحده مغضوب عليه قد ترك فترك وكان جزاؤه من جنس عمله .

انتقال واعتبار : هذه حالة اهل الامراض اما اهل الاقبال على الله تعالى والقبول لانعامه فان قلوبهم عامرة بالله وصلتهم متينة به فاذا نزلت بهم المصائب رجعوا اليه وانتظروا رحمته فكان ذكره غناهم في الفقر وأنسهم في الوحشة ، ونعيمهم في الالم . وكان لهم من الرجاء في أنواع رحمته ما يهون عليهم جميع المصائب .

تبصير وتحذير : بصرنا القرآن في هذين الوصفين الذميين الاعراض عن النعمة ، واليأس من الرحمة، ونحن نراها فاشيين في اكثر الناس على تفاوت بينهم على حسب ما عندهم من ايمان وعمل صالح . بصرنا القرآن بهما ليحذرنها ومن سوء عواقبهما فان الاعراض عن النعمة كفر بها

ومقتضى لسلبها ، وان اليأس من رحمة الله جهل به وكفر بما هو متقلب فيه من نعمه، وموجب لانطماس القلب وشلل البدن وانقطاع الاعمال .
 فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميين ، وليعمل على اجتنابهما واجتنائهما من أصلهما .

سلوك : على المرء أن يقبل نعم الله تعالى ويقبل عليها اقبال المستعظم لها، العارف بحقها، وعظيم الفضل بها، ليقوم بشكرها وذكر الله عندها، وليتفحصها وليتأملها نعمة نعمة ليشكر الله عليها واحدة واحدة بالقلب واللسان والاركان حسب المستطاع، حتى ما يكون من باب المصائب والآلام فانه يتناول على أنه نعمة من الله تعالى بما فيه من أجر وتمحيص، وما يحصل به من رجوع واناة، وما يكون منه من تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » وليكن دائما متمسكا بحبل الرجاء في الله في تسيير الاسباب، وكشف الكروب، ودفع المكروه، فالرجاء حسن ظن في الرب وقوة في القلب، وباعث على العمل ومخفف أو مذهب للآلام . فيالها من طاعة عظيم أجرها، جليل نفعها في الدنيا والدين . فهنيئا للشاكرين الراجين ويا ويح الكافرين - كفر عقيدة أو كفر نعمة - القانطين .

مباينة سلوك أهل الحق لسلوك أهل الباطل

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا » .

(سورة الاسراء - الآية : 83)

المناسبة : قد استفيد مما تقدم تقسيم الخلق الى قسمين أهل ايمان ورجاء ، وأهل كفر وقنوط ، فجاء البيان في هذه الآية بأن كل فريق له مذهبه وطريقه الذي يكون عليه .

الفردات : (شاكلكته) : طريقته ومذهبه المشاكلة له اللاتقة به التي صارت له طبيعة وخلقاً . (اهتدى سبيلا) : اسد مذهبا واقوم طريقا .

التراكيب : التعبير بالمضارع مع لفظة على يفيد تجدد العمل وانباته على الخلق والطبيعة .

المعنى : قل يا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - كل فريق منا ومنكم يعمل فى حياته على طريقته ومذهبه فأعمالنا مبانة لأعمالكم لان طريقتنا مبانة لطريقتكم ، فربكم أعلم بين هو أقوم طريقا وأسد مذهبا فيثبت المهتدين ويعاقب الضالين .

ومن فوائد الآية الكريمة استندراج الفضال لقبول الهداية : وذلك بمناصفته بأنك على ناحيتك وهو على ناحيته، وإظهار التساوى معه أمام علم الله وقدرته، وهذا من أنفع الأسباب فى نجاح الدعوة ، وعليه فى القرآن آيات كثيرة منها سورة : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » فينبغى لدعاة الحق ان يلتزموه ولا يهملوه .

والبراءة من اهل الباطل . وذلك باعلان المبانة لهم والمخالفة لهم فى عملهم وما اتبنى عليه عملهم بأسلوب المناصفة الذى جاءت به الآية فتحصل البراءة مع الفائدة المتقدمة .

انبئة الاعمال على العقائد والاخلاق : فان الآية : وان كانت بالخطاب الاول للمشركين ثم لامثالهم من الكافرين، فانها تفيد أن كل أحد تبني أعماله على مذهبه وطريقته التى هى خلقه وطبيعته، وناخذ من هذا أن الذى توجه اليه الاهتمام الاعظم فى تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الاخلاق، فالباطن أساس الظاهر وفى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله، واذا فسدت فسد الجسد كله .

فعل المؤمن ما يناسب ايمانه : فان كل أحد يعمل على طريقته وطبيعته اللاتقة به ، ولا يليق بالمؤمن ولا يشاكله الا الصدق فى القول والاحسان والوفاء والامانة ، فلا يظلم من ظلمه ولا يخون من خانه ولا يكذب على من كذب عليه فلا تجرى أفعاله فى مقابلة الناقص على ما يشاكل ذلك الناقص، بل تجرى أفعاله على ما يشاكله هو فى ايمانه وكماله .

مراقبة الله في السلوك : فان علمنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلا
يدعونا الى المبالغة في تقويم سلوكنا حتى نكون على الصراط المستقيم الذي
لا اعوجاج فيه فانه هو أهدى الطرق واقربها وما ذلك الصراط المستقيم
الا القرآن العظيم والهدى النبوى الكريم وسلوك السلف الصالح وذلك
هو دين الاسلام ، نسأل الله لنا ولجميع المسلمين الاستقامة والنجاة يوم
القيامة بسنة وكرمه آمين (1) .

(1) الشهاب - ج 7 ، م 70 - ربيع الاول 1350 هـ - جولييت 1931 م .

الود

من إكرام الله لأوليائه الله

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةً وَدَا »

(سورة مريم ، الآية 98)

سبب النزول ، ووعد السابقين : كان السابقون الاولون من المؤمنين - أول الاسلام بمكة - مبغوضين من أهل مكة المشركين مهجورين منهم مزهودا فيهم . ومن أشد الآلام على النفس واشقها ان يعيش الانسان بين قومه مبغوضا مهجورا مزهودا فيه خصوصا مثل تلك النفوس الحية الابية . فانزل الله هذه الآية تائيسا لأولئك السادة ووعدا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم وأنه سيجعل لهم ردا فيصيرون محبوبين مرغوبا فيهم . وقد حقق الله وعده فكان أولئك نفر بعد السادة المقدمين من اقوامهم وعشائريهم لسبقهم وفضلهم وكانوا - وهم قادة الجيوش في الفتوحات الاسلامية - المحبوبين هم وجيوشهم المرغوب فيهم من الامم التي فتحوها لعدلهم ورحمتهم ورفقهم لنير الاستعباد الديني والدينيوى الذى كانت تثن تحته تلك الامم ، واثبت التاريخ ان بعض الامم الاجنبية دعتهن الى انقاذها من أيدي رؤسائها فكانت هذه الآية من آيات الاعجاز بالاعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال فكان على وفق ما قال .

عموم الوعد لعموم اللفظ : الإيمان ، هو التصديق الصادق الثمر للاعمال ، والاعمال الصالحة - وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الايمان - هما اللذان جعلهما الله سببا في تحقيق جعل هذا الود لما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةً وَدَا »

فيعم ذلك كل اهل الايمان والعمل الصالح . وهم اولياء الله و **إِنْ
أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا** .

سبب الود وسبب الجعل : تكسب مودة الناس بأسباب متعارفة بينهم منها القرابة ومنها الصداقة ومنها صنائع المعروف ومآثر الاحسان . اما هذا الود الذى وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات فسببه جعل من الله له فى قلوب العباد لهم دون تودد منهم ولا توقف على تلك الاسباب فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة ولا وصل اليه منهم معروف فهذا نوع من الود خاص يكرمهم الله به وينعم عليهم به الرحمن من جملة نعمه التى يحدثها ويجدد لها لهم زيادة على ما يقتضيه الايمان والعمل الصالح - ومنه الاحسان - من مودة القلوب اما سبب هذا الجعل والوضع والايجاد من الله لهذا الود والاكرام به فهو الايمان والعمل الصالح وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى - هذا الجعل للود منها .

بشارة وتشيت : فى الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق وانصار السنة ومرشدى الامم عندما يقومون بدعوة القرآن فى عشائره ويلقون منهم النفور والاعراض والبغض والانكار ويجدون انفسهم غرباء بينهم يعاديهم من كانوا احبابهم ويقاطعهم اقرب الناس قرابة اليهم ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم - فى الآية بشارة لهم بان تلك الحالة لا تدوم وانهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون وفى الله محبوبون وسيكون لهم ود فى القلوب ممن يعرفون ومن لا يعرفون - وفيها ايضا تشيت لهم فى تلك الغربة ووحشة الانفراد بما يكون لهم من انس الود واى ود هو . ود يكون من جعل الرحمن .

دفع اشكال : الآية منظور فيها الى مجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وغالبهم فلا يشكل علينا ان منهم من يموت فى غربة الحق قبل ان يكون له على الحق انصاره ومنهم من يموت غير معروف من الناس . كما ان الود الذى يجعل لهم غير منظور فيه للعموم فلا يشكل بيمض من يفضهم تعصبا لهوى أو تقليد الضال أو حرصا على منفعة ومحافظة على جاه أو منصب أو مال .

تفسير نبوى : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ان الله اذا احب عبدا دعا جبريل فقال انى احب فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء : ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض . واذا ابغض عبدا دعا جبريل فيقول انى ابغض فلانا فابغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى (جبريل) فى اهل السماء ان الله يبغض فلانا فابغضوه فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الارض » رواه بهذا اللفظ مسلم ورواه البخارى وغيرهما . وزاد الطبرانى « ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةً وَّذًا »** ، فارتبط الحديث بالآية بزيادة الطبرانى ، وبين النبى (ص) بقراءة الآية ان هذا القبول الذى يجعل لمن احبه الله فى اهل الارض - والمراد بهم من يعرفونه منهم - هو نوع الود المذكور فى الآية وبين ان اهل القبول فى الارض محبوبون فى اهل السماء قبل اهل الارض وبين ان سبب ذلك القبول هو محبة الله لهم فمن احبهم حببهم لعباده ولما كان سبب القبول محبة الله لهم بين (ص) ان بغض الله سبب فى بغض الخلق لهم اذ ما تسبب عن احد الضدين يتسبب عن الآخر ضده . ولما كانت محبة الله مسببة عن الايمان والعمل الصالح فبغض الله مسبب عن ضدهما اذ ما تسبب عنه احد الضدين يتسبب عن ضده الضد الآخر ، وكما كان ذلك الود والقبول يكون شيئا زائدا على ما تقتضيه اسباب الود بين الناس كذلك تكون هذه البغضاء التى يهين الله بها ويعاقب من يشاء زيادة على ما تقتضيه اسباب البغضاء بينهم فيكون هذا الذى وضعت له البغضاء - والعياذ بالله - مبغوضا حتى ممن لم يكن منه اليه شىء من اسباب البغض .

تبيين وتعيين : قد يكون الأتباع والمحبون والراغبون لأهل الحق ولأهل الباطل لائمة الهدى ولرؤوس الضلال لدعاة الاتباع ولدعاة الابتداع . ولكن أهل المحبة من الله والود والقبول من المباد هم أهل الحق وأئمة الهدى ودعاة الاتباع للكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالحون لا لانفسهم والتعزب لهم وجلب النفع لهم ، والذى يعينهم لهذه الكرامة دون غيرهم هو اتباعهم للنبى (ص) فى سيرته ودعوته وما كانت دعوته

الا للقرآن وبالقرآن دون ان يسأل على ذلك من اجر . وهذا لان السود والقبول عند العباد مسببان عن محبة الله للعبد ومحبة الله لا تكون الا للمتبعين للنبي (ص) لقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » فكرامة السود والقبول انما هي للمتبعين له (ص) فاما غيرهم فما يكون لهم من قبول عند امثالهم فهو فتنة وبلاء عليهم .

اوشاد : افادت الآية الكريمة والحديث الشريف ان على المسلم ان يتمسك بالايمان والعمل الصالح والاتباع للنبي (ص) ولو كان في قوم انفراد بينهم بذلك وحده . ولا يستوحش من انفراده بينهم . فحسبه رضى الله ومحبته وكفى بهما انسا ، وليثق بانه - ان صدق - ومد الله في عمره يكون له ود وقبول في عباد الله وانس بمن يحبهم ويحبونه لله وتلك المحبة النافعة الدائمة والصلة المتينة الجامعة التي تجمع بين أهلها في الدنيا والآخرة . جعلنا الله والمسلمين من العاملين له المتعابين فيه (1) .

(1) ش : ج 4 م 11 ، ربيع الثاني 1354 هـ جويلية 1935 م .

من آداب المتعلم حسن التلقي وطلب المزيد

« وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا »

(سورة طه ، الآية 114)

لا حياة الا بالعلم وانما العلم بالتعلم فلن يكون عالما الا من كان متعلما
كما لن يصلح معلما الا من قد كان متعلما ، ومحمد صلى الله عليه وآله
وسلم الذى بعثه الله معلما كان أيضا متعلما . علمه الله بلسان جبريل ،
فكان متعلما عن جبريل عن رب العالمين . ثم كان معلما للناس اجمعين .
أرايت أصل العلم ومن معلموه ومتعلموه ؟ ثم أرايت شرف رتبة التعلم
والتعليم . لا جرم كان لرتبة التعلم آدابها ولرتبة التعليم آدابها . وكان
محمد (ص) اكمل الخلق فى آدابها بما أدبه الله وانزل عليه من الآيات
فيهما ، مثل آيتنا اليوم وغيرها .

لزوم الصمت عند السماع : كان النبی (ص) اذا نزل عليه جبريل عليه
السلام بالوحي وقرأه عليه قرأ معه وسأوقه فى القراءة وكان ذلك منه (ص)
لحرصه على حفظه وعدم نسيانه ، حتى يبلغه كما انزل عليه . ولان تملق
قلبه بما يسمع من جبريل وامتلأه به واستيلاء ذلك المسموع على لبه يدعو
الى النطق به لما بين القلب واللسان من الارتباط ولان شوقه الى ذلك
المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعته على التعجيل بقراءته ، غير ان القراءة
عند السماع وقبل تمام الالتقاء تمنع تمام الوعى لان عمل اللسان بالنطق
يضمف عمل القلب بالوعى والحفظ . فلذا نهى الله تعالى نبيه (ص) عن

ان يجعل بقراءة القرآن عند سماعه من جبريل من قبل ان يقضى ويتم
اليه وحيه فقال تعالى : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، »

تاكيد الصمت بكف اللسان : لا يتم تفرغ القلب للوعى الا بسكون
اللسان فلا يكفى فى تفرغه ترك القراءة الجهرية عند السماع حتى ينكف
اللسان عن الحركة فلا تكون قراءة لا جهرا ولا سرا فلذا أكد الله تعالى
طلب ترك القراءة بالنهى عن تحريك اللسان فقال تعالى : « لَا تَحْرِكْ بِهِ
لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، » ثم بين ان الله يجمعه فى قلبه (ص) بالحفظ وانه يطلق
بقراءته لسانه بقوله : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » أى قراءتك اياه ثم امره
ان يتبع قراءة جبريل اذا قرأه عليه فيقرأ كما قرأه بعد فراغه بقوله :
« فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، » أى فاذا قرأه جبريل وفرغ منه فاتبع قراءته
فاقرأه كما قرأه . وانه تعالى يبينه بأقوال نبيه (ص) وافعاله بقوله :
« ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

هذا الادب ادب عام : انما المقصود من الكلام البيان عن المراد وانما
المقصود من السماع وعى الكلام ليفهم المراد فكما كان على المتعلم ان
يسكت حتى يفرغ معلمه من القدر المرتبط بعبءه ببعض مما يلقيه اليه المعلم
حتى يفرغ المعلم من لقائه كذلك على المناظر ان يستمع لمناظره حتى يستوفى
دعواه وحجته وعلى كل قارئ لكتاب ان يستوفى ما يرتبط بعبءه ببعض
منه ثم يبدى رأيه فيه وعلى كل مسنم لتكلم كذلك ، فهذا الادب يتم وعي
المتعلم فيحفظ وفهم المناظر فيرد ويقبل وفهم القارئ فيعرف ما يأخذ
ويترك وفهم السامع لتحصل فائدة الاستماع . وبترك هذا الادب كثيرا
ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم وفوات القصد من المناظرة أو القراءة أو
الكلام .

دوام التعلم للازدياد من العلم : يتعلم الانسان حتى يصير عالما ويصير
معلما ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه ومهما قضى من حياته فى
التعليم وتوسع فيه وتكمل به فلن يزال بحاجة الى العلم ولن تزال امامه
فيما علمه وعلمه أشياء مجهولة يحتاج اليها فعليه ابدا ان يتعلم وان يطلب
المزيد . ولذا أمر الله نبيه (ص) - وهو المعلم الاعظم - ان يطلب من الله -

وهو الذى علمه ما لم يكن يعلم - ان يزيده علما فقال : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي
عِلْمًا » .

تحذير واقتداء : ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصلوا من علم عن
العلم فوقف بهم عندما انتهوا اليه فجمدوا واكسبهم الغرور بما عندهم
فتعظموا وتكلموا فيما لم يعلموا فضلوا واضلوا وكانوا على انفسهم وعلى
الناس شر فتنة واعظم بلاء فيمثل هذه الآية الكريمة يداوى نفسه من
ابتلى بهذا المرض فيقلع عن جموده وغروره ويزداد مما ليس عنده ممن عنده
علم ما لم يعلم . ويحذر من ان يقف عن طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة
ويقتدى بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فلن يزال يطلب من
الله تعالى ان يزيده علما بما ييسر له من اسباب وما يفتح له من خزائن
رحمته وما يلقيه في قلبه من نور وما يجعل له من فرقان وما يوفقه اليه
من أصل ذلك كله وهو تقوى الله والعمل بما علمه . نسأل الله لنا
والمسلمين العلم النافع والعمل الصالح فهو ولى الهداية والتوفيق (1) .

(1) شى : ج 5 م 11 ، جمادى الاولى 1354 هـ 1935 م .

من وعد الله للصالحين

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ »

(سورة الانبياء ، الآية 105)

المناسبة : لما مضى فى السورة ذكر الانبياء (ص) وأمامهم وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها وأحوال الخلق يوم القيامة - جاء فى هذه الآية ذكر الامة التى جاءت بعد تلك الامم كلها وهى أمة محمد (ص) .

توجيه : وانما كانت هذه الآية فى أمة محمد لانه لما تكلم على الامم الخالية لم يبق الكلام الا عليها فخطبت بما قضاه الله وكتبه من ارث الصالحين الارض . والمخاطبون بهذه الآية المكية هم المومنون بالله الموحدون له المتبعون لرسوله محمد (ص) المصدق لجميع الرسل (ص) وهم اصحاب النبى (ص) وهم الصالحون الموجودون يوم ذاك على وجه الارض فكانت الآية اعلاما بما كتبه الله لهم ووعدا بارثهم الارض .

الالفاظ : « الزبور » : بمعنى المزبور أى المكتوب والمراد به جنس ما انزله الله من الوحي على رسله (ص) وأمر بكتابته . وقرأ حمزة الزبور جمع زبر أى كتاب فعيّنت هذه القراءة ان المراد بالزبور فى القراءة الاولى الكتب المنزلة لا خصوص زبور داود (عليه السلام) . « الذكور » : المراد به هنا اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شئ قبل ان يخلق الخلق وجاءت تسميته بالذكر فيما رواه البخارى فى مواضع من صحيحه عن عمران بن حصين (ض) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كان الله ولم يكن شئ غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شئ وخلق السماوات والارض » وما كتبه فى الذكر ما انزله على رسله (ص)

كما قال تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » ، « الارض » : جنس الارض الدنيوية لان هذا اللفظ موضوع لها فاذا اطلق انصرف اليها وبهذا فسرهما ابن عباس من طريق على بن طلحة وهى اصح طرقه . « يرثها » : تنتقل اليهم من يد غيرهم واصل الارث الانتقال من سالف الى خالف وقد يطلق فى غير هذا الموضع على اصل التملك مجازا . « الصالحون » : الصالح من كل شيء هو ما استقام نظامه فحصلت منفعته وضده الفاسد وهو ما اختل نظامه فبطلت منفعته ، ويظهر هذا من تتبع مواقع الاستعمال فاذا قالوا هذه آلة صالحة عنوا انها مصلحة للمنفعة المرادة منها لانتظام اجزائها ، واذا قالوا آلة فاسدة عنوا انها لا تحصل المنفعة لاختلال فى تركيبها . والصالح فى لسان الشرع - قرآنا وسنة - لم يخرج عن هذا المعنى المقصود حيثما جاء . فالصالح هو من استنار قلبه بالايمان والعقائد الحقّة وزكت نفسه بالفضيلة والاخلاق الحميدة واستقامت أعماله وطابت أقواله فكان مصدر خير ونفع لنفسه وللناس . استقام نظامه فى عقده وخلقه وقوله وعمله فعظمت وزكت منفعته وهذا هو معنى الصالحون حيثما جاء كما فى قوله تعالى : « وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » ، وكما فى التشهد « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وقد بين القرآن من هم الصالحون بيانا شافيا وكافيا بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى : « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُسَادِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

المعنى : يخبرنا الله تعالى انه كتب فى الكتب التى انزلها على رسله من بعدما كتب فى اللوح المحفوظ الذى هو اصل تلك الكتب أن الارض يرثها يملكها عباده الصالحون أهل العقائد الصحيحة والاخلاق الكريمة والاعمال المستقيمة الذين ينعمون العباد والبلاد .

تطبيق : خاطب الله بهذه الآية المؤمنين بمكة وهم فى قلة عدد وعدد يعدمهم بذلك - لا بطريق صريح - انهم يرثون الارض ويكون لهم فيها القوة والنفوذ ويمثهم بتعليق الوعد بوصف الصلاح على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه ثم صرح لهم بالوعد بعد فى سورة النور

وهي مدنية بقوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » . وقد حقق الله لهم هذا الوعد ففتح لهم الفتوح واورثهم ملك كسرى وقصر ومد ملكهم في الشرق والغرب وأولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح وترأسوا ذلك الملك العريض .

تعميم وتقييد : علق الوعد بالوصف وهو الصلاح ليعلم انه وعد عام ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها - لا محالة من هذا الوعد . واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضا تقييده بأهله فاذا زال وصف الصلاح من أمة زال من يدما ما ورثت ونظير هذا التقييد قوله في آية النور : « يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

تنظير : مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوى به قلوبهم ويثبت ايمانهم ويظهر به صدق نبيه (ص) بما أعلمه به من غيب - أحاديث صحيحة (1) كقول النبي (ص) لخباب (ض) وقد لقي الصحابة من المشركين شدة فسأله أن يدعو فقال له النبي (ص) : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف الا الله (2) . وكقوله (ص) لعدي بن حاتم (ض) « فان طالت بك حياة لترين الظمينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله . ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى » وقد امتدت به الحياة حتى رأى ذلك ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح . فقد تطابقت الآيات والاحاديث في هذا الوعد . وقد صدق الله وعده لعباده الصالحين وصدق

(1) البخارى في باب ما لقي النبي (ص) من المشركين .

(2) البخارى في باب علامات النبوة في الاسلام .

نبيه (ص) بما لم يكن يعلمه أحد ولا يرى شيئا من أسبابه بل لا يرى الا ما هو مناف له ولكن العاقبة للمتقين .

اشكال وحله : قال اناس ان ارض الدنيا كما يستولى عليها الصالحون يستولى عليها غيرهم والارض التى لا يرثها الا الصالحون هى ارض الجنة فيجب تاويل الآية بها .

والجواب : ان هذا التاويل انما يحتاج اليه ان لو كانت الآية هكذا :
« ان الارض لا يرثها الا عبادى الصالحون » بطريق الحصر فيهم .

اما لما كانت الآية لا حصر فيها فلا حاجة الى هذا التاويل بل فى لفظ الارث وربطه بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت اليهم وانها تزول مع زوال وصف الصلاح . وقد جاء التنبيه على أن الارض يرثها عبادى الصالحون وغيرهم فى قوله : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » فيرثها الصالحون نعمة ويرثها غيرهم فتنة ونقمة كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير .

ايراد وجوابه : قد يقال فما هى الفائدة اذا فى تخصيص الصالحين بالذكر فى هذا الآية . والجواب 1- أن هذه الآية خطب بها اول الناس الصحابة بمكة وهم الصالحون فى الارض ليعلموا ما وعدهم الله به وليعلموا أن قوة الباطل الى ضعف وأن ضعف الحق الى قوة . 2- ولأن شأن الصالحين أنى كانوا أن يكونوا قليلا سيما اول امرهم فهم بحاجة الى أن يعلموا هذا الوعد ليزدادوا ايمانا وقوة وثباتا . 3- ولأن الخلق مفتونون بالكثرة فى العدد والمدة غافلون عن القوة الروحية والاخلاقية وما ينشأ عنهما من استقامة لا يحسبون لذلك حسابا فيحتاجون الى العلم بان الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد وان كانوا قلة فى الناس .
و « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

تعدير من تحريف : رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الارض - وهى مدنية مادية فى نهجها وغايتها ونتائجها فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والاحسان - فقالوا ان رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم الله بآرث الارض . وزعموا ان المراد بالصالحون

فى الآفة الصالحون لعمارة الارض • فىالله للقرآن • وللانسان • من هذا التحريف السخيف كان عمارة الارض هى كل شىء ولو ضلّت العقائد • وفسدت الاخلاق • واعوجت الاعمال وساءت الاحوال وعذبت الانسانية بالازمات الخائفة وروعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة • وهددت باعظم حرب تأتى على الانسانية من أصلها والمدنية من أساسها • هذه هى بلایا الانسانية التى يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التى عمرت الارض وفسدت الانسان ثم يريد هذا المحرف ان يطبق عليها آفة القرآن : كتاب الحق والعدل والرحمة والاحسان • واصلاح الانسان ليصلح العمران • فاما الصالحون فهو لفظ قرأنى قد فسرہ القرآن كما قدمناه وقد شرف أهله باضافتهم الى الله فى قوله : « عبادى » فعمله على الصالحين لعمارة الارض تحريف للكلام عن مواضعه اشبع التحريف وابطله فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين •

موعظة واوشاد : فعل الامم التى تريد أن تنال حظها من هذا الوعد ان تصلح انفسها الصلاح الذى بينه القرآن فاما اذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلا حظ لها من هذا الوعد وان دانت بالاسلام •

ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيتته فى ملك الارض وسيادة الامم يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء • من آخذ بنوع من تلك السنن بلغت به وبلغ بها الى ما قدر له من عز وذل وسعادة وشقاء وشدة ورخاء وكل محاولة لصدها عن غايتها - وهو آخذ بها - مقتضى عليها بالفشل • سنة الله ، ومن ذا يبذلها او يحولها ؟ « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَغْوِيلًا ، ثُمَّ « لِكُلِّ أَهْلٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْصِمُونَ » • (*)

دفاع الله عن المؤمنين

« إِنَّ اللَّهَ يَدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ »

(سورة الحج ، الآية 38)

الكلمات : دفع الشيء : صدّه وردّه ، والدفاع عن الشيء حمايته بصد ما يؤذيه عنه . وقرئ في المتواتر (يدفع) وقرئ (يدافع) وهو بمعنى يدفع ولكنه أريد قوة الدفع فجاء بيفاعل الذى يقتضى المغالبة فى أصله لان دفع المغالب أقوى وابلغ . أو لان ما يهيئه الله لهم من أسباب الدفع التى يباشرونها مقابلة لما يقصدهم به اضدادهم فكان الدفع من الجانبين .
خائن : اذا ضيع ما جعل فى حفظه وعهده والخوان الكثير التضييع لما استحفظ . والكفور : الكثير الجحود للنعم فلا يعترف بها أو لا يؤدى شكرها .

التواكيب : عندما يكون المؤمنون فى قلة وضعف واعدائهم فى كثرة وقوة كالحالة التى كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بميد الهجرة - تمكك النفوس فى سلامتهم من كيد عدوهم فلذا جاء هذا الخبر مؤكدا بان .
ولكون هذا الدفع متجددا جىء بالفعل مضارعا . ولبيان سبب الدفع جىء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الاولى وأكدت بان لان الاولى تحمل المخاطب على ان يسأل سؤال المتردد هل هؤلاء المدفوعون اعداء مبغضون ؟ فاجيب بالتاكيد . وحذف مفعول يدافع ليعم كل ما يدفع ففعل كيد جميع الكافرين .

التفسير : هذا من الله تعالى خبر حق ووعد صدق للمؤمنين بأنه يرد عنهم كيد أعدائهم ويبطل مكرهم ويكف شرهم وإن عظم ذلك منهم وكثر . وإن هذا منه لهم متكرر متجدد . ذلك لأنهم بإيمانهم حافظوا على أمانة الله عندهم وعهده لديهم واعترفوا بنعمه وشكروها فأحبهم الله ورضى عنهم فأيدهم ونصرهم ودافع عنهم . ولأن أعداءهم ضيعوا أمانة الله عندهم بارتكاب المنهيات وترك المأمورات وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه (ص) أو ما جاءهم به من شرعه فابفضهم ورد كيدهم مفلوبين مدحورين .

تحرير في التعليل : إن الحب من الله والبغض كسائر أفعاله لا تقع إلا على وجه الحق والمدل والسداد وهذا أمر واجب لأفعال الرب الحكيم . فالؤمنون أحبهم ونصرهم لإيمانهم ، وأعداؤهم ابفضهم وخذلهم لخيانتهم وكفرهم . واقتضت هذه المقابلة أن الخيانة والكفر من صفات اضدادهم وليست من صفاتهم فإيمانهم مستلزم لامانتهم بحفظ عهد الله عندهم في نفوسهم وعقولهم وأبدانهم وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم ، ومستلزم لاعترافهم بنعم الله وشكره عليها باستعمالها في طاعته وطلب المزيد من بره . وأمانتهم هذه وشكره هي مظهر إيمانهم الذي يميزهم عن اضدادهم ويدل على صدقهم في ذلك الإيمان ورسوخه في قلوبهم . فإذا أعدم منهم الأمانة فخانوا الله والرسول وخانوا أمانتهم وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وإذا بطروا نعم الله عندهم فعتلوا منها ما عطلوا بجهلهم وكسلهم وقعودهم عن الخير وأسباب الحياة والسعادة ، واستعملوا منها ما استعملوا في الشر والفساد واتباع الشهوات - إذا كانوا هكذا فقد استوجبوا غضب الله وبفضه وتقمته وحرموا نصرته ودفاعه وكانوا هم الظالمين .

خيانة دون خيانة وكفر دون كفر : الخيانة خيانتان خيانة عقيدة وخيانة أعمال وكذلك الكفر وكذلك النفاق وكذلك الشرك وإنما يخرج المرء عن أصل الإسلام بما كان في أصل العقيدة لا بما كان في الأعمال إلا عملاً يدل

دلالة ظاهرة على فساد العقيدة وانحلالها . وعلى هذا عقد البخارى رحمه الله فى الجامع الصحيح أبوابا فى ظلم دون ظلم وكفر دون كفر .

تطبيق : لما كان المسلمون أهل الايمان والصدق والشكر والامانة دافع الله عنهم وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم ، فلما خانوا وكفروا تركهم ويمكن منهم . ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل اسلامهم فابقى لهم أصل وجودهم الذاتى . وهم لعم على وضئ بين الامم لا يستطيعون دفعا عن أنفسهم . وابقى لهم أصل وجودهم الروحى بكتابه المتلو بين ظهرانيهم رغم اعراضهم عن تدبره ومجرهم لما فيه - عساهم يرجعون .

تنبيه وتحذير : كل عمل لا يحل فهو خيانة وان كان بادنى اشارة وقد نبه الله على هذا بقوله : « يَٰٓعَلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ » وهى مسارقة النظر الى ما لا يحل والاشارة بطرف العين فيما يحرم . واعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة لان الذنب يعظم بعظم اثره وانتشار ضرره . ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولى أمرا من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم ، فحق على المسلم ان يحذر من الخيانة دقيقتها وجليتها وخصوصا ما اتصل بالناس منها ويتنبه من أقل كلمة وادنى اشارة توقه فى خطرها .

سؤال وجوابه : فان قيل : قد نجد من عباد الله المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة فيعذب وقد يقتل وكاين من نبى قتل ، وقد أصاب المؤمنين يوم احد ويوم حنين ما أصابهم . فالجواب : ان دفع الله يكون بأسباب وأنواع وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة ولا تخلو كلها من دفاع فان ما يصيب المؤمنين من البلاء فى أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد ويقوى فيهم خلق الصبر والثبات وينبهم الى مواطن الضعف فيهم او ناحية التقصير منهم فيتداركوا أمرهم بالاصلاح والنتاب فاذا هم بعد ذلك الابتلاء اصلب عودا وأطهر قلوبا وأكثر خبرة وامنع جانبيا وان فى صبر الصابر منهم وقد نزل به البلاء الذى لا يقدر على دفعه والظلم الذى لا يقدر على ازالته - لبعثا للقوة فى نفس غيره ممن يأتسى به ، وضعفا فى قلب طامه - وفى كليهما دفع من الله من المؤمنين .

مشاهدة وتوصية : نعرف في حياتنا مواطن ما نجونا فيها الا بدفع الله وبطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع الله ، وقد كنا فيها - فيما نرى - على شيء من العمل لله • فكيف بمن كانت أعمالهم كلها لله • وهذه المشاهدة التي شاهدنا - ولا نشك ان من غيرنا من شاهد مثلنا أو أكثر منا - توجب علينا ان نوصى بالايمان بالله والمحافظة على عهده والثقة به فان ذلك يحقق وعد الله بالدفع وينيل أهله العزة والحفظ • فعلى المسلم ان يعمل لذلك ويعتد به ثقة بالله وصادق وعده • والله لا يخلف الميعاد (1) •

(1) ش : ج 9 م 11 ، غرة رمضان 1354 هـ - ديسمبر 1935 م •

أكل الحلال والعمل الصالح

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »

(سورة المؤمنون ، الآية 15)

الكلمات : الطيب : ما صلح واعتدل فى نفسه وسلم من كل ما يفسده ويخرجه عن اعتداله وأصل خلقته فكان مستلزما للنفوس سواء كان مما يدرك بالسمع أو بالبصر أو بالذوق أو بالشم أو باللمس أو بالعقل . فالطيب هو اللذيذ لذة حسية أو عقلية ويقابله الخبيث وهو المستقذر حسا أو عقلا ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : « وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ » ، فما أحل الله الا الطيب المستلذ وما حرم الا الخبيث المستقذر فلهذا صار الطيب فى لسان الشرع يحىء كثيرا بمعنى الحلال ويكون ضده الخبيث بمعنى الحرام . ومنه « كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ » ، أى المحلات فملك غيرك وان كان مستلزما فى الحس فانه ليس طيبا لك شرعا وذلك لانه مستقذر فى العقل بما فيه عند تناوله بدون اذن صاحبه من التعدى المستقبح فى العقل . وقد يحىء الطيب بمعنى الجيد والخبيث بمعنى الردىء وعليه قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِنَ طَبَائِعِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » ، الصالح : هو المستقيم النافع وهو فعل المأمورات وترك المنهيات وتناول المباحات من حيث انها مباحات أو وسائل لفعل المأمورات وترك المنهيات .

التراكيب : للاهتمام بالمأمور به قدمت قبل الامر جملة النداء ، ولان هذا المأمور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل . ولان كل واحد منهم أوحى الله اليه بهذا النداء والامر فى زمانه كان النداء والامر

للجمع ، وقد دخل فى الجمع عيسى - عليه الصلاة والسلام - الذى كان الحديث عليه فى الآية التى قبل هذه وهى : « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ ذُؤُبَةِ ذَاتِ قَرَارٍ وَقَعَيْنِ » . كما دخل فى الجمع محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - الذى نزلت عليه هذه الآية . لان المقصود من الاكل - وهو الغذاء واللذة - يحصل ببعض قبل « من الطيب » بمن التبعية . ولما كان المخاطب باكل الحلال والعمل الصالح شانه ان تتشرف نفسه لتعمين ثمرة ذلك جاء الخبر مؤكدا بأن فى « إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » . وعلم الله مستلزم لجزائه للعاملين فكان كناية عن الجزاء وفى الكناية عن الجزاء بالعلم تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم فهو جزاء الله العليم وكفى به .

التفسير : خلق الانسان مركبا من روح وبدن وانما بقاء بدنه بالغذاء وانما كمال روحه بالعمل فامر الله بالاكل لبقاء البدن واشترط ان يكون من الطيبات لانها هى التى تغذى ولا تؤذى، اما الخبائث ففيتها الاذى ويتفه (1) او يعدم منها الغذاء ، وأمر بالعمل الصالح الذى فيه زكاء للنفس ونفع لها فى العاجل والآجل وخير للعباد والبلاد . وأخبر بعلمه بعمل العاملين ليجتهدوا فى العمل ويخلصوا له فيه وينتظروا جزاءهم من عنده . والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص . وقد انتظمتها الآية تصريحاً فى العمل واستلزاما فى التوحيد . وبين - تعالى بهذا الآية ان هذا الذى اشتملت عليه هو دين الله لجميع الامم أوصى به رسله (ص) ليبلغوه لخلقه فهو حقيق ان يؤخذ به ويعمل عليه .

توجيه الترتيب : تتوقف الاعمال على سلامة الابدان فكانت المحافظة على الابدان من الواجبات ولهذا قدم الامر بالاكل على الامر بالعمل فليس من الاسلام تحريم الطيبات التى أحلها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم وليس من الاسلام تضعيف الابدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك ، ومن قلدهم من المنتسبين الى الاسلام ، والميزان العدل فى ذلك هو ما كان

(1) تفه الرجل يتفه تفوها : قل عقله فهو تافه . وتفه الطعام يتفه تفاهة : لم يكن له طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة فهو تفه وتافه .

عليه النبي (ص) واصحابه (ض) وقد بين ذلك ائمة السنة والاثار رحمهم الله وقد جوده مالك « ر » فى كتاب الجامع من الموطا .

وفى تقديم الاكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على انه هو الذى يشمرها لان الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن فتصلح الاعمال كما ان الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الاعمال .

بيان نبوى : اخرج مسلم فى صحيحه من طريق أبى هريرة (ض) ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ايها الناس ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا . وان الله تعالى امر المؤمنين بما امر به المرسلين فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن كَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » ثم ذكر الرجل يطيل السفر - اشعث اغبر - يمد يديه الى السماء . يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فانى يستجاب لذلك » . فبين الحديث الشريف ان الله طيب - أى منزّه عن النقص فى ذاته وصفاته وافعاله تنعم العقول والارواح بمعرفته - كما يليق به ومحبته . وانه لا يقبل من الاعمال الا طيبا أى صالحا فى نفسه خالصا من شوائب المخالفة والرياء والشرك ، وبين ان الشرع عام للرسل وللأمم ولا يستثنى من هذا الا ما دل الدليل على اختصاصه بالرسل ، وبين ان اكل الحلال هو الذى يشمر قبول الدعاء والدعاء هو مخ العبادة . فاذا رد عليه فقد ردت عليه عبادته . فكان هذا البيان النبوى على مقتضى ما افاده ترتيب الامرين فى الآية .

تكميل : فى آية الرسل الامر بالاكل من الطيبات والامر بالعمل الصالح واستلزام الامر بالاخلاص وفى آية المؤمنين الامر بالاكل من الطيبات والامر بالشكر والتصريح بلزوم توحيده تعالى فى العبادة لان تمامها هكذا : « وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » . واقصر فى الحديث على الامر بالاكل من الطيبات اما لان الكلام كان فى الحث على اكل الحلال ، واما لان الراوى اختصر الرواية .

الاهتمام : على المؤمن ان يتحرى فى مأكله ومشربه وكل ما به قوام ذاته - الحلال الطيب يمثل بذلك أمر الله ويقصد التوصل به الى العمل الصالح . وعليه ان يتحرى فى فعله وتركه أمر الله ونهيه حتى يكون عمله عملا صالحا طيبا متقبلا . يمثل بذلك أمر الله ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه . والمتحرى للحق والخير جدير بالتوفيق اليه وكثرة أصابته .

رزقنا الله والمسلمين التحرى لطاعته والتوفيق لمرضاته والتدابير بكتابيه آمين (1) .

(1) الشهاب : ج 11 م 11 ، ذو القعدة 1954 فيفري 1936 م .

الاجتماع العام ، للأمر الهام وارتباط الجماعة بأمر الإمام

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ . إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »

(سورة النور ، الآية 62)

الالفاظ : الامر الجامع هو الحادث الذى يتطلب الاجتماع بطبيعته فيجمع الامام الناس من أجله . من ذوى الراى والمعرفة بمثله والخبرة والتجربة فيه . من كل ما يعين نفعه أو ضرره من أمور السلم والحرب وشؤون الحياة والاجتماع . ليتشاوروا فيما بينهم ويستضيئوا بعضهم لراى بعض . والاستئذان هو طلب الاذن من الامام بفارقة الاجتماع لعذر قاض بالمفارقة .

المعنى : يأمر الله المؤمنين اذا كانوا مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على أمر جامع ان لا يفارقوا مجلسه كلهم أو بعضهم الا باذنه . واكد هذا الامر بما وطأ له من ذكر الايمان بالله ورسوله تنبيها على انه من مقتضاها . وبقرنه بهما وجعله ثالثا لهما تعظيما لشأنه وتنبيها على ملازمته لهما ممن صدق فيهما . حتى كأن غير المستأذنين لا إيمان لهم وباعادته فى الجملة الثانية ببيان ان الذين يستأذنون هم دون غيرهم الثابتون فى ايمانهم المستمرون عليه تعريضا بالذين لا يستأذنون وتقبيحا

لحالهم بأنهم لا ثبات لهم فى الايمان ولا استمرار منهم على العمل به .
فليسوا بالمؤمنين ولا بالذين يؤمنون .

ثم جعل الخيار لرسوله فى الاذن وعدم الاذن لهم اذا استأذنوه لبعض
شأنهم تعظيما لامر الاجتماع وتعظيما للمصالح العام وتوكيدا لحق الامام على
الجماعة لحفظ الاجتماع وتسييم الاعمال .

ثم امره ان يستغفر لهم فقد يكون العذر دون الاضطراب . وقد يكون
ما فاته من بركات الاجتماع وحسنات المشاركة فيه بالرأى والاهتمام وتكثير
السواد - بسبب ذنب كان منهم فى أمر غير الاجتماع وأكد هذا الامر بأنه
الكثير المغفرة لعباده الدائم الرحمة بهم .

الاحكام : لما كان الاجتماع شرع للمصلحة والذهاب بدون استئذان
حرم للمفسدة فالمشروعية والتحريم دائمان بدوام المصلحة والمفسدة .
فاحكام الآيه مستمرة الاحكام عامة للمسلمين فى كل زمان وكل مكان مع
أئمتهم وقادتهم والمقدمين منهم فيهم فى كل ما يعرض من اجتماع لمصالح
عام . فمن أحكام الآيه الكريمة - ان على أئمة المسلمين وذوى القيادة فيهم
اذا نزل بهم أمر هام ان يجمعوا جماعة المسلمين الذين يرجى منهم الرأى
والعمل فيما نزل فلا يجوز لهم ان يهملوا أمرهم ولا ان يستبدوا عليهم
- وان على المسلمين ان يجتمعوا اليهم ويكونوا معهم بظاهروهم ويؤيدونهم
وينصحون لهم . فلا يجوز لهم ان يتخلفوا عنهم ولا ان يخذلوهم - وان
على المجتمعين ان لا يذهب واحد منهم الا باذن - وان لا يستأذن الا لعذر
ببعض الشأن - وان على الامام ان ينظر فى الاذن وعدمه فيفعل ما هو أولى .

بيان مراد ، ودفع اغترار واعتراض : تجد فى آيات القرآن العظيم
اخبارا ووعودا من الله تعالى للمؤمنين ولربما حسب من لا يعلم انها تشمل
كل من كان على أصل الايمان من اعتقاده مع بعض أعماله وان فرط فى
كثير من أصول الاعمال . فيبين الله تعالى فى هذه الآيه وامثالها مراده
بالمؤمنين عند اطلاق لفظ المؤمنين فى تلك الاخبار والوعود حتى لا يفتر
المفردون ولا يعترض الجاهلون .

توجيه وإرشاد : انما ينهض المسلمون بمقتضيات ايمانهم بالله ورسوله اذا كانت لهم قوة وانما تكون لهم قوة اذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتنشاور وتتنازر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة . ولهذا قرن الله في هذه الآية بين الايمان بالله ورسوله والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع فيرشدنا هذا الى خطر امر الاجتماع ونظامه ولزوم الحرص والمحافظة عليه كاصل لازم للقيام بمقتضيات الايمان وحفظ عمود الاسلام .

موعظة . ما أصيب المسلمون في اعظم ما أصيبوا به الا باهمالهم لامر الاجتماع ونظامه ، اما باستبداد ائمتهم وقادتهم واما بانتشار جماعتهم بضعف روح الدين فيهم وجهلهم بما يفرضه عليهم . وما ذاك الا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين وتعليم الجاهلين وبث روح الاسلام الانساني السامي في المسلمين . فعلى أهل العلم - وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من ارث النبوة فيهم - ان يقوموا بما ارشدت اليه هذه الآية الكريمة فينبهوا في المسلمين روح الاجتماع الشورى في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد ولا يتخلف منهم متوان ، وحتى يظهر الخادل لهم ممن ينتسب اليهم فينبذ وي طرح ويستغنى عنه بالله وبالمؤمنين .

موازنة وترجيح : هنالك المصلحة العامة وهنالك المصلحة الخاصة ، ومحال ان تتساوى هذه بتلك . انظر الى الذكر الحكيم كيف عبر عن الاولى بالامر الجامع وفي هذا ما فيه من تفخيم ، وعبر عن الثانية ببعض الشان وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل . وفي قرنهما بالاستغفار تنبيه على ترجيح الاولى على الثانية . وانها ما كانت تعتبر الا على وجه الرخصة والاستغراق في الاهتمام والتدبير للمصلحة العامة احق واولى .

امثال ورجاء : لنجعل المصلحة العامة غايتنا والمقدمة عندنا حتى لا يكون - ان شاء الله - في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها راجين من الله تعالى ان يعيننا على ما قصدنا وان يوفقنا الى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولاخواننا انه نعم الموفق ونعم المعين (1) .

(1) الشهاب : ج 1 م 13 - محرم 1356 هـ ، مارس 1937 م .

الاجتماع العام ، للأمر الهام

وارتباط الجماعة بأمر الإمام

« لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا . قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »
(سورة النور - الآية 63)

المناسبة والارتباط : لما بينت الآية السابقة وجوب الاستئذان عند ارادة الانصراف من مجلسه ، عليه الصلاة والسلام ، بينت هذه الآية وجوب تلبية دعوته اذا دعا ، وفضحت حالة الذين يتسللون غير مستأذنين وحذرت من فعلهم واوعدت الوعيد الشديد المخالفين امثالهم .

الالفاظ : الدعاء : النداء وطلب الاقبال للحضور . بينسكم : فى اعتقادكم ومعاملتكم . يتسللون : يذهبون قليلا قليلا من الجماعة متخفين . لواذا : ملاوذة بان يلوذ هذا بهذا ويلوذ هذا بهذا متسترا به حتى لا يرى عند خروجه . فليحلو : فليتيقظ وليتحرز . وذلك باجتناب المخالفة . يخالفون عن امره : يصدون ويمرضون عن طريقتة وسنته ومنهاجه وما كان عليه من سير فى الحياة . الفتنة : البلاء بأنواع النقم او بنعم تستدرج الى النقم هذا معنى الفتنة لانها ذكرت فى مساق الوعيد . عذاب اليم : فى الآخرة .

المعنى : لا تنزلوا دعاء الرسول لكم اذا دماكم الى الحضور عنده منزلة دعاء بعضكم بعضا للحضور ، فتحسبون انفسكم مخيرين ان شئتم اجبتم وان شئتم تخلفتم فتارة تجيبون وتارة تتخلفون . فاجابة دعوته والاسراع اليه واجب محتم عليكم والتخلف او التباطؤ - لغير عذر واضح - محرم

عليكم . ذلك لانه اذا دعاكم لا يدعوكم الا لمصلحة قطعية وخير محقق يمود
عليكم في امر الدين أو امر الدنيا ففى تخلفكم أو تباطؤكم تفويت أو
تعطيل أو تشبيط .

واذا حضرتم مجلسه فابقوا كلکم عنده ولا تذهبوا من مجلسه واحدا
واحدا أو اثنين اثنين يستتر بعضكم ببعض عند الخروج حتى لا يراه
الناس ولا يراه الرسول فان الله يعلم قطعا اولئك الذين يخرجون متسللين
متسترين بعضهم ببعض فاذا نجوا من ملام الرسول فانهم لا ينجون من
عذاب الله .

واذا كان الله عالما بصنعمهم ومفارقتهم لمجلس رسوله وثلمهم لجماعته
وصندهم واهراضهم عما هو عليه هو ومن معه - فهو معاليهم على ما ارتكبوا
بالبلایا يصيبها عليهم فى الدنيا أو العذاب الاليم يزله بهم فى الاخرى
أو يجمع لهم ما بينهما . فليعجب اولئك المخالفون لامره هذه الفتنة وهذا
العذاب وليحدروا منها . وما ذلك الا بترك المخالفة والاقلاع عنها والرجوع
الى الموافقة والاتباع .

تنظير وتعميم : امراء المسلمين ولادتهم ومن يتولون امرا من امورهم
الغامة تجاب دعوته اذا دعوا لامر عام وشأن مما يرتبط بما فى عهدتهم من
امر الناس ، ويسرع اليهم ولا يتسلل من مجالسهم . ذلك لما لهم من حق
الخلافة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما كان يقوم به من امر
الناس وتدير شؤونهم وطبعت نظامهم ورعاية مصالحهم .

میزان : كل الاقوال والاعمال توزن باقواله واعماله ، وكل الاحوال
والسير توزن بسيرته وحاله . فما وافقها فهو الحق والخير والهدى ، وهو
الذى يقبل من كائن من كان . وما خالفها فهو الباطل والشر والضلال ،
وهو الذى يرد على صاحبه كائنا من كان . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما
انه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من عمل حملا ليس عليه امرنا
فهو رد » .

وجوه الفتنة وسببها : مخالفة السنة النبوية والهدى المصدى وما كان
عليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى تنفيذ شرع الله وتطبيق

احكامه وتمثيل الاسلام تمثيلا عمليا - تلك المخالفة هى سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم بحكم صريح هذه الآية . وقد ذكر المفسرون فى تفسير الفتنة أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد فذكروا الكفر ، والقتل والاستدراج بالنعم ، وقسوة القلب عن معرفة المعروف والمنكر ، والطبع على القلب حتى لا يفقه شيئا ، وكل هذا قد أصاب المسلمين بسبب مخالفتهم .

اعظم الفتنة : غير ان اعظم الفتنة - فيما نرى - هو ما قاله الامام جعفر الصادق : « ان يسلط عليهم سلطان جائر » فانه اذا جار السلطان - وهو من له السلطة فى تدبير أمر الامة والتصرف فى شؤونها - فسد كل شيء ، فسدت القلوب والعقول والاخلاق والاعمال والاحوال ، وانحطت الامة فى دينها ودنياها الى احط الدركات ولحقها من جرائم كل شر وبلاء وهلاك . ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور فى قدره وسعته ومدة بقائه . هذا اذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين - بحسب ظواهره - بدينها فكيف اذا لم يكن من جنسها ولا من دينها فى شيء ، حقا ان اعظم ما لحق الامم الاسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها . وهذا ما يشهد به تاريخها فى ماضيها وحاضرها . فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أصدق نظره فيها . ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة ؟ عليهم الرضوان والرحمة .

تطبيق وتعذير : من أبين المخالفة عن أمره واقبحها الزيادة فى العبادة التى تعبد لله بها على ما مضى من سنته فيها واحداث محدثات على وجه العبادة فى مواطن مرت عليه ولم يتعبد بمثل ذلك المحدث فيها . وكلا هذين زيادة واحداث وابتداع مذموم ، يكون مرتكبه كمن يرى انه اهتدى الى طاعة لم يهتد اليها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسبق الى فضيلة قصر رسول الله (ص) عنها . وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء ، دع ما يجزئ اليه من بلايا أخرى . وقد طبق الامام مالك رضى الله عنه هذه الآية الكريمة على هؤلاء المتزيدين أحسن تطبيق وأبلغه وارادعه لمن كان له فهم وإيمان .

روى الامام ابن العربى - رحمه الله - بسنده المتصل الى سفيان ابن عيينة رحمه الله قال : « سمعت مالك ابن انس - واثاه رجل - فقال

يا أبا عبد الله من أين أحرم ، قال : من ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : انى أريد أن أحرم من المسجد . فقال : لا تفعل . قال : انى أريد أن أحرم من المسجد من هند القبر . قال : لا تفعل ، فانى أخشى عليك الفتنة . قال : وای فتنة فى هذا ؟ انما هى اميال أزيدهما . قال : وای فتنة أعظم من ان ترى انك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . انى سمعت الله يقول : « **فَلْيَعْلَزِرِ الَّذِينَ يُعَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ هَذَابٌ أَلِيمٌ** » ، فليتأمل المسلمون - وخصوصا المنتسبين الى مذهب مالك - فى فقه هذا الامام العظيم ووقوفه عند حدود الله وليحذروا من عاقبة المتزידين المتغالين .

بوارق أمل : لقد شمر المسلمون عموما بالبلايا والمحن التى لحقتهم ، وفى اولها سيف الجور المنصب على رؤوسهم ، وادرك المصلحون منهم ان سبب ذلك هو مغالفتهم عن امر نبيهم (ص) فأخذت صيحات الاصلاح ترتفع فى جوانب العالم الاسلامى فى جميع جهات المعمور . تدعو الناس الى معالجة ادوائهم . بقطع سببها واجتثاث اصلها ، وما ذلك الا بالرجوع الى ما كان عليه محمد عليه الصلاة والسلام وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه بالخير فى الاسلام وقد حفظ الله علينا ذلك بما إن تمسكنا به لن نضل أبدا - كما فى الحديث الصحيح - الكتاب والسنة . وذلك هو الاسلام الصحيح الذى أنقذ الله به العالم أولا ، ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم الا اذا أنقذه الله به ثانيا .

وقد أخذ المسلمون يصيخون اسماعهم ويستجيبيون أفواجا أفواجا لداعى الاصلاح أينما دعاهم . وفى ذلك - والحمد لله - ما يقوى الرجاء والامل ويبعث على الجهد والعمل . « **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ أَلِّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** » ، (1) .

« الفرقان »

« تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ
نَذِيرًا (x) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا » (a)
(سورة الفرقان - الآيات : 1 ، 2)

المفردات : « تبارك » : مادة (ب . ر . ك) كلها ترجع الى معنى الثبوت منها
بروك الابل استنساخها ، والبركة كالقربة مثل الحوض يشبت فيها الماء ،
والبراكاء الثبات في الحرب ، ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة ولا ينمو
ويزيد الا ما كان ثابت الاصل ، وشان ثابت الاصل أن ينمو ويهيد فلم
تخرج عن معنى الثبوت . وتبارك من البركة لمعناه تزايد خيره والله تعالى
له الكمال ومنه الانعام ، فتبارك أى تزايد كماله وانعامه فلا تحصى انعاماته
ولا تحد كمالاته . وثبوت الكمال ينافى وينفى ضده فيلغى التنزه عن
النقص ، فانظم اللفظ ثلاثة معاني العزوه عن النقص والاتصاف بالكمال
والاناضة للانعام ، فتبارك « تقدس وتعاظم » الفعل الاول مفيد لاول
والفعل الثانى مفيد للثانى والثالث « قول » : مادة نزل كلها ترجع الى معنى
الهبوط من عل والحلول فى أسفل . ونزل المضاعف ابلغ فى المعنى من
أنزل وقد يفيد كثرة النزول كما هنا لانه نزله مفرقا على نيف وعشرين
سنة ، وقد يفيد القوة فى نزول واحد كما فى « قَوْلًا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ
جُمْلَةً وَاحِدَةً » : لأن تنزيل الجملة اقوى من انزال التفصيل « الفرقان » :
أصله مصدر فرق بمعنى فصل وهو ابلغ فى الدلالة على المعنى من فرق
المصدر المجرد بما فيه من زيادة الالف والنون كما كان القرآن ابلغ من
القراءة لذلك وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم « نذير » : مادة
نذر كلها ترجع الى الاهلام والتحذير فمنها نذر على نفسه الصوم أوجبه

وحقته وأعلم به ولذر بالعدو كفرح علم به والذره أعلمه ولا يستعمل الا في ابلاغ ما فيه تخويف ، فهو اعلام بتأكيد واحقهم • ولذير هنا بمعنى منلر من لميل بمعنى منلر •

التراخيي : « الذي نزل » عرف المسند اليه بالموصولية لزيادة تقرير الفرض الذي اليه سبق الكلام لان الفرض بيان كمالات الله تعالى وانعاماته وتذليل الفرقان منها فهو من اعظم نعم الله على البشر ومن آيات الله الدالة على قدرته وعلمه وحكمته ، ههنا ، اضافة لتشريف لاله اكمل العباد •

المعنى : تقدس وتعظم الرب الذي نزل الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال وحزبيهما من الناس مفصلا آيات آيات على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - اكمل عبادته ليكون بذلك الكتاب لجميع الانس والجن مثلرا لهم يعلمهم بعذابه ويخوفهم بشديد عقابه ان لم يعبدوه وحده ويخلصوا غيره من آلهتهم الباطلة ويدخلوا في الدين الذي جاءهم به وهو الاسلام •

توحيد : هذا الفعل وهو « تباووك » لا يسند الا الى الله تعالى • ذلك لان العظمة الحقيقية بالكمال والانعام والتقديس بالتفزه التام ليسا الا له ، وما من كامل من مخلوقاته الا وهو - جل جلاله - الذي كمله ، وما من منعم عليه منهم الا وهو تعالى الذي انعم عليه ، وما من زكي منهم الا وهو - سبحانه - الذي زكاه •

سلسوك : هذا الرب الكامل المكمل المنعم المتفضل القدوس المقدس هو الذي أنزل هذا الفرقان فاذا اردت ان ترقى في درجات الكمال وتظفر بانواع الانعام وتزكى نفسك الزكاء التام فعليك بهدى هذا الفرقان فهو بساط القدس ومعراج الكمال ومائدة الاكرام • وقد سئلت عائشة رضى الله تعالى عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن •

تفقه واستنباط : لما سمي الله كتابه الفرقان علمنا انه به يفرق بين الحق والباطل وأصل هذا وذاك فهو الحكم العدل والقول الفصل بين كل متنازعين

يعنى كل منهما انه على الحق فيما هو عليه من عقد لى قول او عمل فما تقابل حق وباطل وما تعالجت حجة وشبهة الا وفى هذا الكتاب الحكيم ما يفرق بينهما وانما يتفاوت الناس فى ادراك ذلك منه على حسب ما عندهم من قوة علم وصدق بصيرة وحسن اخلاص ، فعلينا - اذا - أن يكون أول فزعنا فى الفرق والفصل اليه وأن يكون أول جهدنا فى استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه مستمينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه . فاذا حكم قبلنا وسلمنا وكنا مع ما حكم له وفارقنا ما حكم عليه ، فالله سواه الفرقان لنعلم انه فارق بنفسه . ولنعمل بالفرق به ولا يكمل ايماننا بانه الفرقان الا بالعلم والعمل .

ولما جمل - تعالى - غاية تنزيل الفرقان أن يكون عبده نذيرا اقتضى ذلك أن نذارته تكون بالقرآن لتقوم الحجة وتتم الحكمة وتحصل الفائدة وتشمل النعمة . وقد صرح بهذا فى قوله تعالى بالأعراف : « كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَلَوكَ حَرْجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ » وبالانعام : « وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » وبالنمل : « إِنَّمَا أَمِِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰدِيهِ أَتَبْلُغُوا أَلَدَىٰ حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ » و ب ق : « فَذَرِكْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَصِيدَ » وبالتوبة : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » فعلينا - اذا - أن نعلم أن القرآن هو كتاب النذارة والهداية فنستخرج اصولهما وفنونهما من آياته وهذا حظ العلم . وأن يكون اعتدائنا فى انفسنا وهدينا لغيرنا به وهذا حظ العمل وهما ركنا الايمان .

تطبيق وتحاكم : فى العالم الاسلامى كله اليوم طائفتان من المؤمنين تتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير ، ولكل منهما فى سلوكها للقيام بتلك الغطة سبيل ، وكل منهما تدعى أنها هى التى على الصواب وانها الاحق والاولى بنفع العباد . فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما وننظر كيف يفرق ما بينهما وبين المصيبة من المخطئة منهما ، وفى ضمن ذلك تحاكمهما اليه وفصل النزاع بينهما بحكمه ، وانما اخترناهما للتطبيق

والتمثيل لخطر الخطة التي تنازعا عليها وعظيم النفع والضرر الذي يحصل من خطأ المخطيء وصواب المصيب بها ، ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها انزل القرآن فتنازعهما عليها تنازع عليه ، فاحق فصل نمثل به لنعلمه هو فصله بين المتنازعين فيه . وما نحن نعرض بعض حال كل طائفة في قيامها بالخطة ثم نسوق آيات القرآن وننظر من أسعد الطائفتين بها :

الطائفة الاولى : يذكرون من يدعونهم بغير القرآن باحزاب واوارد من وضمهم لا مما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الا قليلا . ولهم عليهم في اموالهم حق في اوقات من السنة معلومة .

والطائفة الثانية : يذكرون الناس بالقرآن فيامروهم بقراءته وتدبره ويبينون لهم معانيه ويحثونهم على التمسك به والرجوع اليه .

ويدعونهم الى الاذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح لرجوعها الى القرآن بحكم قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » ولا يطلبون عليهم في ذلك اجرا .

والله تعالى يقول في الحال الاول : « كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ » وغيرها من الآيات المتقدمة في هذا المجلس . ويقول - تعالى - في الحال الثاني لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » . « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ » . ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب ان يتبع من الدعاة : « أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ » ، ومن هم المهتدون ؟ هم المتبوعون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى في الاعراف : « فَلَايْمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » . واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه في طريق دعوته الخلق الى الله . وقد ثبت بالقرآن انه كان يدعو بالقرآن ويذكر به وانه لا يسئل على ذلك اجرا .

بان - والحمد لله - بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين واتضح طريق الحق في الدعوة والارشاد لمن يريد سلوكه منهما . والله نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه والقوة والاخلاص في الصدع به والثبات عليه .
 و « يَكُونُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُؤْتِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » (1) .

(1) الغهاب : ج 12 ، م 7 - شعبان 1350 هـ ، ديسمبر 1931 م .

كلام الظالمين في الكتاب الحكيم والرسول الكريم

ورد رب العالمين

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » (6) .

(سورة الفرقان)

الإلفاظ : كفروا : غطوا الحق بانكاره وعدم الاعتراف والاعلان به
وكل من غطي شيئا وستره فقد كفره وسعى الليل كائفاً لأنه يغطي الأشياء
بظلامه والزارع كافر لأنه يغطي البذر بالتراب : افكك : كذب مصروف
من وجهة الحق ، من افكك ينفكه افكاً أي يبركه : افتراه : اختلقه واخترع
صوريته : جاءوا : وردوه وانتهوا اليه : ظلموا : وضع الشيء في غير موضعه :
زوروا : شهادة بالباطل : اساطير : جميع أسطورة أي أخبار وحكايات
مسطورة في كتب الأوائل : ليست محل الثقة : اعتقها : أمر بكتابتها له ،
والتمل ياتي للطلب كاجتهد والتصيد : تمل : تلقى عليه ليحفظها فيلبيها
على الناس : بكرة : ما بين الفجر والطلوع : أصيلاً : ما بعد العصر إلى
المغرب : السرى : الخفى من كل شيء : ظفروا : سقاروا للذئوب كقبح التجاوز
عنها : وحيماً : دائم الإضافة للنعم :

المعنى : وقال الذين أنكروا الحق مع ظهوره وجعده مع وضوحه ما هذا الكلام الذى يتلوه محمد علينا الا كلام كذب مصروف عن وجه الحق اخترعه وصوره وأعانه عليه غيره آفاس آخرون . فقد سموا الحق الصراح والصدق الخاص افكا ، وجعلوا أخبار الامين الذى كانوا يدمونه هم امينا - افترام ، وجعلوا القرآن الذى عجزوا عن ممارسته كلاما عاديا متعاوننا على تركيبه وتصويره ، فسموا الشيء بغير اسمه ، ووضعوا الوصف فى غير موضعه ، فالتفتوا بذلك الى ظلم عظيم اتوه وولعوا فيه ، وقد شهدوا بالباطل فنسبوا للرَسُول صلى الله عليه وآله وسلم ما هو برى منه من الافراء والاستعانة بغيره فالتفتوا الى زور عظيم تحملوه .

وقالوا - أيضا - هذا الذى يتلوه علينا هو من أخبار الاولين وكذبهم المستورة التى سطورها من أعاجيب أحاديثهم ما يتلوه به ولا يؤثق بصحته توصل اليها من غيره أمر فكنت له فكاتبها له يملئها عليه دالما فى طرلى النهار فيحفظها هو ويأثينا بها ، قل - يا محمد - أنزل هذا الذى أتوه عليكم الخالق الذى يعلم الشيء الخفى والامر المكتوم فى العالم العلوى والعالم السفلى . وما أمهنتكم فلم يماجلكم بالعذاب . وبلى يجند لكم التكدير مع أمراضكم وعنادكم وقبح صنيعكم وسوء ردكم الا أنه من هاته الصفح والتجاوز ودوام الانعام والتفضل ، فهل لكم أن ترجعوا الى هذا الرب الغفور الرحيم ؟

مزيد بيان : بهر العرب ما راوا وما سمعوا . من رجل كان بالاس مرضا عنهم تاركنا لهم وشأنهم يشهد موسم الحج معهم ويحجبت مشاهد ونيتهم ولكنه لا يعاديهم . ولا ينكر عليهم ويسير بينهم بالصدق والجد والعفاف وكمال المروءة سيرة تخالف سيرتهم فهم لذلك يحبونه ويمظلونه ويدمونه الامين لقباً خصوه به فصار يدعى به بينهم . فأصبح اليوم - وقد جاوز الاربعين - ينكر عليهم ويسفه أحلامهم ويقبح عبادتهم وما يعمدون ويصبر على أذاهم ولا يقابلهم بالمثل ويستمر على دعوته غير مبال بهم ولا حاسب شيئا لكثرتهم ولا لسطوتهم . ومن كلام مثل كلامهم فى الفاظه

وفى تراكييه ثم هم يمجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه ، ثم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه فهو اذا حدثهم حديثهم بما اعتادوا من حديثه معهم حتى اذا تلى عليهم القرآن جاءهم بما هو فسوق كلامه وكلامهم وما تقصر عن معارضته السننهم .

بهرهم هذا وهذا واخذ العناد بعقولهم واستحوذت عليهم شياطينهم فحاربوا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب فاخذوا يقولون عن الكتاب انه افك مفترى وراوه اكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد فلم يكن ليأتى به وحده وهو فوق المعتاد من كلامه فاذا هنالك اقوام يعينونه ومن هم الاقوام ؟ وهو - بعد - لى نفر قليل من آمن به ، وهم هم لى كثرتهم وتساندهم وقد عجزوا عن الاتيان بشئ مثله ، فالقليل احصى بالمعجز من الكثير ، ويقولون انه اساطير الاولين وقد كان منهم من عرف شيئا من اخبار الفرس وملوكهم وكان يحدثهم بها ويقصها عليهم ويزعم لهم انها مثل ما يأتى به محمد ، فقالوا - وقد علموا الفرق - هذه منها وهى مثلها ولكن محمدا عرفوه أميا لا يقرأ ولا يكتب فكيف اتصل بهاته التى زعموها اساطير فاخترعوا وسيلة لذلك انه يكتبها له غيره ويمليها عليه وهو يحفظها ، ومن هو هذا الذى يكتب ويملى عليه وهم قد عرفوا مدخل محمد ومخرجه ومغذاه ومجلسه ، وعرفوا بلدتهم ومن يساكنهم ، فكيف لا يرونه ولا مرة بين يدى هذا الكاتب الممل ولا يشاهدونه يوما فى صحبتته ، فاخترعوا لذلك انه يملئها عليه فى طرفى النهار فى ظلام من الوقت وسكون من الناس . وقالوا فى الرسول - صلى الله عليه وسلم - انه مفترى يستعين على افترائه بغيره ، ويتظاهر باستقلاله وينسب لله ما هو من حكايات الاوائل واوضاعهم . فيكذب عليه - تعالى - لديهم رد الله عليهم كل ما قالوا فيهما بانه ظلم وزور وان ما يتلوه عليه هذا النبى الكريم من ذلك الكتاب الحكيم ليس مما يكون الا من خالق المخلوقات العالم بأسرارها .

أسلوب في البيان : لقد جاءوا بالظلم والزور في قولهم الاول وقولهم الثاني . وقوله : « قل » أمر بما يرد قولهم الاول وقولهم الثاني غير انه قصد الى الابهاز وعدم التكرار فجعل مع قولهم الاول الوصف وهو الظلم واكتفى بذكره هنا عن اعادته ، وجعل مع قولهم الثاني الدليل وهو الزال من يعلم السر . واكتفى بذكره هنا عن ذكره مع الاول فحلف من كل ما أثبت مع الآخر . وجعل الوصف مع الاول والدليل مع الثاني ترتيبا من الدعوى للدليل .

وجه الدليل : القرآن اعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم المرافضين ببيانهم انه ليس مثله من طول البشر .

هذه هي الناحية الظاهرة في اعجاز القرآن والاستدلال به له ولن اتى به صلى الله عليه وآله وسلم . وهناك ناحية اخرى هي اعظم واهم وهي ناحية العلمية التي يمدح بها كل ذي فهم من جميع الامم في كل قطر وفي كل زمن . وهذه الناحية هي التي احتج بها في هذا الموضع .

لقد استدلل على ان القرآن لا يمكن ان يكون اثنى به محمد من عبده ولا يمكن ان يستعين عليه بغيره ولا ان يكون من اوضاع الاول - بأنه ينطوي على اشياء من اسرار الكون لا يعلمها الا خالقه - فمن ذلك ما اثبت به من اسرار الامم الخالية وبين من اسرار الكفب الماضية ، وما اثبت من احداث مستقبلية . وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة كالزوجة في كل شيء وسبح الكواكب في الفضاء وسبح الشمس الى مستقر مجهول معين عند الله لها وغير ذلك من اسرار العرمان والاجضاع وما تصلح عليه حياة الانسان مما تقوى على تصديقه تجارب العلماء الى اليوم والى ما بعد اليوم . فكيف امكن على كل هذه الاسرار لا يمكن ان ياتي به مخلوق .

ترغيب : قد دعانا الله الى العلم ورغبنا فيه في غير ما آية ، واعلمنا انه خلق لنا ما في السموات وما في الارض جميعا ، وامرنا بالنظر فيما

خلقه لنا ، واعلمنا هنا أن في هذه المخلوقات أسراراً بيّنها القرآن واضعاً عليها ، وكان ذلك من حجة العلمية على الخلق ، فكان في هذا ترهيب لنا في القصى في العلم والتدقيق في البحث للطلع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الاسرار ، أسرار آيات الاكوان والسموات ، وآيات القرآن لتزود علماء وعرفاءنا ، ولزيد الدين حجة وبرهاناً ، ولنجنى من هذا الكون جلال ودقائق النعم ، فيعظم شكرنا للرب الكريم المنعم . فلهذا الله في كتابه ، ووفقنا الى الاعتناء به والسهر على سننه (1) .

منزلة الرسالة العلية والضرورات البشرية

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ »
(سورة الفرقان من الآية رقم 20) •

المناسبة : لما طمنوا في رسالته بأنه بشر يفعل ما يفعله البشر بقولهم :
« مَا لِي هَذَا أَلَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ وَيَمْشِيَ فِي الْأَسْوَاقِ » رد الله عليهم بأن
هذا هو حال جميع المرسلين من قبله واحتج عليهم بما يعلمون من ذلك بما
يسمعون من أهل الكتاب جيرانهم وبما عندهم من أخبار عاد وثمود من
بنى جلدتهم •

المفردات : الإرسال هو البعث لتبليغ شيء أو قضائه • وفي لسان
الشرع هو انزال الله تعالى الوحي على من اصطفاه من خلقه لينذر به من أمره
بإذاره من قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى
قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » فالرسالة وحي مع أمر بالتبليغ •

التراكيب : مفعول أرسلنا محذوف تقديره رجالا وعليه عاد الضمير في
انهم وهو صاحب الحال والحال هي الجملة التي بعد الا والجملة الثانية
حال بالمعطف على الاولى والاستثناء مفرغ من الاحوال وتقدير الكلام :
وما أرسلنا قبلك رجالا من المرسلين الا حالة انهم لياكلون الطعام ويمشون
في الاسواق • أى ما أرسلناهم في حالة من الاحوال الا في هذه الحال •
وان واللام والحصر بما والاكل هذه لتأكيد المعنى الذى سبق اليه الكلام
وهو البتة أن رسول البشر لا يكون الا بشرا ردا على منكرى ذلك من
المفكرين • وعبر بالمضارع في ياكلون ويمشون ، لان ذلك من ضروريات

بشريتهم فهو يتجدد ويتكرر منهم ، واكل الطعام والمشي فى الاسواق كناية عن البشرية لانهما وصفان لا زمان لها .

المعنى : وما ينكر عليك هؤلاء من أكلك الطعام ومشبك فى الاسواق مع أنك رسول الله وقد علموا أنه ما من رسول كان قبلك الا وهذه حالته وما أنت الا واحد منهم فلا عيب عليك فى ذلك ولا حجة لهم عليك به .

لتلويح : هذه المقالة شبيهة قديمة من الامم التى ارسلت اليها الرسل لمقابلتها بالجهل والعماد . فقد قال لنوح لومه : « مَا كَرَأَلَهُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا » وقال ليهود لومه : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بِأَكْلِهِمْ وَمَا تَأْكُلُونَ وَمِنْهُ قَدِ اشْرَبْتُمْ وَمَا تَشْرَبُونَ » ولصالح : « مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا » ولعميق : « وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا » ولموسى وهارون : « أَلَمْ نَكُنْ مِنْ بَشَرَيْنِ مِثْلِكَ » وفى سورة ابراهيم عن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم انهم قالوا لرسولهم : « أَنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا » فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ما قاله امثالهم لآخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام .

لتعليل : ما اعترض المعترضون على الرسل ببشريتهم الا من جهلهم وسوء نظرهم وغباوتهم ، اما جهلهم فقد جهلوا ما فى البشرية من استعداد لتلويح ارقى الكلمات ، وجهلوا ما تقتضيه الرسالة من مشاكلة بين الرسول والمرسل اليهم لتحصل المفاحة والاتصال ، وجهلوا ما يؤهل به البشر لرتبة الرسالة من كمال فى الروح والعقل والاخلاق والسلوك مما كان الرسل متصفين به كله امام أعين أقوامهم ، واما سوء نظرهم فانهم نظروا الى بشرية الرسل فقاسوم بهم وقالوا لهم أنتم مثلنا مع وجود الفارق الواضح بينهم وبين الرسل فى الصفات النفسية التى بها كمال الانسان ، واما غباوتهم فانهم لعلبة الجسمانيات على حسهم واحمالهم استسمال عقولهم لم يتفطنوا للكمال المشاهد الذى امتاز به الرسل بين أقوامهم .

تعليل : هذه العلل التى صدر اعتراض المعترضين عنها قد علمنا الله تعالى فى كتابه العزيز ما يعصمنا منها ، فعلمنا أن الانسان مستعد لان

تخضع له الموالم بما فيه من روح الله وانه يلتحق بعالم الملائكة الاطهار
 بعنك الروح عند ما تكون على اصل طهرها وقدسها، علمنا هذا بقوله تعالى :
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي كُلُّوا لَهُ سَاجِدِينَ « فاضطجع له ملائكته
 احرف الموالم ، وبقوله تعالى : **« قَالَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**
وَاكْأْكُم بِهَا طَهْرًا » ، فلا عجب ان ياتى المائلون له من ابتائهم فى طهره
 وعصمته على سنته فى الاتصال بالملائكة ومخاطبتهم ، وعلمنا ان الرسول
 لا يكون الا من جنس المرسل اليهم ليحصل الاتصال ويمكن التلقى ، وان
 اهل الارض لو كانوا ملائكة لارسل لهم ملك ، والهم لو انزل عليهم ملك
 وهم بشر لكس حلة البشرية ولالتبس عليهم امره ولقالوا فيه مثل ما قالوا
 فى المرسلين من البشر . علمنا هذا بقوله تعالى : **« قُلْ كُنْ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ**
مِثْلًا نَبِيًّا يُسْمَوْنَ مُرْسَلِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » وبقوله :
« وَكُنْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَكَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ » ، وعلمنا ان البشر
 يؤهل للرسالة باصطفاء الله له ومن مقتضى ذلك الاصطفاء تطهيره من اول
 نشأته من اوضار البشرية وظلم الجسمانية وتسفلها . فتبقى روحه على
 غاية الطهر والملوية النورانية مستعدة للاتصال بالملا الاعلى حتى تستكمل
 قواها فياتيها الملك بالوحي ، علمنا هذا ببطل قوله تعالى : **« اللَّهُ يُضَلِّهِ**
مَنْ أَلَّاكَ رُحْمًا وَمِنْ النَّاسِ » وقوله : **« وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لِنَ الْمُصْطَفَيْنَ**
الْأَخْيَارِ » وقوله : **« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّكِ أَصْطَفَاكِ وَكَهَرْنَاكِ**
وَقَوْلِهِ : « اللَّهُ أَهْلَكَ عَيْنًا يُبْقِئُ رِسَالَاتِهِ » وغيره كثير : وعلمنا ان الرسول
 وان كانوا موافقين لنا فى الخلقة البشرية فانهم مباينون لنا غاية المباينة
 فى الخلقة النفسية من حيث الطهر والكمال :

لنفوسهم بقيت على طهرها لم تدنس بشئ ، ونفوسنا لا تخلو من تدنيس
 والموفق من داوم على غسلها بالقوبة وتحليلتها بالصالحات ، وكمالهم لطوي
 ويبلغون فيه بعلمهم المتواصل وعصمتهم الربانية الى الغايات التى لا تنال ،
 وكمالنا ليس كذلك فى الامور الثلاثة : الفطرة والعمل المتواصل والعصمة :
 علمنا هذه بقوله تعالى : **« إِنْ لَكُنْ بِأَعْيُنِنَا لَكَ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلْتُمْ وَكَفَى اللَّهُ بِمَنْ قُلُ**

يَسَاءٌ مِنْ هَبَاوِ » فبالنظر الصحيح لهما من الله عليهم به ندرك انهم ليسوا
مثلنا وان ساوونا في الخلقة البشرية . وعلينا أن لا ننظر الى ظواهر
الامور دون بواطنها والى الجسائيات الحسية دون ما وراءها من معان
عقلية بل نعبر من - الظواهر الى البواطن وننظر من المحسوس الى المعلوم
ولجعل حواسنا خادمة لمعولنا ولجعل عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر
والتفكير . علينا هذا بقوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْقَبِيْهُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ اَفْجَبَكَ
كَثْرَةُ الْقَبِيْهِ » فلا ينظر الى بهرجة الكثرة ولكن الى حقيقة وحالة الشيء
الكثير فمعتبر بحسبهما ، وبقوله : « قَالَمَا الْإِنْسَانُ اِذَا مَا اٰتٰهُ مَا كَثَرَتْهُ
وَنَعَمَهُ فَيَقُوْلُ رَبِّىْ اٰتَزَمْنِ ، وَاَمَّا اِذَا مَا اٰتٰهُ لَقَلْبَدٌ عَلَيْهِ يَذُقُهُ فَيَقُوْلُ رَبِّىْ
اَمَّا نَنِ ، كَلَّا » فلا يجوز أن نفتخر بالمال والقوة والجاه وأنواع النعيم اذا
سيقت اليها فتحسب انها هي نفس الكرامة الربانية التى دعينا الى العمل
لنيلها بل انما نعددها كذلك اذا كان معها التوفيق الى شكرها بالقيام
بحقوقها وصرفها فى وجوهها . ولا نفتخر بحالة الضيق والعسر والضعف
فنحسب انها اهانة من الله لصاحبها ، بل علينا أن ننظر الى ما معها من
صبر ورجاء وبر أو ضجر وياس وفجور : فنعلم حينئذ انها مع الاولى
للتبحيص والتثبت ومع الاخيرة للزجر والعقاب بعدل وحكمة من احكم
الحاكمين . وبقوله تعالى : « قُلْ اِنَّمَا اَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىْ اِلَيَّ اَنْهَا اِلَهُكُمْ
اِلٰهٌ وَاحِدٌ » فعلينا انه بشر ولكنه خصص بالوحي اليه بتوحيد الله وبما
يقضيه مقام الابعاد اليه من طهر وكمال حتى لا تعجب عنا بشيئنا الذى
نصاهاها بأبصارنا كمال حاله وميزانه الذى يدركه ببصائرنا .

العقيدة : الرسول انسان ذو روج طاهرة نورانية علوية بها تاتي له
تلقى الوحي من الملائكة ، وذو جسد بشري تجري عليه ظرويات البشرية
الخلقية دون نقائصها الكسبية ، لانه مصروف بتلك الروح العلوية الطاهرة
التي لا يصدر عنها الا الخير ، وبهذا الجسد البشري تاتي للبشر الاخذ عنه
والاقتداء به . وماجد هذه العقيدة من الآيات التي تلونهاها في فصل
التعليم المتقدم :

تحذير : علينا أن نحذر من أن نعمترض أو نعكم بالانظار السطحية دون بحث عن الحقائق ، أو أن نلحق شيئا بشيء دون أن نتحقق انتفاء جميع الفوارق . فقد - انتشرت بعدم الحذر من هذين الامرين جهالات ، وارتكبت ضلالات ، وبالنظر السطحي ازدرى ابليس آدم فامتنع من السجود له واعترض على خالقه ، فكانت عليه اللعنة الى يوم الدين ، وبعدم النظر الى الفوارق ، قال أحد بنى آدم لآخيه لما تقبل قربانه دونه هو « **لَأَشْتَكَنَّكَ** » حتى ذكره اخوه بوجود الفارق فقال : « **إِنَّمَا يَتَكَلَّبُ أَكْلُهُ مِنْ أَكْثَرِينَ** » وحقيقة الاول ترجع الى الجهل المركب وحقيقة الثانى ترجع الى القياس الفاسد وهما أعظم أصول الفساد والظلال .

سلوك : الانبياء والمرسلون اكمل النوع الانسانى وهم المثل الاكمل فى كماله ، وقد كان اصل كمالهم بظهر ارواحهم وكمالها ، فاقبل صل روحك بالتركيب والتطهير والترقية والتكميل ، ولا سبيل الى ذلك الا بالانقياد بهم والاحسان بهديهم . وقد قال الله تعالى لبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام : « **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَتَىٰ إِلَهُ فِتْنَتَاهُمْ أَفَتُنَبِّئُ** » فافرا ما قصه القرآن العظيم من القوالهم واعمالهم واحوالهم وسيروهم ولفقه فيه ولمسك به تكن - ان شاء الله تعالى - من الكاملين .

فتنة العباد بعضهم ببعض

« **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** »

(سورة الفرقان - الآية : 20)

والمناسبة : افاد ما تقدم من الآية أن الرسل ياكلون الطعام فيحتاجون للغذاء وتحصيله ، وأنهم يمشون فى الاسواق للسمى والتكسب ، وافاد آخر الآية الحكمة الربانية فى ذلك وهو أن يكون بذلك فتنة واختبار للمباد ، وتلك سنة الله تعالى فى خلقه ، فقد جعل بعضهم لبعض فتنة .

المفردات : قال فى « لسان العرب » الازهرى وغيره جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب اذا أذبتهما بالنار لتمييز الردىء من الجيد . اهـ . ومنه قوله تعالى : « أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » و « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » و « فَتَنَّاكَ فَتُونَا » و « تَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » ، « أَتَصْبِرُونَ » الصبر : حبس النفس على المكروه . والمكروه لها فعل ما فيه تمب وترك ما فيه لذة ، ويكون فى المشروع والمقدور . ففى الاول بالقيام بالأمورات والترك للمنهيات . وفى الثانى - وهو المصائب والبلايا - بالرضا والتسليم للخالق . وعدم الاعتراض عليه وعدم السعى فى ازالتها بغير الوجه المأذون فيه . و « البصير » : هو المشاهد للأشياء ظاهرها وباطنها ، ذواتها ونموتها وأحوالها ، مبادئها وغاياتها وعواقبها .

التراكيب : الاستفهام فى اتصبرون بمعنى الامر أى اصبروا وخرج الامر فى صورة الاستفهام تنبيها على قلة الصبر فى الوجود ، فهو من الامر المدوم الذى يسأل عنه هل يوجد ، وفى ذلك بعث لهم على تحصيله والتمسك به . وجملة « وكان الفخ » معطوفة على جملة « وجعلنا » وعدل من مقتضى الظاهر وهو وكنا بصراء بالاضممار الى « وكان ربك بصيرا » بالاظهار . للتنبيه على أن فتنته لعباده من مقتضى ربوبيته لهم وحسن تدبيره فيهم . موقع هذه الجملة بعد الجملة الاولى لبيان أن فتنته لهم هى من علم وبصر بصواب ذلك وحكمته . وانه مطلع على حقيقة ما يكون منهم عند الاختبار ، ليجازيهم عليه وفى هذا وعد ووعد للممتحنين .

المعنى : امتحنا بعضكم ببعض لتظهر حقائقكم عند الامتحان . جعلنا الرسل يأكلون كما يأكل البشر ، ويكتسبون كما يكتسبون ، لمتحن العباد بهم ، فيظهر من يتبهم بالايمان واليقين ، لما معهم من الحق والكمال ، ويصبر على ما يلحقه فى اتباعهم من الجهد والبلاء ، ممن يحتقرهم ويعرض عنهم لما يرى من بصرتهم . كما جعلنا الامم فتنه لرسولها وامتحانا لهم

ليظهر صبرهم على ما يلاقون منهم من اذى وحر ، فنعلم درجاتهم ،
ويضايف أجرمهم • وجعلنا الفنى امتحانا للفكر حتى يظهر صبره على حاله •
وكفه لعينه ويده عن شيء غيره ، كما جعلنا الفكر امتحانا للفنى حتى يظهر
صبره على القيام بواجبه نحوه • وجعلنا الصحيح فنة للمريض حتى
يظهر صبره على بلواه ورضاء بما أعطاه الله ، كما جعلنا المريض فنة
للصحيح ، حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه من العطش عليه
وعبادته ومواساته • وجعلنا الرعية فنة للرأى ، حتى يظهر صبره على
القيام بواجب رعايتها ، كما جعلنا الرأى فنة للرعية ليظهر صبرها على
طامعه ، وهكذا فى جميع ألسام الناس • الصبرون على هذا الامتحان فان
الصبر عليه عزيز شديد ، فاصبروا فانه لا يخرجكم من هذا الامتحان
خالفين خلوص الذهب الابريز الا الصبر • وكان ربك يا محمد بصيرا ،
عالمنا بمآلة الامتحان فى عبادته • مطلعا على كل ما يكون منهم عند الامتحان
ليجاريهم عليه •

سؤال وجوابه : الله تعالى عالم بما يكون من عبادته بعد امتحانهم قبل
أن يمتحنهم ، فما هى حكمة الامتحان ؟

والجواب : ان الله تعالى لما يحاسب عبادته على ما عملوه وكسبوه
واكسبوه بما عندهم من الممكن من العمل والفكر ، وما عندهم من الاختيار ،
لا على ما علمه منهم قبل أن يعملوه ، فهذا يستحقون ، لتظهر حقائقهم ويطلع
جزائهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم ، ولا حجة لهم فى تقديم علمه
تعالى بما يكون منهم ، لان تقدم العلم لم يكن ملجئا لهم على أعمالهم ، ففى
هذا الامتحان قيام حجة الله على العالمين ، أمام أنفسهم وأمام الناس كما
فيه اظهار لحقيقتهم لانفسهم ولغيرهم •

تطبيقات : كما يفتن الفرد بالفرد كذلك تفتن الامة بالامة ، من ذلك
النا - مفسر الامة الاسلامية - قد فتنا بشيرنا من أمم الغرب ، وفتنوا هم
بنا • فتحت لدين بالاسلام وهو دين السعادة الدنيوية والاخرية ولكن
حيثما كنا - الا قليلا - لسنا سعداء لا فى مظاهر تدبيرنا ، ولا فى أحوال

دينانا ، على الاولى نأى بما يهرا منه الاسلام . ونصرح بأنه من صحيحه .
 وفي الثانية نرانا فى حالة من الجهل والظلم والظلم والظلم والاستعباد
 يرى لها الجماد ، فلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينظرون من الاسلام
 ويسخرون منه الا من نظر منهم بعين العلم والانصاف فانه يعرف ان ما نحن
 عليه هو ضد الاسلام ، فكنا فئنة عظيمة عليهم ، وحجابا كثيفا لهم عن
 الاسلام ، فكنا - وبها للاسف - فئنة للظالمين . وهم من ناحيتهم
 لراهم فى عز وسيادة ، وتقدم على وعمرانى ، فننظر الى تلك الناحية
 منهم فنندفع فى تقليدهم فى كل شىء حتى معتادهم ومفاسدهم ، ونزدري
 كل شىء عندنا حتى امر عزيز الا من نظر بعين العلم لعرف ان كل ما عندهم
 من خير هو عندنا فى ديننا وقاريضنا ، وان ذلك هو هو ، الذى تقدموا
 وسادوا به ، وان ما عندهم من شر هو شر على حقيقته ، وان ضرره فيهم
 هو ضرره ، وانه لا يجوز ان يتابعوا عليه فكانوا فئنة لنا حتى يظهر من
 ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر لتسلبه ادراكه فيفسد
 لا يفرق بين اللب والقصور .

الفساد : علمنا من هذه الآية وغيرها ان الله تعالى يمتحن عباده
 ويختبرهم ليظهر حقائهم . فننقد به تعالى فى هذا لنبى امورنا على
 الامتحان والاختبار ، فلا نقرر علما ، ولا نصدر حكما الا بعد ذلك ،
 وخصوصا فى معرفة الناس والحكم عليهم ، فالظواهر كثيرا ما يخالف
 البواطن والعصم والغفك . فلما يسلم منهما احد ، ولا يعصم من الغفك
 مع هذه المخلطات كلها الا الامتحان والاختبار فاعصم بهما .

الاستعداد : كل من اتصل بك من اهلك وبنيك وابيك وامك واصحابك
 وعشيرتك وقومك ، وكل من ترتبط به برابط من ابناء جنسك - هو
 فئنة وامتحان لك ، هل تقوم بواجبك نحوه من جلب خير له او دفع شر
 عنه او جلب خير منه لغيره او دفع شره عن غيره ، وهل تكلف بذل عن نفسه ،
 وتكلف بصرف عما ينج به ، وتسال الله مما عنده من فضله ؟ وانما تقوم
 بواجبك نحوه مما تقدم ، وتكلف بذل وعينك عنه ، وتسال الله مما عنده

راضيا بما قسم لك ممتقدا الخير كل الخير في قسمه - اذا تدرعت بالصبر على اتيانه وان كان عليك ثقيلًا والكف عما يطلب منك الانكفاف عنه وان كان منك قريبا ، وفي طبعك لذيذا ، وانما يكون لك هذا الصبر ، اذا كنت دائم اليقين بعلم الله بك واطلاعه عليك ، وأنه كان بك بصيرا •

هذه الحقائق كلها هدتنا هذه الآية الكريمة اليها : هدتنا الى انا امتحنا ببعضنا ، وان الذي يخلصنا في هذا الامتحان ، ويخرجنا سالمين هو الصبر ، وأن حالتنا في الامتحان منكشفة لمن سيجازينا عليها ، فلننتهز بهدايتها الى ما هدتنا اليه ، ولنعتمد في هذا الامتحان العظيم بالصبر المتين ولنستحضر في قلوبنا مراقبة الله لنا لتثبت قدمنا في مقام الصبر بروح اليقين ، فبذلك نخرج - ان شاء الله تعالى - من نار الفتنة ذهابا خالصا نقيًا ، وجوهرا طيبا زكيا فنسعد في الدارين برضى رب العالمين ، والله ولى للتوفيق (1) •

(1) الشهاب - ج 1 ، م 8 • رمضان 1350 هـ - جاللى 1932 م •

ندامة الظالم

على تركه السبيل القويم ، وصحبته للمضلين

« وَيَوْمَ يَمَازُ الْظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْكِي أُتُخَذْتُ مَعَ
الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) ، يَوْمَئِذٍ لَيْكِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حِيلَةً (28)
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَتْدَاءُ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
حَدُولًا ، (29) .

(سورة الفرقان)

المناسبة : لما سأل المشركون أن يروا الملائكة أخبروا بأنهم سيرونهم في
يوم يكون شره عليهم عظيما . وذكر في الآيات السابقة ما يكون في ذلك
اليوم من حبوط أعمالهم وتشتت السحاب بالغيام وتنزل الملائكة وغير ذلك .
وذكر في هذه الآية ما يكون في ذلك اليوم من لطم الظالم وسوء حاله .

المفردات : الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، كوضع الكفر موضع
الايان ، ووضع المعصية موضع الطاعة ، وحق الله تعالى أن يؤمن به
ويوحد ويطاع . فمن كفر أو أشرك به أو عصاه فقد ظلم . وهو هنا الكافر
والمفرك لانه الذي لم يتخذ مع الرسول سبيلا . الويلة : الهلكة ، كالويل
بمعنى الهلاك . فلان : يكنى به عن الاعلام ، كما يكنى بالهن عن الاجناس .
الخليل : فصيل ، بمعنى فاعل ، وهو من تخللت مودته القلب وامتزجت
بالنفس ، فكانت له مكانة منهما وسلطان عليهما . هذا في جانب الخلق .
وأما في جانب الله تعالى فبالمنى الذي يليق بقدسه وتذريه ، فأبراهيم
عليه السلام خليل الرحمان بما له عنده تعالى من عظيم المنزلة ورفعة المكان

وقبول الدعوة ، وما له عليه من جزيل الانعام . الاضلال : الصد والصرف
 عن طريق الحق والنجاة . الذكور : القرآن العظيم . وفسر بالشهادتين
 وبالإسلام . والقرآن فيه ذلك كله ، وهو الذى سيأتى على الأثر ذكر
 مجرم له ولذلك اخترناه فى معنى الذكر هنا . الشيطان : الخبيث
 الشرير الذى استولى عليه ، وتمكن منه خلق الالساد والاضرار من الجن
 والانس . المخلول : الكثير الخذل ، أى التسليم والتركة لمن نزل به الهلاك
 فى وقت الحاجة الى القاذ .

التواكيب : شأن من وقع فى غيظ وحسرة وندامة أن يعرض يديه ويأكل
 يده كانه لما لم يجد شيئاً يطفىء فيه غيظه رجع على نفسه بذلك ، فعرض
 اليد لازم لعالة الحسرة والغيظ والندامة ، فلذا يكنى به عنها ، من اطلاق
 اللازم واردة المألوم ، وذلك لا يمنع من وقوع المض منه حقيقة ، بل
 وقوع ذلك هو الشأن الغالب . وجملته يقول يا ليتنى : حالية ، فهو يعرض
 حالة كونه قائلاً : يا ليتنى ، فبيئت هذه الجملة ما يقول ، كما بيئت التى
 قبلها ما يعمل ، فصورتاه فى حاله الشنيع الفظيع ، ويوم منصوب بأذكر ،
 أو معطوف على يوم يرون الملائكة ، كما عطف عليه : ويوم تشقق السماء ،
 ويوم يرون منصوب بأذكر ، أو يمينون البهري ، كما يدل عليه : لا بهري
 يومئذ للمجرمين ، والتذكير فى قوله : سبيلاً ، للأفراد ، أى : سبيلاً واحداً ،
 لا تعدد فيه ، بخلاف ما كان عليه الظالم من سبل أهواله المتعددة المتشعبة .
 والالف فى : يويلتى ، منجبة عن ياء المتكلم ، والاصل : يويلتى ، نادى
 ويلته ، أى هلكته لتعظم فى ذلك الوقت لآله وقتها ، وليس نداؤها رغبة
 فى حضورها ، فإلهلاك لا يرغب فيه ، وإنما نادى الهلاك ليحضر لما حصل
 له من اليأس والفتور من أسباب النجاة فلم يبق له إلا الهلاك ، كما يقول
 الطليل للطبيب وقد أيس من معالجة جرح يده مثلاً : الطع فهذا وقت
 القطع ، وهكذا يخرج كل نداء فى حالة فاقة لما لا يخلص منها وإنما يريد
 فى استدعائها كما ينادى الصقى ، يا فتوتاه ، والمختصج : يا فضيحتاه ،
 والمصاب : يا مصيبتاه ، وكفى بفلان ، لأن لكل ظالم خطيلاً له اسمه

الخاص ، فلا يمكن التصريح باسماء الجميع ، فما بقى الا الكناية عنها بفلان وجملة : لقد أضلنى ، بيان لسبب تمنيه السابق ، و « ال » فى الشيطان ، والانسان ، للجنس ، فيدخل فى جنس الشيطان خليل الظالم الذى صدم عن الذكر ، وقرين خليله من الجن الذى سول له ذلك وأعانه ، وقرينه هو الذى زينه له ودعاه اليه ، والجملة من كلام الظالم لاعلان خيبتة واطهار آله منها لما وجد نفسه وحده مخذولا ممن أضله وأغواه .

المعنى : ويوم يعرض الظالم لنفسه بالكفر بربه أو الشرك على يديه ندما وحسرة على تفريطه وعدم اتباعه لسبيل الحق مع الرسول السلى أرسل اليه ، وعلى تورطه لنفسه بصحبته لخليله وطاعته له حتى صرفه عن الايمان بالقرآن بعد ما جاءه وسمعه وتمكن من الايمان به فافواه ذلك الخليل وقرينه ، وقرينه هو حتى أردوه ثم خذلوه فى ذلك اليوم العظيم وفى وقت العسرة والدما ، فلم يجد منهم نصرا ولا معونة كما هو شأن الشياطين فى خذلان من يهوونه ويردونه .

الحاق واعتبار : كما علينا أن نتبع سبيل الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، التى جاء بها من عند الله تعالى وهى الاسلام ، كذلك علينا أن نتبع سبيله فى القيام بشرائع الاسلام علما وعملا فى ابواب العبادات وأحكام المعاملات ، وفى تطبيق اصول الاسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة ، وهذه هى سنته التى كان عليها وكان أصحابه وأهل القرن الثانى من التابعين وأهل القرن الثالث من اتباع التابعين ، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المصوم ، وكما أن من عدل عن الاسلام ولم يسلك سبيله وقع فى ضلال الكفر ، كذلك من عدل عن السنة ولم يسلك سبيلها وقع فى ضلال الابتداع ، وكما أن من لم يتخذ مع الرسول سبيل الاسلام يندم أشد الندم ويتعصر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه ، كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة ، اذ كل منهما قد ظلم نفسه ، وفرط فى سبيل نجاته ، فالآية وان كانت فى الكافر والمشرک فهى تتناول بطريق الاعتبار أهل الاهواء والبدع .

وبهذا كانت الآية متناولة بومظها وترهيبها جميع الخلق ممن لم يدخل
فى الاسلام ، او دخل فيه ولم يلتزم سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم .

تحذير : عندما تتخلل صحبة شخص من الناس قلبك وتمتزج
بروحك ، ويستولى بسلطان مودته عليك ، تصير أقواله وأفعاله كلها عندك
مرضية ، وعيوبه ونقائصه عنك محبوبة . فتتسى طوع بنانه ورهن اشارته
بوجهك حيث شاء ويصرفك عما أراد . وهذه حالة من أخطر الاحوال
عليك ، لانك فيها قد سلبت تمييزك وخسرت ارادتك ، وصرت آلة فى يد
غيرك . فقد ترى الخير وتدعى اليه فيصرفك عنه ، وقد ترى الشر وتحذر
منه ويوقعك فيه ، وهب هذا الخليل كان مخلصا لك وحدا على فانه
غير معصوم من الخطا والضلال ، اما اذا كان شريرا مفسدا فهناك الهلاك
المحقق والوبال القديد ، وقد ذكر لنا الله تعالى فى الآية ما كان من سوء
مآل الظالم بسبب انقياده لخليله واتباعه له عن غير رؤية وصدق وتمييز يحذرنا
من سلطان الخلّة الذى يهمل نفعه شأن الارادة والتمييز ويعلمنا أن علينا
أن نحافظ على ارادتنا وتمييزنا ونظرنا لانفسنا مع الصديق والعدو ، ومع
الخليل وغير الخليل ، بل نحافظ عليهما مع الخليل أكثر لانه مظنة الخوف
بما له من المكانة فى القلب والسلطان على النفس .

اوشاد : لما كان خليل المرء بهذه المنزلة فمليك أن تختار من تخال ،
فلا تخال الا من حسنت سريرته واستقامت سيرته ، وغلب الصواب على
أقواله وأعماله ليكون دليلك الى الخير وسائقك اليه مع محافظتك على
ارادتك وتمييزك معه على كل حال .

علاقة : اذا أردت أن تعرف شر خلانك وأحقهم بهجرك له وابتعادك
عنه ، فانظر فيما يرغبك هو فيه ، وما يرغبك عنه ، فاذا وجدته يرغبك
عن القرآن وعما جاء به القرآن ، فاياك واياهم ، فتلك أصدق علاقة على
خبثه وسوء عاقبة قربه ، فابتمد عنه فى الدنيا قبل أن تعض على يديك
على صحبتك له فى الآخرة ، واذا وجدته يرغبك فى القرآن وما جاء به

القرآن ، فذلك الخليل الزكى الصادق فاستمسك به وحافظ عليه ، وإن خلة أسست على الرجوع الى القرآن والتحاب الى القرآن والتناصح بالقرآن لخلة نالمة دنيا وأخرى ، لأنها أسست على أساس التقوى . وقد قال الله تعالى : « **الْأَعْلَاءُ يُؤْمِنُونَ بِنَفْسِهِمْ رَبِّهِمْ عَنَّا إِلَّا الظَّالِمِينَ** »

شكوى النبی الکریم ، من هجر القرآن العظیم
« وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا »
 (سورة الفرقان الآية 80)

المناسبة : لما ذكر تعالى ما قاله المشركون من الباطل في معارضة القرآن والاعراض والصد عنه وما قالوه من عبارات الحسرة والندامة يوم القيامة على ما كان منهم من ذلك في الدنيا - ذكر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم من الشكوى لربه بهم من تركهم للقرآن العظيم وهجره .

المفردات : مهجورا : متروكا مقطعا مرغوبا عنه الرسول : محمد صلى الله عليه وسلم وقومه قريش .

التراكيب : في قوله يا رب اظهار لعظيم التجائه وشدة اعتماده وتمايم تفويضه لمالكة ومدير امره وموالى الانعام عليه . وفي التعبير عنهم بقومه وضافتهم اليه ، وفي التعبير عن القرآن باسم الاشارة القريب - بيان لمعظم جرمهم بتركهم للقرآن وهو قريب منهم في متناولهم وقد اتاهم به واحد منهم اقرب الناس اليهم . فصدوا وأبعدوا في الصد عن هو اليهم قريب من قريب . وهذا اقبح الصد وأظلمه . وفي قوله اتخذ الخ بيان أنهم جعلوا الهجر ملازما له ووصفا من أوصافه عندهم وذلك اعظم من ان يقال هجروه الذي يفيد وقوع الهجران منهم دون دلالة على الثبوت والملازمة .

المعنى : وقال الرسول شاكيا لربه ان قومي الذي أرسلتني اليهم بالقرآن لا تلاوه عليهم قد صدوا عنه وتركوه وثبتوا على تركه وهجره .

استنتاج واعتبار : في شكوى النبي صلى الله عليه وسلم من هجر القرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور وأبغضها لديه وفي حكاية القرآن لهذه الشكوى وعيد كبير للمهاجرين بإزالة العقاب بهم إجابة لشكوى نبيه . ولما كان الهجر طهارة أعلاها عدم الإيمان به للكل هاجر حظه من هذه الشكوى وهذا الوعيد .

تفصيل : ونحن - معشر المسلمين - قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل . وإن كنا به مؤمنين . بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرواها ولنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين فآخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة واشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة . وبين القرآن أصول الأحكام وأمهاات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام ، فهجرواها واقتصروا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر جافة بلا حكمة محبة وراء أسوار من اللفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليها . وبين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوئ الأخلاق ومضارها وبين السبل للتخلل عن هذه والتحلل بتلك مما يحصل به الفلاح بعزكية النفس والسلامة من الخيبة بتدبيريتها فهجروا ذلك كلها ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والتبدع وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي والتحليل الفلسفي ما أبعدا غاية البعد عن روح الإسلام وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام وآل الحال بهم إلى الخروج من أقالم أغلالها والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها ومعارضة هداية القرآن بها . وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة لننظر ونبحث ونستفيد ونعمل فهجروا ذلك كله إلى خريدة المعائب وهدائع الزهور والحوت والصخرة وقرن الثور ! ودعانا القرآن إلى تدبره وفهمه والتفكر في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه فأعرضنا

عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبينه فنرى الطالب يلقى حصة كبيرة من عمره في الحلول الآلية دون أن يكون قد طالع خصة واحدة في أصغر التفسير كتفسير الجلالين مثلاً بل ويصير مدرساً مقصداً ولم يفعل ذلك وفي جامع الزيتونة عمره الله تعالى - إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويح في درس التفسير فانه - ويا للمصيبة - يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل فيلقى في خصومة من الخصومات أياً ما أو شهوداً لتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتداً أو ما تجاوزه الا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير ، وإنما لقي سنته في المباحكات بدهوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات كان التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية لا لأجل فهم الشرائع والاحكام الالهية . فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن .

وعلمنا القرآن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المبين للناس ما نزل اليهم من ربهم وان عليهم ان يأخذوا ما أتاهم وينتھوا عما نهاهم عنه فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن لهجرنا ما كما هجرناه وعاملناها بما عاملناه حتى انه ليقال في المتصدين للتدريس من كبار العلماء في أكبر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري وسلم ونحوها مطالعة فضلاً عن غيرهم من أهل العلم وفضلاً عن غيرها من كتب السنة وكم وكم بين القرآن وكم وكم وكم قابلناه بالصد والهجران .

بيان واستشهاد : شر الهاجرين للقرآن هم الذين يضعون من عند أنفسهم ما يعارضونه به ويصرفون وجوه الناس اليهم والى ما وضعوه عنه لانهم جمعوا بين صدهم وهجرهم في أنفسهم وصد غيرهم فكان شرهم متعدداً وبلاؤهم متجاوزاً وشر الشر وأعظم البلاء ما كان كذلك . وفي هؤلاء جاء ما ذكره الامام ابن القيم في كتاب اعلام الموقعين عن حماد بن سلمة ثنا ايوب السخيتاني عن أبي قلابة عن يزيد ابن أبي عسيرة عن معاذ بن جبل قال :
 « تكون فتن فيكثر المال ويفتح القرآن حتى يقرأ الرجل والمرأة والصغير

والكبير والمنافق والمؤمن فيقرؤه الرجل فلا يبيع فيقول والله لأقرأنه علانية فيقرؤه علانية فلا يتبع فيتخذ مسجداً ويبتدع كلاماً ليس من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأياكم وإياه فإنه بدعة وضلالة . قاله معاذ ثلاث مرات اهـ . فانظر في قطرنا وفي غير قطرنا كم تجد ممن بنى موضعاً للصلاة ووضع كتباً من عنده أو مما وضعه أسلافه من قبله وروجها بين أتباعه فاقبلوا عليها وهجروا القرآن وربما يكون بعضهم لصداً بما وضع النفع فإخطأ وجهه إذ لا نفع بما صرف عباد الله من كتاب الله وإنما يدعى لله بكتاب الله ولذلك سمي صنيع هذا الواضع بدعة وضلالة وحذر معاذ منه وأكد في التحذير بالتكرير ، وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على معاذ فهو في حكم المرفوع لأنه أخبار بمغيب مستقبل وهذا ما كان يعلمه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلا بتوقيف من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد تحقق مضمونه في المسلمين منذ أزمان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

سبيل النجاة : لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه وتقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه وبناء العقائد والاحكام والآداب عليه والتفقه فيه وفي السنة النبوية شرحه وبيانه والاستعانة على ذلك باخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بانظار العلماء الراسخين والاحتذاء بهديهم في الفهم عن رب العالمين وهذا أمر قريب على من قرب الله عليه ميسر على من توكل على الله فيه - وقد بدت طلائعه والحمد لله وهي آخذة في الزيادة إن شاء الله وسبحان من يحيي المظالم وهي رميم .

التسلية والتثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا » . (سورة الفرقان - الآية : 31)

المناسبة : لما شكك عليه الصلاة والسلام قومه سلاه الله تعالى وعزاه وأمره بالصبر والثبات ووعدته ورجاه .

المفردات : العدو : وزنه فعول يكون للواحد والجماعة .

التراكيب : كاف كذلك بمعنى مثل ، والاشارة للمجعل المفهوم مما تقدم ،
أى مثل ذلك الجمل للاعداء لك جعلنا لكل نبي ... الخ .

المعنى : مثلما جعلنا لك اعداء من قومك كفروا بك وهجروا كتابك
وصدوا عنك وبالقوا فى اذائتك جعلنا لكل نبيء مما نبأنا اعداء من أهل
الذنب والاجرام . فما أصابك الا ما أصابهم فاصبر كما صبروا وكفى
بربك هاديا - يهديك الى صراط الحق ويبصرك الرشيد ويعرفك بما تؤدى به
رسالة ربك ، فلا تتحير فى أمرك لما ترى من صدود قومك - وناصرنا ينصرك
على اعدائك يأمره بالصبر ويثبتته بالتأسي ، يعده بأنه يهديه فى طريق
التبليغ وينصره على معارضيه حتى يتم أمر الله على يده .

هؤلاء الذين سبهم الله - تعالى - اعداء لنبيه ووصفهم بالاجرام هم
اولئك الذين هجروا القرآن وصدوا عنه فهذا تخويف عظيم ووعيد شديد
لكل من كان حاجرا للقرآن العظيم بوجه من وجوه الهجران .

اقتداء وتاسى : حق على حزب القرآن الداعين به والداعين اليه ان يقتدوا
بالانبياء والمرسلين فى الصبر على الدعوة والمضى فيها والثبات عليها وأن
يداؤوا أنفسهم عند ألمها واضطرابها بالتأسي بأولئك السادة الاخيار .

بشاعة : قد وعد الله تعالى نبيه بعد ما أمره بالتأسي والصبر
- بالهداية والنصر - وفى هذا بشارة للدعاة من أمته من بعده السائرين
فى الدعوة بالقرآن والى القرآن على نهجه انه يهديهم وينصرهم كما قال تعالى :
« وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »
معهم بالفضل والنصر والتأييد ، وهذا عام للمجاهدين المحسنين ، والحمد
لله رب العالمين (1) .

(1) القشهاب - ج 2 ، م 8 - شوال 1350 هـ - فيفري 1932 م .

تثبيث القلوب بالقرآن العظيم

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .
كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » .

سورة الفرقان - الآية : 82)

المناسبة : هذا اعتراض آخر من اعتراضاتهم الباطلة نسق مع ما تقدم منها ليجاب عنه ويبين خطاهم فيه كما فعل بما تقدم .

المفردات : (لولا) : مع المضارع للتخصيص نحو : لولا تستغفرون الله - ومع الماضي للوم والتوبيخ ، نحو : لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء .
وهي هنا مع الماضي ، فتكون للوم على عدم حصول المذكور وحصول ضده ، والمقصود من اللوم هنا الاعتراض على عدم نزوله جملة واحدة ونزوله مفرقا ، فالمعترض عليه هو نزوله مفرقا . (نزل) : يأتي مرادفاً لنزل ، والتضعيف أخو الهمزة ، ويأتي مفيداً للتكثير ، فمفيد تكرر النزول وتجديده ، وخرج على هذا قوله تعالى : « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنزَلَ الْتُورَةَ وَالْإِنْجِيلَ » ، وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدريج ، لئلا يناقض قولهم : جملة واحدة فيكون التضعيف المرادف للهمزة . وعندى أن نزل المضاعف يرد لكثرة الفعل ولقوته ، فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدمة ، وجاء لقوته في حمله الآية ، لأن أنزال الجملة مرة واحدة أقوى من أنزال كل جزء من الأجزاء بمفرده . (كذلك) : الإشارة للانزال المفرق المفهوم من قولهم : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة في معنى أنه نزل عليه جملة ولم ينزل عليه مفرقا .

(التثبيت) : ثبات الشيء اقامته ورسوخه دون اضطراب وذلك من قوته ، كما أن اضطراب المضطرب من ضعفه فتفسير تثبيت الفؤاد هنا بتقويته تفسير بملازم معناه على أنه مراد منه أيضا أصل المعنى وهو السكون وعدم الاضطراب • فتثبيته - اذا - هو تسكينه وتقويته • (الترتيل) : مادة : ر ت ل • كلها ترجع الى تناسق الشيء وحسن تنفيذه منه : ثمر رتل ، بالتحريك ، أى مفلج بين الاسنان فرج لا يركب بعضها بعضا ، وترتيل القرآن فى التلاوة هو القاء حروفه حرفا حرفا وكلماته كلمة كلمة وآياته آية ، آية . على تودة ومهل حتى يتبين للقارىء والسامع ولا يخفى عليه منه شيء • وأما ترتيله فى نزوله ، وهو المراد هنا فانه أنزله آية وآيتين وآيات مفرقا نجوما على حسب الوقائع •

التراكيب : (وقال الذين كفروا) وصل لانه قيل من اقوالهم ، فمعطف على ما تقدم من مثله • (كذلك لنثبت) الاصل : أنزلنا كذلك ، فاوجز بحذف المتعلق لوجود ما يدل عليه فى اعتراضهم ، وفصل لانه جواب عن اعتراضهم • (ورتلناه) : وصل لانه معطوف على أنزلناه المحذوف ، والتنوين فى (ترتيلا) تنوين تنويع وتعظيم ، أى نوعا من الترتيل عظيما • **المعنى :** وقال الذين كفروا - وهم قريش او اليهود او الجميع ، وهو الظاهر ، لان قريشا واليهود كان يتصل بينهم الكلام فى شأن النبىء صلى الله عليه وآله وسلم وشأن القرآن - قالوا معترضين ومقترحين : لمه لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة وغيرها ، ونزل عليه مفرقا • فقال الله تعالى جوابا لهم : أنزلنا كذلك الانزال مفرقا لنثبت به قلبك فيسكن ويطمئن وتقويه فيصبر وينحمل • وأنزلناه مرتلا مفرقا تفريقا مرتبا منزلا كل قسم منه فى الوقت المناسب لانزاله والحالة الداعية اليه اللانقطة به •

« مزيد بيان للاعتراض والجواب : أما اعتراضهم فكان لانهم سمعوا القرآن يذكر أن الكتاب أنزل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أنزلت الكتب على الانبياء عليهم السلام من قبله بمثل قوله تعالى : « كذلك

انزلنا اليك الكتاب • فقالوا لماذا انزل هذا الكتاب مفرقا ولم ينزل مثل تلك الكتب جملة واحدة وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه أخذوا يباهتون بالباطل ويعترضون بمثل هذا الاعتراض • وأما الجواب فكان ببيان حكمتين في انزاله مفرقا • الحكمة الاولى : تثبيت قلبه والحكمة الثانية : تفريقه مرتبا على الوقائع ، وكان في تينك الحكمتين ميزتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب الله تعالى ، فكان ما اعترضوا به على انه نقص فيه عنها هو كمال له عليها •

شرح الحكمة الاولى : كان كل نجم ينزل من القرآن العظيم - والنجم : القسم الذى ينزل مما آية او آيتين او أكثر - يزداد به عجزهم وعنادهم ظهورا ، وتزداد به حجة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه وضوحا • فيزداد بذلك سكون قلبه وطمانينته بظهور أمره على عدوه وعلو كلمة الحق على كلمة الباطل ، وفى ذلك تقوية له واى تقوية لا من شك كان فى قلبه او تردد ولكن البراهين المتوالية والحجج المتتالية تزيد فى سكون القلب واطمئنانه ، وإن كان ممقودا من أول أمره على اليقين • فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرقات فى النزول • وقد كان كل نجم من نجوم القرآن ينزل بنبيء من العلم والعرفان مما يرجع الى العقائد أو الاخلاق أو الاحكام أو التذكير بالاسم الماضية واخبار الرسل المتقدمين أو باليوم الآخر أو بسنة الله فى المكذبين الى غير ذلك من علوم القرآن فيتقوى قلبه عند نزول كم نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم • وكان يلقي من الجهد والعناء فى تبليغ الرسالة ما تضعف عن تحمله القوى البشرية ، فاذا انزل عليه القرآن واتصل بالملك الروحاني النوراني وقنف فى قلبه ذلك الوحي القرآنى تقوى قلبه على تحمله أعباء الرسالة ومشاق التبليغ • ولما كان البلاء والعناء فى سبيل التبليغ متكررا متجددا كان محتاجا الى تجديد تقوية قلبه ، وكان ذلك مقتضيا لتفريق نزول الآى عليه ، فهذه ثلاثة وجوه من التثبيت •

حفظنا من العمل بهذه الحكمة : قلوبنا ممرضة لخطوات الوسواس ، بل للاوهام والشكوك . فالذى يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم ، ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومباحكات المتكلمين ومناقضاتهم ، فما ازدادوا الا شكاً وما ازدادت قلوبهم الا مرضاً حتى رجع كثير منهم فى اواخر ايامهم الى عقائد القرآن وأدلة القرآن فشقوا بعد ما كادوا كامام الحرمين والفخر الرازى ، وقلوبنا ممرضة لران المعصية الذى تظلم منه القلوب وتقسوا حتى تحجب عنها الحقائق وتنطمس امامها سبل العرفان فالذى يجلو عنها ذلك الران ، ويزيل منها تلك القسوة ويكشف لها حقائق العلم ويوضح لها سبل المعرفة هو القرآن العظيم .

فقراؤه المتفقهون فيه قلوبهم نيرة مستعدة لتلقى العلوم والمعارف ، مستعدة لسماع الحق وقبوله ، لها من نور القرآن فرقان تفرق به بين الحق والباطل ، وتميز به بين الهدى والضلال ، وقلوبنا ممرضة للضعف عن القيام باعباء التكليف وما نحن مطالبون به من الاعمال ، والذى يجدد لنا فيها القوة ويبعث فيها الهمة هو القرآن العظيم . فحاجتنا الى تجديد تلاوته وتدبره اكيده جدا لتقوية قلوبنا باليقين وبالعلم وبالهمة والنشاط للقيام بالعمل .

شرح الحكمة الثانية : من محاسن هذه الشريعة المطهرة أنها نزلت بالتدرج المناسب كما كان فى تعريم الخمر وكما كان فى العدد المفروض عليه الثبات للعدو فى آيات الانفال وكما كان فى مشروعية قيام الليل فى آيات سورة المزمل وما كان ليكون هذا التدرج بغير تفريق الآيات فى التنزيل . ومن محاسنها نسخ الحكم عند انتهاء المصلحة التى اقتضت تشريعه وانقضاء زمنها لحكم آخر انسب منه للبقاء فى الازمان كما كان فى آيتى المتوفى عنها فى سورة البقرة ، وما كان ذلك ليتأتى الا بتفريق الآيات فى الانزال . وكانت الوقائع تقع والحوادث تحدث والشبه تعرض والاعتراضات ترد . فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان

وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام وما تستدعيه تلك الشبه من رد وتلك الاعتراضات من ابطال الى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المروفة بأسباب النزول ، وفى بيان الواقعة عند وقوعها وذكر حكم الحادثة عند حدوثها ورد الشبهة عند عرضها وابطال الاعتراض عند وروده - ما فيه من تأثير فى النفوس ووقع فى القلوب ورسوخ فى العقول وجلالة فى البيان وبلاغة فى التطبيق واستلاء على السامعين ، وما كان هذا كله ليتأتى لولا تفريق الآيات فى التنزيل وترتيبها وتنسيقها هذا الترتيل العجيب وهذا التنضيد الغريب الذى بلغ الغاية من الحسن والمنفعة حتى أنه ليصح أن يعد وحده وجها من وجوه الاعجاز .

حفظنا من العمل بهذه الحكمة : ان نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طرف السنتنا ومعانيه نصب أعيننا لنطبق آياته على أحوالنا وننزلها عليها كما كانت تنزل على الاحوال والوقائع ، فاذا حدث مرض قلبى أو اجتماعى طلبنا دواءه فى القرآن وطبقناه عليه ، واذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض طلبنا فيه الرد والابطال ، واذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها ، وهكذا نذهب فى تطبيقه وتنزيله على الشؤون والاحوال الى أقصى حد يمكننا .

القتداء : انظر الى هذه الحكمة فى هذا التنزيل كيف تنزل آياته على حسب الوقائع ، أليس فى هذا قدوة صالحة لائمة الجمع وخطبائها فى توخيهم بخطبهم الوقائع النازلة وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال ، بلى والله ، بلى والله . ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال . وأما هذه الخطب المحفوظة المتلوة على الاحقاب والاجيال ، فما هى الا مظهر من مظاهر قصورنا وجمودنا . قال الله المشتكى ، وبه المستعان(1).

(1) الشهاب - ج 3 ، م 8 - ذو القعدة 1350 هـ / مارس 1932 م .

الحق والبيان فى آيات القرآن

« وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا »

(سورة الفرقان - الآية : 33)

المناسبة : لما رد تعالى اعتراضاتهم وأبطل شبهاتهم أخبر تعالى بأنه لا يزال القرآن كذلك يدمغ باطلهم بحقه فيزهقه ويصدع غشاهم تمويههم بصادق بيانه فيمزقه لطمانه قلب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيته ووعدا له بدوام النصر والتأييد .

المفردات : (المثل) : هو الشبه ، هذا أصله ، ثم يطلق على الكلام الذى قيل أول ما قيل فى مقام ، ثم لحسنه وإيجازه حفظ وجرى على اللسان وصار يقال فى كل مقام يشابه مقامه الاصل الذى قيل فيه أولا ، لمشابهة المقام الثانى للمقام الاول ، ثم صار يطلق أيضا على كل كلام فيه بيان لشيء وتصوير له سواء أطاق ذلك البيان والتصوير الواقع وأتى بالحق ، أم لم يطابق الواقع ولم يأت بالحق ، وهذا المعنى هو المراد هنا فان المشركين جاءوا بكلمات فى حق الله تعالى وفى حق كتابه وفى حق ملائكته وفى حق نبيه ولم يطابقوا فيها الواقع ولا أتوا فيها بحق ، كقولهم فى الله وملائكته : « لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » . وفى نبيه : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشَى فِي الْأَسْوَاقِ » وفى القرآن : « أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا » « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً » . فهذه هى أمثاله التى ضربوها فضلوها . وجاء القرآن بعد كلماتهم الباطلة بكلمات الحق الدامغة مثل قوله تعالى : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » • « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » • فهذه هي أمثال الله التي جاءت بالحق وأحسن تفسيراً • « التفسير » : الكشف عن المعنى •

التركيب : وصلت الجملة لمشاركتها لما قبلها في الخبرية والمخبر عنهم والموضوع المتحدث عنه مما جاءوا به من الباطل وما رد عليهم به من الحق ، وجملة (جنناك) حالية من كاف الخطاب المفعول في : لا يأتونك ، والهمز بالنفي والا في تلك الحال ، والتقدير : ولا يأتونك بمثل في حال من أحوالك الا في حال مجيئنا لك بالحق وأحسن تفسيراً ، والتعبير بالمضارع في يأتونك يفيد العود وتجدد الاتيان منهم ، والتعبير بالماضي في جنناك مع أنه في معنى المستقبل يفيد تحقق المجيء ، وهو المناسب لمقام الوعد والتثبيت •

المعنى : ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون وأمثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه ويصورون به شبهة باطلة أو اعتراضاً فاسداً الا جنناك بالكلية الحق الذي يدفع باطلهم ويدحض شبهتهم وينقض اعتراضهم ويكون أحسن بياناً وأكمل تفصيلاً •

اهتمام : اذا تتبعنا آيات القرآن وجدتها قد أتت بالمدد الوافر من شبه الضالين واعتراضاتهم ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه ، وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدعوة والارشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة • ولا نحسب شبهة ترد على الاسلام الا وفي القرآن العظيم ردها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذى ضلالة أن نفرز الى آي القرآن ولا اخالنا اذا اخلصنا القصد وأحسننا النظر الا واجديها فيها وكيف لا نجد لها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيراً •

اقتداء : لننقذ بالقرآن فيما نأتى به من كلام في مقام الحجاج أو مقام الارشاد فلنتوخ دائماً الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان ولنفسره

أحسن التفسير ولنشرحه أكمل الشرح ولتقربه الى الأذهان غاية التقريب وهذا يستدعى صحة الإدراك وجودة الفهم ومتانة العلم لتصوير الحق ومعرفته ، ويستدعى حسن البيان وعلوم اللسان لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه فلاقتداء بالقرآن في الاتيان بالحق وأحسن بيان ، علينا ان نحصل هذه كلها ونتدرب فيها ونتمرن عليها حتى نبلغ الى ما قدر لنا منها . هذا ما على أهل الدعوة والارشاد وخدمة الاسلام والقرآن فاما ما على عموم المسلمين من هذا الاقتداء فهو دوام القصد الى الاتيان بالحق وبذل الجهد فى التعبير بأحسن لفظ وأقربه ومن أخلص قصده فى شئ وجعله من وكده أعين - باذن الله تعالى - عليه .

حشر الكفار الى النار

« الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا »

(سورة الفرقان - الآية : 34)

المناسبة : لما أبطل شبههم بين مآلهم وجزاءهم .

المفردات : (الحشر) : السوق والجمع (المكان) : المنزل (والسبيل) : الطريق .

التراكيب : فصلت الجملة لانها بيان لحالهم فى الآخرة وهو غير الموضوع المتقدم عرف المسند اليه بالاشارة فى قوله أولئك شر مكانا للتنبيه على أن المشار اليه وهو الذين المتقدم حقيق بما بعد اسم الاشارة من قوله شر مكانا وأضل سبيلا . بسبب ما اتصف به المشار اليه المتقدم مما دلت عليه الصلة وهو حشرهم على وجوههم الى جهنم الذى ما أصابهم الا بما قدمت أيديهم ففى الحقيقة هم أحقاء بكونهم شرا مكانا وأضل سبيلا بسبب ما أداهم الى ذلك الحشر فاكتفى بذكر المسبب عن السبب ، وأفعل التفضيل لم يذكر معه المفضل عليه ليفيد أن مكانهم شر مكان من امكنة

الشر ، وسبيلهم أضل سبيلا من سبل الضلال ، واسناد الضلال للسبيل مجاز .

المعنى : هؤلاء المشركون القائلون للمقاتلات المتقدمة ومن كان على شاكلتهم فى الكفر والعناد الذين يجمعون ويساقون الى جهنم مقلوبين على وجوههم اولئك شر مكانا ومستقرا فانهم أهل النار وأضل طريقا ، فانهم سلكوا طريق الكفر الذى أدامهم الى ذلك المستقر .

حديث : أخرج الشيخان عن انس بن مالك رضى الله تعالى عنه ، ان رجلا قال : يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : (اليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) ؟

فقه : من هذا الحديث علمنا أنه يجب فيما يرد من الاخبار عن اليوم الآخر أن يحمل على ظهره ولو كان غير معتاد فى الدنيا ، لان أحوال العالم الآخر لا تقاس على أحوال هذا العالم .

توجيه : رفعوا وجوههم فى الدنيا عن السجود لله . فاذل الله تلك الوجوه فمشوا عليها فى المحشر . ورفعوا رؤوسهم كبرا عن الحق فتنكسها الله يوم القيامة . ومشوا فى طريق النظر والاستدلال مشيا مقلوبا ، فمشوا فى الآخرة مشيا مقلوبا فكان ما نالهم من سوء تلك الحال جزاءا وفاقا لما أتوا من قبيح الاعمال . وما ربك بظلام للمبيد .

تعذير : فيما يذكره الله تعالى من هذا الجزاء العادل تخويف عظيم لنا من سوء الاعمال التى تؤدى الى سوء الجزاء وخصوصا من مثل ما ذكر فيما تقدم من ترك السجود والكبر على الحق والنظر المقلوب .

عصمنا الله والمسلمين أجمعين بالعلم والدين وهدانا سنن المرسلين آمين يا رب العالمين .

من إكرام الله تعالى عبده ، تحميله أعباء الرسالة وحده

« وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا »

(سورة الفرقان - الآية : 51)

المناسبة : قد استفيد من الآيات المتقدمة ما كان يكابد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من اذاية قومه وما كان يلقاه من مكابرتهم للحق وتمنتهم بالباطل . وما كان يعانيه من الجهد الجهيد في انذارهم وتبليغ دين الله تعالى اليهم وقد احاط به الاعداء من كل جانب ولقيته العقبات من كل ناحية وهو في ذلك كله جاهد في القيام بتبليغ الامانة ناهض بأعباء الرسالة ماض في تلك السبيل ليس معه من نذير ، وقد كان ذلك مما تتفسخ له القوى البشرية لولا تاييد من الله فأراد تعالى في هذه الآية أن يشبته في مقامه ويؤنسه في انفراده فيبين له أن تخصيصه بالقيام بهذا المقام العظيم هو لاجل تعظيمه وتكريمه وتخصيصه بالاجر الكثير والثواب الذي ليس له من مثيل .

المفردات : البعث : الارسال ، القرية : منازل الناس حيث يقيمون ويكونون مجتمعاً كبيراً أو صغيراً ، النذير : المخوف من الوقوع في الشر والهلاك .

التراكيب : مفعول المشيئة محذوف قياساً ، وتقدير الكلام : ولو شئنا أن نبعث . والبعث في كل قرية منتف بحكم لو ، لانها هنا تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها .

المعنى : لو اردنا لارسلنا في كل بلدة ومصر رسولا ينذرهم ويخوفهم من حلول نعمتنا بهم بكفرهم بنا ومعصيتهم لنا فيخفف عنك عبء ما حملت

ويسقط عنك بذلك تعب كثير . ولكننا لم نرد ذلك وحملناك أنت وحدك اعباء واثقال النذارة لجميع القرى ليظهر فضلك بعموم رسالتك ويعظم اجرک بعظم جهادک وصبرک ويكثر ثوابک بکثرة من يؤمن بک ومن تود وتعمل لیؤمن بک .

حديث : صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : (أعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلى كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل احمر واسود ، واحلت لى الفنائم ولم تحل لاحد قبلى ، وجعلت لى الارض طيبة طهورا ومسجدا فأيا رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين یدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة) . وذكر اللونين الاحمر والاسود لقصد التعميم . هكذا جاء هذا الحديث عن جابر بن عبد الله فى صحيح مسلم ، وجاء فيه من طريق أبى هريرة زيادة : (وختم بى النبىون) فتعميم رسالته وختم النبوة به فى هذا الحديث الصحيح من طريقه من مقتضى معنى الآية فانه لما عممت رسالته ولم يكن معه رسول فى حياته وختمت به النبوة فلا يكون كذلك بعد وفاته ثبتت له كرامة الخصوصية وعظمة المنزلة وجزالة المثوبة وهو ما كنا بيناه فى معنى الآية . وما أحسن التفسير تعضده الاحاديث الصحاح .

قاسى ووجاء : قد ثبت فى السنة ما يكون من كثرة الجهل وموت السنة وانتشار البدعة وقد ايد ذلك الواقع والمشاهدة . فاذا كان دعاة العلم والسنة وخصوم الجهل والبدعة فلا بد أن يكونوا قليلا فى العدد الكثير خصوصا فى مبدا أمرهم وأول دعوتهم ولا بد أن يلقوا ما يلقون ويقاسوا ما يقاسون . ومما يثبت قلوبهم فى عظيم مواقفهم تأسيهم بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم الذى جاء وحده بالحق والناس كلهم على الباطل ، فما زال يجاهد حتى لقى ربه . ومما يثبت قلوبهم أيضا رجاؤهم - اذا اخلصوا النية وأحسنوا الاقتداء - فيما يكون لهم من الاجر العظيم والثواب الجزيل فى جهادهم على قتلهم وفيما يكون لهم من الثواب كذلك فيمن اهتدى بهم وفيمن بذلوا جهدهم فى هدايته وكانت لهم الرغبة العظيمة فى اىصال الخير اليه . وان لم يرجع اليهم .

عدم طاعة الكافرين ، والجهد بالقرآن العظيم

« فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا » .

(سورة الفرقان - الآية : 32)

المناسبة : لما بين له ما خصصه به من الكرامة دعاه الى مقابلة ذلك بعدم طاعة اهل الكفر والثبات على جهادهم بالقرآن .

المفردات : الفاء تفريعية . الطاعة : الامتثال للمطلب . والجهد : بذل الجهد من ناحيتك فى مقابلة من هو باذل جهده فى الناحية المقابلة لك هذا مقتضى صيغة فعال .

التراكيب جهادا كبيرا مصدر مبين للنوع المطلوب بصفته وهى كبيرا .
المعنى : لما أكرمناك بعموم رسالتك وختم النبوة بك ، فقابل هذه النعمة باخلاص الطاعة لربك ، ولا تطع الكافرين أعداء الله وأعدائك ، فى أى شىء يدعونك اليه من مقتضيات كفرهم كالرجوع اليهم ، والسكوت عن بعض كفرهم ، وابذل كل جهدك فى دعوتهم للدين الحق ، ومقاومة ما هم عليه من الباطل بالقرآن العظيم ، وجاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا ، بتحمل كل ما يأتى من ناحيتهم من بلاء واذاية والصبر عليه والثبات على الدعوة والمقاومة .

تعميم : كما لا تجوز طاعة الكافرين فى شىء مما يملية عليهم كفرهم ، كذلك لا تجوز طاعة العصاة فى شىء مما تملية عليهم معصيتهم ، لان الجميع فيه مخالفة لدين الله ، وكما يجاهد اهل الكفر بالقرآن العظيم الجهاد الكبير ، كذلك يجاهد به اهل المعصية لانه كتاب الهداية لكل ضال ، والدعوة لكل مرشد ، وفى ذكر الكافرين تنبيه على العصاة من التنبيه بالا على على الادنى لاشتراكهم فى العلة وهى المخالفة .

اقتضاء : ما كان للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ليطيع الكافرين ، وانما جاء هذا النهى تهيبا له على تمام مخالفتهم ومماكستهم فى جميع

مناحى ومظاهر كفرهم ، والخطاب وان كان له فالحكم شامل لامته • فلا يجوز للمسلم ان يطيع كافرا أو عاصيا فى أى شىء من نواحي الكفر ونواحي المعصية • وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه ، فكذلك هو فرض على أمته هكذا على الاجمال ، وعند التفصيل تجده فرضا على الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائى على المسلمين ، فالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قدوة لامته فيما اشتملت عليه الآية من نهى وأمر •

استدلال : هذه الآية نص صريح فى أن الجهاد فى الدعوة الى الله ، واحقاق الحق من الدين ، وابطال الباطل من شبه المشبهين ، وضلالات الضالين ، وانكار الجاحدين هو بالقرآن العظيم ، ففيه بيان المقائيد وأدلتها ، ورد الشبه عنها • وفيه بيان الاخلاق محاسنها ومساوئها ، وطرق الوصول الى التحلى بالاولى ، والتخلى عن الثانية ومعالجتها • وفيه أصول الاحكام وعملها ، وهكذا فيه كل ما يحتاج اليه المجاهد به فى دين الله ، فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها أن على الدعاة والمرشدين أن تكون دعوتهم وارشادهم بالقرآن العظيم •

ميسران : عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدمى كل منهم أنه يدعوك الى الله تعالى ، فانظر من يدعوك بالقرآن الى القرآن - ومثله ما صح من السنة لانها تفسيره وبيانه ، فاتبعه لانه هو المتبع للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فى دعوته وجهاده بالقرآن ، والمتمثل لما دلت عليه امثال هذه الآية الكريمة من آيات القرآن •

نعمة ومنقبة : قد سمي الله تعالى الجهاد بالقرآن الكريم جهادا كبيرا ، وفى هذا منقبة كبرى للقائمين بالدعوة الى الله بالقرآن العظيم ، وفى ذلك نعمة عظيمة من الله عليهم حيث يسرهم لهذا الجهاد حتى ليصح أن يسموا بهذا الاسم الشريف (مجاهدون) فحق عليهم أن يقدروا هذه النعمة ، ويؤدوا شكرها بالقول والعمل ، والاخلاص والثبات ، والصبر واليقين • جعلنا الله والمسلمين منهم وحشرنا فى زمرتهم أجمعين (1) •

(1) الشهاب - ج 4 ، م 8 - ذو الحجة 1350 هـ - ابريل 1932 م •

تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل

« وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »

(سورة الفرقان - الآية : 62)

المناسبة : لما سأل المشركون بقولهم : « وما الرحمن » كما يسألون عن المجهول ، ذكر لهم القرآن ما يعرفهم به من عظيم آياته وجلائل انعاماته ، التي هي من آثار رحمته . فذكر لهم بروج السماء والشمس والقمر ، ثم ذكر لهم تعاقب الليل والنهار .

المفردات : (خلفه) : يقولون خلفت الفاكهة بعضها بعضا خلفا - بالتحريك - وخلفة اذا صارت خلفا من الاولى . وخلف زيد عمرا يغلفه اذا جاء بعده في مكانه ، فالخلفة مصدر وهو لما كان على وزن فعلة دل على الهيئة كالركبة بمعنى الهيئة من الركوب ، فالخلفة اذا هيئة من الخلوف ، فاذا قلت خلفه خلفا او خلوفاً فقد اردت مطلق الحدث ، واذا قلت خلفه خلفه فقد اردت هيئة خاصة من الخلوف . (التذكر) : قبول التذكير ، فان مخلوقات الله مذكرات للعبد بربه ، فتذكره هو قبوله ذلك التذكير واعتباره واتماضه به . (الشكور) : مصدر شكر بمعنى القيام بعبادته وطاعته لاجل نعمه . (او) : للتفصيل والتنويع لان المستفيدين من اختلاف الليل والنهار هم المذكرون والشافكرون فلا تمنع من أن يكون الشخص الواحد متذكرا شاكرا في آن واحد .

التراكيب : خلفه مفعول ثان لجعل على معنى جعلهما ذوى خلفه . وفي الاخبار تقول : الليل والنهار خلفه ، والرجلان خلفه على هذا المعنى ، أى

يخلف أحدهما الآخر ، وكان مفردا عن الاثنين ، لانه مصدر ، والجار في « لمن أراد » يتعلق بجعل . وكان الجعل لهما لانهما المستفيدان منه . ولم يكرر الاسم الموصول لان الشخص الواحد يمكن أن يتصف بالصلتين معا ، وكرر فعل الإرادة لانها لا بد منها في التذكر وفي الشكر ، وقيل « أن يتذكر » ليفيد المضارع الحدوث والتجدد ، فان الغفلة مستولية على الانسان ، والآيات المرئية ما تزال تحدث له التذكر وتجدد له . وقيل « وشكورا » لمناسبة رؤوس الآي .

المعنى يقول تعالى : وهو الذي جعل الليل والنهار ووضعهما يختلفان ويتماقبان على حياة مخصوصة في التخالف والتماقب ليستفيد من ذلك المباد ، من أراد أن يتذكر فيعتبر بما فيهما من انتقال وتغير ونظام وتقدير ، ويستدل بذلك على وجود خالقهما وقدرته وإرادته ، وعلمه وحكمته ورحمته بمخلوقاته أو أراد أن يشكر فيقوم بعبادة خالقه المنعم عليه بجلال النعم ودقائقها التي منها هذا الاختلاف والتماقب بين هذين الوقتين الذي لا يصلح حال الانسان ، ولا تنتظم أعماله ، ولا يستقيم عمرانه إلا به .

فقه لغوى : اختيرت لفظة الخلفة هنا لدالتها على الهيئة ، فتكون منبهة على حياة هذا الاختلاف بالطول والقصر المختلفين في جهات من الارض ، وذلك منبه على أسباب هذا الاختلاف من وضع جرم الارض وجرم الشمس ، وذلك كله من آيات الله الدالة عليه ، وبذلك الهيئة من الاختلاف المقدر المنظم عظم النعمة على البشر ، وشملتهم الرحمة ، فكانت هذه اللفظة الواحدة منبهة على ما في اختلاف الليل والنهار من آية دالة ومن نعمة عامة ، وهكذا جميع الفاظ القرآن في انتقائها لمواضعها .

فقه شرعى : لما كان جعل الليل والنهار خليفة لاجل التذكر والعمل ، كان كل واحد منهما صالحا للعمل الذي يعمل فيه صاحبه لمن فاته عمل بالليل أتى به في النهار ، ومن فاته عمل بالنهار أتى به في الليل ، وهذا اذا كان من العادات فهو على سبيل التدارك ، واذا كان من العبادات فهو على سبيل

القضاء • وقد روى ابن جرير بسند حسن أن رجلا جاء الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه - فقال : فاتتني الصلاة الليلة فقال أدرك ما فاتك من ليلتها في نهارك ، فان الله جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا • ومن هذا ما رواه مسلم والاربعة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - « من نام عن حربه أو من شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » •

فقه قرآنى : حياة الانسان من بدايتها الى نهايتها مبنية على هذه الاركان الثلاث : الارادة ، والفكر ، والعمل • وهى المذكورات فى هذه الآية ، لان التذكر بالتفكر والشكر بالعمل • فاستفادة الانسان مما خلقه الله له ، وجعله لاجله لا تكون الا بهذه الثلاثة ، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للانسان منها فالعمل متوقف على البدن والفكر متوقف على العقل والارادة متوقفة على الخلق ، فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح ، والارادة القوية من الخلق المتين ، والعمل المفيد من البدن السليم ، فلهذا كان الانسان مأمورا بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه وبدنه ، ودفع المضار عنها ، فيثقف عقله بالعلم ، ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوى ويقوى بدنه بتنظيم الغذاء ، وتوقى الاذى والتريض على العمل •

موعظة : قال الامام ابن العربى سمعت ذانשמند الاكبر - يعنى الغزالى - يقول : ان الله خلق العبد حيا عالما وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة ، اذ الكمال للاول الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقله الاكل والسهر فى الطاعة فليفعل • ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلا فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام نحو سدس النهار راحة فيذهب له ثلثاه ، ويبقى له من العمر عشرون سنة ، ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثى عمره فى لذة فانية ، ولا يتلف عمره سهرة فى لذة باقية عند الغنى الوفى الذى ليس بعديم ولا ظلوم • اهـ

سلوك : حافظ على العبادات في أوقاتها ، واقض ما فاتك ، واربط
أعمالك بأوقاتها ، وتدارك ما فاتك ، ووجه قصدك الى ما ترى من آيات الله
متفكرا ، ووجه قصدك في جميع أعمالك لله سامعا مطيعا - تكن عبدا ذاكرا
شاكرا - ان شاء الله - في الدارين •
وفقنا الله الى ذلك والمسلمين أجمعين (1) •

(1) الشهاب ، ج 5 م 8 ، غرة محرم 1351 هـ ماى 1932 م •

القرآن يصف عباد الرحمن الصفة الاولى والثانية

« وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »

(سورة الفرقان الآية 63)

المناسبة : لما تجاهل المشركون الرحمن واستكبروا عن السجود له عرفهم القرآن بالرحمن بخلقه وتدييره وانعامه كما مضى فى الآيات المتقدمة ، ثم عرفهم بعباده الذين عرفوه بذلك فأمنوا به وخضعوا له بما اشتملت عليه هذه الآيات من صفاتهم ، وكما كانت مخلوقات الله المذكورة سابقا دالة عليه ومعرفة به بما فيها من آثار قدرته وآثار رحمته كذلك كان عباده المذكرون أدلة عليه ومعرفين به بأقوالهم وأفعالهم وهديهم وسلوكهم ومظاهر آثار رحمة الله عليهم فذكروا بعد ذكر تلك المخلوقات وذكرت هى قبلهم لأنها كانت أدلة لهم والدليل سابق على المستدل سبق المستفاد منه على المستفيد .

وفى تعريف القرآن لعباد الرحمن بعد تعريفه بالرحمن تشریف كبير لهم وتبكييت لأولئك المتجاهلين المتكبرين ، ووجه آخر فى المناسبة ، وهو انه لما ذكر التذكر والشكر فى الليل والنهار فى الآية المتقدمة ذكر صفات المتذكرين الشاكرين وما اثمره لهم تذكركم وشكرهم ترغيبا فى التذكر والشكر . وقولهم للجاهلين سلاما من مقتضى هونهم ورفقهم فلذلك قرن به وعطف عليه .

المفردات : عباد : جمع عبد بمعنى المملوك الذليل الخاضع أو جمع عاهد كصاحب وصحاب وتاجر وتجار بمعنى الخاضع والقائم بما يرضى ربه والاول منا اظهر ، الرحمن : المنعم الذى تتجدد نعمه فى كل آن • يمشون

على الأرض : ينتقلون عليها • هونا : هان الامر يهون هونا بمعنى سهل ومنه « هُوَ عَلَى هَيْنٍ » ، أى سهل وشئ هين على وزن فيعل أى سهل ويقال هين بالتخفيف ، ومن صفات المؤمن أنه هين لين من الهون بمعنى السهولة فى اخلاقه ومعاملته ، وفى مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعا : « حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس » ، وهو على ما فسرنا من السهولة فى اخلاقه ومعاملته ، وذلك هو الذى يقربه من الناس ، وفسر الهون فى الآية بالحلم والوقار والسكينة والتواضع والطاعة وكلها ترجع الى السهولة واللين وفسر بعدم الفساد فى الأرض وعدم التجبر والتكبر لانها كلها اضداد للسهولة واللين • خاطبهم : كلمهم • الجاهلون : السفهاء القليلو الادب السيئو الاخلاق • والجهل ضد العلم ويطلق على السفه والطيش لانهما عنه ينشآن ومنه قول الشاعر :

الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومنه الجاهلون فى الآية • سلاها : السلام كالسلامة معناها التحرى من الآفات والمكروهات •

التراكيب : وصلت الجملة بما قبلها بالواو لاشتراكهما فى القصد وهو التعريف بالرحمن وبعباده • وعباد مبتدا والذين خبر واضاف العباد للرحمن تخصيصا لهم وتفضيلا وتقريبا وفيه تعريض بأولئك المتجاهلين المتكبرين المبغدين وهونا منصوبا على أنه مفعول مطلق والتقدير مشيا هونا أو على أنه حال من فاعل يمشون أى هينين ومجىء المصدر حالا كثير ولمصدريته أفرد والموصوف جمع ، نظير الزيدون عدل • ويمشون على الأرض هونا تركيب كنائى أريد به معناه ولازم معناه فهم يمشون هينين برفق وثبت لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا • هذا اصل المعنى وهو مراد ، ومراد أيضا لازمه وهو سهولتهم وتواضعهم وعدم تكبرهم ورفقهم فى الامور وبمعتهم عن الافساد •

ومراد لازم آخر أيضا وهو سيرهم فى الحياة وتصرفهم فى جميع الامور ومعاملتهم للناس فاذا كانوا اهل رفق وسهولة فى مشيهم فى الأرض فكذلك

هم اهل رفق وسهولة فى الامور الاخرى مما ذكرنا لان الرفق والسهولة خلق فيهم فكما هو فى المشى هو فى غيره . وكانت الصلة بالمضارع ليفيد التجدد فان المشى فى الارض ضرورى للانسان وكان المعطوف على الصلة بصورة الشرط لان خطاب الجاهلين لهم ليس مما يكون دائما وكان التعليق باذا لان مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء امر محقق ومتى سلم اهل العلم والدين من الجاهلين ولم يذكر ما يخاطبهم به الجاهلون للمعلم بأن خطاب الجاهل أى السفه لا يكون الا سوءا مما يليه عليه جهله وسفهه . ونصب سلاما على أنه مفعول مطلق والتقدير قالوا قولا سلاما أى ذا سلام فيشمل كل قول فيه سلامة من الاذى والمكروه كسلام عليكم ويفر الله لكم وسامحكم الله ونحو ذلك . او نصب على أنه مفعول به أى قالوا هذا اللفظ سلاما نفسه .

المعنى : يقول تعالى وعباد الرحمن ومماليكه القائلون بحق العبودية له هم اهل الرفق والسهولة الذين يمشون على الارض هينين فى مشيهم وفى معاملتهم لشؤون الحياة ومعاملتهم للناس لحلمهم وتواضعهم غير مستكبرين ولا متجبرين ولا ساعين فى الارض بالفساد . واذا خاطبهم السفهاء بما لا ينبغى من الخطاب قابلوهم بالحلم وقالوا لهم سلاما لانهم سلموا من الجهل فسلم المخاطب لهم من ان يجهلوا عليه ولو جهل أو قالوا لهم من الكلام ما فيه سلامة من الاذى والمكروه .

الاحكام : فى الآية استحباب الرفق فى المشى وكرامية العنف والاضطراب ومن العنف الضرب بالرجل والخفق بالنعل فاذا كانا بعجب وخيلاء فهو حرام . وفيها الاغضاء من الجاهل ومقابلة كلمته السيئة بالكلام الحسن . وكرامة مجاراته فى خطابه ومماثلته واذا كان فى ذلك فتنة او مفسدة محققة كان حراما .

تفصيل : ليس من الهون فى المشى التثاقل والتماوت فيه وروى ان عمر ابن الخطاب (رض) قال لجماعة رآهم كذلك : « لا تميئوا علينا ديننا أمانكم الله ، وان عائشة (رض) رأت قوما يتماوتون فسالت عنهم فقيل لها هؤلاء قوم من القراء فقالت لقد كان عمر من القراء وكان اذا مشى اسرع ، واذا

تكلم أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان مشيه (ض) الى السرعة خلقه لا تكلفا
والخير فى الوسط ، وليس هون المشى وحده يعرفك بأن صاحبه من عباد
الرحمن قرب ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس ولكن بالهون فى المشى
وبما ذكرنا فى فصل التراكيب والمعنى من لوازمه .

بيان ورد : اشتملت الآية على بيان الادب فى معاملة الجاهلين من افراد
الناس سواء اكانوا مسلمين ام غيرهم وما اشتملت عليه من الادب قد جاء
فى آيات كثيرة مثل « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » و « وَإِذَا سَمِعُوا أَلْفَوْا آعَرَضُوا
عَنَّهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَاهِلِينَ » فهو ادب
مشروع مؤكد وحكم دائم محكم وهو فى معاملات الافراد كما ترى .
فلا ينافى ما شرع فى العرب عند وجود اسبابها وتوفر شروطها بين الاسم
والجماعات وهى من الامور العامة كما ترى فبطل قول من زعم ان هذه الآية
بالنسبة لغير المسلم منسوخة بآية السيف لان هذه الآية ثابت حكمها فى
حال وآية السيف ثابت حكمها فى حال أخرى فلا تنسخ احدهما الاخرى .
وما اكثر ما قتلت احكام بآية السيف هذه وهى عند التحقيق غير مراضة
لها لمباينة حالها لحالها .

تمثيل واستدلال : جاء فى الصحيح من طرق مجموع الفاظها ان رهطا
من اليهود دخلوا على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا السام عليكم
والسام الموت ففهمتها عائشة رضى الله عنها فقالت وعليكم السام واللعنة
وغضب الله عليكم فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مهلا
يا عائشة عليك بالرفق واياك والعنف والفحش ان الله يحب الرفق فى
الامور كلها » فقالت له عائشة اولم تسمع ما قالوا فقال لها : « اولم تسمى
ما قلت رددت عليهم . قد قلت « وعليكم » فيستجاب لى فيهم » لانه دعاء
بحق » ولا يستجاب لهم فى « لانه دعاء بباطل وظلم » فقد خاطبه هؤلاء
الجاهلون بالسوء فقال لهم كلمة سالمة من القبح ليس فيها لفظ الاذية وهو
السام بعيدة عن الايحاش خالصة للرفق فهى من القول السلام أى ذى السلام

من مقتضى الآية على الوجه الاول من وجهيها ففى الحديث مثال لقول السلام
فى خطاب الجاهل ودليل على عموم الحكم واحكامه .

سؤال وجوابه : على الوجه الثانى فى الآية وهو انه يقول للجاهل سلاما
يقال صل يسلم عليه اذا كان كافرا فيقال نعم كما قال ابراهيم لابييه
« سلام عليك » وقد قال الله تعالى : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ اِسْوَةٌ خَسَنَةٌ فِى
اِبْرَاهِيمَ » ولم يستثن الا قوله لابييه « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ » نعم هو سلام مودة
ومتاركة لا سلام تحية وكرامة .

لطيفة تاريخية : قالوا ان ابراهيم بن المهدي المباسى كان منحرفا عن
على بن ابي طالب (ض) فرآه فى النوم قد تقدمه لعبور قنطرة فقال له
ابراهيم انما تدعى هذا الامر يعنى الخلافة بامرأة يعنى فاطمة رضى الله
عنها ونحن احق به منك وحكى ابراهيم رؤياه للمامون وقال له فما رايت له
بلاغة فى الجواب كما يذكر عنه فقال له المامون فما اجابك به قال كان يقول
لى : « سلاما سلاما » فنبهه المامون على هذه الآية وقال يا عم قد اجابك بابلغ
جواب فخزى ابراهيم واستحى اه فرضى الله عن الامام الهاشمى ما ابلغه
حيا وميتا .

توجيه وسلوك : القول السلام محمود ومطلوب فى كل حال وانما
خصت حالة خطاب الجاهل لانها الحالة التى تنور فيها نائرة الغضب بما
يكون من سفهه ومهانته، فعلى المؤمن ان يكون حاضر البال بهذه الآية عندما
تسوق اليه الاقدار جاهلا فيخطبه بما لا يرضيه حتى يسلم من شره ويكسر
من شرته فيسلم له عرضه ومروءته ودينه ويسلم ذلك الجاهل أيضا من
اللجاج فى الشر والتماذى فيه فيكون المؤمن بقوله السلام وتادبه سادب
القرآن قد حصل السلامة للجميع واعظم به من فضل واجر فى الدنيا
والدين وفقنا الله لذلك والمسلمين اجمعين (1) .

الصفة الثالثة

« وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا »

(سورة الفرقان - الآية : 64)

المناسبة : لما ذكر فيما تقدم سلوكهم مع الخلق ، ذكر فى هذه الآية سلوكهم فى القيام بعبادة الحق . وفيما تقدم بيان حالهم عند اختلاطهم بالعباد ، وفى هذه بيان حالهم عند تفردهم لرب العباد .

المفردات : يبيتون : من البيوتة وهى ان يدركك الليل نمت او لم تنم ويقابلها الظلول وهو ان يدركك النهار . السجد : جمع ساجد والقيام : جمع قائم وهو من الاوزان التى يشترك فيها المصدر والجمع .

التراكيب : الذين عطف على الخبر الاول واعيد لفظ الذين لاستقلال الحالة الثانية عن الاولى وقدم الجار ليفيد تخصيص عبادتهم بربهم ويفيد الكلام عبادتهم واخلاصهم وقدم سجدا لان السجود اقرب احوال العبد للرب لحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه : هو ساجد ، ووقع قياما فى موقعه مناسبا للفاصلة .

المعنى : ومن صفات عباد الرحمان ، يحيون الليل فيبيتون يصلون لربهم يراوحون بين السجود والقيام .

بيان وترويض : هذه الآية من آيات الحث على مهام الليل مثل ما فى : تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَرْعَوْنَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا . وقد بينت السنة المطهرة مقداره فثبت فى الموطن من طريق ابى سلمة عن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على احدى عشرة ركعة يصل ارضا فلا تسأل عس

حسنهن وطولهن ثم يصلى أربعاً لا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثاً والسلام بعد كل ركعتين لحديث « صلى الليل مثنى » وثبت عند مسلم من طريق سعد بن هشام عنها أنه كان يفتتح صلاته بالليل بركعتين خفيفتين فتلك ثلاث عشرة وقد ثبت ذلك فى الموطأ من طريق عروة عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى بالليل ثلاث عشرة ركعة ، وهذا هو الغالب من أحواله وقد كان يصلى أقل منه فى بعض الأحوال فقد ثبت عند البخارى من طريق مسروق عنها أن صلاته صلى الله عليه وآله وسلم بالليل سبع وتسع وأحدى عشرة سوى ركعتي الفجر ومثل ما جاء عن عائشة من انتهاء ركعاته الى ثلاث عشرة جاء فى الموطأ فى حديث ابن عباس وجاء فيه أيضاً من حديث زيد ابن خالد الجهنى ، وفى هذه السنة العملية الثابتة بيان للقدر الاكمل الذى يكون به العبد ممن يصدق عليهم هذا الوصف من صفات عباد الرحمن .

الصفة الرابعة

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاعَةٌ مُّسْتَقَرَّةٌ وَمُقَامًا » .
(سورة الفرقان - الآيات : 65 ، 66)

المناسبة : لما ذكر حسن سلوكهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق ذكر خوفهم من ربهم واعتمادهم عليه فى نجاتهم وعدم اغترارهم بأعمالهم فهم يأتون من محاسن الاعمال ولا يعتمدون الا على الكبير المتعال .
المفردات : الغرام : مادة غ ر م تدور على معنى الملازمة مع الثقل والشدة ولذا فسر الغرام بالشر وبالعذاب وبالهلاك الملازم . ساءت : بمعنى قبحت مثل بشس لانشاء الذم . المستقر : محل الاستقرار أى الثبوت . والمقام : محل الإقامة أى البقاء .

التراكيب : ساءت فاعله الضمير المخصوص بالذم ومستقرا ومقاما تمييز مفسر للضمير وجملة ان عذابها تعليل للجملة الدعائية وفصلت

عنها لكمال الانقطاع بينهما لانشائية الاولى وخبرية الثانية وجملة انها ساءت مؤكدة لخصمون الجملة مع اختلاف فى المعنى فان ما افادته الاولى من فداحة عذابها وملازمته اكدته الثانية بما افاده من مقامه ومستقرها ففصلت عنها لما بينهما من كمال الاتصال نظير ، **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ،** والتاكيد فيهما بان ، لانه قد لوح واشير فى الكلام السابق الى هذا الخبر وشان السامع لهذا ان يستشرف له استشراف المتردد الطالب فينزل منزلة المتردد فيؤكد له الخبر ووجه التلويح بهذا الخبر انه لما سئل صرف عذاب جهنم كان هذا مشيرا الى قبح هذا العذاب وشدته فهذا نظير ، **« وَلَا تُغَايِبُنِي فِي الْدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ »** .

المعنى : من صفاتهم انهم يدعون الله تعالى ان يصرف عنهم عذاب جهنم لان عذابها عذاب شديد قادح ملح ملازم ولانها بثست المستقر الذى يستقر ويثبت فيه وبثست المقام الذى يقام ويمكث فيه .

رد واستدلال : زعم قوم ان اكمل احوال العابد ان يعبد الله تعالى لا طمعا فى جنته ولا خوفا من ناره وهذه الآية وغيرها رد قاطع عليهم ومثلها قول ابراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام : **« وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ »** فى نصوص لا تحصى كثرة وزعموا ان كمال التعظيم لله ينافية ان تكون العبادة معها خوف من عقابه او طمع فى ثوابه واخطاوا فيما زعموا فان العبادة مبناهما الخضوع والذل والافتقار والشمور بالحاجة والاضطرار واظهار العبد هذه العبودية باتمها ومن اتم مظهر لها ان يخاف ويعطع كما يذل ويخضع ففى اظهار كمال نقص العبودية القيام بحق التعظيم والاجلال للربوبية ، ولهذا كان الانبياء عليهم وآلهم الصلاة والسلام وهم اشد الخلق تعظيما لله واكثرهم خوفا من الله وتموذا من عذاب الله وسؤالا لما عند الله وكفى بهم حجة وقودة ، وان هذه المقالة تكاد تفضى الى طرح الرجاء والخوف وعليهما مبنى الاعمال لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج ، ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ « واليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجذ ، وهذا ضرورى فى

الدين • ولكن مثل هذه المقالة انما يجبر اليه الغلو وقلة الفقه في الدين
في الكتاب والسنة وما كان عليه هدى السابقين الاولين •

اعتبار ونصيحة : ان جهنم هي اقبح مستقر واقبح مقام • وان الدنيا
هي مطية الآخرة فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا ساء كذلك مستقره
ومقامه في الآخرة وان ملازمة العذاب في الآخرة على قدر ملازمة المعاصي
في الدنيا فمن لازمها بالكفر ومات عليه دامت له تلك الملازمة ومن لازمها
بالاصرار على الكبائر كانت له على حسب ذلك الملازمة • فعلى العاقل ان
يحسن مقره ومقامه وان يجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة وان يجتنب
مجالس السوء والبدعة ويلتزم مجالس الطاعة والسنة وان يسرع بالتوبة
مفارقا الذنوب وان لا يصبر على شيء من القبائح والعيوب وان يكون سريع
الرجوع الى الله ولو عظم ذنبه وبلواه فالله يحب التوابين ويفقر للتوابين •
جعلنا منهم أجمعين آمين (1) •

(1) الشهاب - ج 9 ، م 8 - جمادى الاولى 1351 هـ - سبتمبر 1932 م •

أيهما أكمل :

العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب

أم العبادة دونهما ؟ (1)

زيادة بيان على قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا »

(الفرقان)

قد قال قوم ان العبادة دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب هي اكمل العبادات . وانكرنا مقالتهم فيما كتبناه على قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا » في الجزء الصادر في غرة جمادى الاولى .

وقلنا في الانكار عليهم : « وزعموا ان كمال التعظيم لله ينافية ان تكون العبادة منها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه وأخطاوا فيما زعموا » . وذكرنا اثر ذلك بعض الأدلة التي اعتمدنا عليها ، وبعد ان مضى على ذلك ثلاثة اشهر كاملة نشر الشيخ المولود الحافظي مقالا ردا علينا دون ان يذكر جميع ادلتنا ودون ان يتعرض لنقضها في سندها أو متنها أو عدم انطباقها أو افادتها لما سيقى لافادته ، ودون ان يعارضها بمثلها في الرتبة والدلالة . وأطال بما بمضه خارج عن محل النزاع ، وبمضه هو نفس الدعوة المحتاجة الى الاستدلال . فرأينا اثر اطلاعنا على مقاله ان نعود في هذا الجزء لذكر

(1) وفيه رد على مقال الشيخ الحافظي المدرج في جريدة (البلاغ) منذ بضعة اسابيع ، (ش) .

أدلتنا التي اعتمدنا عليها فيما اخترناه من أن وضع العبادة الشرعية على رجاء الثواب وخوف العقاب ، وبيان دلالتها على المدعى ، ثم نتكلم على بعض ما فى مقاله ، فنقول :

ان العبادة هى غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضعف والافتقار ، ومن مقتضى الضعف ان يخاف ويوجل ، ومن مقتضى الافتقار ان يرجو ويطمع . فخوف العبد من عقاب ربه هو من مقتضى اعترافه بضعفه وقوة ربه وشهوته لعزته وقهره وعموم تصرفه فى خلقه ، وانه لا يعقب لحكمه وانه لا يؤمن من مكره ، وطمعه فى ثوابه هو من مقتضى اعترافه بحاجته وفقره وغنى ربه وفضله وتصديقه بوعده فهو يعبد ويخافه ان لا يقبل عبادته ويخشى نقمته . ويمبده ويرجو رحمته وينتظر مثوبته ، وفى عبادته هذه اظهار لغاية العبودية بنفسها وحاجتها وقيام بحق التظيم والاحلال للربوبية والاعتراف لذلك المقام بالقدرة والعزة والغنى والرحمة والكمال .

فوضعت العبادة فى الدين على خوف العقاب ورجاء الثواب لما فى ذلك من اظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره امام ربه الغنى الرحيم القوى المتين . والدليل على هذا ستسمعه من الكتاب والسنة وأقوال السلف .

اما الكتاب فقوله تعالى : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . ووجه الدليل من الآية ان هؤلاء المذكورين فيها هم الكمل من عباد الله الصالحين بدليل حديث ابى هريرة - رضى الله عنه - المروى فى الصحيح قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (يقول الله تعالى أعددت لمبأدى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما اطلعتم عليه) . ثم قرأ : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ومع كمالهم لم تتجرد عبادتهم من الخوف والطمع . ووجه آخر : هو ان الله تعالى ذكر لنا عبادتهم لنعرف العبادة الشرعية كيف تكون فذكرها

مع الخوف والطمع فعرّفنا ان العبادة وضمت في الشرع على ذلك . ووجه آخر . وهو انه تعالى ذكر لنا صفاتهم وعبادتهم لنقتدى بهم فيها فعلم ان العبادة التي يدعوننا ربنا اليها هي العبادة خوفا وطمعا .

ومثل هذه الآية : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ - الى - رَبَّنَا فَاعْفُ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ وُفْوِكَ وَلَا تَخْزِنَا يَوْمَ الْفِصَامَةِ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ أَلْعِيَادَ » ووجه الدليل منها كالتي قبلها وتزيد عليها ببيان صريح دعائهم وطلبهم الوقاية من النار وغفران وتكفير السيئات .

ومثلها قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا » . ووجه الدليل منها كالتي قبلها . ومثلها قوله تعالى : « يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا » . ووجه الدليل منها مثل ما تقدم وتزيد ببيان ان خوف اليوم العبوس لا ينافي الإطعام لوجه الله .

ومثلها قوله تعالى : « أَفَقَدْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْقِسَاصِ ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَرْزُقُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَىٰ الدَّارِ . » ووجه الدليل كما تقدم، وفيها ايضا بيان ان خوف سوء الحساب لا ينافي الصبر ابتغاء وجه الله .

ومثلها قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَلِلَّوْثِ هُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَٰئِكَ يُسْكِنُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » . ووجه الدليل ما تقدم ومعنى الآية انهم يعطون ما اعطوا

من أعمال البر والطاعات وقلوبهم خائفة من انهم راجعون الى ربهم فيخافون ان لا تقبل منهم . ففيها بيان انهم كانوا يعملون راجين قبول الاعمال خائفين من عدم قبولها .

فهؤلاء هم الكمل من عباد الله وهذه هي عبادتهم في صريح هذه الآيات الكريمة التي ذكرت فيها صفاتهم وكلها بكثرتها وصراحتها دالة دلالة قطعية لما قلناه من ان العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب والخوف من العقاب اذ ذلك هو اظهر مظاهر العبودية بذلها وخضوعها وضعفها وحاجتها وفقرها وحالتها المبينة غاية المبينة لمقام الربوبية مقام ذي الجلال والاکرام .

ولا تجد في القرآن العظيم آية واحدة دالة صريحة على ذكر عباده - هكذا - دون خوف أو طمع ، ونزيد على الآيات المتقدمة آية دالة على حال عباده المعصومين عليهم الصلاة والسلام ، وهي قوله تعالى : **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ، ووجه الدليل من الآية ان ابراهيم عليه السلام - اخبر عن نفسه بمصغة المضارع المفيد للتجدد انه يطمع من الله ان يغفر له خطيئته ، فدل ذلك على انه كان في عبادته طامعا ومعلوم انه معصوم وانه مؤمن العذاب ، وان ما سماه خطيئة هو بالنسبة الى مقامه الرفيع من باب (حسنات الابرار سيئات المقربين) ومع ذلك كله فالمقصود من الدليل حاصل وهو انه خاف المؤاخذة - المؤاخذة الثلاثة بمقامه - وطمع في الغفران وكانت عبادته على الطمع والخوف . ولا يقال انه كان معلما للناس لانه اخبر عن نفسه وخبره صدق ثابت فلابد ان يكون كما اخبر .

واما السنة فمنها دعاء القنوت المشهور (نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجذ) ووجه الدليل منه ان الصلاة اشرف احوال العبد واجل مقاماته واعظم عبادته وقد علم ان يدعو فيها هذا الدعاء الصريح في رجاء الرحمة وخوف العذاب . وما كان ذلك الا لان العبادة الشرعية موضوعة عليهما . ومنها حديث : (واما السجود فادعوا فيه ، فقم ان يستجاب لكم) وهو حديث صحيح ، وفي الصحيح ايضا (اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) ، ووجه الدليل ان اقرب احوال العبد من ربه هو محصل

الدعاء ، والدأى ى رجو القبول وىخاف المنع ، فالعبادة فى اقرب أحوال
العبد موضوعة على الرجاء والخوف .

ومنها الحديث الصحيح : (اذا أتيت مضجك فتوضأ وضوءك للصلاة
ثم اضطجع على شقك الايمن ثم قل : اللهم اسلمت وجهى اليك وفوضت
امرى اليك والجات ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجا منك
الا اليك اللهم آمنت بكتابك الذى انزلت وبنبيك الذى ارسلت فان مت
من ليلتك فانت على الفطرة واجملهن آخر ما تتكلم به) . ووجه الدليل منه
انه تعليم لما يقوله المسلم فيما قد يكون آخر حال يلقي عليه ربه ولا ينبغي
ان يلقاه الا على اكمل حال . فعملنا هذا الدعاء الصريح فى الرغبة والرهبة
ليقوله المؤمن ولو كان من اكمل الكمل فدل على ان الرغبة والرهبة عليهما
وضعت العبادة فى جميع الاحوال .

ومنها الحديث الصحيح : (قالت عائشة (رضى الله عنها) كنت نائمة
الى جنب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ففقدته فلمسته بيدي
فوضعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول : (أعوذ برضاك من سخطك
وبمافاتك من عقوبتك وبك منك لا احصى ثناء عليك كما اثنيت على
نفسك) . ووجه الدليل انه فى الحال التى هو فيها اقرب ما يكون من
ربه وهى حالة سجوده استعاذ برضى الله من سخطه وبمافيته من عقوبته ،
ثم لما لم يستطع الاحاطة بافعاله رد الامر لذاته فاستعاذ به منه وهو فى
الجميع مستعيز والمستعيز طالب والطالب راج وطامع فى نيل المطلوب فلم يفارق
عبادته الرجاء والطمع حتى فى هذه الحالة التى هى بينه وبين ربه لانه كان
ساجدا فى جنح الليل دون حضور أحد من الناس الا عائشة التى كانت نائمة
واستيقظت ففقدته فاطلمت عليه فى تلك الحال .

ومنها الحديث الصحيح عن ابن عباس الذى كان يعلمهم رسول الله
- صلى الله عليه وآله وسلم - اياه كما يعلمهم السورة من القرآن ، رواه
مالك وفيه : (اللهم أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر
وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة الحيا والممات) ،

ووجه الدليل منه انه علمهم هذه الاستمادة الصريحة في الخوف والرجاء كسائر ما علمهم من الدعوات المبنية عليهما .

وهكذا تجد جميع دعواته الماثورة على الرغبة والرهبة والرجاء والخوف ولا تجد دعاء واحدا علمهم فيه أن يتوجهوا الى الله تعالى دون رغبة ولا رهبة ولا رجاء ولا خوف ولو كانت العبادة الخالية من الطمع والخوف هي اكمل العبادة لكان بينها لهم بيانا شافيا صريحا كماداته في بيان الكمالات ، وهو العريس على دلالته على كل خير ، فكيف لم يدلهم على هذا المقام بصريح المقام لو كان من الكمال بحيث يدمى لها بعض الناس .

فقد بان لنا بما ذكرناه توارد آيات الكتاب واحاديث السنة في صراحة وجلاء على مشروعية العبادة مقرونة بالرغبة والرجاء والخوف ، ولسم نظفر بآية واحدة أو حديث واحد فيه التصريح بمشروعيتها مجردة منها فضلا عن أنها اكمل منها معهما ، وما كنا لنترك أدلة الكتاب والسنة الصريحة لرأى أحد كائنا من كان ، واننا نورد فيما يلي حديثا من صحيح البخارى يبين لنا كيف كان الصحابة سادة هذه الامة يعبدون الله تعالى يرجون قبول اعمالهم لديه : (قال أبو بردة ابن أبي موسى الاشعري ، قال لي عبد الله بن عمر : هل تدري ما قال أبي لابيک ؟ قال قلت لا ، قال فان أبي قال لابيک يا أبا موسى هل يسرك اسلامنا مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهجرتنا معه وجهادنا وعملنا كلنا معه برد لنا وان كل عمل عملناه بعده نجونا منه رأسا كفانا برأس - قال أبي (يعني أبو موسى) لا والله قد جاهدنا بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وصلينا وصمنا وعملنا خيرا كثيرا واسلم على أيدينا بشر كثير وانا لنرجو ذلك فقال أبي (يعني عمر) لكني انا والذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك برد لنا وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفانا رأسا برأس فقلت - أبو بردة - ان أباك والله خير من أبي) ووجه الدليل عملهم على الرجاء وخوفهم من عدم القبول والعقاب على المخالفة وان اختلفا فيما اختلفا فيه ولا تجد في كلام واحد منهم أنه كان يجرد عبادته عن الطمع والخوف وما كان المقام الاكمل ليفوتهم وهم أفقه الناس في الدين وأحرصهم على الخير .

هذه هي أدلتنا فيما ذهبنا اليه ورددنا على مخالفيه وهي أكثر من هذا
 في كتاب الله وسنة رسوله وفيما ذكرناه كفاية - ان شاء الله - لمن نصح
 وانصف وأخلص الايمان بقوله تعالى : **وَإِنْ تَنَادَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى
 اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**

والآن نعلق بالكلام على مقال الشيخ ونحصره في مواضع :

- انكرنا على من زعموا أن مرتبة العبادة العليا أن يعبد الله تعالى لذاته
 دون الطمع في ثوابه ولا الخوف من عقابه ونسبنا اليهم الخطأ ولما وجدنا
 آيات الكتاب واحاديث السنة طافحة بأن عبادة الكمل عن عباد الله مقرونة
 بالخوف والطمع كما قدمنا نسبنا خطاهم الى قلة التفقه في الدين أى في
 أدلة الدين وهي الآيات والاحاديث المذكورة ، وما عسى أن يقال فيمن لم
 تكفه تلك الآيات والاحاديث كلها على صراحتها واتفاقها الا أنه لم يتفقه
 فيها . ولما لم نجد آية واحدة ولا حديثا واحدا يصرح بمدعاهم حملناهم
 على الغلو هذا كله دون أن نصرح بشخص ولا بطائفة لان الكلام مع القول
 والدليل . فابى حضرته الا أن يحمل كلامنا على طائفة مخصوصة يحب هو
 اليوم التظاهر بالدفاع عنها ثم تطرق من ذلك الى رمينا بما يناسب غرضه
 من الجراءة وقلة النصيحة والتطاؤل على الائمة الى ما يريد ان يصفنا به
 ليقول القارىء أن حضرته موصوف بضده . وربك أعلم بتلك الاوصاف
 واهلها .

كان استدلالنا بآية (**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ**) على الوجه الذى بيناه فيما تقدم
 دون أن نذكر الحصر ولا أن نشير اليه ولا من مقتضى موضوعنا ان نقصر
 عباد الرحمن على تلك الصفات ، لكن حضرته اخذ يقرر فى قواعد الحصر
 الضرورية عند المبتدئين وخرج من ذلك الى أن الآية لا حصر فيها وانما
 تسرهنا وما تديرنا ولم نحسن تطبيق قواعد العلوم على موضوع النزاع .
 وفى الحق أن حضرته هو الذى لم يحسن تنزيل ما طوّل به فى الحصر
 على كلام لم ندع فيه الحصر ولم نستدل به وانما استدللنا بالآية مثل ما
 استدللنا بغيرها على الوجه الذى تقدم وعلى ما معه من الوجوه .

ما فى كلام الامام الرازى من أن الله مستحق للعبادة لذاته وأنه لو أمرنا بالعبادة بلا ثواب ولا عقاب لوجبته فهو حق مسلم وليس هو موضوع النزاع ، كان موضوع النزاع هل العبادة مع الخوف والرجاء أكمل أم العبادة دونهما وما فيه من أن (من عبد الله للثواب والعقاب فالمعبود فى الحقيقة هو الثواب والعقاب والله واسطة) .

— اذا كان يعنى به أنه عبد الله للثواب من حيث ذاته والعقاب من حيث ذاته دون الامتنال للأمر وتوجه للرب ، فهذا ليس كلامنا فيه . وإن كان يعنى أنه يعبد للثواب والعقاب من حيث أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب وخوف العقاب فهو يعبد الله امتثالاً لأمره فكلامه ممنوع لأن العبادة هى التوجه بالطاعة لله امتثالاً لأمره وقياماً بحقه مع الشعور بالضعف والذل أمام قوة وعز الربوبية وذلك يبعث على الخوف المأمور به ، ومع الشعور بالفقر والحاجة أمام غنى وفضل الربوبية وذلك يبعث على الرجاء المأمور به ، فالمعبود فى الحقيقة والواقع هو المتوجه اليه بالطاعة وهو الله تعالى لا الثواب الذى تعلق به الرجاء ولا العقاب الذى تعلق به الخوف . وكيف يكون الثواب وهو المعبود والعقاب وهو المعبود والله هو الذى شرعهما ، فهل يشرع عبادة غيره ، وما هذا الا من عدم التأمل فى مثل قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » . أى شأنه أن يحذر ومن حقه أن يحذر وهل هذا الا من عدم التفقه فى قوله تعالى — فى أم القرآن والسبع المثانى التى ينادى بها المصل ربّه وهو فى أعظم عبادة — : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » . فان المستعين طالب الاعانة والطالب راج قبول طلبه خائف من عدم قبوله ، وقوله تعالى فيها : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » . طلب كذلك فليستفقه المتفقهون فى كلام رب العالمين .

ونقل كلام الامام الرازى فى باب المحبة قوله : (وأما العارفون فقد قالوا قد يجب الله تعالى لذاته وأما حب خدمته وحب ثوابه فدرجة نازلة) ونحن نقول ان الذات أقدس الموصوف بالكلمات المفيض للانعامات تتعلق

به قلوب المحبين موصوفاً بكمالاته وانعاماته التي منها ثوابه وجزاؤه وتلك المحبة تبعث على خدمته بطاعته والتقرب اليه بأنواع العبادات وأما عبادة الذات مجرداً عن الانعامات فهو نوع من التعطيل في الاعتقاد والتقصير في الشهود وإذا كانت المحبة عملاً من أعمال العبد القلبية التي يتقرب بها إلى الله فهي عبادة . وقد بينا بالأدلة المتقدمة أن العبادة في الإسلام موضوعة على مصاحبة الرجاء والخوف والمحبة للرب ذي الجلال والإكرام والبطش والانعام لا يفيب عن إجلاله بالخوف والتذلل له بالطمع كحاله في سائر العبادات .

ونقل من كلام النيسبوري قوله (المحققون نظرهم على المعبود لا على العبادة وعلى المنعم لا على النعمة) فإن كان مراده أن نظرهم على المعبود أي اعتمادهم في القبول على المعبود لا على العبادة فهذا حق وليس كلامنا فيه ، وإن كان مراده أن نظرهم على المعبود أي توجههم إلى المعبود دون العبادة فهذا أيضاً حق لأن العبادة متوجه بها لا إليها وليس كلامنا في هذا ، وإن كان مراده أن تقرب بالعبادة فهذا باطل لأن الله تعالى قال : « وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » أي ما يقربكم إليه من طاعته وإن كان مراده أن تقرب بالعبادة فهذا أيضاً باطل لأن العابد ينوي العبادة ويقصد بها القربة ويتوجه بها مخلصاً فيقول : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » فكيف يكون لا شعور له بها وأما قوله (وعلى المنعم لا على النعمة) فإن أراد أن المتقرب إليه هو الله المنعم دون النعمة ، فهذا حق وليس كلامنا فيه ، وإن أراد أن رجاء نعمة الثواب حين التوجه لله والتقرب إليه بالطاعة ينافي التقرب إلى المنعم ويعد تقرباً للنعمة فهذا هو الذي أبطلناه بالأدلة السابقة ونقضناه في الموضع الثالث . وإن أراد أن ذكر العبد لنعم الله عليه مخل بكمال عبادته فهذا باطل أيضاً لأن عبادة الله شكر على ما أتى من النعم وطلب للمزيد من أرفع المقامات وقد قال الله تعالى : « إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » ، « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا - إِلَى شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ » ، « وَبِأَوْزَعَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ » ، « أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » و « لَقَدْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » .

استدل النيسبوري : (بانه قيل لبنى اسرائيل اذكروا نعمتي ولامه محمد اذكروني) وهذا منقوض بقوله تعالى : « وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ » ، « اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ » .

نقل من كلام النيسبوري ما يفيد أن عبادة الله لكونه الاله وكون المخلوق عبدا لا يكون معها رغبة في الثواب ولا رهبة من العقاب وانها هي اعلى الرتب ونحن نقول من مقتضى شعورك بعبودتيك شعورك بضعفك وفقرك وان من مقتضى علمك بالله شعورك لقوته وفضله وذاك الشعور وهذا الشهود يبعثان فيك الرجاء والخوف فتكون وانت تعبد لانه اله ولانك عبد راجيا خائفا . ودعوى تجرد العبادة عنهما قد أبطلناها بالادلة السابقة .

نقل قول الامام ابن العربي « امر الله عباده بعبادته وهي اداة الطاعة بصفة القرية وذلك باخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء الا لوجهه وذلك هو الاخلاص الذي تقدم بيانه » . ثم زعم هو من عنده أن من مقتضى تجريد العمل عن كل شيء تجريده من رجاء الثواب وخوف العقاب يناقيان الاخلاص هو ما كان لوجه الله لكونه الاله لا غير .

وهذا صريح منه في أن رجاء الثواب وخوف العقاب يناقيان الاخلاص وهو باطل لقوله تعالى : « إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ » . الآية ، وقد تقدمت فحافوا وعلمهم لوجه الله بنص القرآن . وروى الانية في الصحيح أن ابا طلحة قال : يا رسول الله ، انى اسمع الله تعالى يقول : « لَنْ تَنَالُوا أَكْبَرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ » وان أحب أموالى الي يرحاء وانها صدقة لله ارجو برها وذخرها عند الله فضعها حيث اراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بنح ذلك مال رابع ذلك مال رابع » . فافتره على قوله ارجو برها وذخرها ولم يقل له ان هذا مناف للاخلاص كما يقول الشيخ ، وهو يسمبط ويشنبط في كلام الامام ابن العربي . ثم مالك - ياخي - ولابن العربي حسبك ابن سينا وامثاله الذين يحاولون تطبيق العبادة الاسلامية على الفلسفة اليونانية والآراء الافلاطونية ، اما ابن العربي

فهو حكيم اسلامى وفقه قرآنى وعالم سنى - حقيقى - لا يبنى نظاره الا على اصول الاسلام ودلائل الكتاب والسنة - وهاك كلامه فى ارادة الماذون فيه مع العبادة من أمور الدنيا بله الرجاء والخوف ، ولنسمع كلامه الصريح من الدليل الصحيح فى الرد على مثل زعمك • قال على قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » •

المسألة الثانية : قال علماؤنا : (فى هذا دليل على جواز التجارة فى الحج للعاج مع أداء العبادة ، وان القصد الى ذلك لا يكون شركا ولا يخرج به المكلف عن رسم الاخلاص المفترض عليه ، خلافا للفقهاء أن الحج دون تجارة افضل اجرا) وقال على قوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » • (وهذا يدل على أن العبد يعمل محبة فى الله ورسوله لذاتيهما وفى الدار الآخرة لما فيها من منفعة الثواب) •

ونقل كلاما للامام الغزالى فى المحبة وقد قدمنا فى الموضع الثامن الكلام على مثله وبين أن المحبة عبادة وانها موضوعة كسائر العبادات الشرعية على الرجاء والخوف بالادلة المتقدمة •

- وقال : وكان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم : (اللهم اجعل حبك أحب الاشياء الى ، واجعل خشيتك أخوف الاشياء عندى واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق الى لقائك) وقد تقرر أن خوفه خوف اجلال وتعظيم لا خوف النار والعقاب اهـ ، ونقول أن خوف الاجلال لا يخرج به العبد عن ضعف وذل العبودية ومشاهدة قوة وفضل الربوبية فلا يتجرد خوفه الاجلالى عن خوف المؤاخذة : المؤاخذة التى ليست نارا ولا عذابا ولكنها مؤاخذة مناسبة لذلك المقام العالى بدليل أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام - وهو مثل نبينا عليه الصلاة والسلام فى العصمة وعدم النار والعقاب وقد خاف المؤاخذة فقال : « وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » ، ولا خطيئة له ولجميع الانبياء والمرسلين لا من الكبائر ولا من الصغائر على كل حال ، وبدليل أنه هو عليه الصلاة والسلام قال : (والله اننى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة) رواه البخارى ، وليس هذه لذنوب لا صغير ولا كبير وانما هو لملمه بالله وعظيم حقه وشدة تعظيمه

لربه فيخاف المؤاخذة فيطلب المغفرة فبان بهذا أن خوف الاجلال لا يتجرد عن خوف المؤاخذة . وبعد هذا البيان نقول لحضرته لا تستدل بالحديث دون بيان رتبته ولا ذكر لمخرجه ، وما هكذا يكون استدلال الامناء من العلماء وانه يرمى الاحاديث هكذا مهمة اختلط الحق بالباطل وتجراً على السنة النبوية الغيبى والجاهل حتى بلغ الامر الى نسبة الاحاديث الى كتب الاسلام المتفق عليها ولا وجود لها فيها ، أما نحن فلا نعرف هذا الدعاء فى الصحاح المتداولة عندنا فليتك تبين من أين جئت به حتى نعرف مقدار ما تعتمد فى احتجاجك عليه .

– وقال : فللانبيا – عليهم الصلاة والسلام – حالتان : حالة مع الله – تعالى – لا يرون فيها غير جلاله وعظمته : وحالة مع الخلق يستغفرون ويستميذون من النار وسوء المنقلب وفتنة القبر والدجال ، ويطلبون الرحمة والثواب والجنان اهـ، ونقول قد بينا أن رؤية جلال الله مما يبعث على الخوف من المؤاخذة كما مضى عن ابراهيم ومحمد – عليهما الصلاة والسلام – فلا يتجردون عن الخوف خوف الاجلال وخوف المؤاخذة فى حالتهم مع الله وقد دل حديث عائشة الذى قدمناه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان فى سجوده فى جوف الليل والناس نيام فيما بينه وبين ربه استعاذ برضا الله من سخطه وبمعافاته من عقابه فكانوا يستعيذون ويرجون ويخافون فى حالتهم مع الله وأما حالتهم مع الناس فانهم كانوا يعملون وكانوا يخبرون عن أنفسهم بخوفهم وطمعهم كما اخبر ابراهيم – عليه السلام – بطمعه واخبر محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – اصحابه بأنه أتقاهم لله واخوفه له واخبر عن استغفاره لربه واخبارهم حق صدق لا شك فيه ولا يجوز أن يقال انهم قالوه لمجرد التعليم وهو فى الواقع لا حقيقة له اذ الاخبار عن النفس بشئ، انه كان وهو لم يكن هو الكذب الذى عصمهم الله منه ونزههم عنه ولو تفطن حضرته لهذا لما قال ما قال .

وذكر حديث الاحسان (ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) . وهذا الحديث يقتضى دوام المراقبة لله عند كل حركة وسكون حتى لا تكون من العبد مخالفة فيهما وحتى يأتى بعبادته على غاية الاتقان

فى صورها وأتم الاخلاص بها وقد علمت أن من مقتضى العبادة الشرعية الشعور بضعف وذل وفقر العبودية أمام عز وقوة وفضل الربوبية فينبعث الرجاء والخوف فى العابد وهما مما يحملانه على تمام الاحسان فى العبادة باقتنائها والاخلاص فيها . ثم من مقتضى مراقبة الله تعالى مشاهدته ، أى مشاهدة جلاله وجماله : بصفات القهر والبطش والملك والسلطان ، وجماله بصفات الفضل والرحمة والاحسان وبصدق المشاهدة لصفات الجلال يخاف العبد ويخشى وبصدق المشاهدة لصفات الجمال يرجو ويطمع فصدق الشهود لابد منه من الرجاء والخوف وإذا غاب العبد عن الشعور بالموجودات فإنه لا يغيب عن مشاهدة جلال وجمال الذات الباعثين للخوف والرجاء وإذا لم يشهدهما وزعم أنه يشهد الذات مجردا أنه لم يكن فى الحقيقة مشاهدا بل غافلا معطلا جامدا وما غيبوبة العابد عن نفسه ان كانت - فإنها حالة عارضة غير ثابتة وليست مشروعة لا بنص من آية ولا من حديث عن أن تكون فاضلة كاملة . فالحديث دال على المراقبة والمشاهدة الشرعيتين اللتين يكون فيها العبد عابدا العبادة الشرعية الموضوعة على الرجاء والخوف حسب الأدلة المتقدمة .

- ونقل كلام ابن سينا فى كتاب الاشارات وكلام شراحه وهو مثل ما تقدم لنا ابطاله بأدلة الكتاب والسنة والشرح بهما لمعنى العبادة المشروعة . واذ كنا نبحث عن العبادة التى شرعها الله لعباده على لسان رسوله فإننا لا نعرفها الا من الكتاب والسنة وقد قدمنا من أدلتهم ما جلى المسألة للعيان وأغنى فيها عن كل كلام .

وتلخص وتبين لنا مما تقدم ان العبادة المشروعة هى القصد الى الطاعة مع الشعور بضعف العبد وذله ، وحاجته وفقره ومشاهدته لجلال ربه وقدرته وعزته ، وجماله وفضله ورحمته فيكون بتلك المشاهدة خائفا من عقابه أو مؤاخذه ، راجيا لثوابه وانعامه ، وان هذه العبادة هى عبادة الكمل من عباد الله الذين وصفهم بأفضل صفاتهم فى كتابه وهى عبادة أنبيائه ورسله الذين ذكر عبادتهم القرآن وهى عبادة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - التى دلت عليها صراح الآثار وعبادة أصحابه النابتة فى النقول ،

وخلصنا من هذا الى أن العبادة المجردة عن الخوف والرجاء منافية لصدق مشاهدة الجلال والجمال مخالفة لعبادة الانبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، وانه لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة مثل واحد من الأدلة المتقدمة المثكثرة وانها ما دامت كذلك ليس لنا ان نعدّها مشروعة فضلا عن ان نعدّها كاملة فضلا عن أن ندعى انها أكمل لان مشروعية الشيء لا تثبت الا بدليل صحيح صريح . واني لنا ذلك في العبادة المجردة عن الرجاء والخوف . والله يقول الحق وهو يهdy السبيل والحمد لله رب العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 1 م 9 - غرة رمضان 1351 هـ جانفي 1933 م .

الصفة الخامسة

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا »

(سورة الفرقان - الآية : 87)

المناسبة : مضى وصفهم بانهم يبيتون لرهبهم سجدا وقياما ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتربى النفس على استصغار الدنيا وما فيها وعلى تعظيم الرب والوقوف عند حدوده فلا يعظم شيء من الدنيا عند أهل الصلاة فيمسكوا عن بذله فى الحق ولا يستهزئهم شيء منها فينتهكوا لأجله حدود الله وحرماته ، ولما كان المال هو أعز شيء فى هذه الدنيا وهو أعظم سبب لنيل مبتغياتها وصفوا بانهم فى تصرفهم فيه على أكمل حال وهى حالة العدل التى أثمرتها لهم الصلاة فلا يمسكونه عن حق ولا يبذلونه فى باطل .

المفردات : **أنفقوا :** بذلوا المال فى وجه من الوجوه . **الاسراف :** مجاوزة الحد المشروع . **الافتقار :** والتقتير النضيق . **القوام :** العدل بين الشيئين أى المعتدل ما بينهما وسمى العدل بين الشيئين قواما لاستقامة طرفيه واعتدالهما فلا الى هذا ولا الى ذاك .

التراكيب : وكان أى هو أى إنفاقهم المفهوم من أنفقوا بين ذلك خبر كان وقواما حال مؤكدة فلو قيل وكان بين ذلك لكان كافيا ولكن أكد بقواما لما فيه من صريح اللفظ المفهم للعدل ، والانفاق يكون ولا يكون والشأن ان يكون ولهذا علق وكان التعليق باذا وقدم نفى السرف على

نفى التقدير لان الاسراف شرهما ففيه مجاوزة الحدود وضياع المال وفي التقدير مفسدته مع بقاء المال فينفقه في الخير وقد يبقى لغيره فينتفع به .

المعنى : اذا انفقوا أموالهم لم يتجاوزوا الحد المشروع ولم يضيعوا فيقصروا في القدر المطلوب وكان انفاقهم بين التجاوز والتضييق عدلا مستويا لا افراط فيه ولا تفريط، وصفهم بالقصد الذي هو وسط بين الغلو والتقصير وهو الحالة بين الحالتين والحسنة بين السيئتين .

تحديد : الاسراف مذموم فهو ما كان في منهي عنه نهى تحريم أو كراهة أو في مباح قد يؤدي اليهما . فالاول كمن أولم وليمة أنفق فيها جميع ماله وأصبح بعدها هو وأهله للضيعة والحاجة ، والثاني كمن أولم وليمة دعتة الى الاستدانة وان كان يظن القدرة على الاداء لان الدين محذر ومستماذ منه ، والثالث كالاتمرار على ايلام الولائم مع القدرة عليها في الحال مما قد يؤدي الى أحد الامرين المذكورين في المال .

والتقدير مذموم أيضا فهو ما كان امساكا عن مأمور به أمر وجوب أو استحباب أو عن مباح يؤدي اليهما ، فالاول كمن يمسك عن أهله شحا حتى يذيقهم ألم الجوع والبرد . والثاني كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التي يخص بها نفسه من السوق . والثالث كمن يمسك عن تطيب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها مما قد يفسد قلب زوجته عليه أو يحملها على ما لا يرضيه .

والقوام العدل هو المدوح فهو أن ينفق في الواجب والمندوب وما يؤدي اليهما ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدي اليهما ويتسع في الحلال دون مداومة في الاوقات واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتبهات .

تطبيق : حالة وطننا في الاعم الاغلبى في الولائم والمآثم لا تخلو من السرف فيها الذي يؤدي الى التقدير من بعدها فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، واحاط به من ناحيته، والشر يجر الى الشر والاثم يهدى الى مثله، وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علق كثير ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة آمالهم في معالجتها خصوصا في المآثم بحق الله الآمال . وثم

نوع آخر موجود فى غالب القطر ويكثر فى بعض الجبال وهو أن بعض
 المأمورين من بعض شيوخ الطوائف يأتون بثلة من اتباعهم فينزلون على
 المنتمين اليهم من ضعفاء الناس فيذبح لهم العناق ان كانت ويستدين
 لشرائها ان لم تكن ويفرغ المزاد ويكنس لهم ما فى البيت ويصبح معدما
 فقيرا مدينا ويصبح من يومه صبيته يتضاغون ويمسى أهل ذلك البيت
 المسكين يطحنهم البؤس ويميتهم الشقاء ميتات متعددة فى اليوم وشر
 ما فى هذا الشر انه يرتكب باسم الدين ويحسبه الجهال أنه قربة لرب
 العالمين، فاما اذا جاء وقت شد الرحال الى الاحياء والاموات وتقديم النذور
 والزيارات فحدث هنالك عن أنواع السرف والتكلفات والتضييع للحقوق
 والواجبات .

نصيحة : فياليت الذين تأتيهم تلك الوفود يسألونهم فردا فردا عن حالهم
 ومن أين جاءهم بما جاءهم به من أموالهم فمسأهم ان يظلموا على
 يؤس أولئك المساكين فترق لهم قلوبهم ويرجعوا اليهم ما لهم أو يزيدوهم
 من عندهم وليقتصروا على من يجدونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من
 أموالهم . فهذه نصيحة اذا عملوا بها خفت من الشر والبؤس عن
 الزائرين ومن الاثم واللوم عن المزورين فهل بها من عاملين ؟ وفقنا الله
 والمسلمين (1) .

(1) الشهاب - ج 10 ، م 8 - جمادى الثانية 1351 هـ - أكتوبر 1932 م .

الصفة السادسة والسابعة والثامنة

« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ »

(سورة الفرقان من الآية : 68)

سبب النزول : ثبت في الصحيحين - واللفظ لمسلم - أن عبد الله ابن مسعود قال : قال رجل : يا رسول الله أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تدعو لله ندا وهو خلقك » ، قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزاني حيلة جارك » ، فانزل الله تصديقها : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۖ إِلَىٰ أَثَامًا »

المطابقة بين الآية وسبب نزولها : تواردت الآية والحديث فى الأسم الاول على شىء واحد . وتواردا أيضا فى الثانى والثالث . الا أن فى الحديث ذكر فرد من العام وهو شر افراده واكبرها اثما . وفى الآية ذكر العام ، ولا شك أن شر قتل النفس هو قتل الولد لما فى ذلك - زيادة على قتل النفس - من الخروج عن حنان الفطرة وارتكاب ضد ما توجبه الرعاية والكفالة وسوء الظن بالله المتكفل برزق الخليفة . كما أن الزنى بحليلة الجار هو شر افراد الزنى لما فيه زيادة على الزنى من انتهاك حرمة الجار وخيانة الامانة - فانهم ما تجاوروا حتى أمن بعضهم بعضا - وادخال الفساد على أساس التكوين الاجتماعى فى الناس وهو التجاور والتقارب .

المناسبة : لما اثبت لهم اصول الطاعات فى الآيات المتقدمة نفى عنهم امهات المعاصى فى هذه الآية تنبيها على أن الايمان الكامل هو ما تثبت معه الطاعات وتنطفى المعاصى ، وذلك هو غاية الامثال للاوامر والنواهى ،

وفيه تعريض بما كان عليه المشركون من الاتصاف بهذه المعاصي من دعائهم
التهتم مع الله وقتلهم النفس وإرتكابهم فاحشة الزنى . وقدم اثبات
الطاعات على انتفاء المعاصي تنبيها على أن من راض نفسه على الطاعة
ودانت نفسه بالأخبات والانقياد للأوامر الشرعية ضعفت منه أو زالت
دواعي الشر والفساد فانكف عن المعصية .

نكتة استطرادية : فمن هنا نعلم أن على المسلم الذى يعمل لتزكية
نفسه أن يواظب على الطاعات بأنواعها وأن يجتهد فى حصول الانس بها
والخشوع فيها فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير ، يقلع
منه أصول الشر ويميت منه بواعثه .

وجه ترتيب هذه الصفات المنفيات : قامت الشريعة على المحافظة على
حقوق الله وحقوق عباده وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به
شيئا فمن دعا مع الله غيره وأشرك به سواء فقد أبطل حق الله وأعدم
عبادته ومن قتل النفس فقد تعدى على أول حق جعله الله لعباده بفضله
وهو حق الوجود وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم،
فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير الله معه . ولما كان الزنى فيه بطلان
النسب وفساد الخلق والجسد وذلك مؤد إلى الاضمحلال والزوال والشرور
والأحوال قرن بقتل النفس فذلك قتل حقيقى وهذا قتل ممنوى .

المفردات : الدعاء : هو النداء لطلب أمر أو تنبيه عليه . الإله : هو
المعبود . حرم الله النفس : جعل لها حرمة ومنعة فلا يجوز التعدى
عليها . ومادة : ح ر م - تفيد المنع فى جميع تصاريفها . العق : هو
الثابت من مقتضيات القتل فى الشرع .

التراكيب : وصف النفس بالاسم الموصول المعروف الصلة ، لان
تحريم الله لها أمر مركوز فى النفوس معروف للبشر بما جاءهم من جميع
الشرائع وكان النفى للفعل بصفة المضارع للإشارة إلى استمرار ذلك
لنفسى .

المصنى : والذين لا يدعون ولا يعبدون مع الله الها آخر فيشركون به سواء فى عبادتهم اياه ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة ويوحدونه فى ربوبيته والوهيته ولا يقتلون النفس التى جعل الله لها حرمة وحرم قتلها بالسبب الا الحق الثابت فى دين الله المعارض لحرمتها المقتضى بالزنى بعد الاحصان أو الكفر بعد الايمان أو القتل للنفس العمد العاوان ولا يزنون فيأتون ما حرم الله عليهم اتيانه من الفروج .

مزيد بيان لتوحيد الرحمن :

من دعا غير الله فقد عبده : ما يزال الذكر الحكيم يسمى العبادة دعاء ويعبر به عنها . ذلك لانه عبادة ، فعبر عن النوع ببعض أفرادها وانما اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع لان الدعاء مخ العبادة وخلاصتها فان العابد يظهر ذله أمام عز المعبود وفقره أمام غناه وعجزه أمام قدرته وتمام تنظيمه له وخضوعه بين يديه ويعرب عن ذلك بلسانه بدعائه وندائه وطلبه منه حوائجه ، فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله ، ولهذا كان مخ عبادته ، وقد جاء التنبيه على هذا فى السنة المطهرة ، فمن النعمان ابن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (الدعاء هو العبادة) ثم قرأ : « وَقَالَ رَبُّكُمْ : اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » رواه احمد والترمذى وأبو داود رحمهم الله والنسائى وابن ماجه . وعن انس (ض) قال : قال رسول الله (ص) : (الدعاء مخ العبادة) رواه الترمذى رضى الله عنه ، فتطابق الاثر والنظر على أن الدعاء عبادة فمن دعا غير الله فقد عبده واذا كان هو لا يسمى دعاءه لغير الله عبادة فالحقيقة لا ترتفع بعد تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها والعبرة بتسمية الشرع التى عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته .

من دعا شيئاً فقد اتخذها الها : لما ثبت ان الدعاء عبادة فالداعى عابد والمدعو معبود والمعبود اله ، فمن دعا شيئاً فقد اتخذها الهه ، لانه فعل له ما لا يفعل الا للاله ، فهو وإن لم يسمه الها ، بقوله فقد سماه بفعله ، الا ترى الى اهل الكتاب لما اتبعوا أحبارهم ورهبانهم فى التحليل والتحریم

— وما لا يكونان الا من الرب الحق العالم بالمصالح — قال الله تعالى فيهم : « اَتَغْلُوا اَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ اَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » . وان كانوا لا يسمونهم اربابا فحكم عليهم بفعلهم ولم يعتبر منهم عدم التسمية لهم اربابا بالسنتهم ، فكذلك يقال فيمن دعا شيئا انه اتخذه الها ، نظرا لفعله وهو دعاؤه ، ولا عبرة لعدم تسميته له الها بلسانه . وفى حديث عدى بن حاتم الذى رواه الترمذى وغيره انه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : لما سمعته يقرأ هذه الآية أنهم لم يكونوا يعبدونهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (اليس كانوا اذا حرموا عليهم شيئا حرموه ، واذا احلوا لهم شيئا احلوه) ؟ قال : قلت : نعم — قال : (فتلك عبادتهم اياهم) . قال الامام الجصاص : ولما كان التحليل والتحريم لا يجوز الا من جهة العالم بالمصالح ثم قلد هؤلاء اُحبارهم ورهبانهم فى التحليل والتحريم وقبلوه منهم وتركوا امر الله تعالى فيما حرم وحلل صاروا متخذين لهم اربابا اذ نزلوهم فى قبول ذلك منهم منزلة الارباب ، اهـ .

وعلى وزانه نقول : لما كان الدعاء عبادة والعبادة لا تكون الا للاله ، كان الداعي لشيء من المخلوقات متخذاً اياه الها ، لما نزله يدعائه اياه منزلة الاله ، سواء دعاه وحده دون الله أو دعاه مع الله ، والعياذ بالله .

تعزيز وإرشاد : ما أكثر ما تسمع فى دعاء الناس : « يا رب والشيخ » « يا رب وناس ربي » « يا رب والناس الملاح » وهذا من دعاء غير الله مع الله ، فياك أيها المسلم ويايها ، وادع الله ربك وخالقك وحده وحده وحده ، وأنف الشرك راغم .

الوعيد ، بالعذاب الشديد

« وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) » .

(سورة الفرقان)

المناسبة : اذا امر القرآن بشيء ذكر فائدته وثمرته للعباد فى الدارين، وكذلك اذا نهى عن شيء ذكر مضرته وسوء عاقبته عليهم فيها فلما ذكر فى صدر الآية نفى تلك الماعصى عن عباد الرحمن الذى يفيد النهى عنها ذكر هذا الوعيد لبيان سوء عاقبتها وقبح اثرها .

تكتة استطرادية : هذه هى سنة القرآن فى التربية وهى انجع الطرق فى جعل المأمور والمنهى يمثل للامر والنهى من كل نفسه ويعمل لتنفيذهما بمقله وارادته فالتربية التى تبينى على امتثال الامر والنهى من غير المصوم والانقياد لهما انقيادا اعمى - مخالفة لتربية القرآن ، والخير كله فى اتباع القرآن فى جميع ما يفيد القرآن .

مفردات : اسم الاشارة راجع للثلاثة المذكورة من قبل . يلقى . يقابل ويصادف وينل . **اثاما :** عقابا جزاء على ائمه فالآثام جزاء الاثم . **يضاعف :** يزداد له على الاصل فيعذب عذابين وأنواعا من العذاب . **يخلد :** يبقى طول البقاء يسمى خلودا كما قالت العرب فى اثنافى الصخور خوالد لطول بقائها بعد دروس الاطلال لا لدوام بقائها اذ لا دوام لها وعلى هذا قول المخيل السعدى :

الا رمادا هامدا دفعت عنه الرياح خوالد سحم

المهان : الدليل المحتقر الذى يفعل به ما يذله ويعقره .

التراكيب : يضاعف بدل من يلقى بدل كل من كل قال الخليل لان مضاعفة العذاب هى لقى الآثام وعندى انه بدل بعض من كل لان لقى العذاب جزاء على تلك الآثام يكون فى الدنيا والآخرة ومضاعفة العذاب والخلود فيه تكون فى الآخرة وبهذا تكون الآية قد افادت ان المرتكب لما تقدم من الماعصى : الشرك وقتل النفس والزنى ينال جزاءه دنيا وأخرى وعذاب الآخرة المضاعف المستمر اشد وأبقى وهذا هو الجارى على سنة القرآن فى التخويف بسوء عاقبة المصيبة عاجلا وأجلا والتنبيه على ان الآجل اشد وأفدح من العاجل .

المعسنى : ومن يأت هذه الافعال فدعا مع الله الها آخر أو قتل النفس
التي حرم الله بغير حق أو زنى فانه يلقي وينال جزاء معصيته فى دنياه
وجزاءها فى أخراه ويكون عذابه عليها فى الآخرة مضاعفا مزيذا عليه
أنواع ويستمر فيه باقيا مذلا محقرا .

توجيه : انما ضعف لاهل هذه الكبائر العذاب لان كل كبيرة منها
مضاعفة المفايد والشرور ففى دعاء غير الله الجهل بالله والكفر بنعمة
الله والابطال لحق الله وفى قتل النفس تاييم وتيتيم وتاليم لغير من قتل
وفتح لباب شر بين أولياء القاتل والمقتول وتعد على جميع النوع وتهوين
لهذا الجرم الكبير وفى الزنى جناية على النسل المقطوع وعلى من ادخل
عليهم من الزنى من ليس منهم وعلى اصحاب الارث فى خروج حقهم لغيرهم
وغير ما ذكرنا فى جميعها كثير فكانت المضاعفة من باب جعل الجزاء من
جنس العمل وهو من مقتضى الحكمة والعدل .

تذكير : يذكروا القرآن بمضاعفة العذاب على كبائر الآثام لنذكر
عندما تحدثنا أنفسنا بالمعصية سوء عاقبتها وتعدد شرورها وتشعب
مفاسدها ومضاعفة العذاب بحسب ذلك عليها لتزدجر ونتكف فنسلم من
الشر المتراكم والعذاب المضاعف ونفوز بأجر التذكر وثمرة التذكير .
جعلنا الله والمسلمين ممن انتفع بالذكرى وسلم من فتن الدنيا
والأخرى بمنه وكرمه آمين (1) .

استثناء التائبين من المذنبين

« إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »

(سورة الفرقان - الآية : 70)

سبب النزول : أخرج الشيخان عن ابن عباس (رضى الله عنهما) واللفظ لمسلم قال ابن عباس نزلت هذه الآية بمكة « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِلَىٰ مُهَانًا » فقال المشركون وما يغنى عنا الاسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنا النفس التى حرم الله وأتيننا الفواحش فانزل الله عز وجل « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » الى آخر الآية .

المناسبة : لما ذكر تعالى عظام الذنوب وأكبر كبائرهما وتوعد بالوعيد الشديد عليها عقبها بذكر التوبة منها ورغب فيها لينبه عباده على طريق الرجوع اليه وان من تاب منهم الى الله تاب الله عليه .

المفردات : التوبة : الرجوع الى الله أى الرجوع من معصية الله الى طاعته وذلك بالندم على ما فات والعزم على عدم العود اليه وهذان من عمل القلب ، وبالإقلاع عما هو متلبس به وهذا من عمل الجوارح .
الايمان : عند ما يذكر مع الاعمال يراد به تصديق القلب ويقينه واطمئنانه بمقتاد الحق ، والعمل الصالح : هو العمل الطيب المشروع من طاعة الله على العباد سواء كان من عمل الباطن وهو عمل القلب أو من عمل الظاهر وهو عمل الجوارح والعمل الصالح من ثمرات الايمان الدال وجودها على وجوده وكمالها على كماله ونقصها على نقصه وعدوها على اضطرابه ووشك انحلاله واضمحلاله .
التبديل : التحويل فتجعل الحسنه مكان

السينة • الغفور : الستار للذنوب المتجاوز عنها • الرحيم : المنعم الدائم
الانعام •

التراكم : الا من تاب استثناء من يفعل استثناء متصلا لان الذي
يتوب من جملة من فعل والفاء في فاولئك تفريعية لتفرع التبديل على
التوبة وعاطفة لجملة اولئك على جملة استثنى التي قامت مقامها الا • كما
عطف عليها الجملة الاخيرة جملة وكان • ونظير هذا من يقيم منكم فله
درهم الا زيدا فله درهمان •

المعنى : يستثنى من ذلك الوعيد الشديد بمضاعفة العذاب والخلود
فيه مهانا من رجع الى الله من الشرك وقتل النفس والزنى بالتوبة الصادقة
وشفع توبته بالعمل الصالح الدال على صدق تلك التوبة فهؤلاء بتوبتهم
وعملهم الصالح يقبلهم الله ويجعل مكان سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا
يتجاوز عن ذنوب عباده فقد تجاوز عما كان منهم من شرك أو قتل أو زنا
رحيما منما على عباده فقد انعم عليهم بالحسنات مكان ما تقدم من سيئاتهم •
توقيب وتوجيه : يكون العاصي في غمرات معصيته فاذا ذكر الله
ووقفه الله أسف على حاله ورجع الى ربه وهذه اول الدرجات في توبته
فاذا استشعر قلبه اليقين واطمان قلبه بذكر الله صمم على الاعراض عن
المعصية والاقبال على الطاعة فاذا كان صادقا في هذا العزم فلا بد ان يظهر اثر
ذلك على عمله فلهذا روعيت الحالة الاولى فذكرت التوبة والثانية فذكر
الايمان والثالثة فذكر عمل صالح •

تايد واقتداء : روى الائمة عن كعب بن مالك (رض) احد الثلاثة الذين
خلفوا انه لما جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما تاب
الله عليه قال : يا رسول الله ان من توبتي ان انخلع من مالى الى الله ،
والى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال رسول الله (ص) :
امسك بمض مالك فهو خير لك قال فقلت : فاننى امسك سهمى الذى
بخير • فهذا الصحابي الجليل رأى ان من توبته ان يعمل هذا العمل

الصالح ليكون دليلا على صدق توبته كما اقتضته الآية فتايد بفهمه
ما قدمنا وكان خير قدوة للتائبين .

وجسوه التبديل : لما كانت السيئة لا تنقلب حسنة كان معنى
التبديل هو جعل الحسنه مكان السيئة وهذا على وجوه أولها محو السيئات
الماضية بالتوبة وكتابة حسنة التوبة وما فيها من عمل باطن وظاهر كما
تقدم . وثانيها تركه المصيبة واتباعه بالعمل الصالح فصار يعمل الصالحات
بعد ما كان يعمل السيئات وثالثها أن نفسه كانت بالمصيبة مظلمة شريفة
فتصير بالتوبة والعمل الصالح منيرة خيرة . فالتبديل في الكتب والعمل
وحالة النفس .

مسالتان اصوليتان :

الأولى : هل يخرج غير التائب من النار ؟ استثنى الله التائب من
مضاعفة العذاب والخلود فيه مهانا فبقى غير التائب للخلود ، والخلود
كما قدمنا في الآية السابقة طول البقاء ولا يقتضى التأييد فقد يكون معه
التأييد وقد لا يكون ، فمع التأييد لا خروج ومع عدمه الخروج وغير
التائب الذى بقى للخلود المطلق فى الآية هو المشرك والقاتل والزانى ،
فاما المشرك فلا خروج له من النار لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْفِزُ أَنْ يُشْرَكَ
بِهِ » . واما القاتل والزانى اذا كانا من اهل الإيمان فانهما يخرجان بعد
شديد العذاب بما معهما من الايمان لأحاديث صحيحة منها ما رواه الشيخان
البخارى ومسلم على أنس (ض) : (يخرج من النار من قال لا اله الا الله
وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا اله
الا الله وكان فى قلبه من الخير ذرة) ، وهذا من عدل الله ورحمته فانه
اذا قهر من العذاب الشديد والهوان المخزى جزاءهم ، ثم اخرجهم من النار
وما اضع عليهم ايمانهم ، ان الله بالناس لرؤف رحيم .

الثانية : هل لقاتل النفس ظلما وعدوانا من توبة ؟ ذهب ابن عباس
فى المشهور عنه الذى رواه الشيخان وغيرهما انه لا توبة له وقال فى هذه

الآية أنها نزلت في المشركين وذكر سبب نزولها كما تقدم وقال - اثره
 فاما من دخل في الاسلام وعمله ثم قتل فلا توبة له وقال في هذه الآية
 انها آية مكية نسختها آية مدنية وهي آية الفرقان : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
 مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا
 عَظِيمًا » . و مراده بالنسخ التخصيص يعنى ان لفظة مَنْ في « إِلَّا مَنْ تَابَ »
 عامة تشمل القاتل فتقتضى بعمومها ان له توبة ، وان آية الفرقان التي
 جاءت في القاتل خصصتها واخرجته من عمومها ، قال ابن رشد - بنقل
 الابى - الى هذا ذهب مالك لانه قال : (لا يؤم القاتل وان تاب » قال
 ابن رشد : وهذا لأن القتل فيه حق لله وحق للمقتول، وشرط التوبة
 من مظالم العباد رد التبعات او التحلل وهذا لا سبيل للقاتل اليه الا بان
 يعفو عنه المقتول قبل القتل اهـ .

وذهب جمهور السلف وأهل السنة الى أن للقاتل توبة ونظروا في
 هذه الآية الى عموم لفظها لا الى خصوص سبب نزولها وجعلوا عموم
 « وَمَنْ يَقْتُلْ » في آية الفرقان مخصصا بمن تاب المستثنى في هذه الآية
 فابن عباس خصص من تاب بمن يقتل وهم عكسوا فخصصوا من يقتل
 بمن تاب ويرجع تخصيصهم العمومات الدالة على قبول التوبة من كل مذهب
 مثل قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِ
 اللَّهُ غُفُورًا وَحِيمًا » . وقوله : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو
 عَنِ الْكَسَبَاتِ » . وقوله : « قَابِلِ التَّوْبِ » . وحديث الثائب من الذنب كمن
 لا ذنب له في عمومات كثيرة . والظاهر اذا كثرت تفيد القطع .

قلوة في الفتوى : قال ابن رشد : كان ابن شهاب اذا سئل يستفهم
 السائل ويطاوله فان ظهر له انه لم يقتل يفتيه بأنه لا توبة له وان تعرف
 بأنه قتل افتاه بان التوبة تصح . قال ابن رشد وانه لحسن من الفتوى .
 فهكذا ينبغي مراعاة الاحوال . في تنزيل الاقوال فان من لم يقتل يجب
 التشديد عليه وسد الباب في وجهه ومن قتل ينبغي ترغيبه في الرجوع

الى الله . وفى مراعاة هذا الاصل والافتداء بهذا الامام فوائد كثيرة فى الحث على الخير والكف عن الشر والحكيم من ينزل الاشياء فى منازلها كانت اعمالا او كانت اقوالا .

ترهيب : ما اعظم هذا الذنب وما اكبره ، ونموذ بالله من ذنب اختلف ائمة السلف فى قبول توبة مرتكبه وقد اجمعوا على قبول توبة الكافر ، ولعظم شأن الدماء كانت اول ما يقضى فيه يوم القيامة بين الخلق . فاياك ايها الاخ ان تلقى الله تعالى بمشاركة فى سفك قطرة من دم ظلما ولو بكلمة فان الامر صعب والموقف خطير .

بشارة التائبين الى رب العالمين

« وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا »

(سورة الفرقان - الآية : 71)

المناسبة : لما افادت الآية السابقة ان التوبة تمحو السيئات جاءت هذه الآية اثرها تبين ما لاهلها من جزيل الانعامات وعظيم الدرجات .

المفردات : التاب : مصدر كالمرجع .

التراكيب : خالف جواب الشرط وهو يتوب فعل الشرط وهو تاب بمتعلقه وهو الى الله ومعموله وهو متابا ، وعبر بالمضارع فى الجواب ليفيد التجدد باعتبار تجدد المشويات للراجعين الى الله ، ونون متابا تنوين تقخير وتعظيم .

المعنى : ومن تاب التوبة الصادقة وعمل عملا صالحا دليلا على صدق توبته فانه يرجع الى الله الذى يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحسن لقاءهم ويجزل ثوابهم - رجوعا واى رجوع رجوع العز والتكريم الى العليم الكريم .

توغييب : دعا الله بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنوط الى قلوبهم وهو محرم عليهم ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وان عظم ، ورغبهم في التوبة بانها رجوع اليه وكفى وان الرجوع اليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الالفاظ ، فما أحلمه من رب كريم وما ارحمه بعباده المذنبين ، فهذا داعي الله فأجيبوه وهذا باب الله فليجوه فانكم مهما رجعتم اليه لا تطردوا ومهما قصدتم اليه تقبلوا وتكرموا ، اللهم فكما فتحت لنا بابك فوقنا اليه وتب علينا لنتوب انك انت التواب الرحيم (1) .

(1) الشهاب - ج 12 ، م 8 - شعبان 1351 هـ - ديسمبر 1932 م .

الصفة التاسعة

« وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ » .

(سورة الفرقان - الآية 72)

المناسبة : لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة كلها على كمال اخلاقهم واستقامة اعمالهم في ظواهرهم وبواطنهم ، بانبنائها على قوة ايمانهم وصحة علمهم ، فكانوا أهل الحق المتصفين به في علمهم وعملهم ، القائمين عليه في جميع أحوالهم - وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ومشاهده ومجانبتهم لاهله .

المفردات : الشهود : هو الحضور الذي يكون فيه ادراك بالحواس أو بالبصيرة . والشهادة هي الاخبار عن علم حصل عن شهود .

و « لا يشهدون » يحتتمل أن يكون من الشهود وان يكون من الشهادة .

والزور : اصله الميل ويطلق على الكذب لا لانه ميل عن الحقيقة وعلى كل باطل من الاقوال والاعمال لانه ميل عن الحق .

التركييب : اذا كان لا يشهدون بمعنى لا يحضرون فالزور مفعول به واذا كان بمعنى لا يخبرون فالزور مفعول مطلق بعد حذف المضاف ، والاصل ولا يشهدون شهادة الزور .

المعنى : - على الاحتمال الاول - والذين لا يحضرون مشهادة الباطل والاثم من كل مجلس تتمدى فيه الحدود أو تنتهك فيه الحرمات أو يحكم فيه بالجور أو تعظم فيه الطواغيت أو يدمى فيه بدعوى الجاهلية أو تحيا فيه

معالن الوثنية وتطمس فيه السنة النبوية او يدعى فيه احد مع الله او يضرع الى سواه • وعلى الاحتمال الثانى - والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون الا بالحق الواقع •

ترجيع وترجيع : يلزم من انهم لا يشهدون مشاهدة الباطل انهم لا يشهدون بالزور لوجهين : الاول لأنهم اذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل فبالاخرى انهم لا يقولونه • والثانى ان يشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التى لا يحضرونها فيكون الوجه الاول أولى لانه اشمل •

توسع فى البيان : على انه من بلاغة القرآن ان تأتى مثل هذه الآيات بوجه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات نظير مجىء الآية بقراءتين : فتكون كآيتين مثل قوله تعالى : « **إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا - فْتَبَتُوا** » وقوله تعالى فى آية الوضوء : « **وَأَرْجُلَكُمْ** » بالنصب عطفًا على الوجه فيفيد غسل الأرجل وتلك هى الحالة الأصلية العامة • وبالخفض عطفًا على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هى حالة الرخصة عند لبس الخفاف • فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل وعن شهادته •

موعظة : قال جار الله فى الكشف عن هؤلاء الموصوفين من عباد الرحمن : انهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقرّبونها تنزهًا عن مخالطة - الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه لان مشاهدة الباطل شركة فيه ولذلك قيل فى النظارة الى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه فى الاثم لان حضورهم دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه لان الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر اليه ، اه •

وهذا كما قال فان حضور مشاهد الباطل اقرار لاهلها عليها وترك للنهى عن المنكر ، وقد قال الله تعالى : « **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ، **كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ** ، وقال تعالى : « **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي**

آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، فتم الآية كل ظالم فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم ولا يكفى أن ينكر ويجلس لانه يكون ببقائه معهم قد اظهر ما يدل على الرضا بفعلهم ونقض بالفعل انكاره عليهم بالقول . وروى الطبراني والبيهقي باسناد حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم : (لا يقفن احدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه ولا يقفن احدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه) فاخبر ان اللعنة تنزل على العاضرين لعدم دفعهم ، واقتضى انهم غير راضين بقلوبهم واحرى اذا رضوا فلا يجوز من هذا الحديث وغيره حضور الظلم والقبائح مع عدم دفعها ولو مع عدم الرضا بها . وروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه - لما وصلوا الحجر ديار ثمود - (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا ان تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما اصابهم) فاذا كان هذا فيمن ماتوا من أهل العذاب فمثلهم مجالس أهل السوء والفساد ، فاذا نزلت اللعنة والعذاب عمتهم ومن كان معهم . وشهادة الزور المرادة بالنص على الوجه الثانى أو اللزوم على الوجه الاول من اكبر الذنوب اثما وشر الكبائر مفسدة تنقلب بها الحقائق وتضيع بها الحقوق وتبطل المعاملات وتزول الثقة بين الناس وتعرض النفوس والاموال والاعراض للاذى والشر وتنعدم طمأنينة الناس على ما يعملون من أنفسهم ، وصح عنه عليه وآله الصلاة والسلام انه قال : (الا انبئكم باكبر الكبائر الا انبئكم باكبر الكبائر ، الا انبئكم باكبر الكبائر ، الا انبئكم بالله وعقوق الوالدين الا وشهادة الزور وقول الزور وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا (شفقة عليه) ليته سكت) فجلس لها وبقي يكررها لعظم شرها وكبر مقسدها وعظم الاثم فيها على حسب ذلك منها . اعاذنا الله والمسلمين منها ومن كل زور وذى زور .

الصفة العاشرة

« وَإِذَا مَرَّوَا بِاللُّغْوِ مَرَّوَا كِرَامًا » .

(سورة الفرقان - الآية : 72)

المناسبة : نفى عنهم فيما تقدم حضور مشاهد الزور واخبار هنا انهم لا يقفون عند اللغو عندما يمرون عليه ترقيا في وصفهم بالبعد عن الباطل والاثم والعبث ومجانبة اهله .

المفردات : اللغو : مصدر لنا يلغو اى قال باطلا فهو القول الباطل ومثله الفعل الباطل من كل ما لا فائدة فيه ولا نتيجة له مما شأنه ان يلغى ويطرح ، والكريم : الخالص العنصر فهو الزكى غير المتدنس ومن مقتضى ذلك حسن اخلاقه واستقامة أعماله وسلامته من الرذائل .

التراكيب : كراما حال من فاعل مروا الثانى ليبين وصفهم عند المرور .
المعنى : واذا مروا فى طريقهم بقول يقال او فعل يفعل مما لا فائدة فيه جاوزه معرضين عنه ازكيا غير متدنسين بشئ منه ولا ملتفتين لاهله .
موعظة : فى الاقبال على اللغو شغل للبال به وتكدير للخاطر بظلمته وتضييع للوقت فيه ولكل كلمة تسمها او فعلة تشهدها اثر فى حياتك وان قل وقد يعقبها ضدها فتزول بعد ما شغلت وعطلت وقد يردفها مثلها فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين ، وبقدر ما تلتفت الى اللغو تلتفت عن كرمك وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من زكائك وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه واذا دخلت فيه واستأنست بأهله جرك الى الزور وعظائم الامور ، وللشر اسباب متواصلة وانساب متصلة يؤدى بعضها الى بعض فينتقل الممرور الغافل من خنيها الى جليها ومن صغيرها الى كبيرها ، فالحازم من لم يسامح نفسه فى قليلها ويباعد كل البعد عنها وعن اهله . ولقد هدتنا الآيات هذه لنهتدى ، وذكرنا عباد الرحمن لنقتدى ، والله المستعان . ولا توفيق الا به (1) .

(1) الشهاب : ج 2 م 9 - شوال 1351 هـ ، فيفري 1933 م

الصفة الحادية عشرة

« وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُنْيَانًا » .

(سورة الفرقان - الآية 73)

المناسبة : لما وصفهم فيما تقدم باعراضهم عن الباطل ومجانبتهم لاهله وبعدهم عنه ، وصفهم هنا باقبالهم على الحق واكبابهم عليه متفهمين مستبصرين .

الالفاظ : ذكروا : وعظوا ونبهوا بآيات ربهم : هى آيات القرآن . وفيها التذكير بآيات الاكوان التى ترى بالعيان . **الخرو** : هو السقوط كسقوط الساجد . **الاصم** : فاقد حاسة السمع أو الذى لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به وهو المراد هنا .

والاعمى : فاقد حاسة البصر أى الذى لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به، ويكون الاعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبى وهو عمى البصيرة ، وما هنا يحتمل الوجهين الاخيرين .

التراكيب : عبر باذا لان التذكير ما هو واقع محقق كالذى يسمع من القرآن فى الصلاة من الخطب فى الجمع . وبنى الفعل للنائب لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أى مذكر كان . وصما وعيانا حال من الواو ضمير الجماعة فى لم يخروا ، والنفى منصب على الحال التى هى قيد فى الكلام ، واذا كان الكلام مقيدا بقيد كما هنا فان النفى ينتصب على ذلك القيد فى غالب الاستعمال العربى ، ونفسيره ما رأيت زيدا راكبا ، نفيا للركوب لا للرؤية ، ولا يلقانى مسلما ، نفيا

للسلام لا للقاء ، فلم ينف عنهم الخورر وانما نفى عنهم الصم والعمى عند الخورر .

المعنى : ومن صفات عباد الرحمن أنهم اذا ذكرهم مذكر بآيات ربهم التى انزلها على نبيهم (ص) بما فيها من ذكر مخلوقاته وانعاماته وايمانه فى اولياته واعدائه ووعدده ووعيده وترغيبه وترهيبه - أقبلوا عليها واكبوا على سماعها بأذان واعية ، وأبصار راعية ، وقلوب حاضرة ، وعقول متدبرة ، لا كمن يقبلون عليها ويكبسون على سماعها ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون لانهم لا يملكون ولا يتدبرون .

عموم الحاجة للتذكير : بعد ما ذكر تعالى من صفات عباد الرحمن ما ذكر ، ذكر استماعهم للتذكير تنبيها على أن التذكير محتاج اليه فى كل حال فاذا كان الموصوفون بتلك الصفات يحتاجون اليه فغيرهم أولى ، وذلك لان الغفلة من طبع الانسان ودوام الغفلة صدا القلوب وصقالها هو التذكير .

قبول التذكير من كل مذكر : كما تقبل كلمة الحق من كل قائل يقبل التذكير من كل مذكر ولو كان المذكر من كمل العباد والمذكر من أوساطهم أو أدناهم ، وفى عباد الرحمن المذكورين فى استماعهم اذا ذكروا من أى مذكر ، القدوة الحسنة .

ما يكون به التذكير : قال الله تعالى : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ « وَمَا آتَاكُمْ أَرْسُولٌ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فالتذكير بآيات القرآن والاحاديث النبوية هذا هو التذكير المشروع المتبوع والدوام الناجع المجرب ، ولذلك تجد مواعظ السلف كلها مبنية عليه راجعة اليه ، والنصح لله ولرسوله وللمسلمين فى لزوم ذلك والسير عليه .

اقسام الناس عند التذكير : الناس عند تلاوة القرآن على قسمين : معرضين مقبلين فالمرضون غير مؤمنين ، والمقبلون على قسمين : مقبلين بظاهرهم دون باطنهم ومقبلين بظاهرهم وباطنهم ، فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون ، والمقبلون بظاهرهم وباطنهم

على قسمين مستمعين مستبصرين حاضرين متدبرين ، وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين . والاقسام كلها مذمومة الا قسم المقبلين بطواهرهم وبواطنهم المستمعين المستبصرين ، وهذا القسم هو الذى وصف به عباد الرحمن ، فكانوا مباينين لاهل الاعراض من الكافرين والمنافقين ، ولاهل الغفلة وعدم التدبر من المؤمنين .

تحذير وتنبيه : قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذى ينكب عليه ويتلقاه بالقبول ثم لا يتفهمه ولا يتدبره بحالة الاصم الاعمى فى عسدم انتفاعه بما انكب عليه تقبيحا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات وتحذيرا منه وتنبيها على أن الانتفاع بالقرآن الذى تتفتح به البصائر وتتسع به المدارك وتهذب به الاخلاق وتزكى به النفوس وتتقوم به الاعمال وتستقيم به الاحوال . انما يكون بتفهمه وتدبره دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر .

أمر وإرشاد : الآيات الدالة على طلب التدبر والتفهم لآيات القرآن العظيم كثيرة منها هذه الآية ومنها قوله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » ، فعلينا أن نحضر قلوبنا عند سماعها ونستعمل عقولنا فى فهمها ونحمل انفسنا على الاتعاظ بها ، فاذا صدقت النية وأخلص التوجه فتح على العبد من وجوه العلم والعمل – باذن الله – بما لم يكن له فى بال . وان الله وصف هذا الكتاب بأنه مبارك لزيادة خيراته وتيسيره للذاكرين – ترغيبا لنا فى فهمه وتدبره واستئزال الخيرات واستزادة البركات منه – فاقبل – يا أخى – على القرآن على استماعه وعلى تفهمه ، والزم ذلك حتى يصير عادة لك ومملكة فيك – تر من فضل الله واقباله عليك ما يدنيك – ان شاء الله – ويعليك ويعود بالخير الجزيل عليك . والله نسأل لنا ولكم الاقبال على الله بتلاوة وتدبر كتابه ، والتأدب بجميع آدابه ، حتى نحسر فى زمرة أحبابه ، بمنه وكرمه آمين (1) .

(1) الشَّهَاب : ج 3 م 9 – ذى القعدة 1351 هـ ، مارس 1933 م .

الصفة الثانية عشرة

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » .

(سورة الفرقان - الآية : 74)

المناسبة : لما وصفهم فى الآيات المتقدمة بما دل على أنهم أهل خير وكمال فى أنفسهم وصفهم فى هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم أزواجهم وذريتهم ومن سواهم ، وقدم الأزواج على الذرية لانهم الصق ولأنهم الأصل .

فقه هذه المناسبة : فطر الانسان على محبته لنفسه لتحمله هذه الفطرة على المحافظة عليها والدفاع عنها وتكملها بكل وجوه الكمال ، وكان من مقتضى هذه المحبة رغبته فى الوجود والبقاء ، ومما هو قوة فى وجوده ومظهر لبقائه أن يرى الناس على فكره وصفاته وأحواله فى نفسه مثلة فى غيره وأفكاره وصفاته وأحواله باقية ببقاء الناس ، فالخير الكامل من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يجب انتشار الخير والكمال فى الناس ، والشريد الناقص من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يجب انتشار الشر والنقص فيهم ، فلذا كان لازما لتتميم وصف عباد الرحمن ذكر محبتهم الخير والكمال لغيرهم .

ميزان هذه المناسبة : قد تنفى عليك دخيلة نفس الانسان فيمكنك أن تعرفها بما يجرى به لسانه فإذا جرت كلماته بمحبة انتشار الخير

والكمال فهو من أهلها وإذا جرت بالضد فهو على الضد . فما يحب الانسان انتشاره هو الدليل على صفات نفسه وهو ميزان تزنه به في الشر والخير والنقص والكمال .

المفردات : الهبة : العطاء من غير عوض ولا تكون على الحقيقة التامة
الا من الله فهو الغنى الوهاب ، من : ابتدائية فمن ناحية الأزواج والذرية تكون قررة الأعين . الأزواج : جمع زوج وهو يصدق على الرجل والمرأة والنساء شقائق الرجال . وهذا الدعاء كما يكون من المؤمنين يكون من المؤمنات كما تصدق الآيات المتقدمة على الموصوفين من الصنفين بتلك الصفات . الذرية : ما تناسل منهم من ابنائهم وبناتهم وقرنت بالافراد لاتحادها في أصل النسل وبالجمع لاختلافها في الفروع والانساب .
قرة الأعين : بردها أن كانت من القر وهو البرد . وسكونها أن كانت من القرور بمعنى الاستقرار الامام هو المتبع المقتدى به وافرد لان المراد به الجنس وحسن الافراد من جهة اللفظ لوقوعه فاصلة على وزان ما قبلها وما بعدها ومن جهة المعنى أن أئمة الهدى كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم بالسير على الصراط المستقيم واتحاد وجهتهم بالقصد الى الله تعالى وحده .
التراكيب : قررة أعين تركيب كثنائي فاذا كانت القررة من القر فهو كناية عن السرور لان العين في حالة السرور باردة واذا سالت منها دموع في حالة الفرح كانت باردة واذا كان الانسان في حالة حزن فالعين تكون سخنة بسبب ثورة النفس وآلامها التي تنبئ الحرارة فاذا سالت منها دموع الحزن كانت سخنة ، ومما يقال على هذا أقر الله عين المحق واسخن عين المبطل وجاء عليه قول أبي تمام :

فاما عيون العاشقين فاسخنن وأما عيون الشامتين فقرت

فقررة أعينهم على هذا كناية عن سرورهم بأزواجهم وذريتهم بما يرونهم عليه من الخير والكمال واعانتهم لهم عليهما ، ولذا كانت القررة من القرور فهي كناية عن سكون النفس بحصولها على ما يرضيها من الأزواج والذرية . ومعنى هذا أن النفس اذا لم تحصل على ما يرضيها من الأزواج والذرية

تعلقت بما عند غيرها وتشوفت اليه فتمتد اليه العين ويطمح اليه البصر
 واذا حصلت على ما يرضيها زالت عن ذلك التعلق وانكفت عن التشوف
 فسكنت العين فلم تمتد الى غير ما عندها ولم يطمح البصر اليه . ولهذا
 كما كان قرور العين كناية عن رضى النفس وسكونها كان امتداد العين
 كناية عن اضطراب النفس وتشوفها وتعلقها وعليه قوله تعالى : « وَلَا تَمَلُنَّ
 هَيْنَكُمْ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ
 رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » . فقرة اعينهم على هذا كناية عن رضى أنفسهم بما يكون
 لهم من أزواج وذرية موصوفين بالصفات المرضية من طاعة الله فى القيام
 بوظائف الدين والدنيا واعانتهم لهم على القيام بها .

المعنى : ومن صفات عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم يسألونه أن
 يهب لهم أزواجا وذرية تقر بهم اعينهم بأن يكونوا موصوفين بمثل صفاتهم
 سائرين على منهاجهم معينين لهم على ما هم عليه ويسألونه أن يكونوا على
 أكمل حال فى العلم والعمل والاستقامة يقتدى بهم فيها المتقون .

الاحكام :

الاول : التزوج وطلب النسل هو السنة سنة النبى صلى الله
 عليه وآله وسلم وسنة أصحابه عليهم الرضوان وسنة عباد الرحمن وليس
 من شريعته الحنيفية السمحة الرهبانية والتبتل ، وقد رأى قوم من الزهاد
 رجحان الانقطاع الى العبادة على الزوج والاشتغال بالسعى على الزوج
 والذرية فرد عليهم أئمة الدين والفتوى بأن فى التزوج اتباعا للسنة وفى
 السعى على الاهل ما هو من أعظم العبادة وفى التزوج تكثير سواد الامة
 والمدافعين عن الملة والقائمين بمصالح الدين والدنيا ، وفى هذا ما فيه من
 الاجر والثوبة ، وفى التبتل مخالفة السنة وانقطاع النسل وضعف الامة
 وتعطيل المصالح وخراب العمران وكفى بهذا كله شرا وفسادا .

الثانى : سؤال العبد من ربه أن يهب له من الزوج والذرية ما تقر
 به عينه يقتضى سعيه بقدر استطاعته لتحصيل ذلك فيهما ليقوم بالسببين
 المشروعين من السعى والدعاء فعليه أن يختار ويجتهد عندما يريد التزوج

وأن يقصد الى ذات الدين وفي اختياره واجتهاده في جانب الزوجة سمي في اختيار الولد فان الزوجة الصالحة شأنها أن تربي أولادها على الخير والصلاح ثم عليه أن يقوم بتعليم زوجه وأولاده وتهذيبهم وارشادهم فيكون قد قام بما عليه في الابتداء والاستمرار مع دوام التضرع الى الله تعالى والابتغال .

الثالث : ما تقر به الاعين يحصل به الفرح والسرور فالفرح والسرور بما هو خير وطاعة من حيث إنه نعمة من الله وفضل محمود ومشروع .

الرابع : طلب الرتب العليا في الخير والكمال والسبق اليها والتقدم فيها مما يدعونا اليه الله ويرغبنا، يمثل هذه الآية فيه كما قال تعالى : « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » ، لأن طلب الكمال كمال ولأن من كانت غايته الرتب العليا ان لم يصل الى أعلاها لم ينحط عن أدناها وان لم يساو أهلها لم يبعد عنهم ، ومن لم يطلب الكمال بقى في النقص ومن لم تكن له غاية سامية قصر في السعى وتوانى في العمل ، فالؤمن يطلب أسى الغايات حتى اذا لم يصل لم يبعد وحتى يكون في مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية .

الخامس : من الدين الاقتداء بأهل العلم والعمل والاستقامة في الهدى والسنة .

السادس : لا يكون الامام الا تقياً فاق غيره في التقوى .

السابع : ان اقتداء المتقين بأئمتهم انما هو في التقوى لانهم ما كانوا ائمة الا بها . فالآية أفادت أن المتقين يقتدون بأئمتهم وأن أئمتهم متقون مثلهم وأكمل منهم في التقوى وأن اقتداءهم بهم في التقوى لا في غيرها فمن حاد عنها فلا امامة له .

تمييز : الخير الكامل المقدم في الخير والكمال المقتدى به فيهما اذا طلب الامامة من حيث الخير والكمال نفسيهما ومن حيث حمل الناس عليهما بالقدوة الصالحة له فيهما لان فعل الخير والاتصاف بالكمال دعوة اليهما بالعمل وهي ابلغ من الدعوة بالقول ومن حيث انتشارهما في

الناس وسعادة الناس بهما . اذا طلب الامامة من هذه الحثيات فطلبه مشروع محمود وهو طلب عباد الرحمن المذكور في الآية ، واذا طلب الإمامة والتقدم لأجل التراس والتقدم فهذا الطلب مذموم من عمل المتكبرين لا من عمل المتقين ، فعلى الداعي أن يميز هذا التمييز ليخلص القصد في دعائه ويكون على صواب فيه .

كلمة عظيمة من إمام عظيم : قال مجاهد التابعي الجليل الثقة الثبت المفسر الكبير : (أئمة يقتدى بمن قبلنا ويقتدى بنا من بعدنا) . ذكره البخاري ورواه ابن جرير بسند صحيح . يعنى ان الذين يقتدى بهم الناس من بعدهم هم الذين كانوا يقتدون بسلفهم الصالح من قبلهم ، فالذين أحدثوا فى الدين ما لم يعرفه السلف الصالح لم يقتدوا بمن قبلهم فليسوا أهلا لان يقتدى بهم من بعدهم ، فكل من اخترع وابتدع فى الدين ما لم يعرفه السلف الصالح فهو ساقط عن رتبة الامامة فيه .

سلوك واقتداء : كان الاعرابى الجاهل المشرك يأتى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيؤمن به ويصحبه ، يتعلم منه الدين ويأخذ عنه الهدى فيستنير عقله بقائد الحق وتزكى نفسه بصفات الفضل وتستقيم أعماله على طريق الهدى فيرجع الى قومه هاديا مهديا اماما يقتدى به ويؤخذ عنه كما اقتدى هو بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ عنه . فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك فيحضر مجالس العلم التى تذكره بآيات الله وأحاديث رسوله ما يصحح عقيدته ويزكى نفسه ويقوم عمله ويطبق ما يسمعه على نفسه وليجاهد فى تنفيذه على ظاهره وباطنه وليداوم على هذا حتى يبلغ الى ما قدر له من كمال فيه فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره فى حاله وسلوكه ، وطلبة العلم الذين وهبوا نفوسهم لله وقصروا أعمارهم على طلب العلم لدعوة الخلق الى الله هم المطالبون على الاخص بهذا السلوك ليصلوا الى امامة الحق وهداية الخلق . على اكمل حالة واقرب طريق . فאלلهم وفقنا واهدنا الى سنة نبينا اذا اقتدينا واذا اقتدى بنا آمين يا رب العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 6 م 9 - محرم 1352 هـ ، ماى 1933 م .

جزاء عباد الرحمن

« أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) ، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » (76) .
(سورة الفرقان)

المناسبة وفقها : لما ذكر في الآيات المتقدمة صفاتهم وأعمالهم ذكر ما أعد لهم من عظيم الجزاء على تلك الاعمال تنبيها على ما وضعه تعالى بمشيئته وحكمته ورحمته من الارتباط بين هذه الاعمال وهذا الجزاء والقضائها اليه افضاء السبب لمسببه ليسمى الراجون لهذا الجزاء من طريق هذه الصفات وهذه الاعمال كما يسمى لسائر المسببات من طريق أسبابها وتؤتى جميع الامور من ابوابها . وفي هذا حث لاهل هذه الاعمال على التمسك بما هم به عاملون وتنبيه لاهل الغرور على بطلان ما هم به مفترون . والكيس من دان نفسه ولهرما على الطاعة وحاسبها ، وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى .

المفردات : يجزون : يعطون في مقابلة اعمالهم . الغرفة : البيت الاعلى فوق بهت وال فيه للجنس ليصدق بالمتعدد . صبروا : حبسوا نفوسهم . والباء فيه سببية . يلقون : من لقي بمعنى يجدون ويلقون من لقي بمعنى تلقيهم الملائكة أى تقابلهم وتلقاهم . تحية : دعاء بالحياة . سلاما : دعاء بالسلامة . خالدين : باقين . مستقرا : هو المكان الذى ينتهى اليه من غيره ويثبت فيه . مقاما : هو المكان الذى يقام ويمكث فيه .

التراكيب : جملة اولئك مستأنفة بيانيا فان تلك الصفات والاعمال تشوق السامع الى معرفة مآلهم وثمرة أعمالهم فيسأل عنهما ، فكانت الجملة

جواباً لذلك السؤال المقدر وعرف المسند اليه بالاشارة تنبيها على أن استحقاقه للمسند كان بما تقدم من صفات • وجملة حسنت مستأنفة ببيانها لان من عرف حالتهم من الحياة والسلامة والبقاء يتشوف لمعرفة حال مكان هذه الحياة السالمة الباقية فيسأل عنه فوقعت جملة حسنت موقع الجواب عن هذا السؤال المقدر وهي انشائية افادت انشاء مدح الغرف بالحسن وتعظيم ذلك الحسن، وقسم المستقر لان اول العلول استقرار والمقام ببقاء الاستقرار واستمرار المكث •

المعنى : أولئك الذين ذكرت صفاتهم وافعالهم يعطون جزاء اعمالهم البيوت العلالي في الجنة بسبب صبرهم وحسبهم لانفسهم على الطاعات والمجاهدات وكفهم لها عن المعاصي والشهوات وتتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام باقين في هذا النعيم المقيم وسكنى علالي الجنة التي هي أحسن مستقر ينتهى اليه الانسان ومقام يمكث فيه •

تطبيق حديث وفقهه : • روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى (ض) ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : « بلى - والذى نفسى بيده - رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » فهذا الحديث بين ان أهل الغرف هم أكمل المؤمنين واعلاهم درجة فى الجنة بهذا المقدار من البعد فهم الموصوفون بالصفات المذكورة فى الآيات المتقدمة على أئمتها ومن لم يكن مثلهم فيها لم يكن فى منازلهم التى جوزوا بها عليها وكان على حسب حفظه من الايمان فى منزلة من منازل أهل الجنة الذين يتراءون أهل الغرف ، فدرجات أهل الجنة فى منازلهم على حسن سلوكهم فى اعمالهم • أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، سَوَاءٌ مَعْيَاهُمْ وَمَعَانَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ •

دلالة : دلت الآية على السبب الذى افضى بهم الى هذا الجزاء العظيم وهو أعمالهم ، ودلت على السبب الذى تمكنوا به من القيام بهذه الاعمال وهو الصبر لقوله تعالى : « **بِمَا صَبَرُوا** » ومن اعظم الحكمة معرفة الاسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض فلا ينهض بامثال المأمورات وترك المنهيات الا من صبر ، والصبر خلق من الاخلاق التى تتربى وتنمو بالمران والدوام . فواجب على المكلف ان يجعل تربية نفسه عليه وتعودها به من اكبر همه اذ لا يقوم بالتكاليف الشرعية الا به ، بل ولا يستطيع الحياة فى هذه الدار الدنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء الا اذا تمسك بسببه .

بيان القرآن للقرآن : فى هذه الآية انهم يلقون تحية وسلاما وقد بين من يتلقاهم بذلك فى قوله تعالى : « **وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ** » فاللائكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب وهو مما يدخل فى التحية لان من طيبهم طيب حياتهم وما اكثر ما تجد فى القرآن بيان القرآن فاجعله من بالك تهتد - ان شاء الله - اليه .

اقتداء ووجاء : هؤلاء هم السالكون وما ذكر من أعمالهم واحوالهم هو سلوكهم ولما سلخوا الصراط المستقيم بالعمل المستقيم انتهى بهم السير الى احسن قرار ومقام الى دار النعيم المقيم فى جوار الرحمن الرحيم . فاذا اشتقت الى نهايتهم فتمسك ببدايتهم وزن أعمالك بأعمالهم واحوالك بأحوالهم ، فاذا جعلت ذلك من همك ، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك ، وصبرت كما صبروا رجوت أن تظفر بما ظفروا . فאלله نسال لنا ولك وللمسلمين صحة الاقتداء ، وصدق الرجاء ، وحسن الجزاء ، « **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** » (1) .

(1) الشهاب : ج 7 م 9 - صفر 1352 هـ جوان 1933 م .

قيمة العباد عند ربهم بقدر عبادتهم

« قُلْ مَا يَتَّبِعُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » .

(سورة الفرقان الآية 77)

المناسبة : قد أفادت الآيات السابقة كمال حال عباد الرحمن في نفوسهم وعقولهم وأخلاقهم وأعمالهم وأفادت عظيم منزلتهم عند ربهم ورفيع ما أعد لهم من درجاتهم جزاء على صالحاتهم وحسناتهم ، وجاءت هذه الآية تليد ان ذلك المقام العظيم الذي كان لهم عند ربهم انما هو بسبب عبادتهم ، وتعلن للناس ان عبادتهم هي الشيء الوحيد الذي يكون لهم به قدر وقيمة عند ربهم ، وبدونها لا يكون لهم وزن عند خالقهم ولا يكونون شيئا يبالي به ، وان من كذب وخلق بتكذيبه ربة العبادة فقد حقت عليه كلمة العذاب وهو واقع به لا محالة .

المفردات : ما يعبا بكم : ما يبالي بكم . الحب هو الشغل بما عبات به بمعنى ما كان له عدى وزن ولا مقدار وعبات به كان له عدى وزن ومقدار وعدى بالباء لانه بمعنى ما باليت . دعائكم : عبادتكم من اطلاق الجزء على الكل . كذبتهم : كفرتم فلم تعبدوا . لزاما : ملازما وأصل اللزام مصدر لازم واخبر هنا للتنبيه على ان بين المكذبين والعذاب ملازمة من الطرفين لهم بتكذبيهم قد ألزموا أنفسهم العذاب فللزامهم العذاب .

التراكيب : جواب لولا محذوف لدلالة ما تقدم وتقديم الكلام لولا دعائكم ما عبا بكم وجملة فقد كذبتهم والمة موقع التعليل لكلام مقدر تقديره

- والله أعلم - لا يعبا بكم فقد كذبتكم أى لانكم قد كذبتكم . فالغاء تعليلية ،
واما جملة فسوف يكون فمسيبة . وضمير يكون عائد على المذاب المفهوم
من المقام .

المعنى : قل للذين ارسلت اليهم ما يبالي بكم ربى ولا يعبا بكم ولا يكون
لكم عنده وزن لولا ايمانكم وعبادتكم فاذا كذبتكم وكفرتكم فهم لا يعبا بكم
وسوف يكون العذاب ملازما لكم بسبب تكذيبكم .

تعريض فى المخاطب : المخاطبون هم الذين كذبوا ثم ان ما لحقهم بسبب
التكذيب من العذاب الملازم فهو خاص بهم وبالمكذبين أمثالهم . وما كان
موجها لهم من جهة انهم عباد - وهو ان الله لا يعبا بهم لولا دعاؤهم - فهو
عام لجميع العباد لمماثلتهم لهم فى العبودية لله واستغناء الله عنهم وفرض
العبادة عليهم وعدم التقدير لهم الا بها .

تفسير اخرى : اخرج البخارى فى كتاب التفسير ، عن عبد الله
ابن مسعود (رض) قال خمس قد مضين : الدخان والقمر والروم والبطشة
واللزام . ورواه فى مواضع اخرى من صحيحه وعنى بالدخان المذكور فى
قوله تعالى : « يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ » والقمر المذكور فى (وَأَنْشَقُّ
الْقَمَرُ) والبطشة المذكورة فى (يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى) وباللزام
المذكور فى هذه الآية . وفسر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر وفسر
اللزام به ايضا ، فهى فى الحقيقة اربع وعدها خمسا باعتبار الوصفين البطش
والملازمة . وفسر الحسن اللزام بعذاب يوم القيامة . ومن عادة السلف
انهم يفسرون اللفظ بما يدخل فى عمومه دون قصد للقصر عليه ولا منافاة
حينئذ بين التفسيرين فيكونون قد توعدوا على تكذيبهم بلزوم عذاب الدنيا
وعذاب الآخرة .

تروهيپ : رتب لزوم العذاب على التكذيب فاعظم العذاب لاكمل التكذيب
وهو تكذيب الكفر ثم اصناف العذاب لازمة لتكذيب العصيان بالعدل
والحكمة فى التقسيم والترتيب .

استنباط : لما كانت مقادير العباد عند ربهم بحسب عبادتهم فالانبياء عليهم السلام - أعلى الناس منزلة عند الله هم أعظمهم عبادة لله وهم أتقاهم له وأشدهم خشية منه . وقد قال النبي (ص) فيما رواه مالك وغيره : **« والله انى أرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما اتقى »** وقال أيضا : **« والله انى لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده »** .

سؤال استطرادى وجوابه : كيف يخشى وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ أجاب العلماء عن هذا بأجوبة منه أنه لا يخشى العقاب ولكنه يخشى العتاب . ومنها - وهو قول الأكثر - انه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بشرط امتثاله لما أمر به . ذكر هذين ابن العربي فى « القبس » ، ومنها أنها خشية الاجلال ومشاهدة عظمة الربوبية وأنه لا يجب عليه تعالى شيء . وهذان الحديثان الصحيحان من الأدلة الصريحة عند أهل العلم على أن العبادة الشرعية الاسلامية لا تتجرد من الخوف حتى عبادة أفضل الانبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين .

تعلييل : الانسان مهيا للكمال بما فيه من الجزء النورانى العلوى وهو روحه ، ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من اخلاط عناصر جزئه الارضى الظلمانى وهو جسده ولا يخلص من كدورات جثمانه ولا ينجو من أسباب نقصانه الا بعبادة ربه التى بها صفاء عقله وزكاه نفسه وطهارة يده فى ظاهره وباطنه ، فبعبادة ربه يكمل فيرقى فى مراتب الكمال ويدنو من الملائكة والاعلى عند الرب الاعلى ذى الجلال والاکرام ، فالله طيب لا يقبل الا الطيب ، **« وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ »** ، ولا طيب ولا كمال الا للعابدین ، فلا قيمة ولا قبول لغيرهم عند رب العالمين .

ارشاد وتحذير : قد بين لك الطريق الذى يوصلك الى مولاك ويرقيق فى مراتب كمالك وعلاك ، وما هو الا عبادة ربك ، فكن عبدا له فى اختيارك واضطرارك وفى جميع أحوالك واحذر أن تعتمد على شيء غير عبادته - واحذر أن تتوجه بشيء من عبادتك لغيره ، ومن عبادتك - بل

هو منح عبادتك - دعاؤك وسؤالك واستغاثتك ، فايك اياك أن تتوجه بشيء
منه لغيره . فكن دائما عبدا لله وكن دائما عبدا له وحده فذلك حقه عليك
وذلك السبب الوحيد الذى ينجيك ويعليك . والله نسأل أن يقصرنا على
عبادته ويديمنا على الاخلاص فى التوجه اليه حتى نلقاه على ملة الاسلام
وهدى مباده الصالحين آمين يا رب العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 8 م 9 - ربيع الاول 1352 هـ ، جويلية 1933 م .

ملك النبوة

مجمع الحق والخير ، ومظهر الجمال والقوة

الآية الاولى وهى 15 من سورة النمل

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِى فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »

تمهيد : النبوة منزلة من الكمال التام البشرى يهبه الله لها من يشاء
من عباده فيكون بذلك مستعدا لتلقى الوحي والاتصال بعالم الملائكة
ولتحمل اعباء ما يلقي اليه وتكاليف تبليغه بالقول والعمل وتحمل كل بلاء
يلقاه فى سبيل ذلك التبليغ .

والملك ولاية على المجتمع لحفظ نظامه تقتضى عموم النظر وشمول
التصرف فى روابط الناس ومعاملاتهم وتصرفاتهم وتسييرهم فى ذلك كله
على اصول عادلة توصل كل احد الى حقه وتكفه عن حق غيره ليعيشوا فى
رخاء وسلام ويبلغوا غاية ما يستطيعون من متع الحياة .

وقد يتصف الشخص بالنبوة دون الملك فيكون مبلغا عن الله ولا يكون
له التنفيذ والادارة والتنظيم وقد يتصف الشخص بالملك دون النبوة وقد
وجد الشخصان فى شمويل وطالوت فكان الاول نبيا وكان الثانى ملكا
كما قال تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ اللَّهِ فَذَبْعَتْ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » وقد
يجمع بينهما مثل داود وسليمان عليهما السلام . ثم ان الملك قد تكون
الاصول التى يستند اليها مستمدة من اوضاع البشر لحفظ مصالحهم فى
الحياة الدنيا فيكون ملكا بشريا . وقد تكون تلك الاصول مستمدة من وحي
الله بما فيه حفظ مصالح العباد فى الدنيا وتحصيل سعادتهم فيها وفى
الآخري فيكون ملك نبوة .

ومن طبيعة ملك النبوة التزام الحق ونصرته حيثما كان باقامة ميزان العدل في القول والحكم والشهادة بين الناس أجمعين المعادين والموالين كما قال تعالى : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، « وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ بِالْكِتَابِ » وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْلُوا عِبَادَتِي هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَلَّوْا قَوَائِمَ بِالْقِسْطِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْبُدُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعِزُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » وبالفناء بالمقدود والمهود بين الافراد والجماعات كما قال تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » وَبِفَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا » وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنَقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَقُوا غُرْهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّتِهِمْ أَنْ تَلْبِثُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ، وبغير هذا من وجوه التزام الحق ونصرته .

ومن طبيعته بث الخير بين الناس بنشر الهداية والاحسان دون تمييز بين الاجناس والالوان كما قال تعالى : « وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، « وَاحْسِنُوا إِلَى اللَّهِ يَحِبَّ الْمُحْسِنِينَ » لَا يَنْهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ آلِدِينَ لَمْ يَمَاتِلُوهُمْ فِي الْآلِدِينَ وَلَمْ يُخْرِجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

ومن طبيعته الدعوة الى القوة والتنويه بها وبناء الحياة عليها لكن في نطاق العدل والرحمة ولدفاع المعتدين كما قال تعالى : « وَأَعِزُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّتٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْغَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وقبلها « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » فقرة الحديد لحفظ الكتاب والميزان وحمل الناس عليهما « فَمَنْ أَعَنَتِ صُلَيْبَكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَ مَا أَفْتَنَىٰ عَلَيْهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَكْتُمُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، الآيات .

ومن طبيعته الدعوة الى الجمال والتحبب فيه في جميع مظاهر الحياة لكن في نطاق الفضيلة والمناف كما قال تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ « وَصَوِّرْهُمْ فَأَحْسَنَ صُورَتِهِمْ » « أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ لَمْ
هَدَى » « إِنَّا زَيْنًا أَلَسْمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَائِبِ » « حَتَّى إِذَا أَخَلَّتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازْيَنْتَتْ » « فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَادِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ » « مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهَيْجٍ »
« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » « أَلْيَوْمَ
أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ » « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » .

ومن طبيعة الملك البشرى - وان روعيت فى اوضاعه هذه الاصول
الاربعة - انه لا يقيم ميزان العدل بين ابناء المملكة وغيرهم فتراه يكيـل
لهؤلاء بمكيال ولهؤلاء بمكيال ولا يرفعى من اليهود - فى الغالب - الا ما
لا يعارض مصلحته او تلزمه بمراعاته قوة خصمه .

كما انه يكاد يقمر بره واحسانه على ابناء جلدته ومن كانوا من جنسه
ولونه كما انه يبنى امره على القوة المطلقة فتندفع مع رغباته الى اقصى ما
يمكنها ان تصل اليه فيكون البغى والتسلط والعدوان . كما انه تستهويه
زينة الحياة الدنيا وزخارفها فتتمتد يده اليها حيثما وجدها فتتنازعها
الايدي بالقوة والحيلة وتذهب فى امانيتها الشهوات بالناس الى النقص
والرذيلة ، ثم ان من طبيعة الملك من حيث إنه ملك - سواء اكان بشريا ام
نبويا - مظاهر الابهة والجمال والقوة والفخامة . لما جبل عليه الخلق من
اعتبار المظاهر والتاثر بها ، وهذا اذا كان فى الحق فهو محمود مطلوب
واذا كان للباطل والبغى والتعظيم النفسى فمذموم متروك . ومن الاول
امر النبى صلى الله عليه وسلم عمه العباس رضى الله عنه ان يحبس
ابا سفيان عند خطم الجبل حتى تمر عليه كتائب المسلمين وذلك لادخال
الرعب على قلبه بما يرى من النظام والقوة فحبسه العباس فجعلت الكتائب
تمر به فيسال العباس عن كل كتيبة فاذا اخبره قال ما لي ولبنى فلان حتى
مر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون
والانصار لا يرى منهم الا الحديد فقال من هؤلاء ؟ فقال العباس
هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المهاجرين والانصار ، فقال
ابو سفيان ما لاحد بهؤلاء قبل ولا طاقة لقد اصبغ ملك ابن اخيك عظيما ،

قال العباس فقلت له انها النبوة ، فقال فنعم اذن • قصد أبو سفيان عظمة الملك القاهر التي كان يعرفها من الاكاسرة وأمثالهم فنفى ذلك العباس ورده الى النبوة التي هي أصل تلك القوة وذلك الملك النبوى المستند الى الوحي الالهى ولم يرد نفى الملك جملة ، ومنه ما كان من معاوية بالشام ، لما قدم عليه عمر وجده فى ابهة من الجند والعدة فاستنكر ذلك وقال له اكسروية يا معاوية ؟ فاعتذر معاوية بأنهم فى ثغر تجاه العدو وانهم فى حاجة الى مباحاة العدو بزيئة الحرب والجهاد ، فسكت عمر وأقره ، فذلك المظهر من مظاهر طبيعة الملك من حيث هو ملك وانما أنكره عمر لما خاف فيه من تعظم واستعلاء واعجاب ، فلما كان للحق والمصلحة أقره • ومن أقوى الأدلة على أن تلك المظاهر اذا كانت للحق والمصلحة فهي معجوبة مطلوبة ، ما قصه الله علينا فى هذه الآيات عن ملك سليمان نبي الله عليه الصلاة والسلام ، نعم فى مسند احمد أن النبی صلى الله عليه وسلم خير من أن يكون نبيا ملكا أو يكون نبيا عبدا فاختر أن يكون نبيا عبدا • وكان ذلك تواضعا منه • ولا ينفى هذا أنه صلى الله عليه وسلم ، كما كان مبلغا عن الله تبارك وتعالى كان قائما على الحكم والتنفيذ وإدارة الشؤون العامة وتنظيم المجتمع مما يسمى ملكا نبويا مستندا الى الوحي الالهى - لان التخيير راجع الى حالته الشخصية الكريمة فخير بين أن يكون لشخصه من مظاهر الملك مثل ما كان سليمان أو لا تكون له تلك المظاهر فاختر أن لا تكون وأن يكون مظهره مظهرا عاديا مثل مظهر العبد العادى ، كما أن سليمان عليه الصلاة والسلام الذى كان ملكا نبيا لم ينف ذلك عنه العبودية وانما ينفى عنه مظهرها العادى • فهما حالتان للفائزين على الملك جائزتان كان على احدهما سليمان وعلى الاخرى محمد صلى الله عليه وسلم وحالة أفضل النبيين أفضل الحاليين وقد اختار عمر رضى الله عنه الفضل وأقر معاوية على الفاضلة الاخرى ، ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم جاء بملك النبوة كان القرآن العظيم جامعا للاصول التي ينبئ عليها ذلك الملك وجاء فيه مثل هذه الآيات التي نكتب عليها ليبين صورة من صور ملك النبوة ومظهرها صادقا من مظاهره فيما قصت علينا من ملك سليمان عليه الصلاة والسلام •

وهي ثلاثون آية من الآية الخامسة عشرة من سورة النمل الى الآية الرابعة والاربعين منها .

الآية الاولى وهي : 15

الالفاظ والتراكيب : علما : نوعا عظيما ممتازا من العلم جمعا به بين الملك والنبوة وقاما بأمر الحكم والهداية . وقالوا : قولهما متسبب وناشئ عن العلم لكنه لو قيل فقلنا بالفاء لما افاد أن غير القول تسبب منهما عن العلم ولما عطف بالواو دل على أن هنالك أصالا كثيرة عظيمة كانت منهما في طاعة الله وشكره نشأت عن العلم وعليها عطف قولهما هذا . **فَقَضَلْنَا :** أعطانا ما فقلنا به غيرنا على كثير، فهناك كثير لم يفضل عليه ممن سواهما أو فاقهما من عباده المؤمنين . ففضلا بين أهل الفضل فكأننا من أفضل الفاضلين وذلك بما أعطينا من النبوة وملكها .

المعنى : يخبرنا الله تعالى عما أعطى لهذين النبيين الكريمين من هذا الخير العظيم وعما كان منهما من الشكر له - والمعرفة بعظيم قدر عطائه ، وإظهار السرور به مع الاعتراف لغيرهما بما كان من مثله أو نحوه ومن اعلانهما ما كان لك عليهما من نعمة التفضيل العظيمة بحمده والثناء عليه .

تنويه وتاصيل : قد ابتدأ الحديث عن هذا الملك العظيم بذكر العلم وقدمت النعمة به على سائر النعم تنويها بشأن العلم وتنبيها على أنه هو الأصل الذي تبنى عليه سعادة الدنيا والاخرى وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا وأن الممالك إنما تبنى عليه وتضاد وأن الملك إنما ينظم به ويساس أن كل ما لم يبن عليه فهو على شفا جرف هار وأنه هو سياج المملكة ودرعها وهو سلاحها الحقيقي وبه دفاعها وأن كل مملكة لم تحم به فهي عرضة للانقراض والانقضاض .

احكامها : قال أبو الطيب المتنبي :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسس والطعن عند مجيئهم كالقبل
نعم أن محبي الممالك الصادقين في محبتها والذين تصلح لهم ويصلحون
لها هم الذين يستعدون في سبيلها الموت ويكون الوطن عندهم مثل القبل
على حضور الحسان، فاما الممالك التي تبنى على السيف فبالسيف تهدم، وما

يشاد على القوة قبالقوة يؤخذ وانما أعلى الممالك واثبتتها ما بنى على العلم
وحى بالسيف وانما يبلغ السيف وطره ويؤثر أثره اذا كان العلم من
ورائه .

ولكن ابا الطيب شاعر الرجولة والبطولة شاعر المارك والمحامع
لا يرى امامه الا العرب وآلات الطعن والضرب فلا يمكن أن يقول - وقد
غمرته لذة الانتصار واستولت نشوة القلب والظفر على لبه وخياله - الا
ما قال .

فقه وأدب : يجوز لمن أنعم الله عليه بنعمه وفضله بفضيلة أن يفرح
بتلك النعمة ويظهر فرحه بها فى معرض حمد الله عليها ، من حيث أنها
كرامة من الله لا من حيث أنها مزية من مزايه فاق بها سواء ، مثلما فعل
هذين النبيين الكريمين وكما قال تعالى : **« قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْتَفْرَحُوا »** ، وكثيرا ما يكون التفات المراء الى نفسه حاجبا له عن غيره فيذكر
من شأنه ما أفرحه ويسكت عن غيره وفيهم من هو مثله ومن يفوقه فقد يجر
هذا الى عجب بنفسه وغبط لحق من عداه ، فلهذا كان من أدب مقام الفرح
بنعمة الله وحمده عليها ذكر نعمته العامة عليه وعلى غيره والاشارة الى من
فضلوا عليه فيكبح من نفسه بتذكيرها بقصورها ويرضى الله باعترافه لدى
الفضل بنفسه وحكمة الله وعدله وبوقوفه كواحد ممن أنعم عليهم من
عباده .

ارشاد واشادة : اذكار الانبياء عليهم الصلاة والسلام من حمد وتسبيح
وتهليل وغيرها أفضل الاذكار وأجمعها وأسلمها وقد اشتمل الكتاب
العزیز على كثير منها ، فعمل المسلم الحريص على الخير بها علما وعملا . فقد
رايت ما يحف باظهار الفرح بنعمة الله من مخاطر اذا لم يقبته لها ، وقد
جاء هذا الحمد النبوى محصلا للقصد سالما من كل خطره بمباراته الموزونة
الشاملة التى لا يصدر مثلها الا منهم لكمال علمهم وأدبهم عليهم الصلاة
والسلام (1) .

(1) الشهاب : ج 2 م 15 - صفر 1358 هـ مارس 1939 م .

الآية الثانية وهي 16 من سورة النمل

« وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنُطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ »

الالفاظ والتراكيب : الارث انتقال ما كان للبيت الى الحي فيقوم فيه الوارث مقام الموروث سواء اكان مالا او ملكا او علما او مجدا، والمراد هنا الملك والنبوة . **عَلَّمْنَا :** اعطينا العلم ولم يذكر المعلم - وهو الله - للعلم به فان هذا التعليم ليس من معتاد البشر ولا من طرقهم . **منطق الطير :** نطقها وهو تصويتها وقد يطلق النطق على كل ما يصوت به الحيوان ، فالحيوان ناطق والجماد صامت . **واوتينا :** اعطينا والنون في الفعلين للعظمة اذ هي حالته التي هو عليها . **من كل شيء :** هو على معنى التكثير او على معنى العموم الحقيقي فيما تقتضيه تلك العظمة مما يؤتاه الانبياء والملوك . **الفضل :** الزيادة . **المبين :** الظاهر الذي لا خفاء به .

المعنى : قام سليمان مقام ابيه داود عليهما الصلاة والسلام فكان في بني اسرائيل من بعد نبيا ملكا . **واراد سليمان أن يشهر نعمة الله عليه وينوه بها ويدعو قومه الى الايمان به وطاعته فدعا الناس وذكر لهم ما خصه الله به من علم منطق الطير وعظائم الامور مما هو خارق للمادة معجز للبشر آية على نبوته وتحداهم بذلك الفضل الذي امتاز به عن جميع الناس وهو مشاهد لهم لا يمكنهم انكاره كما لا تمكنهم ممارسته .**

فقه وتحقيق : من ميزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام انهم يخرجون من الدنيا دون أن يتعلقوا بشيء منها فلا يورثون دينارا ولا درهما وانما

يودثون العلم . وفى الصحيح « انا معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة » فلم يرث سليمان من داود مالا وانما ورث ما نوه به من العلم والملك وما دل عليه ذلك من النبوة وقد خصصه الله بذلك دون بقية اخوانه.

تفرقة : الشيء الموروث ان كان من امور الدنيا وأعراضها ومتناولات الابدان ومتصرفاتها فانه ينتقل بذاته من الميت الى الحى وينقطع عنه ملك الميت وما كان من صفات الروح فانه لا يفارق الميت - لبقاء الروح - وانما يقوم الحى مقام الميت فى أداء ما كان يؤديه الميت من أعمال متصفا بمثل ما كان متصفا به الميت متحليا بمثل حليته فارث سليمان للملك هو من المعنى الاول فداود بعد موته لم يبق ملكا وارثه للعلم والنبوة هو من المعنى الثانى فداود بعد موته على علمه ونبوته .

تفرقة اخرى : اذا كان الموروث مالا فانه يستحق بالقرابة شرما واذا كان علما أو نبوة أو ملكا فانها لا تستحق بها فلم يرث سليمان من داود ما ورثه منه لانه ابنه . وانما كان ذلك تفضلا من الله ونعمة ولهذا لما دعا سليمان الناس لم يذكر لهم أبوة داود وانما ذكر لهم ما كان به اهلا لمقامه مما خصصه الله به من علم وقوة ومظاهر الملك ومعجزة النبوة .

عجائب الخلقة وحكمة العربية : للحيوانات كلها فهم وادراك وأصوات تدل بها على ما فى نفسها وتتفاهم بها أجناسها بعضها عن بعض، ومن تلك الاصوات ما يكون أخفى من أن يصل اليه سمعنا ومنها ما نسمعه، وما نسمعه ما نفهم مرادها به ومنه ما لا نفهمه فلا نسمع صوت النملة ولكننا نسمع صوت الهرة - مثلا - ونميز بين صوتها الذى تدل به على غضبها وصوتها الذى تدل به على طلبها . وفى مملكة النمل ومملكة النحل - مثلا - من النظام والترتيب والتقدير والتدبير ما لا يبقى منه شك فيما لهذه الحيوانات من ادراك وتميز وما بينها من تفاهم ، بل كثير من الحيوانات تصير بالترويض تفهم عنا كثيرا من العبارات والاشارات وتأتى بالاعمال المعجبية طبق ما يراد منها وتدل عليه . فهذا اصل ما بلغت اليه من ادراكها ونطقها للذين اخبرنا بهما القرآن . وتلك الغاية من الادراك والتعلق لا سبيل لنا اليها لاختلاف الخلقة

وجهل مدلولات الاصوات ، وقد ادركها سليمان (ص) بتعليم من الله
كرامة له وآية على نبوته ومعجزة للناس .

فمن حكمة اللغة العربية الشريفة ان سميت اصوات الحيوانات نطقا
كما سميت - في المتعارف - اللفظ الذي يعبر به عما في الضمير نطقا .
لان الاصوات لغير الانسان تقوم مقام الالفاظ للانسان ، فهي طريق
تفاهمها ، وطريق فهم ما يمكن لانسان فهمه عنها . فلهذه اللغة ما اعمق
غورها وما اذق تميرها .

نظر وايمان : قد شوهد بالعيان في انواع من الحيوانات حسن تديرها
لامر مماشها ودقة سعيها في جلب منافعها ودفع مضارها فمن الجائز ان
يصل ادراكها بالنظرة الى ما وراء ذلك من وجود خالقها ورازقها . وهذا
هو الذي اخبرنا به القرآن في هذه الآيات من امر النملة وأمر الهمد
الآيتين من بعد . فنحن به مؤمنون لجوازه عقلا وثبوتة سمعا ، مثل سائر
السمعيات .

تمييز : قد شارك الحيوان الانسان في الادراك والتمييز وبلغ ادراكه الى
معرفة وجود خالقه ورازقه ولكن الانسان يمتاز عنه بقوة التحليل والتركيب
لكل ما يصل اليه حسه وادراكه وتطبيق ذلك على كل ما تمتد اليه قدرته
ويكون في متناول يده ، فمن ذلك التركيب والتحليل والتطبيق تغلب على
عناصر الطبيعة وتمكن من ناصيتها واستعمل حيوانها وجمادها في مصلحته
ورقى اطوار التقدم في حياته ولفقد الحيوان غير الانسان هذه القوة بقي
في طور واحد من حياته ومعيشته ، فادراك الحيوان فطري الهامى يغطاه من
اول الخلقة والانسان يعطى اصل الادراك الاجمالى ، ثم بتلك القوة يتسع
افق ادراكه ويستمر في درجات التقدم وهذه القوة التى يمتاز بها الانسان
هى العقل وهى التى ساد بها هذا العالم الفانى .

توجيه : ذكر سليمان عليه الصلاة والسلام منطق الطير وهو قد علم
منطق غير الطير ايضا فقد لهم نطق النملة ذلك لان الحيوانات غير الانسان
مراتب : الزاحفة ، والماشية والطائرة واشرفها الطائرة ، فاقتصر على الطير
تنبيها بالأعلى على الأدنى .

تنزيه وتبيين : عبر سليمان عليه الصلاة والسلام عن نفسه بنون العظمة ونوه بذلك الفضل المبين وما كان عليه السلام ليعظم بسلطان ولا ليتناول بفضل فالانبياء عليهم الصلاة والسلام أشد الخلق تواضعا لله وأرحمهم بعباده وإنما أراد تعظيم نعمة الله في عيون الناس وتفخيم ملك النبوة في قلوب الرعية ليملا نفوسهم بالجلال والهيبة فيدعوهم ذلك الى الايمان والطاعة فينتظم الملك ويهنا العيش وتمتد بهم أسباب السعادة الى خير الدنيا والآخرة ، وهذا هو الذي توخاه سليمان عليه الصلاة والسلام من المصلحة باظهار العظمة ولذا لم يقل : علمت • ولا لى وعندي من كل شيء ولم يقل فضلى فهو فضل من علمه وأتاه فضله به عن سواء •

ترغيب والتداء : يذكر الله تعالى لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم وما مكنه منه من عظيم الاشياء ترغيبا لنا في طلب العلم والسعى في تحصيل كل ما بنا حاجة اليه من أمور الدنيا وتشويقا لنا الى ما في هذا الكون من عوالم الجماد وعوالم الاحياء وبعثا لهمنا على التحلى بأسباب العظمة من العلم والقوة وحثا لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة فقد كان سليمان عليه الصلاة والسلام نبيا وما كان ملكه ذلك الا باذن الله ورضاه ، فهو فيما ذكره الله من أمره قدوة وأى قدوة مثل سائر الانبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين • (*)

(*) الشهاب : ج 3 م 15 - ربيع الاول 1358 ، افريل 1939 م •

الآية الثالثة وهي 17 من سورة النمل

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ »

الالفاظ والتراكيب : الحشر : الجمع من اماكن متفرقة • جنوده : هم المنتظمون في سلك عسكريته فجمعوا له عند الحاجة اليهم في سفر اراده • يوزعون : يكفون عن الخروج عن النظام في السير فيمنع اولهم من سبق آخرهم وآخرهم من التأخر عن سابقهم ويمنعون عن الخروج عن الصفوف الى اليمين او الشمال لان وزعه عن الشيء معناه كفه عنه، وفي ترتيب الجنود في الذكر مراعاة الاقوى واعلاهم في ذلك الجن ، ثم الانس ثم الطير، وفي عطف الجملة الثانية بالفاء افادة سرعة الانتظام بعد الاجتماع ، وفاعل حشرهم الاعوان الحاشرون، وفاعل وزع هم الضباط المنظمون •

المعنى : كان لسليمان عليه الصلاة والسلام من الجن والانس والطير جنود معينون معروفون يتركب منهم عسكريه يكونون متفرقين فاذا عرض امر جمهم ، وكان له اعوان يعرفون اولئك الجنود ويعرفون اماكنهم فهم الذين يجمعونهم عند الحاجة اليهم فاراد سليمان أن يسافر فامر اعوانه بجمع الجنود فجمعوهم له فلما اجتمعوا تولى رؤسائهم تنظيم امرهم فساروا مع سليمان في كثرة ونظام يتولى اولئك الرؤساء تنظيمهم في سيرهم ويمنعونهم من الخروج عن النظام •

تفصيل : كما أن للانس من يعرفهم من اعوان سليمان ومن ينظمهم من رؤسائهم كذلك يكون للجن وكذلك يكون للطير، وسلطة سليمان على الجن

وتسخيره لهم وسلطته على الطير وفهمه لها وفهمها عنه معجزة له وخصوصية ملك لم ينبغ لأحد من بعده .

تاريخ وقوة : تفيدنا الآية صورة تامة لنظام الجندية فى ملك سليمان فقد كان الجنود يسرحون من الخدمة ويجمعون عند الحاجة ، وكانت اعيانهم معروفة مضبوطة، وكانت لهم هيئة تعرفهم وتضبطهم وتجمعهم عند الحاجة، وكان لهم ضباط يتولون تنظيمهم، وكان النظام محكما لضبط تلك الكثرة ومنعها من الاضطراب والاختلال والفوضى .

تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية الواقعية تعليمنا لنا وقريبة على الجندية المضبوطة المنظمة، ولا شك أن الخلفاء الاولين قد عملوا على ذلك فى تنظيم جيوشهم ، وأن مثل هذه الآية كان له الاثر البليغ السريع فى نفوس العرب لما أسلموا فسرعان ما تحولوا الى جنود منظمة مما لم يكن معروفا عندهم فى الجاهلية، وبقيت الآية على الدهر مذكرة لنا بأن النظام أساس كل مجتمع واجتماع، وأن القوى والكثرة وحدها لا تغنيان بدون نظام، وأن النظام لابد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه وأولئك هم الوازعون .

طبيعة وشريعة : فى عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان نجد الطبيعة - بصنع الله - تستخلص الاعلى من الادنى والاقوى من الاضعف فتجد الممتاز فى أصل الخلق وبانتخاب الطبيعة فى هذه العوالم الثلاث كما تجد الذهب فى المعدن وتجد الزهر والثمر فى النجم والشجر وتجد الملكة من النمل والنحل مثلا فالانسان لم يخرج عن هذا القانون الطبيعى ففيه الممتازون الذين يحتاج اليهم النوع الانسانى فى صلاح حاله ومآله ومنهم الذين يتولون حكمه وتنظيمه فى أمه ومجتمعاته وجماعاته، فالهيئة الحاكمة والافراد المنظّمون والقادة المسيرون من ضروريات المجتمع الانسانى ومقررات الشرع الاسلامى مثل ما فى هذه الآية من أمر الوازعين ، ولما ولى الحسن البصرى القضاء قال لابد للسلطان من وزعة أى أحوال يكفون الناس عن الشر والفساد ويتولون تربيتهم وتنظيمهم . وفى رواية : لابد للناس من وازع أى كاف يكف بعضهم عن بعض وهو الحاكم وأعوانه ،

وفى حديث ذكره أهل الغريب : « من يدع السلطان أكثر ممن يزع القرآن »
ومعناه : أن من يكفهم عن الشر خوف السلطان وعقابه الدنيوى أكثر ممن
يكفهم عن الشر الوعد والوعيد فى القرآن وقد قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَكِيمَ إِبْرَاهِيمَ
شَاعِدًا وَمَنْصُلًا لِلنَّاسِ » .

الآية الرابعة وهى 18 من سورة النمل

« حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ
ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ » .

الالفاظ والتراكيب : أتوا على واد النمل : هبطوا اليه من مكان أهل
منه وهو بالشام أو العجاز لم تتوقف العبرة على تعيينه فلم يمين . وأضيف
لنمل لكثرة فيه . نملة : لفظها مؤنث ومعناها محتمل مثل شاة وحمامة .
مساكنكم : هى قرى النمل التى يسكنها تحت وجه الارض المحكمة الوضع
والتركيب والتقسيم ، ولذلك قيل فيها مساكن ولم يقل غيران .
لا يحطمنكم : لا يكسرنكم بالعوارى والاقدام . لا يشعرون : لا يعسون
بوجودكم .

الاتيان باذا وجوابها لافادة أن قولها كان بسبب اتيانهم عند أول ما
أتوا . لا يحطمنكم نهتهم عن أن يحطمهم والحطم ليس من فعلهم حتى ينهوا
عنه وإنما المعنى لا تكونوا خارج مساكنكم فيحطمكم لنهتهم عن المسبب
والمراد النهى عن السبب لما فى ذلك من الإيجاز المناسب لسرعة الانذار
وسرعة النجاة . ولما فى ذكر المسبب وهو الحطم من التخويف الحامل على
الاسراع الى الدخول . والجملة مؤكدة للاولى فكانها قالت ادخلوا مساكنكم
لا تبقوا خارجها ونظير التركيب فى التعبير بالمسبب عن السبب لا أرينك
ههنا أى لا تكن هنا فأراك .

المعنى : سار سليمان عليه الصلاة والسلام فى تلك الجنود العظيمة يحيط به الانس والجن وتظلمهم الطير حتى هبطوا على وادى النمل فرأتهم كبيرة النمل وقائدته فصاحت فى بنى جنسها فتادتهم للتنبيه وأرشدتهم الى طريق النجاة بأمرهم بالدخول فى مساكنهم وحذرتهم من الهلاك بحطم سليمان وجنوده لهم عن غير شعور منهم، فلا يكون اللوم عليهم وانما اللوم على النمل اذا لم يسرع بالدخول .

عبرة وتعليم : عاطفة الجنسية غريزة طبيعية فهذه النملة لم تهتم بنفسها فتنجو بمفردها ولم ينسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند انذار بنى جنسها اذ كانت بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم ولا نجاة لها اذا لم تنج معهم ، فأنذرتهم فى أشد ساعات الخطر أبلغ الانذار ، ولم ينسها الخوف على نفسها وعلى بنى جنسها من الخطر الداهم أن تذكر عذر سليمان وجنوده .

فهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص الا بحياة قومه ولا نجاة له الا بنجاتهم وأن لا خير لهم فيه الا اذا شعر بأنه جزء منهم ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها .

واجب القائد والزعيم : هذه النملة هى كبيرة النمل فقد كان عندها من قوة الاحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها فبادرت بالانذار فلا يصلح لقيادة الامم وزعامتها الا من كان عنده من بعد النظر وصدق الحدس وصائب الفراسة وقوة الادراك للامور قبل وقوعها ما يمتاز به عن غيره ويكون سريع الانذار بما يحس وما يتوقع .

عظة بالغة : هذه نملة وفيت لقومها وأدت نحوم واجبها ، فكيف بالانسان الماقل فيما يجب عليه نحو قومه ! هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدى الواجب نحوهم ولمن يرى الخطر داهما لقومه فيسكت ويتعامى ولمن يقود الخطر اليهم ويصبه بيده عليهم ، آه ما أحوجنا - معشر المسلمين الى امثال هذه النملة !

الآية الخامسة وهي 19 من سورة النمل

« فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

الفاظ والتراكيب : التبسم : انفراج الشفتين عن الانسان وقد يكون للغضب وقد يكون للسخرية وقد يكون للضحك وهو الاكثر وهو بدايته، ولهذا قيد بضاحكا . اوزعني ان اشكر : الهمني شكر نعمتك وتحقيقه في اللغة والتصریف انك تقول : وزعت الشيء اى كفته واوزعني الله الشيء اى جعلنى ازع ذلك الشيء اى اكفه كما تقول ركبت الفرس واركنى زيد الفرس اى جعلنى اركبه، واوزعنى شكر نعمتك اى اجعلنى ازع اى اكف شكر نعمتك اى امنعه من ان يذهب عنى وينفلت منى، فالمقصود اجعلنى ملازما لشكرك فلا انفك لك شاكرا . نعمتك : عام يشمل كل نعمة لله عليه وعلى والديه . وأن اعمل : معطوف على ان اشكر فيقدر مثل تقديره كما تقدم . ترضاه : وصف مؤكد وقد يكون للتقيد على ما سيأتى لان العمل الصالح مرضى عنه الله وانما ذكر الوصف ليفيد ان رضى الله مقصود بالعمل الصالح . اَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ : اجعلنى معهم ، واكمل الصالحين الانبياء المرسلون صلى الله عليهم اجمعين وتحقيقه ان الصالحين بما امتازوا به من كمال صاروا كأنهم فى حمى خاص بهم لا يدخل عليهم فيه الا من كان مثلهم، فلهم مقامهم فى الرفيق الاعلى، ولهم منازلهم فى الجنة، ولهم ذكرهم الطيب عند الله وعند العباد، وهذه المنازل والمقامات لا يدخلها العبد الا برحمة من الله بتيسير لأسبابها وتفضل عظيم.

المعنى : لما سمع سليمان عليه الصلاة والسلام كلام النملة تبسم تبسم السرور والتعجب من قولها وطلب من ربه تعالى ان يلهمه شكر ما انعم به عليه وعلى والديه وأن يلهمه عملا صالحا ينال به رضاه، وطلب منه تعالى ان يجعله فى الصالحين بأن يثبت اسمه بينهم ويقرن ذكره بذكرهم ويلحقه بهم ويسكنه الجنة معهم بما يغمره به من رحمته وفضله واحسانه .

توجيه : صدور ذلك الانذار البليغ من مثل تلك النملة في ضمها وصغرها طريف مستظرف ككل شيء يصدر من حيث لا ينتظر صدوره ، فهذا مبعث تعجب سليمان عليه الصلاة والسلام ، وشهادة النملة له ولجنوده بأنهم لو وطئوا النمل لوطنوه عن غير شعور ، فهم لرحمتهم وشفقتهم وارتباطهم بزمam التقوى وأخذهم بالعدل لا يتعمدون التعدى على أضعف المخلوقات العجاء .

هذه الشهادة أدخلت السرور على سليمان عليه الصلاة والسلام لما دلت عليه من ثبوت هذا الوصف العظيم له ولجنده وظهوره منهم واشتغالهم به كما بعث سروره شعوره بما آتاه الله من الملك العظيم والعلم الذى لم يؤته غيره حتى فهم به ما همست به النملة وهى من الحكم الذى ليس له صوت يستبان فى حال من الاحوال .

أدب من سرته النعمة : نعم الله على العبد تدخل عليه السرور ببجيلة الفطرة ، والفرح بنعمة الله من الاعتراف بفضله والاكبار لنواله ، ومن أدب العبد حينئذ أن يسأل الله التوفيق بشكر تلك النعمة بصرفها فى الطاعة والتوفيق لشكرها بما يقوم به من أعمال صالحة فى رضى الله ، كما فعل سليمان عليه الصلاة والسلام .

النعمة المزدوجة : اذا انعم الله على الابوين بنعمة الايمان والصلاح فهى نعمة على ولدكما اذا اتبعهما وتكون تلك النعمة من الله عليهما سيما فى حسن تربيتهما له وتوجيهه فى الوجهة الصالحة كما أن نعمة الله على الولد هى نعمة على والديه فهو من أثرهما ومثل حسناتهما فى ميزانهما لانهما أصل ذلك وسببه ، ويدعو له الناس فيدعون لهما ، ويدعو هو لهما ، وقد يؤذن له فيشفع لهما ، فالنعمة على الوالد أو على الولد هى نعمة مزدوجة بينهما ، ولهذا ذكر سليمان عليه الصلاة والسلام نعمة الله على والديه مع نعمته عليه .

الغاية المطلوبة : ان شعور العبد برضى الله عنه هو أعظم لذة روحية تعجز عن تصويرها الالسن ، واحلال الرضوان على أهل الجنة أكبر من كل ما فى الجنة من نعيم . فالغاية التى يسعى اليها الساعون ويعمل لها

العاملون هم رضى الله فالعمل الصالح ترتضيه العقول وتستعذبه الفطر ،
ولكنه لا يفيد صاحبه اذا لم يبلغ به مرضاة الله ولهذا قال سليمان عليه
الصلاة والسلام : ترضاه •

جمع وتحقيق : قال الله تعالى : « **أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** » ،
فاناد أن الاعمال سبب فى دخول الجنة • وفى هذه الآية « **وَأَدْخِلْنِي**
بِرَحْمَتِكَ » ، فاناد أن الدخول بالرحمة ولا منافاة ما بينهما فالاعمال سبب
شرعى لدخول الجنة والهداية اليه والتوفيق فيه وقبوله هو رحمة من
الله • والمعمل من حيث ذاته لا يستحق على الله جزاء لانه لا ينتفع به
اذا هو الغنى عن خلقه وانما تفضل فجعله سببا فى نيل ثوابه • ثم تفضل
فجعل الجزاء مضاعفا الى عشر الى اضعاف كثيرة الى الموفى للصابرين بنير
حساب •

دقيقة روحية : ان الارواح النورانية الطاهرة السامية لا لذة لها حقيقية
فى هذا العالم الفانى المادى المنحط ، وانما لذتها الحقيقية فى عالمها العالى
الاقდس ، وفى الرفيق الاعلى الاطهر ، وفى معاشره امثالها من النفوس الطيبة
الزكية • فى ذلك القدس الاسنى • فهى دائمة الشوق اليه والانجذاب
نحوه ، ولذا كان من دعوات الانبياء عليهم الصلاة والسلام الدخول فى
الصالحين واللحوق بهم ، مثل قول سليمان هنا وقول ابراهيم : « **وَبِّ هَبْ**
لِي حُكْمًا وَالْحَقِّينِ بِالصَّالِحِينَ » • وقول يوسف : « **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِنِي**
بِالصَّالِحِينَ » •

وفقنا الله لشكر ما من به من سابق النعمة وللقيام فيما بقى من العمر
بواجب الخدمة وختم لنا باللحوق بمباهد الصالحين •

الآية السادسة وهي 20 من سورة النمل

«وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّ هَذَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ»

الالفاظ والتراكيب : تفقد : التفتد تطلبك ما فقدته وغاب عنك
وتعرفك احواله . لا اوى : لا أبصر . الهدد : هو « تبيب » وهو طائر
صغير الجرم منثن الريح ليس من كرام الطير ولا من سباعها . مالى لا اوى :
استفهم عما حصل له فمنعه من الرؤية حيث ظن أولا ان الهدد كان حاضرا
والما هو لم يره . ام كان من الغائبين : استفهم عن غيبته حيث ظن ثانيا
انه غائب فاستفهم عن صحة ما ظن ، فكلمة ام فيها اضراب وفيها استفهام
فأضرب اضراب انتقال من ظن الى ظن . كان من الغائبين . تعريض بلبح
لعله لما انحط من شرف الحضور وكان من الغائبين .

المعنى : تطلب سليمان عليه السلام معرفة ما غاب عنه من احوال الطير
فلم ير الهدد وأخذ يتساءل لظن أن شيئا ستره عنه فلم يره ، ولما لم يكن
شيء من ذلك ظن أنه كان غائبا غير حاضر وذلك هو الظن الاخير الذى حصل
به اليقين .

تعليم وقنوة : من حق الرعية على راعيها ان يتفقدوها ويتعرف احوالها
اذ هو مسؤول عن الجليل والدقيق منها ، يباشر بنفسه ما استطاع
مباشرة منها ويضع الوسائل التى تطلعه على ما غاب عليه منها ويتيط
بأهل الخبرة والمقدرة والامانة تفقد احوالها حتى تكون احوال كل ناحية
معروفة مباشرة لمن كلف بها . فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه
وكثرة اتباعه قد تولى التفقد بنفسه، ولم يهمل أمر الهدد على صفه وصغر

مكانه . وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لو أن سخلة بشاطيء
الفرات يأخذها الذئب ليسأل عنها عمر . وهذا التفقد والتعرف هو على كل
راع فى الامم والجماعات والاسر والرفاق وكل من كانت له رعية •

تعلييل وتعليل : تفقد سليمان جنس ما معه من الطير للتعرف كما ذكرنا
وذكر الطير لانه هو الذى تعلقت به القصة وليس فى السكوت عن غير الطير
ما يدل على أنه لم يتفقد ، فالتفقد لم يكن للهدم بخصوصه ، وانما لما تفقد
جنس الطير فقدته ولم يجده فقال ما قال ، فلا وجه لسؤال من سأل : كيف
تفقد الهدم من بين سائر الطير ؟

تنقيح لغوى وغوص علمي : سأل سليمان عن حال نفسه فقال : ما لى
لا أرى الهدم ولم يسأل عن حال الهدم فيقل ما للهدم لا أراه فذكر
حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره • فنقل الحافظ الامام ابن العربى عن
الامام عبد الكريم بن هوازن القشيرى شيخ الصوفية فى زمانه قال :
« انما قال ما لى لا أرى لانه اعتبر حال نفسه ذا علم أنه أوتى الملك العظيم
وسخر له الخلق فقد لزمه حق الشكر باقامة الطاعة وادامة العمل ، فلما
فقد نعمة الهدم توقع أن يكون قصر فى حق الشكر فلأجله سلبها
فجعل يتفقد نفسه فقال : ما لى • وكذلك تفعل شيوخ الصوفية اذا فقدوا
آمالهم ، تفقدوا اعمالهم هذا فى الآداب فكيف بنا اليوم ونحن نقصر فى
الفرائض •

توجيه : مثل هذه المعانى الدقيقة القرآنية الجليلة النفسية من مثل
هذا الامام الجليل من أجل علوم القرآن وذخائره ، اذ هى معانى صحيحة فى
نفسها ، وماخوذة من التركيب القرآنى أخذا عربيا صحيحا ، ولها ما يشهد
لها من أدلة الشرع • وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح
مقبول • ومنه فهم عمر وابن عباس رضى الله عنهما أجل رسول الله صلى
الله عليه وسلم من سورة النصر • أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة
وخصوصا الاول والثانى - فهو الذى لا يجوز فى تفسير كلام الله وهو
كثير فى التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية كتفسير ابن عبد الرحمن
السلمى من المتقدمين والتفسير المنسوب لابن عربى من المتأخرين •

الآية السابعة وهي 21 من سورة النمل

«لَاُعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ»

الالفاظ والتراكيب : عذابا شديدا : ينتف ريشه هكذا فسرہ ابن عباس وجماعة من التابعين . **بسلطان مبین :** بحجة قاطعة توضح عذره في غيبته ، سميت الحجة سلطانا لما لها من السلطة على العقل في اخضاعه افادات او ان المخلوف على حصوله هو أحد الثلاثة فاذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح ولو لم تحصل لفعل احدهما وقدم التعذيب لانه أشد من القتل وحالة الغضب تقتضى تقديم الاشد .

المعنى : يقسم سليمان على معاقبة الهدهد - وقد تحقق غيبته - بالتعذيب أو بالذبح اذا لم يأت به بالحجة التي تبين عذره في تلك الغيبة ولا يستثنى للعفو ولا يجمل سببا لسلامته من العقوبة الا الحجة .

توجيه واستنباط : ليس في الآية ما يفهم خصوص تنتف الريش من لفظ العذاب الشديد ، وانما فهم ابن عباس رضى الله عنهما وأئمة من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار فان تنتف ريشه يعطل خاصية الطيران فيه فيتحول من حياة الطير الى حياة دواب الارض وذلك نوع من المسخ وقد علم ان المسخ في القرآن اشنع عقوبة في الدنيا، فلماذا فسروا العذاب الشديد بـتنتف الريش، والانسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب، فمن حرم انسانا - فردا أو جماعة - من العلم فقد حرمه من خصوصيته - الانسانية وحوله الى عيشة العجماوات وذلك نوع من المسخ فهو عذاب شديد وأى عذاب شديد ؟ .

صرامة الجندية : كان هذا الهدهد من جنود سليمان ، التي حشرت له وقد كان في مكانه الذي عين له واقيم فيه فلما فارق وترك الفرجة في صفه وأوقع الخلل في جنسه استحق العقاب الصارم الذي لا هوادة فيه ، وهذا اصل في صرامة احكام الجندية وشدتها لمعظم المسؤولية التي تحملتها

وتوقف سلامة الجميع على قيامها بها ، وعظم الخطر الذى يعم الجميع اذا
أخلت بها .

تقدير العقوبة : جرم الهدد صغير وما كلف الا بما يستطيعه من
الوقوف فى مكانه والبقاء فى مركزه ، ولكن جرمه باخلاله بهذا الواجب
كان جرما كبيرا ، فان الخلل الصغير مجلبة للخلل الكبير ، فقدرت عقوبته
على حسب كبر ذنبه لا على حسب صغر ذاته .

تنبيه وإرشاد : كل واحد فى قومه أو فى جماعته هو المسؤول عنهم من
ناحيته مما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته فعليه أن يحفظ مركزه
ولا يدع الخطر يدخل ولا الخلل يقع من جهته فانه اذا قصر فى ذلك وترك
مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته وأوجد السبيل لتسرب الهلاك
اليهم . وزوال حجر صغير من السد المقام لصد السيل يفضى الى خراب
السد بتمامه ، فاخلال أى أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤد الى الضرر
العام . وثبات كل واحد فى مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام
والتضامن وهما أساس القوة .

الحق فوق كل أحد : لقد أغضب سليمان غياب الهدد فلذا توعدده هذا
الوعد وأكدده هذا التاكيد . ولكن سلطان سليمان فى قوته وملكوته ومكانته
يجب ان يخضع لسلطان آخر هو اعظم من سلطانه : هو سلطان الحق ،
والحق فوق كل أحد . وملك سليمان ملك حق فلا بد له من الخضوع
لسلطان الحق ليقيم ميزان العدل ، والعدل أساس الملك وسياس
ال عمران (1) .

الآية الثامنة وهي 22 من سورة النمل

« فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ »

الالفاظ والتراكيب : مكث : أقام ، وقرا عاصم بفتح الكاف . غمر : صفة زمان محذوف . فالتقدير زمان غير بعيد فاعل مكث هو الهدهد مثل فاعل قال الآتى . **أحطت :** الإحاطة بالشئ ، عقليا هى العلم به من جميع نواحيه . **سبا :** اسم مدينة باليمن سميت باسم سبا جد العرب اليمانية حير وغيرها وصرفه الجمهور على اعتبار المكان ومنعه من الصرف المكس والبصرى على اعتبار البلدة . **بنبا :** النبا ، الخبر الذى له شأن وخطورة . **واليقين :** المحقق جعله نفس اليقين مبالغة فى تحققه . وفى الكلام إيجاز بالحذف اذ المعنى فجاء الهدهد فسأله سليمان عليه الصلاة والسلام عن سبب مغيبه فقال .

المعنى : لم تطل غيبة الهدهد عن مركزه فى جنود سليمان فلم يلبث فى غيبته الا زمانا قصيرا . وكان سؤال سليمان له عن غيبته فور رجوعه فأسرع بالجواب والاعتذار عن الغيبة والدفاع عن نفسه فقال : اطلعت على شئ لم تطلع أنت عليه وعرفته من جميع نواحيه، وقد أتيتك من بلدة سبا بخبر خطير ذى شأن عظيم تيقنته غاية اليقين .

توجيه واستنباط : كان فى جواب الهدهد حجة بينة لسبب غيابه . وذلك لانه لم يذهب عابثا ولا لغرض خاص به ، وانما ذهب مستطلعا مكتشفا فحصل علما وجاء بخبر عظيم فى زمن قصير، فرجحت هذه الفوائد العظيمة بتركه لمركزه فى الجند فسقطت عنه المؤاخذه . فان قيل ان اصل مفارقه لمركزه دون استئذان كان مخالفة يستوجب عليها المقسوبة .

فالجواب ان هذه المخالفة كانت لقصد حسن وهو الاستطلاع واثمرت خيرا فاستحق العفو من تلك المخالفة التي كانت عن نظر ولم تكن عن تهاون وانتهاك للحرمة .

فان قيل ما الذى اوقع فى نفس الهدهد رغبته فى طلب ما طلب ؟ فالجواب انه يجوز ان يكون شاهد عمران اليمن من مكان بعيد ببصره الحاد فرغب فى المعرفة أو أن يكون قد مر باليمن من قبل ولم يتحقق من حالها فاراد أن يتحقق . وهذه الآية مأخذ من مأخذ الاصل القائل : ان المخالف للامر عن غير انتهاك للحرمة لا يؤاخذ بتلك المخالفة . ومن فسروا هذا الاصل سقوط الكفارة عن افطر فى رمضان متعمدا متاولا تاويلا قريبا .

عزة العلم وسلطانه : ابتداء الهدهد جوابه معتزا بما احاط به من العلم متجملا بما حصل منه مظهرا لارتفاع منزلته به متحصنا به من العقاب . ولم تمنعه عظمة سليمان عليه الصلاة والسلام من اظهار علمه وعلان اختصاصه به دون سليمان .

ادب واقتناء : قد سمع سليمان هذا ، من الهدهد وأقره عليه فللصغير ان يقول للكبير وللحقير ان يقول للجليل علمت ما لم تعلم وعندى ما ليس عندك اذا كان من ذلك على يقين وكان لقصد صحيح . ومن أدب من قيل له ذلك ولو كان كبيرا جليلا أن يتقبل ذلك ولا يبادر برده وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائله فيقبله أو يرده بعد النظر والتأمل اذ قد يكون فى أصغر مخلوقات الله تعالى واحقرها من يحيط علما بما لم يحيط مثل سليمان عليه الصلاة والسلام فى علمه وحكمته واتساع مدركاته . وكفى بمثل هذا زاجرا لكل ذى علم عن الاعجاب بعلمه والاعتزاز بسعة اطلاعه والترفع عن الاستفادة ممن دونه .

ملوك عقيمة : لا يعلم أحد من الانبياء عليهم الصلاة والسلام شيئا مما غاب عنه الا باعلام الله فليس لهم كشف عام عن جميع ما فى الكون وانما يعلمون منه ما اطلعهم الله عليه . ومن مدارك ذلك هذه القصة فان سليمان عليه الصلاة والسلام لم يكن يعلم من ملكة سبا شيئا حتى اطلعه

الله عليه بواسطة الهدده، وإذا كان هذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
فغيرهم من عباد الله الصالحين من باب أخرى وأولى .

تحقيق تاريخي : رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على
شيء من الصحة وم معظمها من الاسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب
التفسير مما تلقى من غير تثبيت ولا تمحيص من روايات كتب الاحبار وذهب
ابن منبه. وروى شيئا من ذلك الحاكم في مستدركه، وصرح الذهبي ببطلانه
ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الارض كلها مشارقها ومغاربها فهذه
مملكة عظيمة بسببها كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه على قسرب ما بين
عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام . (*)

(*) الغهاب : ج 6 م 15 - جمادى الثانية 1358 هـ ، جويلية 1939 م .

الآية التاسعة وهي 23 من سورة النمل

« إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ »

الالفاظ والتراكيب : وجدت : أصبت . امرأة : امرى بلقيس باجماع المفسرين والمؤرخين . تملكهم : تتولى امرهم ملكة عليهم وعبر بالمضارع تصويرا للحال العجيب وهو أن تتولى ملكهم امرأة . وعاد الضمير على سبأ ضمير جمع مذكر على معنى القوم . اذ كانوا يسمون باسم أبيهم فذكر لفظ سبأ أولا بمعنى المدينة وأعيد عليه الضمير بمعنى القوم على أسلوب الاستخدام . من كل شيء : لفظ عام أريد به كل ما تحتاج اليه من أشياء الملك والسلطان والقوة والممران . عرش : هو سرير الملك الذى تجلس عليه . عظيم : فى كبره وقوته وحسنه .

المعنى : يقول الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام مبينا الغبر العظيم الذى جاء به : انى وجدت أولئك القوم الذين يسكنون تلك المدينة قد جعلوا امرأة ملكة عليهم وقد أعطيت تلك الملكة كل ما تحتاج اليه فى نظام ملكها وعظمته ومن مظاهر تلك العظمة السرير العظيم الذى تجلس عليه بين أهل مملكتها .

عظمة المملكة العربية اليمنية : كانت بلقيس ملكة على اليمن فى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد وقد كانت ملكة عظيمة على مملكة عظيمة راقية ، والهدهد الذى شاهد ملك سليمان وعظمته قد استعظم ملكها وعرشها وعظمة العرش عنوان عظمة الملك فلذا خصمه الهدهد بالذكر ورغب سليمان فى الاتيان به .

تفوق العرب على الاسرائيليين : كل ذلك الرقى وتلك العظمة بلغتاهما المملكة العربية بنفسها من تفكيرها وعملها من قرون بعيدة . فاما الاسرائيليون

وهم اذ ذاك في القرن الخامس من تاريخهم - فانهم لم يبلغوا في ذلك العهد الى شيء من ذلك . وما كان لسليمان من بناءات ومنشآت فهو مما صنعت له الجن والشياطين كما جاء في آيات من القرآن عديدة، ولم يترك بنو اسرائيل من الآثار ما يدل على شيء ذي بال من الفن والقوة، فاما ما تركته اليمن فهو شيء كثير قائم مشاهد، والاكتشافات ما زالت تظهر منه شيئا فشيئا .

ولاية المرأة الملك : ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة ، قاله لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم امرأة . فاقضى هذا أن لا تلي المرأة ولاية ولا أمانة ولا قضاء، وأيدت هذا النص الصحيح السنة العملية فأخذ به جمهور أئمة المسلمين وجاءت روايات عليلة عن بعضهم لم يلتفت اليها ولم يعمل بها .

تعطيل : لا تصلح المرأة للولاية من ناحية خلقتها النفسية فقد اعطيت من الرقة والعطف والرافة ما أضعف فيها الحزم والصرامة اللازمين للولاية . وفي اشتغالها بالولاية إخلال بوظيفتها الطبيعية الاجتماعية التي لا يقوم مقامها فيها سواها وهي القيام على مملكة البيت وتدبير شؤونه وحفظ النسل بالاعتناء بالحمل والولادة وتربية الاولاد .

دفع اعتراض : في تواريخ الامم نساء تولين الملك ومن المشهورات في الامم الاسلامية شجرة الدر في العصر الايوبي، ومنهن من قضت آخر حياتها في الملك وازدهر ملك قومها في عهدها ، فما معنى نفى الفلاح عن ولوا امرهم امرأة .

هذا الاعتراض باسر واقع ولكنه لا يرد علينا ، لان الفلاح المنفى هو الفلاح في لسان الشرع وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ازدهار الملك أن يكون القوم في مرضاة الله ومن لم يكن في طاعة الله فليس من المفلحين ولو كان في أحسن حال فيما يبدو من أمر ديناه على أن أكثر من ولوا امرهم امرأة من الامم اذا قابلهم مثلهم كانت عاقبتهم أن يغلبوا .

الآية العاشرة وهي 24 من سورة النمل

« وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ »

الالفاظ والتراكيب : من دون الله : تجاوزوا عبادة الله الى عبادة الشمس ، زين : حسن . اعمالهم : سجودهم للشمس وغيره من اعمال كفرهم . فصلهم : صرفهم صرفا شديدا . السبيل : هو الطريق الوحيد الممهود للنجاة وهو توحيد الله . لا يهتدون : لا يكون منهم سلوك فى طريق الحق والسداد .

جملة وجدتها مستأنفة للبيان جوابا على تقدير سؤال فالكلام السابق بين حالتها من ناحية الدنيا فتتشوف نفس السامع الى معرفة حالتها من ناحية الدين عدم اعتدائهم مسبب عن صد الشيطان لهم وصد مسبب عن تزييفه لاعمالهم لهم ، هذا ما تفيده الفاء .

المعنى : وجدتها وقومها مجوسا يعبدون الشمس فيسجدون لها ولا يسجدون لله ، وقد تمكن الشيطان منهم فحسن فى اعينهم اعمالهم فصرفهم عن عبادة الله وتوحيده مع ظهور الدلائل ووضوح الآيات، فثبتوا على ضلالهم لا يكون منهم اعتداء لطريق النجاة الظاهر فى حال من الاحوال .

سلاح الشيطان واصل الضلال : محبة الانسان نفسه غريزة من غرائزه وهو محتاج اليها ليجلب لنفسها حاجتها ويدفع عنها ما يضرها ويسمى فى تكميلها . هذه هى الناحية النافعة والمفيدة من هذه الغريزة، ولكنها من جهة اخرى هى مدخل من أعظم مداخل الشيطان على الانسان فيحسن له اعماله وهو لمحبة نفسه يحب اعماله ويشتري بها فيذهب مع هواه فى تلك الاعمال على غير مدى ولا بيان فهلك هلاكاً بعيداً فاستحسن المرء لاعماله هو أصل ضلاله وتزيين الشيطان لتلك الاعمال هو أحد سلاح للشيطان .

الوقاية : فعل المرء أن يتهم نفسه فى كل ما تدعوه اليه وأن يزن جميع اعماله بميزان الشرع الدقيق خصوصا ما تشتهد رغبته فيه ويعظم حسنه فى عبته .

الآية العادية عشرة وهي 25 من سورة النمل

« أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ »

الالفاظ والتراكيب : ألا يسجدوا : عدم سجودهم فإن مصدرية ولا نافية وهو بدل بعض من أعمالهم خصص بالذكر لأنه أصل كفرهم ومبعث فساد أعمالهم . **الخبء :** الشيء المخبوء فعل بمعنى مفعول يقال خبات الشيء اخبؤه خبأ بمعنى سترته عن العيون ، فالخبء يشمل كل ما احتوته السموات والارض مما يبرزه الله للخلق لمنفتحهم فتشاهده العيون مثل المطر والنبات أو تدركه العقول مثل بدائع الخلق ودقائق الصنع ، ومنه ما يكشفه الله لعلماء الاكوان من أسرار الخلقة عندما يستعملون عقولهم ووسائلهم العلمية فيأتون بما فيه نفع للعباد ورقى للممران .
ما يخفون : ما يكتُمون في انفسهم أو عن غيرهم . **ويعلمون :** يظهرون للناس .
المعنى : زين لهم الشيطان من أعمالهم على الخصوص عدم سجودهم لله الذي أقام عليهم الحجة بما يخرجهم لهم من الخيرات المخبات من السموات والارض من أمطار السماء ونبات الارض مما يدل على عظيم قدرته ولطف علمه الذي أحاط بما ببواطن الاشياء وظواهرها وبما تنطوي عليه السرائر أو تواريه الستائر وبما هو ظاهر للعموم .

استدلال وتوجيهه : السجود مظهر لغاية الذل والخضوع والانقياد والاستسلام وتلك أصل العبادة ولا يستحقها من العبد الا من هو - حقيقة - المنعم الغنى الكامل القوى ، وما هو الا خالقه، فاستدل على استحقاق الله للسجود دون غيره بما ذكر من اخراجه الخبء، ويشمل علمه لما خفى وما علن، وذلك متضمن لكماله وانعامه وشمول علمه وعموم سلطانه .

حكم وانبئاؤه : أنبنى على أن السجود عبادة ولا يستحقها الا الخالق
تحريم السجود للمخلوق فلا يجوز أن يعظم به أحد احدا ولو لم يقصد به العبادة، أما اذا قصد به العبادة فهو الكفر البواح .

تحذير : كثيرا ما رأينا فى الرسوم التى تنشرها الصحف اناسا من المسلمين راكعين او مقاربين للسجود لدى سلطان • فعلى المسلم أن يحذر من ذلك فلا يفعله ولا ينحنى لاحد من الخلق وأن ينكره اذا رآه •

تشويق القرآن الى علوم الاكوان : من اساليب الهداية القرآنية الى العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صورا من العالم العلوى والسفلى فى بيان بديع جذاب يشوقنا الى التأمل فيها والتعمق فى أسرارها، وهنا يذكر لنا ما خبأه فى السموات والارض لنشتاق اليه • وننبعث فى البحث عنه واستجلاء حقائقه ومنافعه بدافع غريزة حب الاستطلاع ومعرفة المجهول • وبمثل هذا انبعث اسلافنا فى خدمة العلم واستثمار ما فى الكون الى أقصى ما استطاعوا ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم، ولن نغز عزمهم الا اذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم •

ترتيب فى الاستدلال : اخراج الخبء لا يكون الا من العالم بذلك الخبء الذى أحاط علمه به فى حال ستره وفى حال ظهوره فيدل ذلك على شمول علمه لما ظهر وما بطن ومنه ما يخفون وما يعلنون ولذلك عطفه عليه لترتبه عليه ترتيب المدلول على دليله •

الآية الثانية عشرة وهى 28 من سورة النمل

« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »

الالفاظ والتراكيب : العرش : مخلوق عظيم من عالم الغيب أعظم من السموات والارض •

المعنى : الموصوف بتلك الصفات والمنعم بتلك الانعامات المستحق للسجود منهم وقد زين لهم الشيطان عدم السجود له - هو الله الذى لا معبود غيره ولا يستحق العبادة سواء خالق المخلوقات كلها والمالك لها والمدير لامرها والمتصرف فيها من أصغر مخلوق الى أعظم مخلوق وهو عرشه العظيم الذى فاق كل ما نرى من عالم الشهادة •

توجيه الترتيب : لما ذكر استحقاقه للعبادة بكمالاته وانعاماته ذكر أن لا مستحق للعبادة غيره اذ لا يشاكره فى تلك الكمالات والانعامات سواء،

فكان الجملة كالنتيجة لما قبلها ، ولما ذكر وحدانيته فى الالوهية فلا يعبد
سواه ذكر وحدانيته فى الربوبية بانفراده فى الخلق والملك والتصرف
والتدبر لهذا المخلوق العظيم ونبه به على ما دونه من المخلوقات ، ولما كان
الحديث على عظمة ملك العباد ملك النبوة وغيره ذكر عظمة ملك الله الذى
تصغر ازاءها كل عظمة .

بيان مراد : قد يتماثلان اللفظان ولكن يجب أن يعبر كل واحد بمعنى
لائق بالمقام الذى قيل فيه ، فلقد جاء فى حق سليمان (ص) « وَأُوتِينَا مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ » ووصف الهدهد بلقيس بأنها أوتيت من كل شيء ولما كان
المتحدث عنه أولا هو سليمان فكل شيء يعبر ما يحتاج اليه من أمر النبوة
وملك النبوة . كما أنه قد قيل عنها « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وقال عن الله
« رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » فعرش عظيم بين عروش الملوك ، وعرش الله
عظمته أعظم من السموات والارض وهكذا لابد من اعتبار المقام فى فهم
الكلام .

للعبرة والقنوة : قد ألهم الله الحيوانات الى ما قد يخفى عن بعض
العقلاء ، ومضى منا كلام عن هذا فيما تقدم من هذه الآيات الكريمة ، وهذا
الهدهد بين الهداهد ، فلهم الهام خاص يقتضيه تخصيصه بهذا الموقف
واتصاله بسليمان (ص) وزمن الانبياء زمن خرق الموائد وظهور الآيات ،
وقد كان فى حسن بيانه وترتيب أخباره وبديع تهديه عبارة بالغة لاولى
الالباب ، فقد تحصن بالعلم ونوه بالنبل المتيقن وفصل النبأ فشرح حالها
الدنيوية والدينية وتنقل من تشويق الى تشويق أبلغ منه فكان متشبها فيما أخبر
بارعا فيما صور مستدلا فيما قرر وفيما أنكر بصيرا بكيد الشيطان للانسان
متفطنا لانباء الضلالات بعضها على بعض خيرا بترتيب الادلة وحسن
الاستنتاج . وفيما ذكر الله لنا من هذه العبر البالغة من هذا الحيوان
الاعجم حث لنا على أن نسلك عندما نخبر ونبين او نبحت وننظر او نستدل
ونرتب ونعلل - أن نسلك هذا المسلك .

واذا كان الله تعالى قد بعث غرابا ليتعلم منه ابن آدم كيف يوارى سوءه
اخيه فكذاك ذكر لنا أمر هذا الهدهد الممتاز بين الهداهد لنقتدى به تنبيهها

لنا على اخذ العلم من كل احد والاستفادة من كل مخلوق والشعور دائما
بالنقص للسلامة من شر ادواء الانسان : المعجب والكبر والغرور ...
« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » .

لمحة نفسية : الظواهر دلائل البواطن فالمرء يعرف من سبغات وجهه
وفلتات لسانه وكثيرا ما تدل كلماته على مهنته أو فكرته وعقيدته ، كما تدل
هيئته أو لبسته وشمائله .

وما يباشره المرء تنطبع به نفسه ويصطبغ خياله فيجری على لسانه في
تشبيهاته وتمثيلاته وفنون قوله ، فقد تختلف العبارات عن شيء واحد في
وقت واحد باختلاف نفسيات المتكلمين عليه ، وقد عرف الهدهد بين الطيور
بثقب البصر والامتداء الى الماء في جوف الارض خصوصا هدهد سليمان
الممتاز بين الهدهد ، فلما استدلل ذكر من صنع الله ما هو اقرب اليه واغلب
عليه وهو اخراج الخبء الذي منه الماء المخبوء في جوف الارض .

اشارة علمية : دلالة الصنعة على الصانع دلالة فطرية عقلية قطعية فكل
ذی صنعة فيمكنه ان يستدل بصنعته على وجود خالق هذا العالم وكماله .
يشاهد ان صنعته ما كانت الا به وبما له من قدرة فيها وعلم بها فيهيده
ذلك الى ان هذا العالم ما كان الا من خالق قادر عالم . فالهدهد ذكر ما هو
من عمله في الاستدلال على وجود الخالق تعالى ووحدانيته ومثله كل ذی
صنعة .

وفي كل شيء له آية - تدل على انه واحد (1)

المرسل والرسالة والرسول والمرسل اليهم

« يَسَّ » .

(سورة يس ، الآية 1)

تمهيد : مثل هذا اللفظ مما افتتحت به بعض سور القرآن للعلماء فيه طريقتان :

الاولى انه لفظ له معنى يعلمه الله فهو من المتشابه الذى لا يعلمه الراسخون ، وانما يؤمنون به ويردون علمه الى عالمه .

سؤال وجوابه : القرآن انزل للبيان ولا بيان الا بالافهام ، فكيف يكون فى القرآن لفظ لا يفهم له معنى ؟ والجواب ان عدم فهم معنى من بعض عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور لا يخل ببيان القرآن لما انزل لبيانه من عقائد وآداب واحكام وغيرها من مقاصد القرآن .

توجيه وتنظير : ان الله تعالى اعطانا العقل الذى به ندرك الآيات التى نصبها لنا لنستدل بها على وجوده ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته . وبالنظر فى هذه الآيات نصل - بتيسير الله - بعقولنا الى ادراك بدائع عجيبة ، واسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها . وما يزال الانسان يكتشف منها حقائق مضت عليه ازمان وهو يعدها من المحال ، ويبحثنى منها فوائد ما كانت تخطر له فى احقابه الماضية على بال .

لطف الله فى جعل حد لعقل الانسان : غير ان استجلاء هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية - على تفاسيتها وعظيم نفعها - مخوف بخطر الاعجاب بذلك العقل حتى يحسب انه محيط بالحقائق كلها ، وان مدركاتها يقينيات باسرها فيؤديه حسباناه الاول الى الفتنة بالمدرجات فيحسب انه لا شيء بعدها فقد يخرج الى انكار خالقها ، ويؤديه حسباناه

الثانى الى الذهاب فى ظنونه وأوهامه وفرضياته الى غايات لا نسب بين اليقين وبينها . فكان من لطف الله بالانسان أن جعل لعقله حدا يقف عنده وينتهى اليه ليسلم من هذا الخطر، خطر الإعجاب بالعقل . ففى آيات الله الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها، وقد تشهد آثارها ولا تستطيع أن تعرف كنهها ، كحقيقة الكهرباء فى الكون ، وحقيقة الروح والعقل فى الانسان . فمثل هذه الحقائق المنغلقة التى يتردد عقل الانسان اليه عنها خاسئا وهو حسير هو التى تعرفه بقدره وبعظمة هذا الكون وفخامة أمره . فيقف بعقله عند حد النظر والاعتبار والاستدلال ببديع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة الله البالغة ومنته السابغة . دون خلط للاوهام بالحقائق ولا فتنة بالمخلوق عن الخالق .

خفاء بعض حكم الاحكام ووجهه : هذه الحقائق التى خفيت عن العقل البشرى فلم يدرك كنهها لم تقدح فى دلالة آيات الاكوان على ما دلت عليه من وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته وفضله واحسانه ورحمته، فكذلك لم يقدح فى بيان القرآن ودلالة آياته خفاء معانى بضع عشرة كلمة من كلماته ، وكما كان خفاء تلك الحقائق فى الآيات الكونية ايقافا للعقل عند حده . وتعريفا له بقدره . وتنبيها له على عظم آيات ربه . كذلك كان خفاء هذه المعانى فى الآيات القرآنية لمثل ذلك . ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية فى هذا الجلاء العام والخفاء الخاص جملة من الاحكام كعدد الصلوات والركعات والسجادات التى خفيت على العقول حكمتها ، وقد ظهرت الحكم الكثيرة الجليلة فى سائر احكام الشريعة غيرها . ولم يقدح فى حكمة الشريعة فى احكامها ، خفاء ما خفى فى بعضها ، كما لم يقدح خفاء ما خفى من حقائق الآيات الكونية ومعانى الآيات الكلامية فى دلالتها وبيانها . والحكمة هنا فى هذه الاحكام هى الحكمة المتقدمة فيهما .

ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية والاحكام الشرعية فى هذا الخفاء الجزئى تصرفات الله فى خلقه بمجارى اقداره ، فقد تظهر حكم الله فيها وقد تخفى ، وقد تخفى دهرًا وتظهر بعد مدة . وقد نبهنا الله على هذه الحقيقة بما قصص علينا فى قصة يوسف عليه السلام وما كان

مجهولا من حكم قدر الله في مبدا أمره وما ظهر من تلك الحكم الباهرة للقدر
آخر أمره . وبما قصه علينا في قصة أم موسى لما أوحى اليها بقذفه في
اليم وعدم الخوف عليه وما كان من عواقب أمره . وكما لا ينفي الحكمة
عن تدبير الله عدم ظهورها كذلك لا ينفي الحكمة عن شرعه عدم فهمها ولا
يقدر في دلالة الآيات وبيانها عدم ادراك كنهها أو عدم فهم معناها .

قيام الحجة على الانسان مما عرفه : ففى خلق الله وفى شرع الله وفى
قدر الله وفى كلام الله ما يخفى على العقول ادراك حقيقته أو حكمته ، أو
معناه . لطفنا من الله بالانسان له . وقد قامت الحجة عليه فيما جهل بما عرف .
وتجلت له بدائع الخلقة وجلال النعمة فيما ظهر ، فأمن بوجود مثلها فيما
خفى اذ الرب الحكيم الرحيم لا يكون منه الا ما هو حكمة وفيه نعمة ، فكان
الانسان فى القسم الاول مدركا مستندلا معتبرا ، قد استعمل عقله فاداه
الى الايمان واليقين فيما ظهر . وكان فى القسم الثانى مصدقا مدعنا لربه
صاغرا . قد ادرك الحجة فأمن بالغيب فيما استتر فجمع بين النظر
والاستدلال ، والتسليم والاذعان .

فهذا توجيه وجود لفظ لا نفهم معناه من كتاب الله - عند من يقول
به - ببيان حكمته ، مع تنظيره بمثله فى خلق الله وشرعه وقدره .

بناء العمل على هذا العلم : قد رأيت كيف يقف العقل عاجزا أمام
بعض اسرار الخلق والقدر والشرع ، والقرآن مع يقينه بما علم منها أن
ما عجز عن ادراكه ما هو الا مثل ما عرفت فى الحق والحكمة
والنعمة اذ الجميع - ما عرف وما عجز عنه - من اله واحد حكيم خبير
رحمن رحيم .

فليذكر الناظر فى خلق الله وقدره وشرعه وكلامه دائما هذه الحقيقة :
وهى ثبوت الحق والحكمة والنعمة فى جميعها ، وامكان عجز عقله فى بعض
المواضع والاحوال عن ادراكها فيكون عمله فى خلق الله هو النظر والبحث
والتحليل والاكتشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد
العلمية والعملية الى اقصى حد توصله اليه معلوماته وآلاته ، حتى اذا انتهى
الى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه ، ولم يرتكب من الاوهام والفروض

البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة ، ويوقع الباحث من بعده فى ضلالة أو حيرة . فكثيرا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيّات سببا فى صد العقول عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل . ويكون عمله فى قدر الله هو الاعتبار فى تصارييف القدر ، والاتعاظ بأحوال البشر ، واستحصاى قواعد الحياة من سير الحياة ، فاذا رأى من تصارييف القدر ما لم يعرف وجهه ولم يتبين له ما فيه من عدل وحكمة واحسان ورحمة . فليذكر عجزه، وليذكر ظهور ما خفى عنه من مثل ذلك فى وقت ثم ظهر له فيوقن أن هذا مثله وأنه اذا طالأت به الايام قد يظهر له من وجهه ما خفى منه فيتلقاه الآن بالتسليم والتنزيه . رادّا علمه الى الله تعالى مفوضا أمره اليه ويكون عمله فى شرع الله هو الفهم لنصوص الآيات والاحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف وتحصيل الاحكام وحكمها والعقائد وادلتها والآداب وفوائدها والمفاسد واضرارها ، حتى اذا بلغ الى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته ذكر عجزه فوقف عنده . فلم يكن ممن المرتابين ولا من المتكلفين ، ولم يمنعه عجزه عن تعليل، وتبين وجه ذلك القليل عن المضى فى التفهم والتدبر لما بقى له من الكثير . ويكون عمله فى كتاب الله هو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبهاته ووجوه دلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب فى منظومها ومنثورها ، وما جاء من التفاسير الماثورة ، وما نقل من فهم الائمة الموثوق بعلمهم وامانتهم، المشهود لهم بذلك من أمثالهم . فاذا وقف أمام التشابه رده الى المحكم ، واذا انتهى الى فواتح السور ذكر عجزه فأمن بما لها من معنى وقال : الله به أعلم . فهذا السير النظرى والعمل خلقه وقدره وشرعه وكلامه ومعرفة العبد بقدره ومقامه يزداد السائر على مقتضاه ايمانا وعلما وفوائد جمة ويسلم من الغرور والالهام والفتنة . وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه :

« آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » .

الثانية : فى فواتح السور، وذهبت جماعة من أهل العلم من السلف والخلف الى أن هذه الفواتح قد فهمت العرب المراد منها ولذلك لم تعترض

على البيان بها ولا طعن في عريته بعدم فهمها وان كنا لا نجد في كلامها ما نعرف به المعنى الذي فهمته منها . ومن ذهب الى ذلك الامام أبو بكر ابن العربي فقال في كتاب « القبس على موطن مالك بن أنس » : « وليست من التشابه الذي لا يعلمه الا الله ، فان محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لو خاطب الكفار منها بما لا يفهم لكان ذلك اقرب اسبابها في الطعن عليه ، وكانوا يقولون : هذا يتكلم بما لا نفهم وهو يدعى انه بلسان عربي مبين . وما حمسق في اللسان ؟ وما كنهيمص في الكلام ؟ فدل انهم فهموا الغرض وعرفوا المقصود » .

اختلاف المتأولين : منهم طائفة تكلمت على كل لفظ من ألفاظ الفواتح وذكرت له معنى واختلفوا في تلك المعاني التي ذكروها وهي كما ذكر الامام ابن العربي : « لا سبيل الى تمييز واحد منها بدليل لانه معدوم ، ولا باثر لانه غير منقول ، ولا تطمئن الى شيء منها القلوب التي عاشت على اليقين ، ولا تسلم واحدا منها العقول التي اعتادت قفو العلم على نور الدليل .

ومنهم طائفة اخذتها كلها بوجه واحد فقال بعض: انها حروف تنبيه
تقرع الاسماع فتلفت السامعين الى الاستماع والتدبر لما اشتملت عليه
السورة من الاحكام والعقائد والآداب وغيرها من مقاصد القرآن ، فهي نظير
الا والهاء في مالوف الاستعمال . وقال بعضهم انها حروف تعجيز وافحام
وتقريع لان القرآن الذي عجزوا عن ممارسته ، من هذه الحروف واخواتها
تركبت كلماته ، فكانما يقال لهم : ما هذا الذي عجزتم عنه الا كلام من جنس
كلامكم . وما ركبت كلماته الا ما ركبت منه كلماتكم . وهذا لمعجزهم
افضح . ولتقريعهم اوجع . ومما يؤيد هذا ان اكثر هذه الفواتح ذكر بعده
الكتاب المعجز وصفاته مثل قوله تعالى : « اَلَيْمَ ذٰلِكَ الْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ
« اَلَيْمَ اللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ نَزَّلَ عَلَیْكَ الْكِتٰبَ بِالْحَقِّ » الآية - « اَلَمْ
يُنَزَّلْ اَنْزِلَ اِلَیْكَ » . « اَلَمْ تَرَ تِلْكَ اٰیٰتُ الْكِتٰبِ الْغَیْبِ » . « اَلَمْ يَنْزِلْ اَنْزِلَ اِلَیْكَ
اٰیٰتُهُ » . « اَلَمْ تَرَ تِلْكَ اٰیٰتُ الْكِتٰبِ الْمُبِیْنِ » . « طٰسِیَةً تِلْكَ اٰیٰتُ الْكِتٰبِ الْمُبِیْنِ »
« اَلَمْ تَنْزِلْ اَنْزِلَ اِلَیْكَ لَا رَیْبَ فِیْهِ مِنْ رَبِّ الْعٰلَمِیْنَ » « حَمْدٌ تَنْزِیْلُ الْكِتٰبِ مِنْ
اَللّٰهِ الْمَرْبِ الْعَلِیْمِ » وغيرها .

الفائدة العملية : قد افتتحت هذه السور من القرآن العظيم بكلمات التنبيه وجاءت أول سورة منه بعد الفاتحة مفتتحة به ، فلتكن عند قراءته في انتباه ، واقبال على استيعاب لفظه وتفهم معناه ، فان القارئ للقرآن والسامع له في حضرة الرب • على بساط القرب ، والفغلة في هذا المقام من قلة الآداب ، ومن قل أدبه في مقام الاحسان والكرامة استوجب اضعاف ما يستوجبه غيره من العتب والملامة وتعرض لموجبات الحسرة والندامة • فالله نسأل أن يجعلنا من قرائه على انتباه واستحضار أثناء الليل واطراف النهار ، العاملين به بالعشي والإبكار • انه الجواد الكريم الستار •

« وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) » .

(سورة يس)

بيان المفردات : الحكيم : هو الموصوف بالحكمة ، واصل اللفظ من حكم ، بمعنى أمسك ، فالحكمة هي العلم الصحيح الذي يمسك صاحبه عن الجهالات ، والضلالات ، والسفالات ، فيكون ذا ادراك للحقائق قويم ، وخلق كريم ، وعمل مستقيم ، لا يحكم الا عن تفكير ، ولا يقول الا عن علم ، ولا يفعل الا عن بصيرة فاذا نظر اصاب ، واذا فعل اصاب ، واذا نطق اتى بفصل الخطاب • ووصف القرآن بالحكيم لانه هو العلم الصحيح المثمر لهذا كله • والصراط المستقيم : هو دين الاسلام ، الذي جاء به جميع المرسلين ، قبل النبي - صلى الله عليه وعليهم وسلم - • تنزيل : بمعنى منزل ، وهو الصراط المستقيم • العزيز : القوى الغالب الممنع الذي لا نظير له • الرحيم : المنعم الدائم الانعام والاحسان • الانذار : الاعلام بوقوع ما يخاف منه وهو الهلاك والمذابح العاجل والآجل • والغافل عن الشيء : التارك له الممرض عنه ، مع حضوره لديه لاشتغال باله بسواه •

المعنى : أقسم الله تعالى بالقرآن الحكيم على أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم - من المرسلين رداً على من قالوا له : لست مرسلًا ، فى حال أنه على دين الاسلام الذى بعثه الله به ثابتاً عليه فى عقده ، وقوله ، وفعله وجميع أمره • واخبر تعالى ان هذا الاسلام الذى جاء به النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - نزل به عليه الله القوى الغالب ، الذى لا يغالِب ، المديم القهية والنظير ، والمنعم الدائم الانعام المستمر الاحسان • وبين تعالى انه كان من المسلمين لينذر الامة العربية ويعلمها سوء عاقبة ما هى عليه من الشرك والضلال ، تلك الامة التى ما أنذر آباؤها فهى مشتغلة بما توارثته من آباؤها من عبادة الاوثان ، وارتكاب الاثم والعدوان ، وأنواع الضلال والخسران ، معرضة عن توحيد خالق الارض والسموات، وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات ، طال عليها امد الجهالة ، واستولت عليها اسباب الضلالة ، فتمكن منها الغفلة ، التمكن التام ، فذهبت فى أوديتها البعيدة المدى ، كالانعام أو أضل من الانعام •

اصل المعرفة والسلوك من هذه الآيات الكريمة :

تمهيد : خلق الله الخلق حنفاء موحدين ، فاتتهم الشياطين فاضلتهم عن سواء السبيل ، فمن رحمته تعالى بهم ، أن ارسل اليهم ، رجلاً منهم لهدايتهم ، وانزل عليهم كتباً منه ، لداليتهم • فالله هو المرسل وتلك الكتب هى رسائله ، وأولئك الرجال هم رسله ، والخلق هم المرسل اليهم •

المعرفة : فللمرسل الملو والكمال ، وله الخلق ، والامر ، ومنه الرحمة والعدل ، والاحسان ، والفضل ، وله الربوبية ، والالوهية ، دون شريك ولا مثال •

وفى تلك الوسائل الحق ، والحكمة ، والنور المخرج من كل ظلمة والفرقان فى كل شبهة ، والفعل فى كل خصومة ، بها تفتح البصائر ، وتطهر الضمائر ، وتعرف طريق الحق والهدى ، من طرائق الباطل والضللال •

وأولئك الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أكمل ما يمكن للانسان من كمال ، وأكمل المعرفة بالمرسل - تعالى - وأعظم الخشية وأكمل الرحمة بالخلق ، وأشد الشفقة عليهم ، وأكمل العلم بما جاءوا به وأعظم التمسك به ، وأكثر الاتباع له ، فلا كمال الا بالافتداء بهم ، ولا نجاة الا باتباعهم ، ولا وصول الى الله تعالى الا بإقتفاء آثارهم . وللمرسل اليهم عجز المخلوق وضعفه أمام خالقه ، وحاجته واقتناره اليه وعليه حق عبادته ، وطاعته والرجاء لقضله ، والخوف من عقابه ، والفكر في آياته ، ومخلوقاته والنهوض للعمل في مرضاته ، واستثمار أنواع نعمائه ، والشكر له على جميع آلائه . فبمعرفة هذه الاربعة حق معرفتها ومعرفة مقام كل واحد منها ، وما له فيه كمال الانسان العلمى الذى هو أصل كماله العمل ، والشرط اللازم فيه .

وقد اشتملت هذه الآيات على هذه الاربعة فى حق الامة المحمديّة فالمرسل هو « العزيز الرحيم » والرسالة هى « القرآن الحكيم » والرسول هو « محمد » - صلى الله عليه وآله وسلم - المخاطب به - « إِنَّكَ كَيِّنَ الْمُرْسَلِينَ » والمرسل اليهم هم العرب الذين « مَا أَتَيْنَا آبَاؤَهُمْ فَأَتَيْنَاهُمْ » .

تمهيد : لما ضل الخلق عن طريق الحق ، والكمال ، الذى يوصلهم اليه : الى مرضاته والفوز بما لديه ، أرسل اليهم الرسل ليعرفوهم بأن ذلك الطريق هو الاسلام ، ويكونوا أدلتهم فى السير وقادتهم الى الغاية ، وأنزل عليهم الكتب لينيروا لهم بها الطريق ، ويقودوهم على بصيرة ، ويتركوهم على البيضاء ، ليلا كنهارها ، لا يهلك عليها الا من ظلم نفسه ، فحاد عن السواء ، أو تخلف عن القافلة فكان من الهالكين . فالقافلة هم الخلق ، والطريق هو الاسلام ، والادلة هم الرسل ، والمصابيح هى الكتب ، والغاية هو الله جل جلاله .

السلوك : فعل مريد النجاة من المهالك والفوز باسمى المطالب وأعلى المراتب - ان ينضم الى القافلة الربانية يتعاون مع أفرادها ويقوم بحق الرفقة فيها ، ويعد نفسه جزءاً منها لا سلامة له الا بسلامتها فهو يحب لكل واحد منها ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها ويهديه الى ما يهديها

اليه من خير ويقيه مما يقيه منه من سوء . وان يطيع أولئك الأدلة ويقتضى آثارهم وينزل بنزولهم ، ويرتحل بارتحالهم وان يرجع فى معرفة وجوه السير ، واصنافه ، وأوقاته ، ومراحله ومنازله ، اليهم دون أدنى احتراض ، ولا مخالفة ، ويقابل ما يتحملونه من مشاق الدلالة ، ومتاعب القيادة بغاية ما يستطيع من الادب معهم ، والتعظيم ، والانقياد لهم والمحبة فيهم ، وحسن الثناء عليهم ، وطلب عظيم الجزاء ، من الله تعالى لهم على عظيم احسانهم ، وان يلتزم ذلك الطريق ويسير فى سوائه غير مائل الى جنباته ، ولا ذاهب فى بنياته ، لا مفرطاً فى السير يسبق الرفقة فينفر بلا دليل ، ولا مفرطاً فيه ، فيتخلف عنها بلا معين نمطا وسطا مع الجماعة لا من الغلاة ولا من المقصرين . وان يستنير بما رفعه أولئك الأدلة من مصابيح الهداية ، وان يسير تحت أنوارها الساطعة ، مفتوح البصر ، للاستضاءة بها غير مغلق الاجفان عنها ، متعرفاً بها اديم الارض ومواقع قدمه منها وان يعرف عظم الغاية التى هو سائر اليها ، فيقصر همه كله فى الوصول اليها ويحضرها قلبه فى كل لحظات سيره ليسرع مع الرفقة اليها ، وتخف عليه مشاق الطريق واتعابها ويمدب لديه كل ألم فى الانتهاء اليها .

فبسلوك هذا الطريق القويم ، بدلالة الرسول الكريم وأنوار الكتاب المبين ، الى رب العالمين الرحمن الرحيم ، كمال الانسان العمل المبني على الكمال العلمى . وقد اشتملت هذه الآيات على ذكر السالكين ، وهم المنفردون وعلى الدليل وهو الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلى الطريق وهو الصراط المستقيم المنزل من الله ، وعلى ما بين الطريق وهو القرآن الحكيم .

الحكمة فى هذه الآية : قال ابن وهب : سمعت مالك رضى الله عنه يقول : « الحكمة : الفقه فى دين الله والعمل به » ففى الفقه فى دين الله الكمال العلمى وفى العمل به الكمال العلمى ، وهذه الآيات - على ايجازها - قد استعملت على اصول ما به كمال الانسان العلمى وكمال العمل اللذان بهما كماله الروحى والبدنى ونعيمه الدنىوى ، والاخرى وما كماله العلمى ، وكمال العمل ، الا بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم

وهما اللذان تقدم فى الفصل السابق بيانها ، وفسر مالك الحكمة بهما اذ الفقه فى دين الله هو المعرفة الصحيحة ، والعمل به ، هو السلوك المستقيم ، وهما الحكمة التى وصف به ، فى الآية الاولى القرآن العظيم ، لانه كتاب العلم ، والعمل اللذين لا يكون بدونهما حكيم . فكما اشتملت هذه الآيات على اصول الحكمة ، دلت على اصلها ، وماخذها ، وما يكون الانسان بعلمه والعمل بما فيه من اهلها ، وهو القرآن الحكيم .

توجيه القسم فى الآيات : أقسم الله بالقرآن الحكيم على أن محمداً من المرسلين ، لينذر الغافلين حال أنه على صراط عظيم مستقيم منزل من العزيز الرحيم ، لان القرآن هو كتاب محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - الذى كان يتخلق به ويهتدى بما فيه وينذر به ويدعو اليه ويبينه للناس بقوله ، وفعله ، وهو يرهانه ، وحجته وآيته ، وممجزته .

كما أنه كتاب الاسلام ، الذى هو الصراط المستقيم ، فيه حجة ودلائله ، فيه احكامه وحكمه ، فيه آدابه وشمائله ، فيه بيان حقيقته وما هو منه ونفى ما ليس منه عنه ، فيه بيان تاريخه ، وتاريخ الانسانية معه فيه ذكر اوليائه ، وحسن بلائهم فى سبيله ، وحسن اثره فيهم ، والعود بالعاقبة المحموده عليهم ، وذكر اعدائه وجهدهم فى مقاومته وسقوط شبههم امام حجته وذهاب باطلهم امام حقه ، وشدة اخذه لهم ، على ظلمهم ، ونزول نعمته بهم ، وحلول دائرة السوء عليهم ، فيه الاسلام كله ، فمن طلبه فيه ، وجده ، ونجا به ، ومن طلبه فى غيره ظل وكان من الهالكين .

عقائد وادلتها من هذه الآيات :

العقيدة الاولى : محمد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

دليها الاول : القرآن الحكيم الذى جاء به رجل اُمى ما قرأ ولا كتب ولا دارس العلماء ولا عرف الكتب .

ودليها الثانى : موافقة دعوته - صلى الله عليه وآله وسلم - لدعوة المرسلين - صلوات الله عليهم - الى عبادة الله وحده وتصديق ما جاءهم به من عنده دون ان يسألهم على ذلك اجرا وهذا من قوله : **« لَنْ أَرْسِلَنَّ »**

فهو من المرسلين من جهة ارساله لانه منهم في اقواله وافعاله نظير قوله تعالى : « قُلْ مَا كُنْتُ بِمَعَاذٍ مِنَ الرُّسُلِ » وقوله : « بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْكُرْسِيُّ » وقوله : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .

ودليها الثالث : هذا الدين الكامل الجامع الذي هدى به النوع الانساني أفرادا وجماعات الى ما فيه سعادته ، فاطلق فكره وسدد نظره وقوم عقائده وهذب أخلاقه ونظم اجتماعه ووضع له قواعد الحياة والممران على العدل والاحسان ووجههم الى خالقهم وما أعد لهم عنده - ان آمنوا وعملوا الصالحات - من النعيم المقيم والرضوان التام .

ودليها الرابع : سلوكه هو في حياته على هذا الصراط المستقيم من يوم عرف الدنيا حتى فارقتها ، فكان يمثل على أكمل وجه لا يخل بشيء منه ، ثابتا عليه لا يحدد قيد شعرة عنه دون أن تعفظ عنه زلة - ولا تعرف منه في القيام به والدعوة اليه فترة ، ولا تقف أمامه قوة ، ولا ترد له حادثة حزمة ولا تحمله على هوادة فيه رغبة ولا رهبة ، ولا تبدل حاله رخاء ولا شدة فكان في كرم خلقه وتسام زهده وعظيم تالله وتوجهه لربه بعد ما فتح الله له الفتح المبين ودخل الناس أفواجا في الدين كما كان أيام كان وحيدا بين أعظم أعدائه من المشركين، وما هذا من شأن البشر وطبعهم لولا عصمة وتأييد رب العالمين .

العقيدة الثانية : القرآن كلام الله ووحيه ، ودليها أنه حكيم فما فيه من العلم وأصول العمل ، لا يمكن أن يكون الا من عند الله في عقائده ، ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها ، الى ما فيه من حقائق كونية كانت مجسولة عند جميع البشر، وما عرفت لهم الا في هذا العصر الاخير ، ومن أشهرها مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتى أصغر جزء منه وهو الجوهر الفرد المركب من قوتين موجبة وسالبة ، جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة منها . قوله تعالى : « وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَكُمْ تَذَكَّرُونَ » . ومنها مسألة حياة النبات التي جاءت في مثل قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا » ، ومنها مسألة تلاقي النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر الى الانثى ، جاءت في آيات كثيرة منها

قوله تعالى : « وَأَوْسَلْنَا الْوَيْتَانَ لَؤَاقِحَ » ، فهذه حقائق علمية كونية اجمع علماء العصر انها من المكشفات الحديثة ولم تكن معلومة عند أحد من الخلق قبل اكتشافها ولا كانت عندهم الآلات الموصلة الى معرفتها . وكفى بهذا القل من الكثر دليلا على أن هذا القرآن ما كان الا من عند الله الذى خلق الاشياء ويعلم حقائقها .

العقيدة الثالثة : الاسلام دين الله الذى شرعه وارفضاه ودليلها مستفاد من وصفه بأنه صراط مستقيم ، فهو تشريع تام عام لجميع أعمال الانسان، أعمال قلبه وأعمال لسانه وأعمال جوارحه وجميع ماملاته الخاصة والعامة بين أفراد وأمه، ولا تخرج كلية من كلياته ولا جزئية من جزئياته عن هذا الاصل العام المتجلى فى جميع الاحكام وهو « الحق والعدل والخير والاحسان » . وقد وضع عقلاء الامم شرائع فى بعض نواحى أعمال الانسان ولكنها باجماع المتشرعين لا تخلو من نقص واعوجاج واضطراب ، فهم ما يفتاون يتبعونها بالتكميل والتقويم والتعديل على ممر الايام ولو عرضت كل حكم من أحكامه على الاصل العام الذى ذكرناه لوجدته منطبقا عليه ظاهرا فيه حتى ما خفى وجهه على الامم الاجنبية عن الاسلام ايام تأخرها ، قد ظهر لها فضله ونفعه ايام تقدمها ، فجاء كبراء عقلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الاسلام ، ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أمهم للعادة الغالبة والوارثة التقليدية . منها مسألة الطلاق وتعدد الزوجات وتحریم الربا تحريما باتا ، فكم من عالم غير مسلم صرح بأن الحق والعدل والخير للانسانية فى هذه المسائل هو ما شرعه الاسلام على الوجه الذى شرعه الاسلام . بهذه الاستقامة التامة العامة المطردة فى شرع جاء به رجل أمى من أمة جاهلية يجزم كل عاقل بأنه ليس من وضع العباد وانما هو من وضع خالق العباد .(*)

الوحي مصدر الاسلام

جملة « تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » بينت وجه استقامة ذلك الصراط الذى هو الاسلام بانه تنزيل العزيز الرحيم . وأفادت أن جميع هذا الدين وحي من الله منزل على نبيه (ص) وهذا لأن مرجع الاسلام فى أصوله وفروعه الى القرآن وهو وحي من الله الى السنة النبوية وهى وحي أيضا لقوله تعالى : «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» وكل دليل من أدلة الشريعة فانه يرجع الى هذين الاصلين ولا يقبل الا اذا قبلاه ودلا عليه . وكل شئ ينسب للاسلام ولا أصل له فيهما فهو مردود على قائله . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من احدث فى امرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

الاسلام دين العز والرحمة : ذكر من اسمائه تعالى فى هذا الموطن العزيز الرحيم للتنبيه على أن هذا الدين الذى نزل به الرب الموصوف بالعزة والرحمة هو دين عزة ورحمة .

ومن مقتضى العزة القوة والمنعة والرفعة، ومن مقتضى الرحمة الفضل والخير والمصلحة، وهذه كلها متجلية فى أحكام الاسلام . والعدل والاحسان اللذان أمر الله بهما وانبت أحكام الاسلام عليهما لا يكونان الا عن العزة والرحمة، فالذليل لا ينهض بالحكم ولا يقيم ميزان العدل، ولقاسى لا يكون منه إحسان .

اهتداء واقتداء : فالمسلم المتحقق بالاسلام المهتدى بهدائته لا يكون الا عزيزا رحيمًا فالذلة من المسلم نقص فى اسلامه والقساوة مثلها نقص فيه، وقد ذكر الله تعالى سادات المسلمين فى عزتهم فقال : «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» . وذكرهم فى رحمتهم فقال : «وَيُؤْمِنُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» ونعم القدوة هم لجميع المسلمين .

الندادة ثمرة الرسالة : كان من المرسلين لينذر الغافلين فالاول كمال والثاني تكميل، وقد فطر الله رسله (ص) على الرحمة وحب الخير فكانوا احرص الناس على نجاة الناس وكمالهم وسعادتهم فصبروا على تكذيبهم واذايتهم حتى ادوا امانة الله اليهم واقاموا حجته عليهم وكان الله ينجيهم ومن آمن بهم وينزل عقوبته بالمكذبين لهم وينصرهم عليهم فأعلم محمدا (ص) - بانه من المرسلين لينذر - لياتسى بهم ويعصر صبرهم ويرجو من نصر الله له واهلاك أعدائه ما كان منه تعالى لهم .

اقتداء : العلماء ورثة الانبياء وما ورث الانبياء دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ، والعلم مستمد من الرسالة، فعلى أهله واجب التبليغ والندادة والصبر على ما فى طريق ذلك من الأذى والبلايا ، والعطف على الخلق والرحمة وقد قال الله تعالى : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » .

التدريج فى الانذار : ارسل الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم للمالين بشيرا ونذيرا ، ودرّجه فى الندادة على مقتضى الحكمة من القريب الى البعيد فأمره بانذار عشيرته بقوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، فصمد الصفا فنادى بطون قريش حتى نادى العباس عمه وصفية عمته وفاطمة ابنته وقال لهم اشترؤا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، وأمره بانذار من حول مكة من العرب بقوله تعالى : « لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، على الوجه الاقرب فى معنى « وَمَنْ حَوْلَهَا » المؤيد بصدر الكلام وهو قوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، ومثلها فى انذار العرب ما فى هذه الآية وهو قوله : « لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب فى المواسم . وأمره بتعميم الانذار بمثل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » فارسل رسله الى الامم تحمل كتبه الى ملوكها بالدعوة الى الاسلام وكان ذلك هو الانذار العام .

انفداع اشكال : قد كان النبي يرسل الى قومه خاصة وارسل نبينا (ص) الى الناس عامة بمثل قوله : « لَأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » اى بالقرآن كل من بلغه القرآن ولا يشكل على ذلك مثل ما تقدم من الآيات فى انذار

عشيرته الإقربين وقومه العرب لانه ابتدا بهما لحكمة التدرج وحق القريب
لا للتخصيص بدليل ما جاء من آيات التعميم .

اقتداء : هكذا على المرء أن يبدأ في الارشاد والهداية باقرب الناس اليه
ثم من بعدهم على التدرج ، وعندما يقوم كل واحد منا بارشاد اهله واقرب
الناس اليه لا نلبيث ان نرى الخير قد انتشر في الجميع . فمن الاسر تتركب
الامة فعندما يعنى كل واحد بأسرته ترتقى الامة كلها بارتقاء اسرها كارتقاء
أى كل بارتقاء أجزائه فيكون المعنى بأسرته فى الوقت نفسه معنيا بأمته
وعندما يقصد بخدمة أسرته خدمة أمته يثاب ثواب خادم الجميع ، أسرته
بالفعل وأمته بالقصد أو أسرته مباشرة وأمته بواسطة وكل هذا مما يثاب
المرء شرما عليه .

استطراد واستنباط : لما كان العرب لم ياتهم نذير قبل النبى صلى الله
عليه وآله وسلم بنص هذه الآية وغيرها فهم فى فترتهم ناجون لقوله تعالى :
« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » ، و « أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ
وَلَا نَذِيرٍ » ، وغيرها، وكلها آيات قواطع فى نجاة اهل الفترة ولا يستثنى من
ذلك الا من جاء فيهم نص ثابت خاص كعمر بن لحي أول من سيب السوانب
وبدل فى شريعة ابراهيم وغير وحلل للعرب وحرم ، فأبوا النبى (ص)
ناجيان بموم هذه الادلة ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن انس (ض)
« ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يا رسول الله أين أبى ؟ قال :
فى النار، فلما قفنا الرجل دعاه فقال ان أبى وأباك فى النار » لأنه خير
آحاد فلا يعارض القواطع وهو قابل للتأويل بحمل الاب على العم مجازا
يحسنه المشاكلة اللفظية ومناسبته لجبر خاطر الرجل وذلك من رحمته (ص)
كريم اخلاقه .

سبب الغفلة ودواؤها : أفادت الفاء فى قوله تعالى : « فَهُمْ غَافِلُونَ » ان
غفلتهم تسببت عن عدم انذارهم . فكل أمة انقطع عنها الانذار وترك فيها
التذكير واقعة فى الغفلة لا محالة . ولما كان ترك الانذار والتذكير موقعا فى
الغفلة ، فالانذار والتذكير يزيلانها ، فقد عرفتنا الآية الكريمة بسبب الغفلة
وبعلاجها لنحذر سببها ونعالج أنفسنا وغيرنا بعلاجها .

تطبيق : كان الناس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يسمع منهم لفظ
الامتداء بهداية القرآن العظيم والاعتداء بهدى الرسول الكريم (ص) والسير
بسيرة السلف الصالح في النهوض باعباء الدنيا والدين وهم - الا قليلا -
من هذا غافلون ، أما اليوم بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم ونشروا
دموة الحق في قومهم فقد أصبح ذلك معروفا عند أكثر الناس وعناية
طلاب العلم ومناط رغبتهم وفي متناول الناس بجمع طلقاتهم. وانا لندرجو
من فضل الله المزيد . ونشاهد ذلك - والحمد لله - كل يوم يزيد فالحمد
لله على ما علم وآلهم وبصر ويسر . نسأله دوام التفويق والتسديد يا رب
الماسين (1) .

(1) الشهاب : ج 3 م 10 - ذو القعدة 1352 هـ فيفري 1934 م .

لا يؤمن من سبق فى علم الله عدم إيمانه

« لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

(سورة يس ، الآية 7)

المناسبة : علم الله ان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يقوم بالندارة لقومه ويبذل غاية جهده فى تنبيههم من الغفلة ، وانقاذهم من الهلكة .
وعلم انهم لا يؤمن به الا اقلهم وعلم ان ذلك يكون من اعظم ما يؤلم النبي (ص) لشدة حرصه على ايمانهم ، وعظيم شفقتة عليهم . ولعلم ظهور ثمرة ما بذله من جهد فى هدايتهم ، فاراد - تعالى - ان يقوى قلب نبيه (ص) على تحمل ذلك باعلامه به من اول الامر اذ ليس المؤلم المتوقع كالمؤلم الذى يصدم عن مفاجأة ، واعظم منه الذى يصدم مع توقع ضده كما هنا فان المتوقع منهم بعد الانذار البالغ بالبرهان الساطع هو ايمان اكثرهم لا كفره .

المفردات : حق : وجب وثبت . القول : - قول الله فيهم بما سبق فى علمه انهم لا يؤمنون - فهم : أى اكثرهم .

التراكيب : نفى الايمان عنهم نفيا مؤكدا بالاخبار عن ضميرهم بجملة لا يؤمنون . وقرنت الجملة بالفاء السببية لتفيد ان من سبق فى علم الله عدم ايمانه لا يرجى ايمانه بحال فارتباط الثانى بالاول ارتباط لا انفكاك له .

المعنى : لقد وجب وثبت ما سبق فى علم الله فى اكثرهم وما كان من قوله بعدم ايمانهم فلا يرجى من ذلك الاكثر الذى سبق فى علم الله عدم ايمانه ايمان .

سؤال : ما مات النبي (ص) حتى عم الاسلام جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله افواجا ولا شك ان الذين ماتوا على الكفر هم الاقل بالنسبة لمن آمنوا فما معنى قوله تعالى : **« حَقُّ الْقَوْلِ عَلَى أَكْثَرِهِمْ »** .

جوابه : الذين قام النبي (ص) بانذارهم واقام بين ظهرانيهم مكررا للندارة عليهم صباح مساء مدة ثلاث عشرة سنة هم أهل مكة . فهم الذين تتعين ارادتهم من الضمير في قوله تعالى : **« أَكْثَرُهُمْ »** . ولا شك ان أكثر من انذره النبي (ص) من أهل مكة ماتوا على الكفر .

سؤال على هذا الجواب : هذا يقتضى ان المراد بلفظة **« قوما »** المتقدمة أهل مكة مع ان المفسرين فسروها بالعرب .

جوابه : نسلم هذا ويكون تفسير **« قوما »** بالعرب نظرا لمائلتهم لاهل مكة في وجوب انذارهم باعتبار مشاركتهم لهم في الوصف وهو غفلتهم لعدم انذار آبائهم .

لا حجة لمن مات على كفره بما سبق من علم الله فيه : قامت حجة الله على خلقه بما ركب فيهم من عقل وما مكنهم من اختيار . وما نصب لهم من آيات ومشاهدات . وما أوصل اليهم من رسل بآيات بينات ، وهذه كلها أمور مطلومة لديهم ضرورية عندهم لا يستطيعون ان ينكروا شيئا منها ، فلا يمكنهم ان يجحدوا ما عندهم من عقل ومن اختيار ، ولا ان ينفوا ما يشاهدونه من الآيات في المخلوقات ، ولا ان ينكروا مجيء الرسل اليهم وما تلوا عليهم من آيات . وبهذه الاشياء قامت حجة الله عليهم وكان جزاؤهم على ما اختاروه بعدها لانفسهم فاما ما سبق من علم الله فيهم فهو أمر مغيب عنهم غير مؤثر فيهم - لان العلم ليس من صفات التأثير - ولا دافع لهم . فليس لهم ان يحتجوا به لانفسهم لانهم لم يعملوا لاجله ، كيف وهو مغيب عنهم . وانما عملوا باختيارهم الذى يجدونه بالضرورة من انفسهم .

توجيه للترتيب : تقوم حجة الله على العبد أولا ويعمل هو - كاسبيا ومكتسبا - باختياره ثانيا ويظهر لنا ما سبق من علم الله فيه بعد ان

اختار ما اختار ثالثا • ولهذا قدمت النذارة وما يرتبط بها على هذه الآية
التي فيها بيان ما سبق من علم الله فيهم •

تقريب : قد يكون لرجل ولدان هو عالم بنفسيتهما واخلقهما وسيرتهما
ثم يامرهما بأمر فيه الخير لهما وهو يعلم - بما علم من أحدهما - انه
يمتثل ، ويعلم - بما علم من الآخر - انه يخالف ويقول لاهل بيته ان فلانا
سيمتثل ، وان فلانا سيخالف • فيظهر ما قاله وما علمه في كل واحد منهما
فجازى الممتثل على طاعته وجازى المخالف على عصيانه • فلا شك ان هذا
الرجل قد احسن الى ولديه بما أمرهما به من خير، وفعل ما تقتضيه أبوته
من النصيح والارشاد ولا يقدح في ذلك علمه بما سيكون منهما • كما ان
هذين الولدين قد نال كل واحد منهما ما يستحق دون ان يكون للمخالف
منهما حجة على مخالفته بما كان يعلمه منه أبوه •

لله المثل الأعلى، فقد أحاط بكل شيء علما، فعلم من سيطيحه ومن
سيعصى • ولكنه الحكم العدل فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذي
لا دخل لهم فيه بل جعل جزاءهم بعد اقامة الحجة عليهم بما يكون من
اختيارهم ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت ايديهم، وما لهم دخل فيه
بالكسب والاكْتِسَاب •

تعليم : أرايت كيف ان الله تعالى لم يجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم
وهو العلم الذي لا يتخلف، وانما جعل جزاءهم على أعمالهم ، فهذا تعليم لنا
كيف تكون معاملتنا لبعضنا لبعض فلا نجازى على مجرد الظن بل ولا على
مجرد اليقين وانما تكون المجازاة بعد صدور الاعمال • فرب شخص قدرت
فيه الخير أو الشر ففعل ضد ما قدرت فلو جازيته قبل الفعل لما طابق
جزاؤك موضعه ولنال كل ما لا يستحقه، فالحكمة والعدل والمصلحة في
ربط المجازاة بالاعمال وهذا ما كان من الله في مجازاة خلقه وهذا ما ينبغي
ان نربط به المجازاة بيننا •

تمثيل حال المعرضين عن الحق المعاندين فيه

« إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

(سورة يس ، الآية : 8 - 9)

المناسبة : لما ذكر عدم ايمانهم وكان مبدأ ذلك باعراضهم عن الحق واختيارهم الكفر على الايمان ذكر ما عاقبهم الله به من منعهم عن الخير ودوام الاعراض عنه .

المفردات : الغل : ما يجعل في العنق محيطا به . الذقن : مجمع اللحين ، ملتقى عظميها تحت الفم . مقمحون : رافعون رؤوسهم ، يقال قمح البعير قموحا اذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع عن الشرب . ويقال اقمحه الغل اذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه . السد : الحاجز بين الشيئين . فاغشيناهم : جعلنا عليهم غشاء أى غطاء ، احاط بجمع الذات فمنع العيون من الابصار .

التراكيب : فهى الى الاذقان أى الاغلال منتهية من أسفل الأعناق الى الاذقان . وهذا كناية عن عرضها ولذا فرع عليه فهم مقمحون . فرع عدم إبصارهم على جعل سد أمامهم وسد خلفهم لالتزاق السدين بهم وضغطهما عليهم فكما لا يستطيعون معها تحركا لا يستطيعون إبصارا ، وكيف يبصر من وجهه ملتزق بالعائط مثلا .

المعنى : انا جعلنا فى اعناق هؤلاء الذين لا يؤمنون اغلالا ضيقة عريضة تركتهم رافعين رؤوسهم عن مناهل الايمان لا يستطيعون ان يطاقثوا رؤوسهم اليها فيرتووا . وجعلنا امامهم حجابا وخلفهم حجابا محيطين وملتزقين بهم ومغطيين لجميع ذواتهم فلا يستطيعون معها تحركا ولا إبصارا .

توجيه التمثيل : دعوا الى الايمان والتوحيد ومكارم الاخلاق وهذه امور مدرك حسننها بالفطرة السليمة فهي كالماء الذى تقبل عليه الحيوانات بفطرتها فلما اعرضوا عنها شبهوا بالابل المقتعة عن الماء . ثم ان هذه الامور كما يدرك حسننها بالفطرة السليمة تدرك باستعمال النظر فيما بين يدي الانسان من الآيات التى يراها ويشاهدها وما خلفه من ايام الله فى الامم التى بلغت اخبارها وانباؤها فلما اعرضوا عما يرون وما قد سمعوا شبهوا بمن جعل بين سدين ملتزقين ومحيطين به فوجد فى مكانه فلا هو يتحرك الى ناحية ولا هو يبصر شيئا .

ترهيب : كل ما دعا اليه الاسلام من عقائد واخلاق واعمال فهو ما تقبله الفطر السليمة وتدركه العقول بالنظر الصحيح فمن قابل دعوة الاسلام بالاعراض والعناد وخالف فطرته وعاكس عقله كان حقيقا بهذا المقاب الشديد من طمس البصيرة والطبع على القلب فذكر الله لنا هذه العقوبة بهذا التمثيل البليغ الذى صورها فى اشبع وافظع صورة ، ليحذرننا من الاعراض عن الحق والعناد له ويخوفنا بعاقبة ذلك على امله .

تعليم : لكل انسان فطرته وعقله فعلينا اذا دعينا الى شئ ان نعرضه عليهما وارجعنا الى الفطرة الانسانية والى العقل البشرى منزهي عن الاغراض والاهواء والالوهام والشبهات . فاذا كان هؤلا بمسلم الاستفادة منهما فان النجاة عندما تعرض الامور بالرجوع اليهما ، وتجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة ليعلمنا الرجوع اليهما والاستفادة منهما .

من استوى عنده الإنذار وعدم الإنذار
لا يرجى منه إيمان

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

(سورة يس ، الآية 10)

المناسبة : لما ذكر - تعالى - عدم ايمانهم لما سبق من علم الله فيهم ذكر هنا سببا آخر لذلك ، وهو استواء الانذار وعدمه لديهم .

التوبيخ : ذكر هذا السبب اثر ما تقدم من وصف حالهم فى شدة الاعراض للتنبية على ان من فسدت فطرته وانطمس عقله يستوى عنده الانذار وعدمه فلا يكون منه ايمان على كل حال .

المفردات والتراكيب : سواء : بمعنى مستو . والهمزة الاولى اصلها للاستفهام وليس مراداً هناء وتسمى فى مثل هذا التركيب همزة التسوية لوقوعها بعد لفظها ودخولها على الاول من امرين يراد التسوية ما بينهما .
ومى حينئذ من ادوات السبك ولذا يكون تاويل الكلام هكذا: سواء عليهم انذارك وعدم انذارك .

المعنى : ان اكثر اهل مكة الذين حكم الله بعدم ايمانهم بلغوا من شدة الاعراض والعدا الى حيث استوى عندهم الضدان: الانذار وعدم الانذار فمحقق منهم عدم الإيمان ومايوس من صدوره من ناحيتهم .

تعدير : يذكر الله تعالى حالة هؤلاء الذين استوى عندهم الشىء وضده يحلرنا منها وما يؤدى اليها من احوال الفطرة وترك النظر . فان الانسان انما يمتاز على بقية الحيوان بتمييزه بين العقائق بالفطرة والفكرة ، وادراكه الفوارق ما بينها . فاذا سلب هذه المزية التحق بالمجموات بل كانت المجموات خيراً منه لبقاء فطرتها سليمة لادراك ما فيها استعداد لإدراكه .

تجديد الإنذار للمتفيعين به وتبشيرهم

« إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » .

(سورة يس ، الآية 11)

المناسبة : لما ذكر تعالى المايوس من انتفاعهم بانذار النبى (ص) ذكر الذين ينتفعون به تاييساً له بهم وتقوية له بظهور ثمره انذاره فيهم .

المفردات والتراكيب : الذكر : القرآن . وهو من اسمائه التي تكررت في التنزيل . وال فيه للمهد . الغيب : الخلة عندما يغيب الانسان عن عيون البشر . التبشير : الاخبار بما سر . المغفرة : سترة الذنب بالتجاوز عنه وعدم المؤاخذه به . الاجر : الجزاء على العمل . الكريم : الطيب الشريف في نفسه النافع في اثره الذي لا يشوب ذاته نقص ، ولا منفعته ضرر . واقاد المضارع في تنذر تجديد الانذار للمتبعين وذكر اسم الرحمن ليفيد التركيب انهم يخشونه مع العلم برحمته وذلك يقتضى جمعهم بين الخوف والرجاء .

الترتيب : ذكر المنتفعين بعد المايوس من انتفاعهم ترقيا من الأدنى الى الأعلى ، ولانهم كالزبدية التي يحصل عليها بعد طرح غيرها ، ولإراحة القلب من أولئك لتتوجه العناية التامة الى هؤلاء . وذكرت الخشية بعد الاتباع لانها لا تحصل الا به . وجيء بعد بالتبشير مقرونا بالفاء لانه انما يكون لاهل الاتباع والخشية بسبب اتباعهم وخشيتهم ، وذكر الاجر بعد المغفرة لان التحلية بعد التخلية والتزوين بعد ازالة الاردان .

المعنى : انما يتجدد انذارك وينتفع به الذين آمنوا وهم الذين اتبعوا القرآن وخافوا الله في خلواتهم لصدق ايمانهم خاشعين نعمته راجين رحمته وهؤلاء كما تنذرهم وينتفعون بانذارك بشرهم على اتباعهم للقرآن وخشيتهم بالغييب للرحمن بمغفرة ذنوبهم وجزاء شريف ربيع طيب نافع لا نقص فيه ولا تنقيص - على اعمالهم .

دفع إشكال : أمر النبي (ص) بالإنذار العام ، ثم كان ممن أنفرهم قوم مايوس منهم ، وهؤلاء هم المراد بقوله تعالى : « لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ ، الآيات ، وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى : « فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ، الآية اذ لا فائدة من انذارهم ، وكان قوم آخرون آمنوا وهؤلاء هم المرادون بقوله : « إِنَّمَا تَلِيُوْا ، الآية ، فلا منافاة بين قوله تعالى : « لَتَنَلُوْا قِسْمًا ، الذي يقتضى التعميم وقوله : « إِنَّمَا تَلِيُوْا ، الذي يقتضى التخصيص لان الاول في مقام الانذار العام والثاني في مقام تجديد الانذار والانتفاع به . واما الاعراض فلا يكون الا عن المايوس منه من الكافرين .

اوشاد : طريق السلوك الشرعى انما هى اتباع القرآن واكمل احوال
العبد ان يخشى الله ويرجو رحمته واهل الاتباع والخشية لا يستغنون عن
تجديد الانذار وذلك بدوام التذكير المشروع فى الاسلام . وتذكير المؤمنين
بانذارهم وتبشيرهم فلا يؤمنون من عذاب الله ولا يقنطون من رحمته .

صفة المؤمن من هذه الآيات : المؤمن الكامل هو من سلمت فطرته ،
وصح ادراكه ، واتبع القرآن فى عقده وخلقه وعمله ، واستوت خلوقه
وجلوته وسره وعلنه ، وعبد الله راجيا رحمته خائفا عذابه ، يخوفه الانذار
وترجييه البشرى بالمغفرة والاجر الكريم .

ثبتنا الله والمسلمين على الايمان مع هذه الصفات الى المات آمين يا رب
العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 5 م 10 - محرم 1353 هـ الفريل 1934 م .

الحياة بعد الموت

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ... » .

(سورة يس ، الآية 12)

المناسبة : اشتملت الآيات المتقدمة على ذكر الرسول وصفته ، ورسالته التي جاء بها - وهي القرآن - ووصفها ، والمرسل وهو العزيز الرحيم ، والمرسل اليهم وتمييمهم بالندارة وانقسامهم الى معرضين معاندين ومقبلين متبعين . فجاءت هذه الآية مشتملة على ما تكون فيه نتيجة ذلك وثمرته وهو يوم القيامة . ووجه آخر وهو ان أمهات أصول العقائد ثلاثة : الايمان بالله والايمان برسول الله والايمان باليوم الآخر . وقد انتظمت الآيات المتقدمة تقرير الاصل الثاني بالقسم عليه على ما تقدم من البيان وانتظمت الاصل الاول ضمنا بذكر العزيز الرحيم، فجاءت هذه الآية لتقرير الاصل الثالث .

سؤال : كيف لم يذكر الاصل الاول وهو الاصل الاول - الا بما ذكر به من الذكر الضمني ؟

الجواب : ذلك لأمرين :

الاول : ان هذه الاصول الثلاثة تذكر في أكثر السور غير ان بعض السور تخصص بالحديث على بعض الاصول أكثر من غيره ولا يذكر فيها غيره الا ضمنا كما هنا .

الثاني : ان تقرير الاصل الثاني هو تقرير للاصل الاول اذ جميع دلائل النبوة دلائل على وجود الخالق وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

المفردات : الاحياء : ايجاد الحياة فى الجسم ولا يكون الا من الله .
والميت : الجسم الذى يقبل الحياة ولا حياة فيه سواء اكانت فيه وزالت، أم لم تكن فيه بعد كالجنين قبل نفخ الروح فيه .

التراكيب : اكدت الجملة (بأن) لأن الخطاب مع منكسرى البعث والنشور . واكد اسم ان نحن ليفيد الاختصاص فهو المحيى دون غيره وعبر بنحى فعلا مضارعا ليفيد تجديد الاحياء واستمراره، فيشمل احياءه للأجنة فى الدنيا وإحياءه الاحياء الثانى فى الأخرى، وكثيرا ما جاء فى القرآن الاستدلال على الإحياء الثانى بالإحياء الاول، فتكون كلمة نحى قد اشتملت على المعقيدة وهى الإحياء الثانى ودليلها وهو الإحياء الاول .

المعنى : يعرف الله تعالى عباده بأنه هو الذى يحيى الموتى دون غيره ويذكرهم بما يشاهدونه من ذلك فيهم وهم أجنة فى بطون أمهاتهم فيؤمنون بأنه يحييهم كذلك بعد موتهم ، فيستمدون من حياتهم الاولى لحياتهم الثانية.

إحصاء الأعمال المباشرة وغير المباشرة

« وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ... » .

المناسبة : لما اعلم الخلق بانهم يحيون بعد الموت اعلمهم بان أعمالهم المباشرة وغير المباشرة مكتوبة عليهم لان حياتهم بعد الموت لنيل جزاء ما كتب عليهم من أعمالهم .

المفردات : قلم الشيء : جعله قدامه واعمال المرء التى يباشرها قسمها قبله فى طريقه الى الآخرة فهى محفوظة حتى يلحقها . والآثر : ما يحصل من العمل كالذى يحصل على وجه التراب من وضع الاقدام ويبقى بعد رفعها فآثار الانسان ما يحصل من أعماله التى يباشرها .

التراكيب : عبر بنكتب مضارعا ليفيد التجدد والاستمرار فما من عمل أم اثر يتجدد الا ويكتب . واسند الكتابة اليه والكاثبون الملائكة لانهم بأمره يكتبون .

المعنى : يعلم الله تعالى عباده بأنه يكتب كل أعمالهم التي يعملونها ويباشرونها بأنفسهم ويكتب كذلك ما يعمله غيرهم اذا كان متسببا عن أعمالهم واثرا لها .

تنظيم : مثل هذه الآية فى الدلالة على ان العبد مؤاخذ بما عمل مباشرة وما عمله غيره وكان من آثار عمله - قوله تعالى : « يُتَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » فالذى أخره هو اثره المذكور فى هذه الآية .

تأييد وبيان : فى صحيح مسلم من طريق جابر بن عبد الله (ض) قال : جاء ناس من الاعراب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم الصوف فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فابطأوا عنه حتى رأى ذلك فى وجهه قال : ثم إن رجلا من الانصار جاء بصرة من ورق ثم جاء آخر ثم تتابعوا حتى عرف السرور فى وجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء » ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء » .

وفيه من طريق أبى هريرة (ض) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا . ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثم من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

فتأييد بهذين الحديثين فهم المعنى المتقسم من الآية وهو ان العبد له وعليه من آثار أعماله مما لم يباشره بنفسه مثل ما له وعليه من أعماله التي يباشرها .

وبين الحديث الاول ان ما تسبب عن عمل المرء يعد اثرا لعمله عندما يعمل به فى حياته مثلما يعمل به بعد مماته . اذ الذى جاء بالصرة أولاً قد تسبب عن مجيئه مجيء من بعده على اثره . والحديث سبق فى شأنهم فتكون حالتهم اول ما يشمل كما بين الحديث الثانى ان اثر القول كاثر

المعنى : يعلم الله عباده بانه حصل كل شيء من ذوات وأقوال وأفعال
وجميع ما كان فى العالم وما يكون واثبته فردا فردا فى كتاب امام معتمد
مظهر للاشياء التى فيه فهى فيه ثابتة ظاهرة جليلة .

اعتبار : قد أحاط الله بكل شيء علما فهو غنى بعلمه عن هذه الكتابة
ولكنه جعل هذا الكتاب اظهارا لعظمة ملكه وليعلم عباده الضبط والاحصاء
فى جميع امورهم وليبالغوا فى محاسبة انفسهم وليعلموا ان ما أصابهم
لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم . فيزول من قلوبهم الخوف
من الحوادث والمخلوقات وتمظم قوتهم بالله وفى ذلك أعظم قوة فى هذه
الحياة وأكبر راحة للقلب فى صروفها .

نسأل الله ان يقوى قلوبنا بالايمان ، وان يريحنا باليقين ، وان يعيذنا
من الخوف الا منه ، ومن الخضوع الا له آمين يا رب العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 6 م - 10 صفر 1353 هـ ماى 1934 م .

المعنى : يعلم الله عباده بأنه حصل كل شيء من ذوات وأقوال وأفعال
وجميع ما كان في العالم وما يكون واثبتته فردا فردا في كتاب امام معتمد
مظهر للاشياء التي فيه فهي فيه ثابتة ظاهرة جليلة .

اعتبار : قد أحاط الله بكل شيء علما فهو غنى بعلمه عن هذه الكتابة
ولكنه جعل هذا الكتاب اظهارا لعظمة ملكه وليلم عباده الضبط والاحصاء
في جميع امورهم وليبالغوا في محاسبة أنفسهم وليلموا ان ما أصابهم
لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم . فيزول من قلوبهم الخوف
من الحوادث والمخلوقات وتمطم ثقتهم بالله وفي ذلك أعظم قوة في هذه
الحياة وأكبر راحة للقلب في صروفها .

نسال الله ان يقوى قلوبنا بالايمان ، وان يريحنا باليقين ، وان يميّزنا
من الخوف الا منه ، ومن الخضوع الا له آمين يا رب العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 6 م - 10 صفر 1353 هـ ماي 1934 م .

الفرار الى الله

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) ، وَالْأَرْضَ
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) ، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُبِينٌ (50) ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُبِينٌ (51) » .

(سورة الذاريات)

تمهيد : المقصود الاساسى من الآيات هو تحذير الخلق من الهلاك وترغيبهم فى النجاة ، ولا سبيل الى ذلك الا بالفرار الى الله فمهد لذلك بالآيات الثلاث الاولى للترغيب، وختم بالخامسة لبيان الفرار الصحيح المنجى عند الله .

الآية الاولى :

الالفاظ والتراكيب : السماء : هى الجرم الاعظم الذى احاط بالاجرام السابحة فى الفضاء كلها وعلا عليها . **بنيناها :** ضمنا اجزاءها بعضها الى بعض بغاية الدقة والاحكام فكانت كالقبة فوق الجميع . **بأييد :** بقوة . **لموسعون :** لمقتدرون ومطبقون على احتمال أن يكون من الوسع بمعنى القدرة والطاقة . **أو لموسعون ومبعدون** بين أرجائها على احتمال أن يكون من السمة . وقدمت السماء لانها المشاهد المحسوس الذى تقوم به الحجة . **وليقع البناء** عليها مرتين على لفظها وعلى ضميرها، لان الأصل ، **وبنينا السماء بنيناها** لتحقيق أنها مبنية وأن بناها لم يكن الا من الله القادر الحكيم ، ولذلك علق بالفعل قوله **بأييد** ، والجملة الحالية تدل على أن

الاياساع ثابت له عند البناء فذلك البناء العظيم لم ينقص من قدرته أو لم يمنع من توسيعه .

المعنى : ان هذه القبة التى أحاطت بكم من جميع الارحاء نحن بنيناها بقدرتنا ذلك البناء المحكم المتقن بنيناها ونحن على قوتنا وقدرتنا نقدر على بناء أعظم منها لو شئنا . أو نحن على قدرتنا وطاقتنا فى افاضة الخيرات والبركات منها عليكم - هذا على أنه من الوسع - أو بنيناها وقد وسعنا اديمها حتى أحاطت بهذه الاجرام السابحة التى منها ما لا يكون معه جرم الكرة الارضية الا كحمصة فوق مائدة كبيرة - هذا على أنه من السعة - .

تحقيق آية كونية من الآيات القرآنية : السماء فى اللغة : هى كل ما علاك فكل ما علا الارض من سحب وطبقات هواء وكواكب تسبح فى الفضاء وما وراء ذلك من القبة المحيطة الكبرى هو للارض سماء ، وكل هذه مثقنة الصنع محكمة الوضع متلاحمة الأجزاء ، مرتبط بعضها ببعض ارتباطا مقدرًا بالمسافات المدققة التى لا يكون معها تصادم ولا ارتخاء ، ووضعها على هذه الصورة المنظمة المحكمة هو البناء وعليها كلها ينبى أن يحمل لفظ السماء فى الآية المتقدمة .

وقد جاء لفظ السماء فى القرآن مرادًا به القبة المحيطة فى مثل « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ » ، « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » . وجاء مرادًا به السحاب فى مثل : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْزِجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَسرى أَلْوَقٌ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ » وجاء مرادًا به طبقات الجو فى مثل : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ، والبرد يتكرر فى طبقات الجو والمتتابع لمواقع لفظة السماء من الكتاب المزيّن يتحقق هذا .

الآية الثانية :

الالفاظ والتراكيب : الارض : هى هذه الكرة التى نعيش عليها ، فرشناها : بسطناها بزينتها ومنافمها . الماهلون : من مهد الشئ وضعه وسواء وهيام للنوم والجلوس والراحة . ويجرى فى تقديم الارض ما تقدم فى تقديم السماء ، ومن يسير على هذا البساط المفروش ويطلع على ما هى

فيه من اسباب الحياة لكل ما فيه من حيوان لا يتمالك أن ينطق بالمدح والثناء على من هيا هذه التهيئة ومهد هذا التمهيد ، ولذا قرنت الجملة الاخيرة بالفاء فقيل فنعم الماهدون ولا يفنى فرش الارض من مهدها لان المهد يتضمن ما حصل فيها من مرافق ومواد واسباب للميش على أديمها والتنعم بخيراتها .

المعنى : ان الارض التى انتم متمكنون من الوجود على ظهرها والسير فى مناكبها والانتفاع بخيراتها نحن فرشناها لكم وهيانا لكم اسباب الحياة والسعادة فيها على اكمل وجه وانفعه وأبدعه مما نستحق به منكم الحمد والثناء .

دقيقة كوفية فى الآية القرآنية : شأن الفراش أن يكون ما تحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه وما تحت وجه الارض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه فان تحت القشرة العليا من الارض المواد المصهورة والمياه المدنية والابخرة الحارة مما تنطق به البراكين المنتشرة على وجه الارض فى أماكن عديدة فكانت القشرة العليا مثل الفراش تماما .

الآية الثالثة :

الالفاظ والتراكيب : ومن كل شيء : من كل جنس من الاجناس .
خلقنا : كرنا . زوجين : فردان متباينان يكمل أحدهما الآخر فى عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد . **تذكرون :** تذكرون ما أودع فى فطرتكم من المعرفة لما تنظرون بمقولكم فى عجائب الخلق فتذكرون ما له جل جلاله من الالوهية والربوبية والوحدانية، وقدم من كل شيء لان الاشياء هى المستدل بها ولبعث الهم على النظر فيها .

المعنى : انا خلقنا الاشياء التى تشاهدونها على الزوجية والتركيب من شيئين متضادين لتكونوا بحيث يرجى منكم أن تعلموا أن النقص والعجز عم المخلوقات كلها لحاجة كل شيء منها الى ضده وقصوره بنفسه فالقدرة والكمال للخالق وحده فلا يستحق العبادة سواء فاعبدوه ووحده .

توسع فى التذكير : النظر فى الأزواج مفضى للعلم بما ذكرنا وللعلم بان الخلق غير صادر عن طبيعة الاشياء ، فان النار - مثلا - لا يصدر عنها

التبريد والتسخين لان السبب لا ينتج الضدين ، فالمخلوقات كلها صادرة بطريق الخلق عن فاعل مختار ، وللعلم بوجوده كثيرة من احاطة علمه وشمول حكمته وعموم نعمته .

حقيقة نفسية فى تكتة بلاغية : اذا نظر العاقل فى هذه الازواج وفكر انكشفت له وجوه سر دلائل الربوبية والالوهية والتوحيد ، واذا حصل الانكشاف الاول تبعته انكشافات فاذا حصل منه التذكر افضى به الى تلك الوجوه الكثيرة ، ولهذا نزل الفعل منزلة اللازم الذى لا يراد منه الا حصول الحدث .

آية كونية فى الآية القرآنية : من الازواج ما هو ظاهر مشاهد معلوم من قديم مثل السماء والارض والليل والنهار والحر والبرد والذكر والانثى فى الحيوان وبعض النبات ، ومنها ما كشفه العلم بما مهد الله له من اسباب كالجزم الموجب والجزء السالب فى القوة الكهربائية وفى الذرة التى هى اصل التكوين ، فلا فردية الا لخالق هذه الازواج كلها الذى انبانا بها قبل ان تصل الى تمام معرفتها العقول ، فكان من معجزات القرآن العلمية التى يفسرها الزمان بتقدم الانسان فى العلم والعمران .

بلاغة التنويع والتنزيل : لما كانت السماء متلاحمة الاجزاء فى العلواء ثابتة على حالة مستمرة فى هذه الدنيا على البقاء ناسبها لفظ البناء ، ولما كانت مظهر العظمة والجلال ناسبها لفظ القوة ، ولما كانت الارض يطرأ عليها التبدل والتغير بما ينقص البحر من اطرافها وبما قد يتحول من سهولها وجبالها وبما يتعاقب عليها من حرث وغرسة وخصب وجذب ناسبها لفظ الفراش الذى ييسط ويطوى ويبدل ويغير . ولما كانت اسباب الانتفاع الميسرة ضرورية للحياة عليها وكلها مهياة وكثير منها مشاهد وغيره معد يتوصل اليه بالبحث والاستنباط - ناسب ذكر التمهيد ، ولما كانت الازواج مكونا بعضها من بعض ناسبها لفظ الخلق ، ولما كان النظر فى الزوجين هو نظر فى اساس التكوين لتلك المذكورات السابقة وهو محصل للعلم الذى يحصل من النظر فيها قرن بلفظ التذكر .

الآية الرابعة :

الالفاظ والتراكيب : الفاء للترتيب لان ما قبلها على ما فيه من عظمة وكمال وجمال فهي مخلوقة موسومة بسمة المعجز والنقصان فلا يصلح شيء منها للتمويل عليه فلم يبق الا الخالق القادر ذو الجلال والاكرام ، فهو الذى يفر اليه دون جميع المخلوقات . **فسروا :** اهربوا . **النذير :** المعلم بما فيه هلاك لتجنب الاسباب المؤدية اليه . **المبين :** الذى يوضح ما انذر منه والاسباب المؤدية اليه والوسائل المنجية منه مع اقامة الحجة على صدقه ونصحه . **وقدم لكم** ليفيد اهتمامهم بهم وذلك يجلبهم اليه فيستمعوا لنصحه وبعده منه ليبين مصدر رسالته وذلك ليبين لهم انه مأمور فلا يستكبروا عن قبول دعوته ، وأكد الجملة لانهم فى مقام التردد او الانكار .

المعنى : هذه المخلوقات كلها عاجزة فى نفسها مفتقرة - ابتداء ودواما - الى خالقها ، فاهربوا من شرها الى خالقها فهو الذى ينجيكم من شرها ويهديكم الى خيرها ولا تغتروا بشيء منها فانها لا تملك حفظا لنفسها فكيف تملكه لغيرها ، اننى احذركم الهلاك اذا اغتررتكم بها وقطعتكم عن خالقها ولم تهربوا الى الله منها وقد ابنت لكم مصدر الهلاك وطريق النجاة .

نكتة التنويع : جاءت الثلاث الآيات الاول كما يكون قولها من الله ، وجاءت هذه الآية كما يكون قولها من النبى صلى الله عليه وآله وسلم تنوعا للخطاب وتفننا ، فانه لما كان ما فى هذه الآية هو المقصود حول اسلوب الكلام من الاخبار الى الامر تجديدًا لنشاط السامع وبعثا لاهتمام المخاطبين وحثا لهم وتوكيدا عليهم ، وفيه تنبيه على ان ما يقوله النبى صلى الله عليه وسلم مثل ما يقوله الله فى وجوب الايمان والامتنال .

بيان وتوحيد : هذا العالم بسمائه وارضه وأزواجه هو فتنة للانسان بما فيه من لذائذ ومن جمال وما فيه من قوة وما فيه من سلطان ، وقد ركبت فى الانسان شهواته وأهوائه وسلط عليه الشيطان يغويه ويزين له ، فكل هذا العالم اذا ذهب فيه الانسان مع أهوائه وشهواته تحت اغراء الشيطان وتزيينه فانه ينحط الى أسفل السافلين ويصير عبدا لأهوائه

وشهواته وشيطانه ولكل ما فتنه من العالم وذهب يلبه وقد ينتهى به ذلك الى عبادته من دون خالقه . فالعالم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهروب منه ، ولا يكون هذا الفرار منه الا الى خالقه بالايمان به والتصديق لرسله والدخول تحت شرعه ، فبذلك يعرف الانسان كيف يجعل حدا لاهوائه وشهواته ، وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه ، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه ، وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع ، فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة فيستغلها بهداية الشرع مفرقا علميا وعمليا بين منافعها ومضارها ، فيعظم بها انتفاعه ، ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه ، فتتضاعف عليه منها الخيرات والبركات ، ويزداد علمه وعرفانه ، ويقوى يقينه وايمانه ، ويمظم لله بره وشكرانه فيكون له ذلك العالم جنة الدنيا وقنطرة لجنة الاخرى ويفوز من الدارين بالمبتغى ، كل هذا بفراره من المخلوقات الى خالقها فسلم من شرها وفاز بخيرها ، فمن هرب من المخلوقات الى خالقها نجا ، ومن فر من الخالق الى شيء من مخلوقاته كان من الهالكين .

ارشاد وتعميم : كل ما يصيب الانسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخصوماتها ومن جميع بلائها لا ينجيه من شيء منه الا فراره الى الله ، ففي العدالة الشرعية ما يقطع كل نزاع ، وفي المواعظ الدينية ما يهون كل مصاب ، وفي الهداية القرآنية والسيرة النبوية ما ينير كل سبيل من سبل النجاة والسعادة في الحياة ، يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنيون ، واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون .

تنبيه على وهم : ليس الفرار من الامراض بمعالجتها ومن المصائب بمقاومتها فرارا من الله لان الامراض هو قدرها والادوية هو وضعها ودعا الى استعمالها والتعاليج بها ، وكذلك المصائب وما شرع من اسباب مقاومتها فكلها منه بقدره ، والانسان مأمور منه بأن يعالج ويقاوم ، فما فر من قدره الا الى قدره . ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر رضى الله عنهما في قصة الوباء : افرارا من قدر الله يا عمر ؟ قال عمر نعم : نفر من قدر الله الى قدر الله

وفى الحقيقة كان الفرار من شر فى مخلوق الى الله يرجو منه الخير
فى غيره .

تحذير من جهالة : ليس المقصود الفرار من الدنيا ترك السعي والعمل
وتعاطى الاسباب المشروعة لتحصيل القوت ورغد العيش وتوسيع العمران
وتشييد المدنية، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها، وتناول ذلك كله
على الوجه المشروع هو من الفرار اليه والدخول تحت شرعه كما قدمناه،
وقد ضل قوم فزعموا ذلك طاعة وعبادة فمطلوا الاسباب وخالفوا الشريعة
وحادوا عما ثبت من السنة ، وفيهم سئل امام الحديث والسنة احمد
ابن حنبل رحمه الله سئل عن القائل: اجلس لا اعمل شيئا حتى ياتينى
رزقى ، فقال : « هذا رجل جهل العلم اما سمع قول النبى صلى الله عليه
 وآله وسلم : « ان الله جعل رزقى تحت ظل رمى » ، وقوله : « تغدو
خماسا وتروح بطانا » ، وكان الصحابة يتجرون فى البر والبحر ويعملون
فى نخيلهم وبهم القدوة » .

تطبيق : اذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعنا ، فاما احدهما فالتجات
الى السلطان تستغيثه وتستعين به وتحطب فى حبله فاغانها وانتقم لها
وامدما وقربها وادانها ، واما الاخرى فلم تستغث الا بالله ولم تستنصر
الا به ولم تعتمد الا عليه ولم تعمل الا فيما يرضيه من نشر هداية الاسلام
وما فيها من خير عام لجميع الانام وتحملت فى سبيل ذلك كل ما تسببت
لها فيه الطائفة الاخرى ، ومن تولته وهربت اليه - اذا رأينا هاتين
الطائفتين عرفنا منها - يقينا - الفارة من الله والفارة اليه فكنا - ان كنا
مؤمنين - مع من فر الى الله .

الآية الخامسة :

الفاظ والتراكيب : ولا تجعلوا : ولا تضعوا من عند انفسكم ما لا
وجود له . الهسا : مبهودا تخضعون له وترجون منه التصرف فى الكون
ليجلب لكم النفع ويدفع عنكم الضر ، وتقدمت الفاظ آخر الآية .

المعنى : ولا تجعلوا فى فراركم الى الله شيئا معه من مخلوقات
تعتمدون عليه وتلجئون اليه فتكونوا قد اشركتم به سواء فانى احذرکم

ما فى ذلكم من هلاككم بالشرك الذى لا يقبل الله معه من عمل ، واننى قد
ابنت لكم لزوم توحيدى فى القرار الى كما بينت لكم لزوم ذلك القرار .
نكتة التكرير : اعاد ، انى لكم منه نذير مبين « مع الآية الخامسة لبيان
لهم أن عبادة الله مع الاشراك به كتعطيل عبادته ، فهلاك المشرك كهلاك
الجاحد ، والنجاة أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً لا فى ربوبيته ولا
فى ألوهيته .

تنبيه وتحذير : جاء فى الحديث فيما رواه أصحاب السنن أن الدعاء
هو العبادة ، فمن دعا غير الله فقد عبده ، ومن دعا مخلوقاً مع الخالق فقد
أشرك ، فاذا دعوت ، فادع ربك ولا تدع معه أحداً ، وكيف تدعو من
لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ؟ واذا توسلت فتوسل بأعمالك بإيمانك
وتوحيديك وباتباعك لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومحبتك فيه واعتقادك
ما له عند الله من عظيم المنزلة وسمو المقام عليه وعلى آله الصلاة والسلام .

بيان نبوى قولى : قال عليه الصلاة والسلام فيما يقال عند النوم :
« لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك » والملجأ هو المهرب الذى يهرب اليه
والمنجى هو مكان النجاة / فبين لنا أنه لا يكون الهرب الا الى الله ولا تكون
النجاة الا بالهرب اليه ، فمن هرب لغيره كان من الهالكين . كما بين لنا أن
كل ما يجرى فى هذا العالم فهو بخلقه بقدره فلا مهرب ولا نجاة مما خلق
وقدر الا اليه .

بيان نبوى عمل : روى أحمد وابن جرير عن حذيفة بن اليمان أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حَزَبَهُ أمر صلى وفزع للصلاة يعنى
اذا نزل به مهم أو أصابه غم فزع للصلاة . فبين لنا بالفعل أن القرار الى
الله بالتلبس بطاعته وصدق التوجه اليه والدعاء والتضرع والخشوع له
والاستسلام لدينه وشرعه والاخلاص فى عبادته والاعتماد عليه ، وذلك كله
موجود على أكمله فى الصلاة التى هى عمود الدين ومظهر كماله .
جعلنا الله والمسلمين من الفارين اليه والمقبولين لديه آمين (1) .

خلاصة تفسير المعوذتين

من درس الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس

الذى ختم به تفسير القرآن

كلمة بين يدي التلخيص :

اكمل طرائق المتقدمين من علماء هذه الملة فى تلقين العلوم - طريقة الاملاء . والاملاء نتيجة لاستحكام الملكة فى العلم واستقلال الفكر فيه ، أو سعة المحفوظ ورحابة آفاق العاطفة . واستحكام الملكة واستقلال الفكرة وقوة الحافظة مزايا تكاد تكون خالصة لعلماء سلف هذه الامة لم يبلغ علماء الامة الاخرى مد أحدهم فيها ولا تصيبه .

وكانت وظيفة السامعين كتابة ما يملئ عليهم كله أو خلاصته ، وكانت المحابر والاقلام والاوراق هى الادوات اللازمة لرواد مجالس العلم الا فى مقامات مقابلة الاصول وضبطها . فهنا لابد من احضار النسخ الكاملة من الكتب .

ومن ثمرات تلك الطريقة المثل فى التلقين والتلقى كتب الامالى فى الحديث واللغة والادب ، وفى تراجم المحدثين والادباء الشئ الكثير من ذلك ، وان لم يبق لنا الدهر منها الا الاقل من القليل .

ولما انتهى عصر الرواية بجمع روايات السلف فى التفسير ، ورواياتهم للحديث والسنن ، ودونت أصول اللغة والادب والعلوم المتفرعة عنها ، وجاء دور الاستغلال لها - نشأت عوامل الانحطاط فى العلوم الاسلامية ، وكان من اظهر مظاهرها جفاف القرائح ، وجذب الافكار ، وضعف القوى الحافظة ، وانحطت طرائق التلقين تبعاً لذلك ، وانحصرت فى الطريقة

الشائنة الى اليوم . وهى التزام كتاب تتعدد نسخه بتعدد المتلقين له ،
يحل الشيخ عباراته ، ويشرح معانيه . وانحطت وظيفة السامعين من الكتابة
والتقييد الى الاستماع المجرد . ولسنا نعيب طريقة التزام الكتب وشرح
معانيها بالكلام ، فذلك فى حقيقته نوع قاصر من الاملاء . وانما ننمى على
السامعين اهمالهم لكتابة ما يسمعون ، فتضيع عليهم الفوائد التى يلقونها
الاستاذ ، وقد تكون قيمة ، كما تضيع فى عصرنا هذا الخطب والمحاضرات
المرجلة التى لا يكتبها ملقيها ولا متلقيها .

ولسنا بصدد التاريخ لهذه الطرائق والمقارنة بينها وبين وجوه
النقص والكمال فيها ، وانما ننبه فى هذا المقام الى أن أسوأ اثر لهذه
الطريقة الشائنة اليوم هو القضاء على الملكة العلمية ، لانها شغلت المعلم
والمتعلم معا بالكتاب عن العلم ، اذ أصبح ههما كله مصروفا الى تحليل
الكتاب ، وفك عباراته ، والقيام على اصطلاحاته الخاصة ، وفى بعض هذا
ما يستغرق الوقت ولا يبقى سعة لادراك قواعد العلم وتطبيق جزئياته على
كلياته ، وبعيد جدا على من يدرس علما على هذه الطريقة أن تستحكم ملكته
فيه ، وكيف تستحكم ملكة الفقه مثلا لمن يقرأ من مثل مختصر خليل على
هذه الطريقة فيمضى وقته فى تحليل عباراته وتراكيبه المعقدة التى ذهب
الاختصار بكثير من اجزائها ، وفى بيان التقديم والتأخير فى الالفاظ وربط
المعمولات بالعوامل البعيدة ، وارجاع الضمائر المختلفة الى مراجعها ،
والطرفة بالذهن من مذكور الى مقدر ، وهذا هو كل ما يشغل وقت المعلم
والمتعلم ، وهم فى الحقيقة لا يدرسون علم الفقه ، وانما يدرسون كتابا فى
الفقه ، ودراسة الكتب لذاتها أصبحت اليوم فنا كماليا من التاريخ ،
لا أصلا فى تعلم العلوم .

والدارس لتاريخ العلوم الاسلامية يتجلى له هذا فى تراجم علماء تلك
العلوم ، اذ يجد فيها دائما اشباه هذه العبارة : كان أقوم الناس على
كتاب الجمل للخونجى ، أو على كتاب التهذيب للبرادعى ، أو على كتاب
الشامل لابن الصباغ ، كان نافذا فى اقراء المحصل للرازى . كان سديد

البحث فى مختصر ابن الحاجب الاصلى ، كثير المناقشة لعباراته • واين سداد البحث وكثرة المناقشة فى عبارة كتاب من تحصيل الملكة فى علم ؟ ان الاصولى الحقيقى هو الذى ينفق مما عنده او يقرأه من اى كتاب كان ، ولا يفتتن بكتاب معين هذا الافتتان ، وان الفقيه الحقيقى هو الذى يفهم الفقه ، لا الذى يفهم كتابا فى الفقه ، وفى وقتنا هذا نسمع علماء المعاهد المشهورة يتمدحون بمثل هذا ، ويصفون من يحسن اقرار التنقيح للمقراى على هذه الطريقة بالاصولى المحقق •

ولقد حاول جماعة من العلماء الحفاظ فى القرون الآخيرة اصلاح هذه الحالة ، واحياء طريقة الامالى فلم ينجحوا لافتتان جمهور المتعلمين بالكتب وانصرفهم عن العلم الى كتب فى العلم ، حاول ذلك الحافظ بن حجر ، وهو اهل لذلك ، ولكن اهل زمنه لم يكونوا أهلا له ، ونعى معاصره ابن خلدون المؤرخ طرق التلقين فى زمنه وكثرة المؤلفات والمختصرات فى العلم وعدما هانقة عن التحصيل ، وحاول ذلك بعد ابن حجر تلميذ الحافظ السيوطى وهو اهل لذلك على ما فيه من تبجح واستطالة ، وقد شكّا فى بعض رسائله اخفاقه فى هذه المحاولة بعبارة مرة ، ووصف انصراف الجمهور عنها بأنه من غلبة الجهل وكلال الهمم وضمف المزائم •

نجمت فى هذه المهود الاخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة وكتبه الملتزنة وارتفعت الاصوات بالشكوى من اضرارها وسوء عواقبها • وكان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده اعلى الحكماء صوتا بلزوم اصحها ، وأبلغهم بيانا لاضرارها وسوءاتها ومعايبها ، واسدّهم رأيا فى تغييرها بما هو اجدى منها وانفع ، واكثرهم عملا جديا فى ذلك •

وكان من اصلاحاته العملية فى هذا الباب درسه لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبقه اليه سابق ، وكان - رحمه الله - وهو من هو فى استقلال الفكر واستنكار الطرائق الجامدة ، يجارى الطريقة الازهرية بعض المجازاة لاعتبارات خاصة ، ومن هذه المجازاة السطحية أنه كان يلتزم فى تلك الدروس العامة بالحكم العليا تفسير الجلالين ويستهلها بقراءة عبارته •

ولكن السامعين لتلك الدروس على كثرتهم وجلالة اقدارهم في العلم والمعرفة وتساويهم في الاعتقاد بأن تلك الدروس فيض من الهام الله اجراء على قلب ذلك الامام وعلى لسانه ، وانها مما لم تنطو عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب - لم تتسابق اقلامهم لتقييد تلك الدروس الا قليلا ، ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الامام حرف واحد . ولو لم يفيض الله محمد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كله ، ولكن الله وفقه لحفظ معاني تلك الدروس ، وسدد قلعه في ادائها ، ثم نهج نهجه بعد موته وسار على شمع عديده في تفسير كلام الله ، فابقى لهذه الامة تلك الاسفار القيمة المعروفة بتفسير المنار .

مدت حركة الاصلاح العلمى مداها بعد موت الامام ، وانتشرت في الاقطار الاسلامية ، واسفرت عن اصلاح حقيقى لاساليب التعليم في المعاهد الحرة ، وعن اصلاح صورى في المعاهد الرسمية . ولا تزال الحرب قائمة في هذه المعاهد بين طلاب الاصلاح وبين انصار الجود ، وستكون العاقبة للمصلحين باذن الله . ولقد كان من حسن حظ الجزائر أن باعث النهضة العلمية فيها الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم ، فسلك في درس كلام الله أسلوبا سلفى النزعة والمادة ، عصرى الأسلوب والمرمى . مستمدا من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير واسفارها وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات (مجلة الشهاب) أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضع مخصوصة ، كالطبرى في الماثور ، والكشاف في اسرار الاعجاز ، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهم الرجال مقاييس لنهجه . ولا يعطيها أكثر من أنها فهم تصيب وتخطئ ، أما المعنى الصحيح سبب الله فيستجليه من البيان العربى ، والشرح النبوى ، ومن مقاصد الدين ، واسرار التشريع ، ومن عجائب الكون ، وسنن الله فيه ، ومن احكام الاجتماع الانسانى ، ومن تصاريف الزمن ، ونتائج العقول ، وثمرات العلوم التجريبية .

واذا كان من دواعى القبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر الجزائري فان من دواعى الاسف أنه لم ينتدب من مستمعى هذه

الدروس من بقيدها بالكتابة ، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الامة ذخرا لا يقوم بمال ، ولاضلع هذا الجيل يعمل يباى به جميع الاجيال ، ولنتخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية . ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة فى الشهاب باسم مجالس التذكير علم أى علم ضاع وأى كنز غطى عليه الاهمال .

ولما كان اليوم المشهود بختم هذه الدروس جمع احد الحاضرين(1) ما وعته ذاكرته وأمكنه تقيده من معنى درس الختم فى تفسير المعوذتين ، وتصرف فى الفاظه بما لا يخرج عن معانيه ، اذ لم يكن من الميسور أن يلتقط الالفاظ كلها . فجاء بهذه الخلاصة التى ننشرها على الناس فى هذا العدد (الخاص بالاحتفال) لافتين انظارهم الى أن هذه الخلاصة محيطة بمعانى الدرس مع تصرف ضرورى اقتضته مساوقة ما كتب لما قيل .

استهل الاستاذ الدرس بعد الاستعاذة والتسمية بالتحميد الماثور : الحمد لله إن الحمد لله . نحمده ونشكره ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يضل الله فلا هادى له ، ومن يهد فما له من مضل ، ونشهد أن لا اله الا الله ونشهد أن محمدا عبده ورسوله . ثم عقب بما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبدأ به خطبه . وجرت عادة المحدثين والمفسرين أن يفتتحوا به مجالس التحديث والتفسير وأن اختلفت الروايات فى الفاظه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : اما بعد فان اصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة .

ثم قال توطئة للدخول فى تفسير المعوذتين ما معناه مع تصرف وتوضيح بنى هذا الكون الدنيوى على أن يقترن فيه الخير بالشر ، وأن يتصلا وأن يشتبها وأن يحيطا بالانسان من جميع جهاته فتكون أعماله الكسبية فى الحياة مكتنفة بهما ، دائرة بينهما ، موصوفة بأحدهما ، ولا بد ذلك من قدر

(1) ش . هو الاستاذ البشير الابراهيمى كاتب التلخيص .

الله ومن سننه العامة فى هذا العالم الانسانى ، وحكمته المبنية فى وحيه
هى ابتلاء خلقه ليجازوا على ما يكون من كسبهم وسلوكهم بعد أن وهبهم
العقل والتمييز واكمل عليهم نعمته بهداية الدين ، عدلا منه تعالى ورحمة
- وحكمة اخرى وهى تمرين هذا الانسان فى حياته العلمية والعملية
وتدريب فكره على اختيار الانفع على النافع ، والنافع على الضار ، ثم سوق
الجوارح الى العمل على ذلك الترتيب وترويضها عليه .

والانسان يكتسب القوة والدرجة بتمرسه على ما يلقاه من الخير والشر
بعمله وبفكره ، وللفكر الانسانى عمل سابق لاعمال الجوارح المجترحة
وسائق لها ومهيء لما يظهر أنه من بدواتها .

وهذا العمل الفكرى تظهر قوته فى نواح منها - وهو أهمها - التمييز
بين الخيرو الشر ، وادق منه التمييز بين خير الخيرين وشر الشرين . فان
الخير درجات وأنواع ، والشر كذلك دركات وأنواع .

والانسان فى هذا الخضم الذى تلاطمت أمواجه ، وفى هذا الفضاء
الذى تشابهت أفواجه ، محتاج الى معونة الهية فى تمييز الخير من الشر .
وقد امد الله بهذه المعونة من دينه الحق ، ومحتاج الى تأييد الهى يعصمه
من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد . وقد هداه الله الى
اسبابه ووسائله بما شرع له من المنبهات عند طروق الغفلة . والمبصرات
عند عروض الشبهة والمعوذات المحصنات عند الملامة الشيطان وطواف
طائفه . ومن هذه المعوذات عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك وهى شر ،
وحقائق تقى صاحبها الوهم وهو شر ، وعبادات تربى مقيمتها على الخير
وتنهاء عن الفحشاء والمنكر . واعمال تثبت فاعلها على الحق . واقوال
يمليها القلب العاقل بتقوى الله والخوف من مقامه على اللسنة لتكون
شهادة لها وعنوانا عليها . واللسنة تراجمة القلوب فكان مما شرع الله
لنا فى كتابه وعلى لسان نبيه التعوذ باللسان من الشر والباطل ، وانزل
الله عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة بالله من أنواع من الشرور من
أمهات لما عداهن . وكان نبينا عليه السلام يكثر التعوذ باسم الله وكلماته
من أنواع أخرى من الشرور مفصلة فى صحاح السنة .

اما السورتان فيكفي في فضلهما ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة ابن عامر الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم تر آيات انزلت الليلة لم ير خير منها قط: **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**) . وفي رواية أخرى في مسلم عنه تسميتهما بالمعوذتين ، وفي رواية أبي أسامة في مسلم أيضا وصف عقبة بن عامر بأنه كان من رفقاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية ماثورة كاسماء جميع سور القرآن . وقد يقال المعوذات ويراد بها ما يشمل سورة الاخلاص . وكفى بما فيها من اصول العقائد معاذًا من الشرك وهو أصل الشرور كلها ...

وحديث مسلم هو أصح ما ورد في نزولهما . وأما ما يذكر في نزولهما في قصة سحر النبي صلى الله عليه وسلم فان ذلك لم يصح سببا لنزولها . وان كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الاعصم أصل ثابت في الصحيح وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما ولنا فيما صح غنية عما لم يصح .

وهذه الخيرية التي أثبتتها لهما حديث عقبة عند مسلم هي خيرية نسبية في ناحية مخصوصة . وهي ناحية التعوذ بهما من الشرور العامة والخاصة المذكورة فيها . ودليل هذه النسبية ما أخرجه النسائي في سننه عن ابن عباس الجهني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : (يا بن عباس ألا أدلك أو ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟ قال بلى يا رسول الله ، قال : **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** هاتين السورتين . فبين صلى الله عليه وسلم ان خيريهما وافضليتهما من جهة ما تشتملان عليه من معنى التعوذ وهو من المعاني الداخلة في دائرة ما كلفنا الله به .

ولها تين السورتين خصوصية غير المناسبات التي يذكرونها في ارتباط بعض السور ببعض ، ويستخرجون منها بالتدبر ما لا يحصى من الانواع وهذه الخصوصية هي ختم القرآن بهما ، وهما كالسورة الواحدة . فما هي الحكمة من ختم القرآن بهما ؟ وترتيب السور توقيفي ليس من صنيع جامعي المصنف ، كما ذكره السيوطي في الاتقان وجماعة .

يستطيع ممارس القرآن ومتدبره ومتلقيه بالذهن المشرق والفريضة الصافية ان يستخرج من الحكم فى هذا الختم بهما أنواعا ، ولكن اجلاها وارضحها أنهما ختم على كنوز القرآن فى نفس المؤمن • وتحصين لهذه النعم المتشالة من القرآن عليه ان يكدرها عليه كيد كائد أو حسد حاسد ، فان من اوتى الشئ الكريم ورزق النعمة الهنية هو الذى تمتد اليه ايدى الاشرار والسنتهم بالسوء ، وتقذفه عيونهم بالشر ، وتطلع اليه نفوسهم بالحسد والبغضاء ، ويشدد عليه تكالبهم سبيا فى سلبه منه أو تكديره عليه وبقدر النعمة يكون الحسد ، وعلى مقدار نفاسة ما تملك تكون هذا لكائد الكائدين ، وتانىك البلايا من حيث تدرى ولا تدرى ، ومن اوتى القرآن فقد طوى الوحى بين جنبيه واوتى الخير الكثير ، فهو لذلك مرمى أعين الحاسدين ، ومهوى افئدة الكائدين • فكان حقيقا وقد ختم القرآن حفظا او مذاكرة او تلاوة ان يلتجئ الى الله طالبا منه الحفظ والتحصين من شر كل كيد وحسد يصيبه على هذا الخير العظيم الذى كمل له ، وهذه النعمة الشاملة التى تمت عليه • هذه حكمة •

واخرى وهى ان من اوتى القرآن وتفقه فيه فقد اوتى الحكمة وفصل الخطاب ، واحاط بالعلم من اطرافه ، وملك كنزه الذى لا ينفد • وان من آفات العلم اغترار صاحبه به ، وقد يتماذى به الغرور حتى يسول له ان ما اوتيه من العلم كاف فى وقايته من الاضرار ، ونجاته من الاشرار فكان من رحمة الله بصاحب القرآن ولطف تأديبه له وحسن عنايته به ان ختم بهاتين السورتين كتابه لتكونا آخر ما يستوقف القارئ المتفقه ، وينبهه الى ان فى العلم والحكمة مسألة لم يتعلمها الا الآن • وهى انه مهما امتد فى العلم باعه واشتد بالحكمة اضطلاعاه فانه لا يستغنى عن الله ، ولا بد له من الالتجاء اليه ، والاعتصام به ، يستدفع به شر الاشرار وحسد الحاسدين ، وكفى بهذه التربية قامعا للغرور • وانه لشر الشرور •

هذه هى المناسبة العامة بين جميع القرآن مرتبا ترتيبه التوفيقى ، وبين هاتين السورتين فى اتحاد •

واما المناسبة الخاصة بين السورتين وبين سورة الاخلاص فهي ان سورة الاخلاص قد عرفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد . فاذا قرأت القرآن وتدبرته على ترتيبه ، ووجدت توحيد الله منبثا في آياته وسوره ، متجليا ذلك التجلي الباهر بمعارضه وصوره ، سادا ببراهينه على النفوس كل ثنية وكل مطلع - كانت آخر مرحلة يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن هذه السورة المعجزة على قصرها ، فكانها تؤكد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد ، وكانها وصية مودع مشفق بهم يخشى عليك نسيانه . فليعمد فيها من الكلام الى ما قل ودل ولم يمل . ومن صدقك في توحيدك لله في ربوبيته والهيته أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه بصدق معاملتك لله واخلاص توحيدك اياه . فانت وقد آمنت وصدقت وخرجت من سورة الاخلاص متشعبا بمعانيها ، ومنها معنى الصمد - تستشمران العالم كله عجز وقصور ، وان خيراته مكدره بالشور . وان لا ملجأ الا ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فتجيء المعوذتان بعد الاخلاص مبينتين لذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد .

ولاجل هذه المناسبة والارتباط بين السور الثلاث جمع بينهما في التسمية ، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث عن نفسه بالمعوذات وسياق النسائي لحديث عقبة بن عامر المتقدم ان رسول الله قرأ وقرأت معه الاخلاص ثم قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فلما ختمهن قال : ما تعوذ بمثلهن أحد . وكما جمع صلى الله عليه وسلم بينهما في التسمية والتعوذ جمع بينهما عمليا في قراءة الوتر .

هذا اجمال المناسبة الخاصة بين السور الثلاث .

سورة الفلق

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ... » .

(سورة الفلق - الآيات : 1 - 2)

الامر المفرد للنبي عليه السلام . ومن حسن الادب في مقدرات القرآن ان تقدر في مثل هذا الامر ايها الرسول أو ايها النبي ، لانهما الوصفان اللذان نطق بهما القرآن في نداء النبي عليه السلام ، وان لا تقدر يا محمد كما هو جار على الالس . وفي التصانيف، فان القرآن لم يخاطبه باسمه والامر لنبينا أمر لنا لاننا المقصودون بالتكليف ، ولا دليل على الخصوصية، فهو في قوة : قل أنت ، قل لامتك يقولون .

واعوذ : استجير والتجىء ويتعدى هو وجميع تصاريفه بالباء . كاستجير . والعوذ والعياذ مصدران منه كالصوم والصيام ، وفي القرآن مما جاء على المعنى اللغوي : « يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجُنِّ » ومن كلام العرب : (قد استعذت بمعاذ) .

والرب : الخالق المكون المربى ، ومواقع استعمال هذه الكلمة في القرآن هي التي تكشف كل الكشف عن معناها الكامل .

والفلق : الفجر المغلوق المفرد . ومن لطائف هذه اللغة الشريفة ان الفتحة والفلح والفجر والفلق والفرق والفتق والفرى والفا والنفق والنفق كلها ذات دلالات واحدة ، وتخصيصها بمتعلقاتها ياب من فقه اللغة عظيم . وما وصف به ربنا نفسه في القرآن **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ** ، **وَاللَّيْلِ الْخَبِ** **وَالنَّوَى** ، فهما من اسمائه تعالى .

ومواقع هذه الالفاظ التي تضاف الى كلمة رب في القرآن كمواقع اسماء المخلوقات التي اقسام بها الله ، كلاهما عجيب معجز ، فكل لفظة

تستعمل فى المقام الذى يناسبه وتناسبه ، وكل لفظة تبعث فى الاسلوب الذى وقعت فيه متانة وقوة وفى معناه وضوحا وجلال ، وسر اضافة الفلق الى رب منا أن الفجر بمعناه العرفى هو تشقق الظلمة عن النور ، فان الليل يكون مجتمع الظلمات عن النور مسدود الارواق . فاذا جاء الصبح حصل الانفلاق . والذى يبقى بعد ذلك الانفلاق هو النور الذى نفى الظلمة . ولا ينفى ظلمات الشر والضلال والباطل الا انوار الخير والهدى والحق من خالقها ، وغالط انوارها . وكما أضيف الفلق ، بمعنى الفجر ، الى كلمة رب هنا اقسم به فى آية اخرى وهى قوله تعالى : **وَالْفَجْرِ** .

« مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » .

من كل مخلوق فيه شر ، فلا يدخل فى عمومه الا كل شرير من اى العوالم كان . كما يدخل فى عموم الناطق كل ذى نطق ، او من شر كل مخلوق . ومن مخلوقات الله ما هو خير محض كالانبياء والملائكة . ومعلوم ان المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة فهى فى نفسها خير ، فان كان لا ينشأ من اعمالها او آثارها الا الخير فهى الخير المحض ، وان كان ينشأ عنها شر احيانا او دائما فعملها هو الشر وهو المستماد منه . وتصح نسبة هذا القسم الى الله من حيث الخلق والحكمة ، ونسبة اعماله اليه من حيث التقدير والتكوين لا من حيث الرضى والتكليف ، فالله لا يرضى بالشر ولا يكلف به ، وقصارى اهلـيس - وهو مادة الشر فى هذا الوجود - ان يزين الشر ويلبسه بالخير . فالشر بيد الله خلقة وحكمة لا رضا وتكليفا ، والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وامرا .

وقد يكون الشر ذاتيا لا ينفك ، وقد يكون نسبيا باعتبار حالة تعرض وتجاه يقصد ونعم الله على عباده قد تنقلب عليهم شرا وبلاء بسبب سوء تصرفهم فيها ، كالمال الذى سماه الله خيرا فى القرآن - يكسبه صاحبه من الوجوه الشرعية وينفقه فى الوجوه المشروعة - ويتحرى رضا الله فى جمعه وتفريقه فيكون خيرا بلذاته وبعمل صاحبه . ويتصرف فيه بعكس ذلك فيكون شرا لا من ذاته بل من عمل صاحبه .

وهذا العالم الانساني المكلف هو الذى يتجلى الخير والشر فى اعماله .
 ويتصلان بحياته اتصالا وثيقا . وانما عيب عليه الشر وقبح منه لانه
 قادر على تمييزه واجتنابه ومكلف بذلك ، وقد وضع له الدين قوانين ثابتة
 للخير والشر ، ووضح له أن الخير ما نفع وأن الشر ما اضر . ولكنه وإن
 اوتى قوة التمييز لم يؤت قوة الاستمصام ابتلاء من الله . فاما المخدول
 فيأتى الشر عامدا متعمدا وهو يعلم أنه شر ، وأما الموفق فيواقع الشر فى
 مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر ويمسر التمييز ، والخير والشر
 لا يوزنان بيزان حتى يستوى الناس كلهم فى ادراكه ، وقد تدق الفوارق
 بينهما حتى تخفى ، وفى هذه المواقف يجب الالتجاء الى الله ليرينا الخير
 خيرا ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر فلا يلتبس علينا بشيء ، وبعد أن
 يوجه الاضطراب نفوسنا هذا التوجيه الصحيح تندفع السنتنا ونقول :
 « أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » .

وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين رب والخلق ، فان رب الناس ومربيهم
 وسائقهم الى ما يكمل وجودهم هو الذى تفكشف لعلهم سرائرهم ، والخلق
 نور يكشف للبيان كل المبصرات فترى على حقائقها ومقاديرها ، لا يزيغ
 البصر فى شيء منها ولا يطفى ، والانسان مهما يكن عالما فقد تخفى عليه
 حقائق المعقولات فيزيغ فكره ويطفى .

ومناسبة أخرى : وهى ان الشر ظلام ، وقد أجرى الله فى فطر البشر
 تصور الشر كالظلام وأجرى على السنتهم تشبيه الشر بالظلام ، ذلك أن
 ما يلبس احساسهم من الانس بالنور والبشاشة له هو عين ما يلبسه من
 الانس والبشاشة للخير ، وان ما يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك
 فيه هو عين ما يضايقهم من ذلك فى الشر .

هذا كله فى الشر على عمومه ، ثم خصص تعالى من هذا ثلاثة أنواع من
 الشر لشدة تملقها بحياة الانسان وكثرة عروضها له ، ويجيء أكثرها من
 أخيه الانسان ، ورتبها ترتيبا بديعا لا يستغرب فى جنب بلاغة القرآن
 ودقته فى رعاية المراتب وتنسيقها فى العرض على الاذهان .

هذه الثلاثة هي : الفاسق اذا وقب ، والنفاثات في العقد ، والحاسد اذا حسد . والفاسق : الليل المظلم ، والمراد هنا المصيبة تطرق ليلا وعلى غرة . ووقب : دخل في الوقب وهو النقرة في الشيء . والنفاثات : السواحر ينفتن الريق واللفظ ، جمع نفائة ، كثيرة النفث . والعقد : جمع عقدة ، بيان لعادة السواحر المروفة من عقد الخيوط ونفت الريق عليها .

والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء ، فان الفاسق ظلام تخفى فيه الشرور ، والنفاثات مبنى أمرهن على الاخفاء تخيلا وايهاما ، والحسد داء دفين . فالثلاثة كما ترون شرها خفى ، وكل شر يخفى عمله أو يخفى أثره يجعل خطبه ويمظم خطره . فيعسر التوقى منه والاحتياط له . لأنك تتقى ما يظهر ويستعلن لا ما يخفى ويستتر . لا جرم كانت الثلاثة جديرة بالتخصيص ، أما نكتة الترتيب فان الليل ليس شرا في نفسه ولا الشر من عمله ، وانما هو ظرف للشرور ، والملاقة بين الشيء وظرفه مكنية في النفوس قوية في الاعتبار مسببة للحكم على أحدهما بحكم الآخر ، بخلاف النفاثات والحساد فان الشر من عملهما ومن وصفهما ، ولانطباعهما عليه صار ذاتيا لهما . ولا شك أن الشر الذاتي امكن من المرضي ، كما أن بين الاثنين تفاوتا في ذاتية الشر وقوته وعسر التوقى منه . فالنفاثات وان كن يتحرين اخفاء عملهن ولكنه مما يمكن ظهوره وافتضاحه بخلاف الحاسد فانه يخفى شره ويبالغ فيظهر بمظهر الخير فشره أشد والتوقى منه أعسر ، ففي الترتيب بين الثلاثة ترق من الاخف الى الاشد . ومن جهة أخرى نجد التناسب ظاهرا بين الثلاثة : الفاسق والنفاثات والحاسد ، فان الجميع ظلام ، ظلام الزمن وظلام السحر وظلام الحسد . وفي تقييد الفاسق بالوقوب احتمالان كلاهما صحيح مفيد للمراد . الاول : أن وقوب الفاسق عبارة عن اعتكاز الظلم وتكاثفها ، فكان بعض اجزائها يدخل بعضا والظلام يبدأ خفيفا مشوبا باسفار من الشفق أو من طبيعة الارض ، ثم يشتد ويحلوك حتى يغطي على كل شيء ، فتلك التغطية هي الوقوب . والوقوب على هذا الاحتمال منظور فيه الى ظرفه الزماني . وفائدة القيد حينئذ ان تلك الحالة المصورة بهذه الجملة هي التي تقع فيها الشرور من الآدميين

وغيرهم • فالطارق يطرق والسارق يسرق والحيات تنتهش ، والضواري
تفترس • وظلام الليل يستر ذلك كله ويعين عليه ويعوق عن الاستسراح
والاستنجاد • والعرب تقول فى ما يشير الى هذا : الليل أخفى للويل •

فالمستماذ منه على هذا الاحتمال شر يقع فى زمان • والاحتمال الثانى :
أن الوقوب فى حقيقته هو دخول شئ فى شئ دخولا حسيا فيقتضى طرفا
مكانيا ، وما هذا الطرف الا الابنية والمساكن ، وللظلام حين يهجم يدخل
المساكن فيملأها ويكون دخوله فيها ايبن من دخوله فى الفضاء وملؤه
اياها اشد ، فالوقوب على هذا منظور فيه الى طرفه المكاني ، لان الشرور
التي ترتكب فى البيوت حين يغمرها الظلام اكثر مما يرتكب منها فى
الفضاء ، خصوصا من الآدميين والمستماذ منه شر يقع فى مكان ، وعلى
الاحتمالين لما كان الليل معوانا لذوى الشر على شرهم اضعف الشر اليه
واستعيز بالله منه • النفاثات : صفة اما للنفوس فتشمل الرجال والنساء
وتكون الاستماذة من شر كل من يتعاطى هذا الفعل رجلا كان أو امرأة ،
واما للنساء وخصمن بذلك لان وقوع هذا الفعل منهن أكثر ، ومن به
اشهر • والنفث اخراج الهواء من الفم مدفوعا بالنفس بدون بصاق ، أو
مع قليل منه تتطاير ذراته وهو دون التفل ، والنفث وان كان عاما لكنه
اشتهر فيما يفعله السحرة ، يعقدون خيطا ويتمتمون عليه برقى معروفة
عندهم وينفثون على كل عقدة منه بقصد ايصال الشر من نفوسهم الخبيثة
الى نفس المسحور • «وَمَا هُمْ بِضَايِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» • وما امرنا
الله بالاستعاذة من شره الا لانه يؤثر فى بعض النفوس القابلة للتأثر به ،
حاشا النفوس المعصومة كنفوس الانبياء ، فان شرور الدنيا واسواها
لا تعدو أبدانهم الى ارواحهم • ولا يتعاضى على هذه القاعدة ما ورد فى سحر
لبيد بن الاعصم اليهودى لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وما
يوهمه لفظ الرواية فان ذلك كله لا يخرج عن التأثير البدنى • ونحن نعتقد
دينا أن تأثير المؤثرات هو من وضع الله وحده • ونقطع علما وتجربة ان
للقوى النفسية تأثيرا اعظم من تأثير القوى الجسمانية ، وان من مظاهر هذا
التأثير النفساني تأثير العين فى المعيون وتأثير التنويم فى النوم ، وان

التأثير والتأثر النفسانيين يختلفان باختلاف النفوس الفاعلة والمنفعله
قوة وضعفا ، وان تأثير العين ليس من ذاتها وانما هو من النفس التى من
وراء العين ، ولو كان التأثير من ذات العين لكانت كل عين ناطرة تحدث
ذلك الاثر ، وان هذا التأثير لون من ألوان النفس ، فان كانت خيرة كان
تأثيرها خيرا وان كانت شريرة كان شرا .

فالنفث المذكور فى الآية ان اثر فانما يؤثر بالقوة النفسية التى من
ورائه ، والساحر لا ينفث من نفسه الخبيثة الا نفث الشر ، لان الشر هو
صفته الطبيعية ، كالحية لا تنفث الترياق وانما تنفث السم . وكالمدو
يلقأه بطن الاسل ، لا يطمع العسل ، اذ كان ذلك من طبيعة المداوة .

هذا نفث الشر من النفوس الشريرة كنفوس السحرة ،
واما النفوس الخيرة الطيبة كنفوس المؤمنين فانها تنفث الخير
للخير . وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : ان النبى - صلى
الله عليه وآله وسلم - كان اذا اوى الى فراشه جمع بين كفيه ثم نفث فيهما
وهو يقرأ الموذنين ثم مسح بهما ما استطاع من بدنه ، يبدأ برأسه ووجهه
يفعل ذلك ثلاث مرات ، فهذا نفث الخير من خير نفس خلقها الله ، ثم قالت
فى تمامه : فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك . وفى رواية : كان
يقرأ بالمعوذات ، فلما ثقل كنت انفث عليه بهذا وامسح بيد نفسه رجاء
بركنها . وفى رواية مسلم عنها : انه كان يفعل ذلك اذا مرض أحد أهله .

فهذه الاحاديث - وهى ثابتة صحيحة - تثبت أن رسول الله - صلى
الله عليه وآله وسلم - كان يقرأ المعوذات وينفث حين القراءة نفث الخير
قطعا . وتبين لنا أن كل نفس تنفث ما وقر فيها . وان النفث ايصال للقوة
الروحانية الى ما يراد وصول الاثر اليه وهى دليلنا على ما اسلفنا
من أن فى النفث خيرا وشرا ، ولولاها لما كان النفث الا من فعل السحرة .
والنفوس اذا استفزها شيء من ملابتها تنفث فيها الروحانية وتضطرب
فكانها بذلك النفث تنفض جزءا من روحانيتها على نفس أخرى او على
بدن ، وكان تحريك اللسان بقراءة او غيرها اثرة لتلك الروحانية واستدعاء
لها حتى تتصل بالريق الذى ينفث كما يتصل السيال الكهربائى بشيء

مادى - وقد علمنا أن السحرة لا ينفثون نفثا مجردا بل يعضمون برقى شيطانية وأسماء ارواح خبيثة . ومن الشواهد لنفث الريق ما أخرجه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان إذا اشتكى الانسان الشئ منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبى بأصبعه هكذا : « تعنى وضعها على الارض كما فسرهما سفيان بالعمل » ثم زعمها وقال : « بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا - ليشفى به سقيمنا بأذن ربنا » .

« بعد رواية الاستاذ لهذا الحديث سكنت لحظة كمن يستجمع خواطره ثم اندفع فقال ما معناه بتوسع » :

ان القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره الا الزمن ، وكذلك كلام نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - المبين له ، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة فى معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومنزاهها الا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله فى الكون ، وكما فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث ، وظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين ، وإرتنا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم فى وصف القرآن : « لا تنقض عجائبه » .

والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد والنهم الجامد ، وانما يترقبون من سنن الله فى الكون وتدبيره فى الاجتماع ما يكشف لهم من حقائقهما ، ويكفلون الى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم ، وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم فى بعض هذه الآيات ، لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد ، يعنون أنه آت وان الآتى به حوادث الزمان ووقائع الاكوان وكل عالم بعدهم فانما يعطى صورة زمنه بعد ان يكيف بها نفسه . ولو أننا عرضنا حديث التربة والريقة على طائفة من الناس مختلفة الاذواق متقسمة الحظوظ فى العلم وسألناهم : اية علاقة بين الشفاء وبين ما تماطاه النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - من أسبابه فى هذا الحديث . فماذا تقوله لهم يقولون ؟

يقول المتخلف القاصر : تربة المدينة بريق النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - شفاء ما بعده شفاء .

ويقول الطبيب المستغرب : هذا محال في التراب مكروب . وفي الريق مكروب . فاني يشفيان مريضا او ينفسان عن مكروب .
ويقول الكيماوى : ها هنا تفاعل بين عنصرين ، ودعوا التحليل ، فالقول ما يقول التحليل .

ويقول ذوو المنازح القومية والوطنية ، ولو كانوا يدينون بالوثنية :
آمنا بأن محمدا رسول الله . فقد علم الناس من قبل أربعة عشر قرنا ان تربة الوطن معجونة بريق ابنائه تشفى من القروح والجروح . ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقدا من المحبة والاخلاص له . وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به وليقرر لهم من منن الوطن منة كانوا عنها غافلين .
فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة ان تربة الوطن تغذى وتروى ، فجاءهم من علم النبوة انها تشفى ، فليس هذا الحديث ارشادا لمعنى طبى ولكنه درس فى الوطنية عظيم . ولو انصف المحدثون لما وضعوه فى باب الرقى والطلب فانه يباب حب الوطن أشبه ، وما نرى رافع العقيرة بقوله :

ألا ليت شعرى هل ابیتن ليلة بواد وحولى اذخر وجليل
وهل اردن يوما مياه مجنة وهل تبدون لى شامة وطفيل
الا سائرا على شعاعه ، وما نرى ذلك الغريب المريض الذى سئل :
فيم شفاؤك ؟ فقال : شمة من تربة اصطنخر . وشربة من ما نهاوند إلا من تلامذة هذا الدرس ، ولقد زادنا ايمانا به بمد ايمان انه يقول : « تربة أرضنا بريقة بمضنا ولم يقل : تربة الارض بريق بنى آدم ، فليس السر فى تربة ، وريق ومرض . ولكن السر فى أرضنا وبمضنا ومريضنا - فهذه - والله ربنا - صخرة الاساس فى بناء الوطنية والقومية لا ما ينبجج به المفتونون .

ويقول الروحانيون : ان هناك روحا طاهرة تتصل بتربة الارض التى خلق المريض منها وتغذى بنباتها ومائها . وتنفس كبده فى حوها وهوائها

من ريقة منفوثة نفت الخير من نفس مؤمنة قوية الروحانية طيبتها ، فيكمل
التكوين بين الريق والتربة مع اسم الله الذى قامت به السموات والارض
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . فيحصل الشفاء بهذا العمل النفساني .
وإذا تجلت النفس بمجائبها لم يبق فى الوجود عجيب .
ويقول غير هؤلاء ما يقول ، وهذه المتون كاسمها متون . وهذه الاصول
كاسمها اصول .

وهكذا تاتى بعض المتون من كلام الله وكلام رسوله معجزة للعقول ،
فتتطير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء ، ويظن كل عقل أن
حرفته آلة لتفسير تلك المتون ، والعلوم حرف العقول . والزمان من وراء
الكل يصيح ان انتظروا .

« وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » .

الحاسد : الذى قامت به صفة الحسد . وهو الذى يجب ان تسلب
النعم من غيره ، وقد تلج به هذه الصفة الذميمة فتزين له سلب النعم حتى
من نفسه اذا توقف على ذلك سلبها من غيره ، فهو لا يحب الخير لاحد
ويتمنى أن لا يبقى على وجه الارض منعم عليه . وانما ينشأ الحسد من
المعجب وحب الذات فتسول له نفسه أن غيره ليس أهلا لنعم الله . وكفى
بهذا معادة للمنعم . والحسد شر تلازمه شرور ، المعجب والاحتقار والكبر ،
وقد جمع ابليس هذه الشرور كلها ، حسد آدم عجا بنفسه : ف « قَالَ أَنَا
خَيْرٌ مِنْهُ » ورآه لا يستحق السجود احتقارا له فقال : « هَذَا الْبَشَرِ
كَرَّمْتَنِي عَلَيْهِ » ثم تكبر ولم يسجد ورضى باللعة والغزى ، ولا اشنع من
صفة يكون ابليس فيها اماما . والحسد شر على صاحبه قبل غيره لانه
ياكل قلبه ويؤرق جفنه ويقض مضجعه ، ولا يكون شرا على غيره الا اذا
ظهرت آثاره بأن كان قادرا على الاضرار أو ساعيا فيه ، ولهذا قال تعالى :
« إِذَا حَسَدَ » . والمتمنى للشيء لا يمنعه من اتيانه الا العجز . وأعظم ما
ينمى الحسد ويفذيه امتداد العين الى ما متع الله به عباده من متاع المال
والبنين ، ونعمة العافية والملم ، والجاء والحكم وقد نهى الله نبيه عن مد

العين الى ما عند الغير فقال : « وَلَا تَمَنَّ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ آزْوَاجًا مِنْهُمْ
زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنُفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ،

وفى هذه الآية مع النهي ارشاد الى علاج الحسد ، فان الحسد مرض
نفساني معضل ، ولكنه كغيره من الامراض النفسية يعالج ، وقد وصف
الحكماء له انواعا من العلاج فصلتها كتب السنة وكتب الفقه النفسى ككتاب
الاحياء للغزالي (1) .

(1) الشهاب : ج 4 م 5 م 14 - ربيع الثانى وجمادى الاولى 1357 م
جوان وجوليت 1938 م .

سورة الناس

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ... » .

(سورة الناس ، الآيات 1 - 6)

قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التي قبلها (هي المعوذتان) وعلمنا أنها تسمية نبوية ، وقد جرت هذه الصفة مجرى الاسم لهما . أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو **الناس** ، كما أن الاسم الخاص بالسورة الأولى **الفلق** . والمناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكهما في الوصف وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما ، وفي السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام ومن ثلاثة أنواع منه ذكرنا الحكمة في تخصيصها بالذكر . وفي هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة .

والمناسبة القرينية بين السورتين هي أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام : قسم يصده عنه الضرر ويعمله ، وقسم لا يريد الخير فيسمى في سلبه وانتزاعه ، وهو شر من الأول . وقسم يعمل إلى إيصال الشر إلى سلطان الجوارح ومالك هديها . وهو المضافة التي إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله . فهو يحسن له الأشياء القبيحة ويأتيه من جميع النواحي على وجه النصيح وإرادة الخير ، ويزين للإنسان كل ما يريده من القبائح ويأتيه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، قريبا منه متصلا بهواه ، وهذا القسم الأخير هو الذي يوسوس بكلمة السوء مزينة الظاهر مغطة القبح حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك . ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطرا وأكثر شرا وأخسر عاقبة خصص التعوذ منه بسورة كاملة .

رب الناس : هو مربيهم ومعلمهم في كل مرتبة من مراتب الوجود ما يحتاجون اليه لحفظها ، وهاديتهم لاستعمال ما من به عليهم فيما ينفعهم ؛ **« رَبَّنَا أَلِيَّ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى »** ، وأصله من ربه يربه ربا ، اذا قام على انشائه وتماخذه في جميع أطواره الى التمام والكمال . ولفظه لفظ المصدر ولكن معناه معنى اسم الفاعل كالمعدل يراد به العادل .

ومالك الناس : هو الذى يملك أمر موتهم وحياتهم ، ويشرع لهم من الدين ومن الاحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والاخرية . **واله الناس :** هو الذى يدينون له بالعبادة والعبودية .

وبلاغة الترتيب انما تظهر جليلة عند استعراض اطوار الوجود الانسانى ، فالاول : طور التربية والاعداد ، وهما من مظاهر الربوبية ، والثانى : طور القوة والتدبير ، وهما من مظاهر الملك ، والثالث : طور الكمال والقيام بوظائف العبودية ، وهو من مظاهر الألوهية . والمستعاذ منه تارة يوسوس للانسان بما يفسد عليه صلته يربه ، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه . وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهى اشرف علائقه به واقوى صلاته ، وجماع ذلك أن يبعده عن الله بالسوسة بواحدة من هذه أو بأكملها أو بما يتفرع عنها مما تضمنته الآيات المبينة لانفال أصل هذه القوة الموسوسة ، مثل قوله تعالى : **« الشَّيْطَانُ يَعْلَمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ »** . ولذلك الشان الجارى مجرى الحوار بين ابليس وخالقه كقوله تعالى : **« قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »** ، وكقوله تعالى : **« قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآخْتَنِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا »** . وكقوله تعالى : **« وَلَا صَلَاحَ لَهُمْ وَلَا مَنِيَّةَ لَهُمْ وَلَا مَرْثَهُمْ فَلْيَحْشَرُوا »** . وهو جاهد فى أن يبعد الناس عن الله بانفساد العقيدة الصحيحة فيه ، أو بالصرف عن شرع الله ، أو بالحمل على عبادة غيره ، فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التى يريد الشيطان أن يقطعها . والرب رب الناس وغيرهم ، بل رب العالمين ، وانما خص الناس بالذكر لانهم هم هدفه ومرمى وسوسته . ولانهم هم المأمورون بالاستمادة منه .

ولان عالم التكليف اشرف ، فاليهم يوجه الخطاب واليهم يساق التحذير ، وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين اصليهما ، فامر الله بالاستعاذة منها هو تسليح الهى لبنى آدم لتثبيت سنة التعمير التى هى حكمة الله من وجودهم .

ونكتة أخرى فى تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين وهى أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال . وقد ضلوا بالفعل فى ربوبية الله وفى الوهيته . . ضلوا فى الربوبية باتخاذ المشرعين ليشروعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ويصدوهم بذلك عما شرع الله . وضلوا فى الالهوية بعبادة غير الله بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء .

وأختير لفظ الناس من بين الالفاظ المشاركة له فى الدلالة كالإنسان والبرية لانه ينوس ويضطرب وينساق وهى صفات يلزمها التوجه ويسهل التوجيه فلا غنى لصاحبها عن توفيق الله للوجهة الصالحة والتسديد فيها ما دام لا يملك لنفسه ذلك وما دام محاسبا عليه وما دامت هناك قوة مسلطة تنزع به الى الشر .

ففى تخصص الناس بالذكر تنبيه الى أنهم احوج المربوبين الى تأييد الله وأحقهم بطلب ذلك منه ، وقد أرشدهم الى ذلك وله الحمد .

ولو تفقه الناس فى معنى اسمهم واشتقاقه لعلوموا بفطرتهم أنهم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولأيقنوا أنه لابد لهم من رب يرببهم ويحميهم ومالك يدبر أمورهم واله يعبدونه ويتخذون العبودية له جنة من استعباد الاقوياء .

ويجوز - اذا راعينا الادب وكمال التنزيه فى حمل الالفاظ التى تضاف الى كلمة رب على اشرف معانيها - أن تحمل كلمة (الناس) على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس . وهو الاماثل والاختيار منهم الجامعون لمعانى الانسانية الفاضلة ، وهذا المعنى تعرفه العرب فانهم كثيرا ما يطلقون اسم الجنس على الفرد أو الافراد الكاملين فى حقيقته . وان كان هذا من المجاز فى كلامهم وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى : **« آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ »**

ونكتة الاعادة والاظهار للفظ الناس ، توضيح المعنى والقات النفس اليه وايقاظ شعورها به والتسجيل على الناس بان لهم ربا هو مالكم والههم . **ومن شر الوسواس** ، - الوسواس هنا صفة الموسوس وان خالف المعهود في ابنية الصفات ، او هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلال والزلزلة ، واصل هذه الكلمة دائر على معنى الخفاء . والعرب تسمى حركة الحلى وسواسا ، وهذا المعنى واضح فى المراد هنا فان الموسوس من الجن فى نهاية الخفاء هو وعمله ، والموسوس من الانس يتحرى الاخفاء ما استطاع ويحكم الحيلة فى ذلك ولا يرمى رميته الا فى الخلوات . وان الناس ليعرفون عرفانا ضروريا من الفرق بين المصلعين والمفسدين ان الاولين يصدعون بكلمة الحق مجلبة ويرسلون صيحته داوية ويعملون أعمالهم فى وضح النهار ومعافل الخلق وان الآخرين يتهايمسون اذا قالوا ويستترون اذا فعلوا ويعمدون الى الغمز والاشارة والتعمية ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات . وكان الزمن كله ظلمات ، والارض كلها مغارات .

والخناس : وصف مبالغة فى الخناس من الخنوس وهو التأخر بعد التقدم ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته فى المحسوس انه يذهب ويحىي ويظهر ويختفى اغراقا فى الكيد وتقصيا فى التطور حتى يبلغ مراده . فالله تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة الى أن له فى عمله كرا وفرا وهجوما وانتهازا واستطرادا على التصوير الذى صوره ابليس فى ما حكى الله عنه : **« ثُمَّ لَا يَنبَغُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ »** . يرشدنا بذلك لنعد لكل حالة من حالاته عدتها . ولنضيق عليه المسالك التى يسلكها ، كما ان وصفه بهذه الصفة يشعر بأنه ضعيف الكيد لان الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام . وانما هو كالدباب تذبه يذكر الله من ناحية فياتيكم من ناحية ثم دوايك حتى تمل او يمل . واما التهويل فى وصفه بما يأتى بعد فهو مبالغة فى التحذير منه لأن وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل فى أمره .

« أَلَذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » .

قال يوسوس بالمضارع اشعارا بعد اشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها . وقال : **في صدور الناس** . والصدر ملقبي حنايا الأضلع ومستودع القوى التي كان الانسان انسانا بها ومجمع المضغ التي تحمل تلك القوى . والقلب واحد منها ، فالقلب غير الصدر ، وانما هو فيه ولذلك قال : **« وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ أَتَى فِي الصُّدُورِ »** . ومواقع استعمال القرآن لكلمة الصدر مفردا وجما والحكم عليها بالشرح والحرج والضيق والشفاء والاحفاء والاكنان - ترشدنا الى أنه ليس المراد منه الصورة المادية ولا اجزاها المادية وانما المراد القوى النفسية المستودعة فيه ، وان الوسواس الخناس يوجه كيده ووسوسته دائما الى هذه القلعة التي هي الصدر لانها مجمع القوى .

وقال : **« في صدور الناس »** ، ولم يقل في قلوب الناس ، لان القلب مجلى العقل ومقر الإيمان ، وقد يكون محصنا بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره ولا يستطيع له نقبا .

« مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » .

الجنة : جماعة الجن وهم خلاف الانس ، والمراد هنا اشرار ذلك الجنس لان منهم المسلمين ومنهم القاسطين . واستعمل لفظ الجنة في القرآن بمعنى المصدر الذي هو الجنون في قوله تعالى : **« مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ »** ، ولما كان الموسوسون فريقين متعاونين على الشر ذكرهما الله تعالى في مقام الاستعاذة من شر الوسوسة ليلتئم طرفا الكلام ويعمل التقصى الوصفى في المستعاذ به والمستعاذ منه .

وقد قسم القرآن الشياطين ، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة ، الى قسمين : شياطين الانس وشياطين الجن ، وذكر أن بعضهم يوحى الى بعض زحف القول ، وشيطان الجن . **« وَاللَّهُ فَكَاهَهُمْ بِمَعْلَمِهِ مِنَ الْإِنْسِ فَهُوَ مُثلُهُ »** . ومن شياطين الا

وورد في الآثار ان لكل انسان قرينا من الجن ، وقال تعالى :
 « وَمَنْ يَشْرُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » ، وقال :
 « وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » وهو من باب توزيع الجمع على الجمع ، أى لكل واحد
 قرين ، فهذا الانسان الضعيف يلازمه قرين من الجن ثم لا يخلو من قرين
 او قرناء من الانس يزينون له ما بين يديه وما خلفه ويصدونه عن ذكر الله
 فماذا يصنع ؟

ما عليه الا أن يلتجئ الى الله ويستعيز به ويتذكر فانه لا يؤخذ وهو
 ذاكر مستيقظ وانما يؤخذ اذا كان غافلا ، قال تعالى : « وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
 الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » ، وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ
 طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

ومن دقائق القرآن ولطائفه فى البلاغة انه يقدم أحد الاسمين
 المتلازمين فى آية لسر من اسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام ، ثم يؤخر ذلك
 المقدم فى آية أخرى لسر آخر ، فيقدم السماء على الارض فى
 مقام ويؤخرها عليها فى مقام آخر ، ومن هذا الباب تقديم الانس على الجن
 فى آية الانعام لان معرض الكلام فى عداوتهم للانبياى وهى من الانس اظهر
 ودواعيها من التكذيب والايذاء اوضح . وفى آية (الناس) قدم الجنة على
 الناس لان الحديث عن الوسوسة وهى من شياطين الجن اخفى وأدق وان
 كانت من شياطين الانس اعظم وأخطر وادهى وامر . فشيطان الجن
 يستخدم شيطان الانس للشر والافساد فيربى عليه ويكون شرا منه لانه
 بمثابة السلاح الذى يفتك به ، ورب كلمة واحدة صغيرة يوحىها جنسى
 لانسى ويوسوس اليه بتنفيذها ، فتتولد منها فتن ويتبادى شرها من قرن
 الى قرن ومن جيل الى جيل ، وهذا النوع الانسانى المهيأ لقابلية الخير
 وقابلية الشر ، اذا انحط وتسفل كان شرا محضا ، واذا ارتقى وتعالى شارف
 افق الملا الاعلى واوشك أن يكون خيرا محضا لولا ان العصمة لم تكتب الا
 لطائفة منه وهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

فالانسان اذا انحط يكون شرا من الشيطان ، واذا ارتقى يكون افضل
 من الملك - اعني جنس الانسان - ومن هذا الجنس كان محمد - صلى الله
 عليه وآله وسلم - اكمل الخلق الذى ليس لمخلوق رتبة مثله فى الكمال .

انتهى تلخيص الدرس وقد حرصنا على ما وعته الذاكرة من معانيه
وقيده القلم من الفاظه ثم تصرفنا في المواضيع التي طرقها الاستاذ بما
لا يخرج عن مراده ولا يخالف طريقته في تفسير كلام الله والله ينفعنا
بالقرآن ويوفقنا الى خدمته (1) .

(1) الشهاب : ج 4 و 5 م 14 - غرة ربيع الثاني وجمادى الاولى 1357 هـ
جوان وجوليت 1938 م .

لـواحق

رأينا من الخير أن نلحق بالكتاب موضوعات لها صلة وثيقة به وبصاحبه اتماما للفائدة وهى :

(أ) العرب فى القرآن ؛ وهى محاضرة ارتجلها الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس فى نادى الترقى بالعاصمة ، تناول فيها تاريخ العرب ومدنيتهم وخصائصهم الطبيعية وسراخيتارهم للرسالة العامة ، كل ذلك فى ضوء القرآن الكريم .

(ب) مقال رد به الشيخ عبد الحميد بن باديس فى مجلة الشهاب ، على الشيخ محمد بن يوسف المفتى الحنفى بعنوان :

« حول كلمات لاستاذ كبير فى تفسير آيات الزينة والستر » .

(ج) شذرات مما جادت به قرائح الخطباء والشعراء فى الاحتفال بختم تفسير القرآن الكريم

— تصوير وصفى للاحتفال : للاستاذ الابراهيمى

— قصيدة الشاعر الاستاذ محمد العيد خليفة

— خطبة الاختتام للاستاذ الابراهيمى

— كلمة المحتفل به

— كلمة عن الجامع الاخضر

(د) ترجمة الامام الشيخ ابن باديس

(هـ) رسالة الاذن بطبع الكتاب .

العرب فى القرآن

— 1 —

« الخطاب الذى ارتجله الاستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى اجتماعها العام بنادى الترقى لهذه السنة - وموضوعه « العرب فى القرآن » وقد حافظنا على معانيه وعلى الكثير من الفاظه ، ومييزات هيئات لما نود من نقله للقراء بالفاظه وجمله ، فانه خطاب عظيم فى موضوع خطير لا يضطلع به غير الاستاذ فى علمه بفنون القرآن وعوصه على مغازيه البعيدة ونفاذه فى معانيه العالية .

وعلى كل فاننا نرجو اننا قدمنا الموضوع للقراء كامل المعانى وحسبنا هذا » .

حق على كل من يدين بالاسلام ويهتدى بهدى القرآن أن يعتنى بتاريخ العرب ومدنيتهن وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الاسلام ، ذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الاسلام ولعناية القرآن بهم ، ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الاسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل الى أمم الارض ، فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالاسلام فلان العرب هيؤا تاريخيا لاجل ان ينهضوا باعباء هذه الرسالة الاسلامية العالمية . ولأن الله الحكم العدل الذى يضع الاشياء فى مواضعها بحكمة ويأمرنا ان ننزل الناس منازلهم فى شريعته - ما كان ليحمل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة ، اذ لا ينهض بالجليل من الاعمال الا الجليل من الامم والرجال . ولا يقوم بالعظائم الا العظام من الناس .

واما عناية القرآن بالعرب فلأجل تربيتهم لانهم هم الذين هيؤوا لتبليغ الرسالة ، فيجب ان يأخذوا حظهم كاملا من التربية قبل الناس

كلهم ، ولهذا نجد كثيرا من الآيات القرآنية فى مراميها البعيدة اصلاحا لحال العرب وتطهيرها لمجتمعهم واثارة لمعانى العزة والشرف فى نفوسهم ، ومن هذا الباب الآيات التى يذكر بها العرب ان القرآن انزل بلسانهم مثل: « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب ، ومن اول القصد الى العرب والعناية بلسانهم وتنبيههم الى ان القرآن انزل بلسانهم دون جميع اللسان - جلبالهم حتى يعلموا انه انزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم .

ان العرب قوم يعتزون بقوميتهم وهم قوم ذو وعزة واباء - خصوصا فى الجاهلية - فكان من حكمة القرآن ان يجلب نافرهم ويقرب بعيدهم بان هذا القرآن انزل بلسانهم .

ومن هذا الباب توسعة الله فى قراءة القرآن على سبعة احرف وهى اللهجات التى تجتمع على صميم العربية وتختلف فى غير ذلك . وسع عليهم فى ذلك لتعمر كل قبيلة ان هذا القرآن قرأها . لان اللسان الذى نزل به لسانها . وهذا هو ما يقصده القرآن . ومن هذا الباب ايضا اشعارهم بان صاحب الرسالة منهم . « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » الآية .

فمن الطبيعة العربية الخاصة انها لا تخضع للاجنبى فى شىء لا فى لغتها ولا فى شىء من مقوماتها . ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف ويحدثها كثيرا عن امة اليهود التى لا يناديها الا بيا بنى اسرائيل تذكيرا لها بجدها الذى هو مناط فخرها ، كل ذلك لانها امة تحيا بالشرف والسمو والعلو - ويذكرها بالذكر - وهو فى لسانها الشهرة الطائرة والثناء المستفيض . يقول تعالى لنبيه وهو يعنى القرآن : « فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَدَرُّرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » والانبياء لم يمشوا الا فى مناسب الشرف ومناجب القوة ومناجب العزة ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من احساب الامة وانسابها وشرفها وعزتها ، وما كان لها من مناقب تلتئم مع اصول الدين . فقوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَدَرُّرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » يعنى انه شرف لكم . وقومه هم العرب لا محالة .

ويقول بعد ذلك : « وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ » ، ليشرحهم ان عليهم من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذى اعطوه ما ليس على غيرهم ولا شك ان ثمن المجد غسال .

وهذا الشرط الذى ذكره الله وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ .

لان الامة التى لا تؤدى ثمن المجد لا تحافظ عليه . ثم هى امة لا يعتد عليها فى النهوض بنفسها ولا بغيرها . وانما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالامم على ذلك الاساس وهو احياء الشرف الانسانى فى نفوسها وليعاملوها على ذلك الاساس بالعدل والرحمة والتكريم ، وما ذكر القرآن العرب بتكريم بنى آدم وخلقهم فى احسن تقويم الا ليعاملوهم على هذه القاعدة التى وضعها الخالق . وان اعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون الى قتل الشرف من النفوس ليستذلوا من هذا النوع ما اعز الله ويهينوا منه ما كرم الله .

والخلاصة ، ان عناية القرآن باحياء الشرف فى نفوس العرب ضرورية لاعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر ، وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة فى اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الاسلامية العالمية ، واصطفائه اياهم لانقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل . وهذا السر هو انهم ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذى هياهم لذلك ولو كانوا اذلاء لما تهيأوا لذلك العمل العظيم .

وانظروا واعتبروا ذلك بحال امة هى اقرب امة الى العرب ، وهى امة اسرائيل ، فانها لم تكن مهية لانقاذ غيرها . وانما هيئت لانقاذ نفسها فقط لان مقاومتها النفسية لم تصل بها الى تلك الدرجة العليا . ولذلك عانى موسى معها ما عانى مما قصه القرآن علينا لنعتبر به فى الحكم على الامم . ولا حاجة الى التلويل فى الحديث عن بنى اسرائيل فان القرآن قد فصل لنا شؤونهم تفصيلا ، وانما انبهكم على هذا الفارق الجوهرى بين الامتين . وقد تقولون ان بنى اسرائيل اختارهم الله وفضلهم على العالمين . والجواب الذى يشهد له الواقع انه اختارهم لينقذوا انفسهم من استعباد

فرعون ، وليكونوا مظهرًا للنبوّة والدين في أول أطوارهما ، واضيق أدوارهما ، وهذا هو الواقع ، فإن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله ، وأن تظهر دين الله على الدين كله ، وأما بنو اسرائيل فانهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم ، وإنما نهض بهم موسى نهضة قائمة على الخوارق ، وما نهضوا بأنفسهم الا بعد موسى بزمان مع اتصال جبل النبوّة فيهم ومفاداة الوحي الالهى ومراوحته لهم .

فالامتان العربية والاسرائيلية متميزتان بالاثر ومتميزتان بحديث القرآن عنهما ، وإذا تلمسنا الحكمة المقصودة من اختيار الله لبنى اسرائيل، مع أنهم غير مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة ، وجدنا تلك الحكمة فى القرآن مجلوة فى ابلح بيان ، فى قوله تعالى : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُتِمِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ » .

فالسّر المتجلى من هذه الآية هو أن الله أراد بما صنع لبنى اسرائيل وبما قال لهم أن يعلم هذا العالم الانسانى من سنن الله فى كونه ما لم يكن يعلم ، وهو اخراج الضد من الضد ، وخراج الحى من الميت ، وانقاذ الامّة الضعيفة التى لا تملك شيئا من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية - من استعباد الاقوياء المتألهين - فهو مثل عملى ضربه الله لخلاص اضعف الضعفاء من مخالب اقوى الاقوياء ، وجعل المستضعفين ائمة وارثين وسادة غالبين ، والتمكين لهم فى الارض وارادة الاقوياء المستغلين فى الارض عاقبة باطلهم لكيلا يياس المستضعفون فى الارض من روح الله ، وقد قال موسى لبنى اسرائيل تمكيننا لهذا المعنى فى نفوسهم : « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَغْلِبَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » .

والى هذا المثل العملى تشير الآية : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْآثُوتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَكُلُّهُ فَضْلٌ عَلَى الْكَثَائِسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ أَكْثَائِسٍ لَا يَشْكُرُونَ » .

وأما العرب فانهم اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم من شرف متاصل واستعداد كامل وصفات مهياة . ولهذا كان منبع الرسالة . بمكة ، وشأنها

عند العرب هو شأنها ، فهم مجمعون على تقديسها ، ولانها فى وسط الجزيرة وصميمها ، ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية فى الطباع والالسنه. تلك المؤثرات التى يجعلها الاحتكاك بالاجانب والاختلاط بهم، وكل اطراف الجزيرة لم تخل من لؤة فى الطباع وعجمة فى الالسنه جاءت من الاختلاط بالاجنبى ، ولا أضر على مقومات الامم من العروق الدساسة . فاليمن دخلتها الدخائل الاجنبية من الحبشة والفرس على طباع اهلها والسنتهم . والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجاب ، والمراق والجزيرة لم يسلموا من التأثير بالطباع الفارسية ، فكانت هذه الاطراف تنطوى على عروبة مزعزة المقومات ، ولم يحافظ على الطبع العربى الصميم، الا صميم الجزيرة ومنه مكة التى ظهر فيها الاسلام ، وهذا الوسط وان كان عريقا فى الصفات التى تسمى العصر لاجلها جاهليا . ولكنه بعيدا عن الذل الذى يقتل العزة والشرف من النفوس ، والجاهل يمكن أن تعلمه، والجافى يمكن أن تهذب . ولكن الذليل الذى نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تفرس فى نفسه الدليلة المهيئة عزة واباء وشهامة تلحقه بالرجال .

هذا توجيه موجز مقرب لاختيار الله تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة . وشىء آخر يرتبط بهذا وهو أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة . ولا عجب فى هذا فاللسان الذى اتسع للوحى الالهى لا يضيق أبدا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها وهذا جانب لا اتحدث عنه فقد كفانا مؤنته اخونا الاستاذ محمد البشير الابراهيمى فى محاضراته التى سمعتموها بالامس (1) .

— 2 —

أيها الاخوان ،

جعلنا عنوان الخطاب « العرب فى القرآن » وقلنا فى أول كلمة منه أن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الاسلام . فما

(1) الشهاب - ج 1، م 15 - محرم 1358 هـ - فيفري 1939 م . ص 21 .

هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة .

العرب مظلومون في التاريخ ، فان الناس يمتقدون ويعرفون ان العرب كانوا همجا لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الاسلام فاهتدوا به فاخرجهم من الظلمات الى النور .

هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة ، ويزيد هذا التخيل رسوخا ما هو مستفيض في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم .

والحقيقة التي يجب أن اذيعها في هذا الموقف هي أن القرآن وحده هو الذي انصف العرب . والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية الى العرب ، فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد .

والتاريخ يجب ان لا ينظر من جهة واحدة بل ينظر من جهات متعددة ، وفي العرب نواح تجتنب ونواح تجتنب ، وجهات تدم وتقبح وجهات يثنى عليها وتمدح . وهذه هي طريقة القرآن بعينها . فهو يعيب من العسرب رذائلهم النفسية كالوثنية ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل .

وينوه بصفاتهم الانسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدينيات .

ولنذكر عادا فهي امة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب، ونمى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة وقال تعالى : « فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » .

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها ترينا أن عادا بلغت من القوة والعظمة بلغا لم تبلغه امة من امم الارض في زمنها ، حتى إن الله جل شأنه لم يتعد قولهم : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » الا بقوته الالهية التي يذعن اليها كل مخلوق ، ولو كانت في امم الارض

اذ ذاك امة اقوى منهم لكان الابلغ أن يتحداهم بها ، وان امة تقول هذه الكلمة بحالها او مقالها لهى امة معتدة بقوتها وعظمتها •

ومن هذه الآيه وحدها نستفيد أن عادا كانت اشد الام قوة وانها ما بلغت هذه الدرجة من القوة الا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الارض ، وان تلك المؤهلات فيها وفى غيرها من شعوب العرب هى التى اعدتهم للنهوض بالرسالة الالهية •

وان القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات ، وانما ينكر عليهم لوازمها ولا ينكر عليهم القوة والعظمة ، وانما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبنى ومحادة الله بدليل قوله لهذه الامة : « وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ » • فهو يضمن لهم انهم ان آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوتهم تمكينا وبقاء ، ومحال ان ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعى اليها والمنصر من الضعف وانما شرع القرآن بجانب الدعوة الى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل •

وكذلك قوله تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِلُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُقُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَبْطَشَتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ » ، فان هذه الآيه - زيادة عن افادتها معنى ما قدمناه - تكشف لنا نواحي من تاريخ هذه الامة العربية ومبلغ مدنيتهما وتعميرها ، فهى تدل على انهم كانوا بصراء يعلم تخطيط المدن والابنية ، وهو علم لا يستحكم الا باستحكام الحضارة فى الامة وماخذ هذا من قوله : « بِكُلِّ رِيعٍ » •

والآيه فى قوله « آيَةً » هى بناء شامخ يدل على قوتهم ، او هى آية هادية للسائرين ، وهى على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم ، وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة البانى ولم ينكر عليهم نبههم نفس البناء الذى هو مظهر القوة • وانما انكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ. فمحط الانكار قوله « تَعْبَثُونَ » ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل •

والمصانع يقول المفسرون انها مجارى المياه او هى القصور ، وعلى القولين فهى دليل على معرفتهم بفن التعمير علما وعملا وبلوغهم فيه مبلغا عظيما ، فهى من شواهدنا على ما سقنا الحديث اليه •

ولكن ليت شمعى ما الذى صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظى الاشتقاقى . والذى افهمه ولا اعدل عنه هو أن المصانع جمع مصنع من الصنع كالمعامل من العمل وانها مصانع حقيقية للادوات التى تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران . وهل كثير على أمة توصف بما وصفت فيه فى الآية - أن تكون لها مصانع بمعناها العرفى عندنا ؟ بلى وأن المصانع لأول لازم من لوازم العمران وأول نتيجة من نتائجه .

ولا اغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع لا تفسير بعضهم للسائحين واليهائنات بالصائمين والصائمات. والحق أن السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار والقرآن الذى يحث على السير فى الارض والنظر فى آثار الامم الخالية حقيق بان يحشر السائحين فى زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين فربما كانت فائدة السياحة اتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود . ولا يقولن قائل اذا كانت المصانع ما فهمتم فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم فانه لم ينكرها عليهم لذاتها وانما انكر عليهم غاياتها وثمراتها ، فان المصانع التى تشيد على القسوة والقسوة لا تحمد فى مبداء ولا غاية ، واى عاقل يرتاب فى أن المصانع اليوم هى أدوات عذاب لا رحمة ووسائل تدمير لا تعير فهل يحمدها على عمومها ، وان دلائل حضارة ومدنية كانت .

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم ، ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه انسان لا آلة .

« وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » لا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش ولكن البطش فيه ما هو حق بان يكون انتصافا وقصاصا واقامة لقسطاس العدل بين الناس ، وفيه ما هو بطش الجبارين ، والجبار هو الذى يجبرك على أن تعمل بارادته لا بارادتك ، فبطشه انما يكون انتقاما لكبريائه وجبروته ، وارضاء لظلمه ومثوه ، وتنفيذا لارادته الجائرة التى لا تبني على شورة وانما تبني على التشهى وهوى النفس. لذلك لم ينقم منهم البطش لانه بطش وانما نقم منهم بطش الجبابة الذى كله ظلم . وفى القرآن

ما هو كالتتمة لبحثنا عن حضارة العرب وكالعلاقة لحضارة عاد بمينها وهي
حكاية عاد ارم ذات العماد .

فهذا الوصف البليغ الذى نقرؤه فى سورة الفجر صريح بالفاظه
ومعانيه فى انه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها ، فالعماد
لا تكون الا فى القصور والابنية الباذخة والمدن المخططة على نظام
محكم ، وقد قال تعالى ، وهو العالم بكل شىء ، انه « كَمْ يُخَلِّقُ مِثْلَهَا فِي
الْأَلْبَادِ » ومدينة هذا وصفها لا تشيدها الا أمة لا نظير لها فى القوة .
وأثار الحضارة يتبع بعضها بعضا فى الضخامة والعظم . والوصف القرآنى
لها وإن سبق للاتعاط بعاقبتهم يدل الباحث التاريخى على انهم بلغوا فى
الحضارة غاية لا ورامها . وهم أمة عربية . فهذه المدينة شيدت فى جزيرة
العرب لا محالة وإن الاقرب فى التذكير بهم والاتعاط بمصيرهم ان تكون
الرؤية فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ » علمية لان التذكير عام لمن تتيسر له رؤية
العين ولمن لا تتيسر له ، ولو اثبتت الامم الاسلامية بأوامر القرآن لنشا
فيها رواد يرودون الجزيرة ويجوبون مجاهلها ولو فعلوا لامكن
ان يمشروا على آثار هذه المدينة فى أرض عاد وهي معروفة ،
ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلمية وبين العلم والاتعاط . واننا
لا نعبأ فى مقام البحث العلمى بما حف هذه الحكاية من اساطير ولا بما
وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حين تعرض لنقض تلك الاساطير (1) .

— 3 —

وأمة أخرى من الامم العربية وهي شؤد : وهي أمة عربية نلعبها بلعن
القرآن لها ، ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة ،
فصالح رسول هذه الامة يقول فى دعوتها الى الله وتعريفها بنعمه : « هُوَ
أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » ، فامة أمة لا تعمر الارض الا اذا
ملكتم وسائل التعمير وهي كثيرة ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو
المدنية .

وقد كشفت لنا من هذا الاستعمار الشمودى عدة آيات بليغة الوصف ،
ولكن أبلغها وصفا وأدقها تصويرا قوله تعالى : « أَتُزَكُّونَ فِيمَا هَا هُنَا
أَمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَدَرُوعٍ وَغُلٍ ظُلُعُهَا فَصِيصٌ وَتَنْتَعِنُونَ مِنَ الْأَجَالِ
بَيُّوتًا قَرِيرِينَ » .

أما المغزى الذى سيقته هذه الآية لاجله فهو النفى عليهم . كيف
يستعينون بنعم الله التى يسرها لهم على الكفر به وانهادهم أن الكفر
بها وبموثوقيتها سيكون سببا فى زوالها وفى ضمن هذا عرفنا حالتهم التى
كانوا عليها فى تعمير الارض . وهى حالة امة بلغت النهاية فى الحضارة
المادية وفنونها من زرع الارض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة ، وتقسيم
المياه على تلك الغروس الى ما يستلزمها ، كل ذلك من علم بحال الارض
وطبائعها ، واحوال الاشجار المغترسة وطبائعها ، واحوال الفصول الزمنية
واحوال الجو واحوال التلقيح والآبار والجنى ، وعلم بأصناف التمتع
من مناظر ومجالس ومقامات ومآكل . ثم القيام على حفظ ذلك العمران
من إفساد الايدى السارقة ، وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم
لاجل تذكيرهم والتذكير بهم ، وقد ذكرهم القرآن فى مواضع باتقانهم
لنحت الحجر . والشجر والحجر آيتا الحضارة المبصرتان ، ومن يعرف
الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف أنها ما قامت الا على نحت الحجر
وغرس الشجر .

وان نحت الحجر ليستدعى حاسة فنية خاصة ويستدعى مع ذلك قوة
بدنية ، وقد نعتهم القرآن فى نحتهم للحجر بحالة ملاسة ، فوصفهم مرة
بانهم آمنون ، ومرة بانهم فرهون ، والفاره هو الذى يعمل بنشاط وخفة
ولا يأتيه ذلك الا من خبرته بما يعمل ، وعلمه بدقائقه واعتياده له .
ومعنى هذا ان اصول هذه الصناعة التى اشتهر بها المصريون القدماء ،
والرومان قد رسخت فيهم ، ولكن التاريخ المنقول ظلم العرب وبخسهم
حقهم كما قلت لكم فى طالعمة الخطاب .

هاتان أمتان من الامم العربية أثبت القرآن حالهما ، فكان لنا مصدرا
تاريخيا معصوما فى اثبات حضارة الشعوب العربية التى برزت فيها الامم .

ولنتقل الآن الى ناحية أخرى من نواحي الجزيرة وهي اليمن التي عرفها اليونان وغيرهم ، وعرفوا المدن التي قامت فيها ، فسموها بالعربية السعيدة ، وانا اذا انتقلنا الى هذه الناحية من الجزيرة نجد العز القدموس والمجد الباذج والماضي الزاهر لهذه الامة التي نفتخر بالانتساب اليها وبأهل الامم بمدنياتها بالحق والبرهان .

واننا في حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد القرآن .

قال تعالى : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَارِينِهِمْ آيَةٌ جِئَتْنِي عَنْ يَمِينٍ وَشِيعَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ قَاهِرٌ سَلَّطْنَا فِيهَا الْقُرْمَ وَبَلَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جِئَتْنِي ذَوَاتِهِمْ أَكْلًا خَمَطٍ وَآثَرٍ وَشَوْءٍ مِنْ سِنَرٍ لَقِيلَ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَقُلْ يُجَادَى إِلَّا الْكُفُورُ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَلْنَاهُمْ فِيهَا أَلْسِنَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » .

ليس المقام مقام تبسط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات ، فقد استوعبت تاريخ امة في سطور . وصورت لنا أطوارا اجتماعية كاملة في جمل قليلة ابداع تصوير ، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداءة في جمل جامعة لا أظن غير اللسان العربي يتسع لحملها كقوله : « قُرًى ظَاهِرَةً » ، وكقوله : « وَقَلْنَاهُمْ فِيهَا أَلْسِنَ » ، وكقوله : « بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » حتى اذا وصل القارىء الى مصير هذه الامة التي سمع ما حاله من وصفها واجهه قوله تعالى : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ » وادركه الفرق في لجج البلاغة الزاهرة .

اللهم ان السلامة في الساحل وانا لا نعدو موضوعنا وهو تصور حضارة العرب مما يعكس القرآن عنها في معرض بيان مصائرنا حين كفرت بأنعم الله وبرسوله .

الآيات صريحة في أن مدنية سبا كانت مدنية زاهرة مستكملة الادوات ، ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما نفهم من آياته وعلم كما نعلم أن مدن سبا كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال . ومعنى من ؟ وشمال من ؟ انه

لا شك يمين السائر فى تلك المدن أو الاراضى وشماله . ومعنى هذا أن طرق السير كانت منظمة تبعاً لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها ، والاكتشافات الاثرية اليوم التى كان لليمن حظ ضئيل منها وان كان على غير يد اهلها - تشهد بأن أمم الحضارات اليمنية كانوا من أسبق الاسم الى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها فى تعمير الارض . واقامة السدود لا تتم بالفكر البدوى والعمل اليدوى ، بل تتوقف على علوم فكرية منها الهندسة ، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة ، وعلوم العمران كمروق البدن يمد بعضها بعضاً ، فهى مترابطة متماسكة متلاحمة ، فما يكون السبايون يلفوا فى الهندسة مبلغا أقاموا به سد مأرب حتى يبلغوا فى غيره من علوم العمران ذلك المبلغ .

ولكن لما كفروا بأنعم الله ، واستعملوها فى ما يسخطه ، سلط الله عليهم من الاسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضاراتهم ، وذلك قوله تعالى : **« فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ... الخ »** .

ويقول فى وصف عمرانهم : **« وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْفُرَى الْفُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً »** ، يعنى ان عمرانهم لم يكن محدودا وانما كان متصلا بعضه ببعضه ، فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها فلا يكاد المسافر يبرح مدينة حتى تبدو له اعلام الاخرى ، ولا يكون هذا الا اذا كان العمران متصلا . وهذا هو معنى الظهور فى الآية ، فهو ظهور خاص . وتقدير السير هو أن يكون منظما ومن لوازمه أن تكون الاوقات مضبوطة بالساعات ، والطرق محدودة بالعلامات ، التى تضبط المسافة ، وقوله تعالى : **« سِيرُوا فِيهَا لِيُبَيِّنَ لَكُمْ آيَاتِنَا »** يرشدنا الى امتداد العمران مسافات الليلالى والايام ، وان الامن كان مادا رواقه على هذا العمران . ولا يتم العمران الا بالامن ، ولكن فات القوم أن يعصنوا هذه المدينة الزاخرة بسياج الايمان والشكر والفضيلة والعدل . وكل مدينة لم تحصن بهؤلاء فمسيرها الى الخراب ، والناس من قديم مفتنونون بعظمة المظاهر يحسبون انها خالدة بمعظمتها باقية بذاتها ، فالقرآن يذكر لنا الكثير من مصائر الامم حتى لا نفتخر بمظاهرها ، وحتى نعلم أن سنة الله لا تتخلف فى مدينة الآخرين كما لم تتخلف فى الاولين .

واما قوله تعالى : « قَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » فان المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره واى عاقل يطلب بعد الاسفار ؟
والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بالسنتهم وانما هو نتيجة أعمالهم ، ومن عمل عملا يفضى الى نتيجة لازمة فان العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله ، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة .

ولا زال الناس - على عاميتهم - يقولون فيمن عمل عملا يستحق عليه الضرب او القتل : انه يقول اقتلنى او اضربنى : وهو لم يقل ذلك وانما أعماله هي التى تدعو الى ذلك ، فالمعنى أن أعمالهم هي التى طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباطا باللازم بالملزوم ، والدال بالمدلول فكان السنتهم قالت ذلك . ويؤيد هذا فى القرآن كثير ومنه قوله تعالى : « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » لان الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به ولا يقولن قائل : ان القول يقع مدلوله فى القلب حالا ولا كذلك العمل فقد يتأخر جزاؤه طويلا - لان الجزاء اذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل ، وكل عاقل يقطع بأنه اذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء ، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه .

اما المباعدة بين أسفارهم التى اقتضاها كفرهم بانعم الله ، فهى كناية عن محو العمران وخراب القرى التى كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها الا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير .

واين العمران المتلاحم الذى يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدد المشاهد من الخراب الذى يوحش النفس فيزيد المسافة بعدا على بعد .
وملكة سبا وعرشها العظيم وملكها وما قصه القرآن من نبئها أعظم وأروع .
فمخبر سليمان عليه السلام يقول عنها : « وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وما وصف عرش ملكة سبا بالعظيم عند سليمان نبى الله الذى سخر له الجن والريح - الا وهو فى نفسه عظيم .

أيها الاخوان :

ان فى قصة ملكة سبا فى القرآن لدرسا تتفجر منه ينابيع العظة والعبرة ، وإرشادا الى ما تقوم به الامم ، ولولا ان هذا الخطاب قد طال

لآثرنا منها العبر وآثرنا بها العبر ، ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها اشارات وما عليكم بعد ذلك الا أن تتدبروا الآية ففيها نظام الشورى صريحا لا موارد فيه ، وفيها ان بناء الامم انما يعتمد على القوة ، وقد تكون مؤنثة فلا بد ان يسندها بأس شديد . وفيها أن الملا هم الاشراف وأهل الراى وهم أعضاء المجالس الشورية ، ولعلمهم كانوا بالانتخاب العرفى ، وهو نظام مدنى ، ولعلمهم كانوا بالانتخاب الطبقى أو الوراثى ، وهو لا يكون الا فى الامم التى شبت عن طريق البداوة .

ولعل كاتبنا من كتابنا يتناول هذا البحث بحث الانتخاب فى الاسلام ولئن استرشد القرآن فى هذا الباب ليرشدنه .

أيها الاخوان :

هذه مدنيات ضخمة غبرت فى هذه الامة التى اهلها الله لحمل الرسالة الالهية الى العالم . وهذه بعض خصائص هذه الامة التى هيأها للنهوض بالعالم وانقاذه من شرور الوثنية وبنياتها ومن ضلال العبودية بجميع اصنافها وان القومية العربية موضوع مترامى الاطراف ، وليس من الممكن الاحاطة به فى مثل هذا الخطاب . وحسبى أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التى هى خدمة للاسلام والقرآن . وعليكم السلام (1) .

(1) الشهاب - ج 8 ، م 15 - ربيع الاول 1358 هـ - افريل 1939 م .

حول كلمات لاستاذ كبير في تفسير آيات الزينة والستر

— 1 —

نشرت جريدة « الزهرة » ، الفراء حديثا لفضيلة العلامة
الكبير الشيخ محمد بن يوسف المفتي الحنفي بإحضرة تونس .
افضى به لاحد محررى جريدة « اللواء التونسى » ، فرأينا فى
بعض ما قاله الاستاذ نظرا لا ينبغى السكوت عليه فكتبنا عليه
ما يلى :

قال المحرر : « ثم تلا - الاستاذ - قوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ
لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيسِهِنَّ » الآية . يقال
للرأة اذا زال ثوبها عن وجهها : ادنى عليك من ثوبك أى استرى وجهك .
وتلا قوله تعالى : « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ » الآية . قلت - المحرر - وما المراد من الزينة ؟ قال
الزينة هى الوجه اذ الوجه هو مناط جمال المرأة » .

فظاهر من مساق تلاوة الاستاذ للآية أنه يستشهد بها على وجوب ستر
الوجه ، وظاهر من السؤال انه عن المراد بلفظ الزينة من : « ولا يبدين
زينتهن » وظاهر من الجواب انه فسر الزينة بالوجه فى قوله : « زينتهن » .
ولو ذهبنا على هذا الرأى فى الاستشهاد والجواب لكان تقدير الآية
مكذبا ، ولا يبدين وجوههن الا ما ظهر من وجوههن . وهذا لا قائل به
وتكاد لا تكون فائدة لمعناه .

والصواب ان الذى فسر بالوجه والكفين - لا بالوجه فقط - هو لفظة
« ما » فى قوله : « إِلَّا مَا كُفِّرَتْ عَنْهَا » وهى اقامة على الزينة الظاهرة . اذ
الزينة منها باطن كالسوار للقدماء والـ

للنحر والخلخال للساق ، ومنها ظاهر كالكحل للمين والخاتم للاصبع .
والزينة فى الحقيقة هى هاته الاشياء المتزين بها ونحوها . فتعلق بها هذا
الخطاب باعتبار محالها فالقصد محالها بدليل انها اذا لم تكن فى محالها
لا يتعلق بها هذا الخطاب . وقد جاء تفسير الزينة الظاهرة عن السلف مرة
بالوجه والكف ومرة بالكحل والخاتم والثانى راجع للاول لان الوجه محل
الكحل والكف محل الخاتم فالثانى فسر على حقيقة اللفظ والاول على المراد .
ولما قال الله تعالى : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ » عم اللفظ الباطنة والظاهرة .
ولما قال : « إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا » خص الظاهرة فجاز ابدائها وبقيت الباطنة
على المنع . وافادت الآية منع كشف العنق والصدر والساق والذراع وجميع
الباطن واباحت كشف الظاهر وهو الوجه والكفان اذ هما ليسا بعورة من
المرأة باجماع .

فبان بهذا بطلان تفسير الاستاذ الزينة من « زِينَتَهُنَّ » بالوجه ، وبطلان
استدلاله بالآية على وجوب ستره اذ هى بالعكس دالة على جواز ابدائه
بحكم الاستثناء الصريح .

ونرى ان نزيد المقام تقديرا وتوضيحا بما ننقله عن امامين كبيرين فى
الحديث والفتوى : الامام الجصاص الحنفى والقاضى عياض المالكى . ثم
عن امام دار الهجرة .

قال الجصاص : وهو يريد : « إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا » - وقال اصحابنا :
المراد الوجه والكفان لان الكحل زينة الوجه والخضاب والخاتم زينة
الكف ، فاذا قد اباح النظر الى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة
اباحة النظر الى الوجه والكفين . ويدل على ان الوجه والكفين من المرأة
ليسوا بعورة ايضا انها تصلى مكشوفة الوجه واليدين فلو كانا عورة لكان
عليها سترهما كما عليها ستر ما هو عورة . واذا كان كذلك جاز للاجنبى
ان ينظر من المرأة الى وجهها ويديها بغير شهوة .

وقال عياض « فى هذا كله - وهو يعنى حديث نظر الفجأة - عند العلماء
حجة انه ليس بواجب ان تستر المرأة وجهها وانما ذلك استحباب وسنة
لها . وعلى الرجل غرض بصره عنها الى ان قال : ولا خلاف ان فرض ستر

الوجه مما اختص به ازواج النبی صلی اللہ علیہ وسلم . اه . من الاکمال
بنقل المواق . ونقل صدره النووی وأقره .

وفی الموطأ : « سئل مالک هل تأکل المرأة مع غیر ذی محرم منها أو مع
غلامها ؟ فقال لیس بذلك بأس . اذا کان علی وجه ما یعرف للمرأة ان تأکل
معه من الرجال . قال وقد تأکل المرأة مع زوجها ومع غیره ممن یؤاکله
أو مع أخيها علی مثل ذلك » .

فمالک یرى جواز مواکلة المرأة للاجنبی اذا لم تكن فی خلوة معه ،
بان کان ذلك بحضرة زوجها أو أخيها مثلا . وهی تقتضى ابداء وجهها
وکفیها للاجنبی اذ ذلك لازم عند المواکلة كما قاله الباجی وأقره .

فهذه النقول کلها مفيدة لما دلت علیه الآیة من أن الوجه والکفین لیسا
بعورة وانه لا یجب علی المرأة سترهما . نعم نص اکثر الفقهاء المتأخرین
من جمیع المذاهب علی ان المرأة یجب علیها ستر وجهها اذا خشیت منها
الفتنة وهذا حکم عارض معلل بهذه العلة فیدور معها وجودا وعدما .
ولذا لما کنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى - وحالتنا هی
حالتنا - لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال ، ونعرف نساء
جهات فی بادية قطرنا لا یسترن وجوههن ولیس بهن فساد ولم تقع بهن
من فتنة ، فلما سئلنا عن سفورهن اجبنا بترکهن علی حالهن اخذا بأصل
الجواز .

اننا بما کتبنا اردنا اعتراض عبارة الاستاذ وبيان الحكم الاصلی لستر
الوجه والکفین والحکم العارض وقد بینا ذلك حسب المستطاع . وبقي
الکلام علی آیة الادناء التي ربما تظن معارضتها لآیة الابداء المتقدمة
وستنکلم علیها فی العدد الآتی ان شاء الله (1) .

— 2 —

نمید اليوم - وقد عدنا الى تمام هذا الموضوع - ما کنا صرحنا به فی
القسم الاول من قولنا : « ... فهذه النقول کلها مفيدة لما دلت علیه الآیة
من ان الوجه والکفین لیسا بعورة وانه لا یجب علی المرأة سترهما . نعم

نص اكثر الفقهاء المتأخرين مع جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها اذا خشيت منها الفتنة . وهذا حكم عارض مغلل بهذه الملة فيدور معها وجودا وعدما . ولذا لما كنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى - وحالتنا هي حالتنا - لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال . ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة . سئلنا عن سفورهن اجبنا بتركهن على حالهن اخذا باصل الجواز . نعيد هذا ليقدر ما نريده عند قارئنا بجلاء تام .

قد عرفنا في القسم الاول من الكلام على آية الابداء وهي آية قوله تعالى : « وَلَا يُبَيِّنُ زِينَتَهُنَّ » ونريد ان نتكلم في هذا القسم على آية الادناء وهي قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » وفي هذه الآية تفسيران اخذ الاستاذ باحدهما وهو مرجوح في نظرنا بما نقيمه من الادلة على مرجوحته . وسنتكلم على الآية في ثلاثة مباحث .

المبحث الاول

في معنى الإدناء والجلابيب

الادناء من الدنو وهو القرب فالادناء التقريب ، فيدنين عليهن من جلابيبهن بمعنى يقربن عليهن . وأصل فعل دنا ان يتمدى بمن ، تقول : دنوت وادنيته منه وانما يتمدى بعلى اذا كان في الكلام معنى الارخاء أو الضم كما في قوله تعالى : « وَكَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا » وكما في « يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ » والجلباب - على اختلاف عبارات اللغويين في تفسيره هو الثوب الاعلى الذي تجعله المرأة فوق رأسها وترسله على بدنها كالمحفلة ونحوها . و « من » للتبعض لان الذي تدنيه عليها من ناحية وجهها انما هو بعض جلابيها .

فافادت الآية طلب تقريب المرأة بعض جلابيها وارخائها وضمه عليها من ناحية وجهها ، وهذا محتمل لان يكون بتغطية جميع الوجه وبتغطية

بعضه . واختلاف المفسرين من السلف فى معنى الآية دليل على وجود هذا الاحتمال . وما نقله الاستاذ بالمعنى من تفسير الزمخشري هو احد الوجهين المحتملين . واجود ما نقل عن ائمة العربية فى تفسير الآية قول الكسائى « يتقنعن بملاحفن منضمة عليهن » قال الزمخشري « اراد بالانضمام معنى الادناء » والتقنع لا يقتضى ستر الوجه كله .

المبحث الثانى

فى اختلاف المفسرين من السلف

فى الآية قولان لهم نقلهما ابن جرير فى تفسيره الشهير :

الاول : هو ان يغطين وجوههن ورؤوسهن فلا يبين منهن الا عينا واحدة وهذا قول عبيدة وقول ابن عباس من طريق أبى صالح .

الثانى : أمرن ان يشددن جلابيبن على جباههن وهو قول قتادة وقول ابن عباس من طريق محمد بن سعد .

المبحث الثالث

فى الترجيح

قد مضت آية الابداء مفيدة جواز ابداء الوجه والكفين على مقتضى ما تقدم من البيان ، وجاءت بعدها هذه آية الادناء محتملة لطلب ستر الوجه كله كما فى القول الاول . وتكون عليه معارضة لآية الابداء المتقدمة ، تلك تبيح كشف الوجه وهذه تحظره - ومحتملة لطلب الارضاء والضم لبعض الجلاب على بعض الوجه وهو الجبين كما فى القول الثانى ولا تكون حينئذ معارضة لآية الابداء .

وحملها على ما تكون به معارضة بين الآيتين - وهو الوجه الثانى - ارجح وأولى ان لم يكن متعينا .

ثم ان قوله تعالى : « ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ » يفيد ان علة طلب الادناء هى تمييزهن عن الاماء اللاتى كن يمشين حاسرات أو بقناع مفرد فيتعرض لهن اهل الشطارة

الآية تحصيل لهذا المقصود من التمييز ، فحملها عليه مناسب للعللة وسالم من المعارضة فهو المختار •

وبهذا التقرير تكون كل آية مفيدة معنى غير الذى افادته الاخرى ،
فآية الابداء افادت طلب ستر الاعضاء الا الوجه والكفين ، وآية الادناء
افادت طلب الستر الاعلى الذى يحيط بالثياب ويعم الرأس وما والاها من
الوجه وهو الجبين وينضم على البدن ليحصل به تمييز الحرائر بالمبالغة
فى التستر والاحتشام • وهذا هو المناسب لجوامع كلم القرآن •

والله أعلم (1)

(1) الشهاب - ج 3 ، م 5 - غرة ذى القعدة 1347 هـ - ابريل 1929 م •

كلمة فى الاحتفالات وتصوير وصفى للاحتفال العظيم بختام القرآن العظيم

بقلم : الاستاذ محمد البشر الابراهيمى

الاحتفالات - بنظامها العصرى - مجامع مفيدة من جميع جهاتها ،
لجميع روادها ، فهى بالنظر العام أدوات تعارف وتواصل وربط بين من لم
تنهيا لهم اسباب الاجتماع الا فى هذه الاحتفالات ، واسواق بضائعها
الخطب والمراجعات القولية ، وأرباحها الايجابية آداب الاجتماع ، وتلافح
الافكار واقتباس الكلمات واستيقاظ الهمم واستمجال الآراء وانتشال
التفكير من المستوى العام الغث ، وصقل الازهان وتمكن مجموعة فى
الملكات منها ملكة استعراض الآراء وملكة استجماع الخواطر وأرباحها
السلبية زوال الدمثة من لقاء الناس والاستيحاش منهم وغشية
الاضطراب والارتباك ، والبرء من آفة العى والحصر ، وهى - لعمرك -
نقائص ، حظ مجتمعا - على الخصوص - منها عظيم .

وهى للدعاة ميادين دعاية يجدون فيها متسعا رحبا لنشر آرائهم بدون
كلفة وبدون نفقة لانها تحشد لهم طبقات من الناس ما كانوا ليستطيعوا
جمعها .

وهى للمرشدين والمربين الاجتماعيين فرص لبث الارشاد بين الجمهور
وتوجيهه للخير والمنفعة .

وهى للخطباء واصحاب اللسان ذرائع تمرين وارتياض على الكلام وتوسع
فى وجوه القول وتمرس بمكافحة الجموع ، وهذه كلها فوائد لا يستهان بها
فى باب التربة .

ان هذه الاحتفالات بمثابة دروس تطبيقية معظم تلامذتها من الدهماء الذين حرموا المدارس والدروس النظامية واذا كان هذا الصنف كثيرا في الامم فمن الرحمة به وحسن الرعاية له ، ومن الحكمة في استصلاحه وتربيته ان يوسع له في هذه الاحتفالات ويكثر له منها ، وان تبتكر له المناسبات لاقامتها .

وان اكثر الناس استفادة من الاحتفالات وأبلغهم افادة فيها وأقلهم عهدا في توجيهها الى الصالح النافع أو الى الفاسد الضار ، هم الخطباء ، فعليهم وحدهم يتوقف اصلاحها أو افسادها ، وليست خصوصية الاسباب ولا تحديد النظم بمانة للخطباء من بلوغ غرضهم ما دام باب المناسب والاستطرادات واسعا رحب الجوانب ، وما دام وجود الخطباء في الاحتفال جزءا ضروريا بحيث لو خلا من عنصرهم ، في هذا العصر ، احتفال لكان زردة ، متمدنة مظلومة في اسمها ، فوجودهم هو الفارق الجوهرى بين مسمى ، « احتفال » ومسمى « زردة » .



تتفاوت الاحتفالات بتفاوتها في سمو المعاني التي تقام لاجلها ، فبقدر سمو السبب وعموميته تكون قيمة الاحتفال ، ثم تنزل تلك القيمة وترخص كلما تقه السبب أو خص حتى تصل الى درجة الساقط الذى لا وزن له ، ولا يدخل في هذا الباب الا بضرب من التوسع والتساهل .

فأسمى هذه الاسباب ما يذكر الجمهور بامجاده التاريخية وبفاخره القومية وفيه نخوة أماتها الضيم وفحولة قضى عليها التائن ، وذكرى أخنت عليها الغفلة والنسيان ، وأصالة خبثتها الامراق الدسيسة ، وعزيمة اطفاتها طباع الضعف والفسولة ، وأريحية غطى عليها اللوم المخزى والشح المطاع . وشواعر خدرتها تهدئة الدخيل وزمزمة الحاوى وهيمنة الواغل .

ثم ما يحلو عليه حقيقة دينية أو علمية غشيتها الاوهام والخرافات ، ثم ما يحقق له مصلحة في الحياة كانت مجهولة أو حقا فيها ضائعا ، ثم ما يكشف له عن وجوه الاصلاح الاجتماعى ليعملوا له ، وعن وجوه الفساد فيه ليتقوه . . .

ثم . . لا ثم . . .

هذا من جهة الاسباب والبواعث . . فاما من جهة الاشكال والصور
فاعلى ما فيها ان ينساق اليها الجمهور بسائق الوجدان ، واخس ما فيها
ان يساق اليها سوقا او ان يخدع فيها عن وجدانه بالمرغبات الخادعة .
☆ ☆

لكل امة اسباب طارئة وبواعث تاريخية تدعوها الى اقامة الاحتفالات . وقد
تنبهت الامم الحية الى ما فيها من الفوائد فجعلت الاحتفال بها جزءا من
حياتها ، ومادة من قوانينها الاجتماعية ، وان الامة الاسلامية لاغنى الامم
من هذه البواعث التاريخية . وكلها من ذلك الطراز العالى الذى اشرنا اليه ،
ومعظمها بواعث دورية ينفى الباعث فيها الى باعث فلا تفتت الامة مستعرضة
ماضيها كله ولا تزال في غمرة من المنبهات المنعشة .

عندنا معشر المسلمين ليلة الميلاد النبوى ، وعندنا يوم الهجرة ،
وراس السنة الهجرية ، ويوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم فتح مكة ، وغير
ذلك من الاحداث التى وقعت فى عهد النبوة ، ولكل واحد من هذه الاحداث
مغزى سام واثر بالغ فى تاريخنا ، وهلم الى ما بعد ذلك من الوقائع
الشهيرة الفاصلة حتى تنتهى الى فتح صقلية ، ومواقع الحروب الصليبية ،
وفتح القسطنطينية وهلم ما يخصنا معشر الافارقة كبناء القيروان ، واستواء
طارق على الجبل ، وهلم ما تقتضيه المناسبات فى بعض الاوقات ، كفتح
خيبر ، ودخول عمر لبيت المقدس . وتعال الى القواد والفاتحين والاجواد
والعلماء والحكماء والفلاسفة والشعراء ، ولا تعد من الدر الا كبارهم ،
تجد ما زخره التاريخ وفاضت به العصور . ومع هذه المفاخر فقل ان
تجد قطرا اسلاميا من اهل سنة صالحة فى احياء هذه الذكريات واحياء
الامة بها الا فى القليل المشوه الذى لا ينقع غلة ولا يصيب مرمى .

ان غفلتنا عن احياء ذكريات امجادنا التاريخية هى التى ازهدت فى الامم
الاسلامية روح الناس فافقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خلوا من
المثل العليا . حتى اندس هذا العرق الخبيث فى آدابنا ، فترانا اذا التمسنا
مثلا فى الجود طويلا تاريخ الاسلام كله كانه صفحة مفسولة وجئنا من
العصر الجاهلى بحاتم ، وقل مثل ذلك فى هنتر ، والسموال ، فاذا قصرنا
الخطوة وقاربنا النجمة وقفنا عند العصر الاول للاسلام . فهل خلت العصور
التي بعدهم من مثل كاملة ومن مفاخر خالدة ؟ لا . فقد تأسى عصر بعض
وجيل بجيل ، فجاءت عصور

وانقطعت الملائق الواصلة بين عصوره ضعفت روح التأسى ثم تلاشت وصرفنا الى هذا الفقر الشائن فى المثل ، وهذا الخواء المزرى فى التاريخ .

وقد زادتنا أضاليل الفاشين امعانا فى الغفلة واغراقا فى الركود . ففقهام هذه العصور الجرداء يعدون التاريخ علما لا ينفع وجهالة لا تضر ، والاجانب يعيروننا باننا أمة تضيى فى الماضى ويفشون سفهاونا فى معرض التنصح بامثال هذه الكلمات ليا بالسنتهم وتزهيدا فى هذا الماضى ، زيادة على زهدنا فيه . وهم يعلمون اننا نعيش بلا حاضر ويوجدون خيفة من ان يلم بنا طيف من ذلك الماضى الزاهر فنبنى عليه حاضرا من جنسه اكمل منه .

الا أنهم ، من انكهم ، ليقولون : دعوا ماضيكم فهل تركوا هم ماضيهم ؟ اننا نراهم احرص الناس على الاعتداد به والاستمداد منه والامتداد معه الى عصور الخرافات والاساطير .

وما لنا وللفاش والناصح ! ان لنا ماضيا عبقريا حسدتنا عليه الامم التوالى بعد ان جرضت به الاسم الخوالى . فمن مصلحتنا وحدنا ان نحى ذكرياته فى نفوسنا وان نستمد منه قوة لارواحنا وان نربى ناشئتنا على احتذاء مثله وعبقرياته . وان اقامة الاحتفالات لتلك البواعث لطريق قاصد الى ما نريد من ذلك .



سنت مجلة « الرسالة » الفراء نوعا من الاحتفاء بيمض هذه البواعث فجرت على اصدار عدد ممتاز للسنة الهجرية وجلا كتابها الكرام علينا عبرا كانت مخبوءة واثاروا فى نفوسنا ذكريات كانت منسية . ورأينا من بركات هذه السنة التى سنها الاستاذ الزيات ، امتع الله به . ان اقلاما عربية متينة كانت متنكرة للاسلام وتاريخه تعفر وجههما الضوح بالفتاح وتبج فى مشرعهما الصافى السمام المنقح ، وقد اصبحت تفتن فى ابانة حقائقهما واطهار معالمهما بما اوتيت من قوة بيان ونصاعة برهان ، ثم كتب الاستاذ صاحب الرسالة مرة او مرتين ، لا اذكر - فى ذكرى يوم بدر ، وكأنه حفظه الله - يريد بهذا الصنيع ان يجعله منبهة للامم الاسلامية الى ما وراه من خير ، ولكن لم يكن على منهاجه الا القليل .

ومنذ سنوات احتفلت مصابة من احياء القلوب والشواعر بموقعة
 حطين وهى من المواقع الفاصلة فى الحروب الصليبية ، ومن الصفحات
 المشرقة فى تاريخ صلاح الدين وتكلم فيها جماعة من رجال الاسلام ونشرت
 كلماتهم فى كتيب وقرانه فاذا هو احتفال بهير رواكد الهمم • ويكاد ينفخ
 الحياة فى الرمم • ولقد ، والله اشجاني واهكاني - وما زال يشجيني
 ويبكىنى كلما ذكرته ، قول صديقنا الاستاذ خير الدين الزركلى فى النفودة
 حطين :

لكل امر حين خل البكا هينا
 هاتى صلاح الدين ثانية فينا
 الشامخ العرنين عزاً و تمكيننا
 وجددى حطين او شبهه حطينا

لك الله ايها الشاعر • وهل يأتيك بصلاح الدين الا امتك ؟ وهل يجدد
 لك حطين الا قومك الذين بداوها • ولكن هل امتك مستعدة لان تاتيكم
 بصلاح الدين مرة اخرى ؟ وهل قومك اهل لان يجددوا موقعة حطين ...
 وفيهم امثال عبد الله ٩٠٠

قد خلت الاجام من رابض فيها
 احي فى امتك وقومك خلق التأسى بمن قلت فيه :

فصاح : لا عدوان لا بنى لا ارمات
 قد فرض الايمان مكارم الاخلاق

وانا الضمين بانهما يأتياك بجمع من صلاح الدين ويجددان لك حطين
 واشباه حطين •

لا نريد للمسلمين ان يعكفوا على تلك الاحتفالات المولدية الضائعة التى
 يقتصر فيها على تلاوة القصص المشوهة • فان ذلك الطراز لا يتفق مع

شرف الذكرى وجلالها • وأن القصص المولدية الحشوية والخطب المنبرية
الرائجة هما سبب تنويم هذه الامة وأصل بلاتها •

ولا أن نعكف على ذلك النوع الشائع فى مصر كمولدى البدوى والرفاعى
وغيرهما فإن ذلك النوع - زيادة على افساده للدين والاخلاق - لا يثير فى
النفوس ذكريات ماجدة ولا معانى شريفة وانما يمكن فيها للتخريف
والدجل •

ولا ذلك النوع الشائع فى الاوساط الشيعية من احتفالهم يوم عاشوراء
بذكرى مقتل الحسين عليه السلام فانه فضلا عما يقع فيه من المنكرات
المخجلة - لا يثير الا الحفائظ والاحن ولا يثمر الا توسيع شقة الخلاف •
ولقد حضرت احتفالهم مرة واحدة فى دمشق فى تربة تعرف بأرسلان فعمجت
كيف تصدر تلك الشناعات من مسلم وعلمت لأول مرة : الى أى حد ينتهى
التعصب والغلو ، ثم ذاكرت عالم الشيعة بدمشق الشيخ عبد المحسن
العاملى وهو عالم فاضل أديب معتدل فى ذلك فانكر ما انكرت بالقول واعتذر
عن الانكار بما فوق ذلك بما يعتنر به علماء الدين فى كل مكان •

لا نرضى للمسلمين بهذا الطراز البالى من الاحتفالات التى ذكرنا بعض
أنواعها ، فقد عكفوا عليها قرونا فما زادتهم الا خبالا وانحطاطا ، وانما
نريد منهم محوها واستبدالها بما هو خير •

وقد تتابع السواد الاعظم من اخواننا المصريين فى هذا النوع السخيف
مثل ما تتابع الفريق المثقف منهم فى تقليد الغربيين فى هذا الباب بلا تحفظ
ولا استمساك فبينما سواد الامة وعديدها الاكثر عاكف على الاضرحه
يقيم حولها احتفالات الموالد ويرجو منها الامداد وعلماء الدين يمدونهم
فى الفى بسكوتهم ، ومشايخه الازهر تزكى اعمالهم بتقبيل شيخها لمقود
جمل المحل - نرى الطرف الآخر يتهالك على تقليد الغربيين فى ولائهم
واحتفالاتهم السخيفة بالتوافه والسفاسف ، ويستهتر فى هذا التقليد
حتى تطفى احتفالات الغرب الدينية والقومية حتى على المواسم الشرقية
الدينية ، وهذه جرائمهم ومجالاتهم تشبه - فى ضجر وعتب أو فى رضى

واعتاب - بأن هذه الطائفة - وهم عمار الحواضر يحيون ليلة الميلاد المسيحى وعيد رأس السنة المسيحية ولا يابهن لعيد الفطر ولعيد الاضحى •
ولعمري ان هذا لهو الاستعمار الروحى الذى لا يعد الاستثمار المادى معه شيئا مذكورا !

اولم يكن لهم آية ان شوقى رحمه الله يقول على لسان كليوباترة ملكة مصر تخاطب خدم قصرها :

لا تسيروا على ولائم روما سرفا فى الفسوق واستهتارا
مصر ان اولمت سمت بالاغانى درجات واسمت الاشمارا
فهذه كليوباترة وهى كما يقولون • انثى افنت العمر فى الهوى •

انفت (او انف لها شوقى) ان تسير ولائها على ولائم روما • فلئن كان هذا الكلام مما ألم بمعناه بخاطر كليوباترة وجرى لها لفظه على لسانها فهى اصدق وطنية وانبل نزعة من هؤلاء المقلدين وان كان انما تخيلها شوقى كذلك فما اراد الا عظة هؤلاء وما عنى الا اياهم ، وما وجه الخطاب الا اليهم • وليس شيء من ذلك بمستنكر على شوقى •

ويا ليت اخواننا هؤلاء استبدلوا غربا بغرب فقلدونا نحن - ما دام التقليد مبلغ جهدهم - فى كثير من هذه المعانى التى يقلدون فيها الغربيين ، السنا مفاربة ! السنا احق باسم الغرب بالنسبة الى مصر ؟ وانما أوروبا شمالى مصر • وقد شرع لهم حافظ هذه التسمية فى قوله :

فدعونا نشم ريح الشمال

أم يقولون : اننا برابرة ومتوحشون : فنعم وكرامة عين ولكننا مع ذلك شداد فى الاستمسك بجبال الشرقية فى كثير من مناحى الحياة ، ولقد صاحبنا الاستعمار اكثر من قرن فما استطاع لنا هضما •

خالفنا الاتجاه قليلا ولمسنا ببعض العتب علاقة عزيزة علينا وعزيزا علينا ان نراها مسرفة فى التقليد غالية فى المتابعة على غير هدى ، على حين نائم بها ونعمدا لامامة الشرق كله ، فليهنّا اخواننا اننا تلامذتهم ولكن فى غير ما هم فيه تلامذة الغرب •

لم تعرف الجزائر في ماضيها من الاحتفالات الا تلك الصور العادية ،
 الساذجة في العيدين الدينيين والا الزرد الموسمية في بعض الجهات .
 والا نوعا آخر هو اقرب الى الاحتفال المنظم لو خلا من المحظورات الدينية .
 وحلا بالمشارب القومية والفوائد الاجتماعية . والعامة تطلق على هذا النوع
 اسم « الاركاب » وهم يعنون جمع ركب يسكون الكاف كاركاب خالسد
 ابن سنان بصحراء بسكرة ، وركب عامر لقبر عطية ، قرب قلعة بنى حماد ،
 وركب قسنطينة لقبر ابن عبد الرحمن بالجزائر . وركب البلهدة لقبر الشيخ
 أبى مدين بتلمسان ، وكلها من شد الرحال غير المشروع ، وكلها قريبة من
 النوع الذى نعيناه على المصريين وان كانت أقل منه فسادا أو افسادا .

وعرفت الحواضر الجزائرية شبه احتفال بالمولد النبوى يقتصر فيه على
 التججير والتقصير وتلاوة قصة من القصص الحشوية الشائعة . ولقد
 حضرت - منذ سنوات - حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائر
 وسمعت عالما أزهريا يقرأ على الناس قصة مولدية - لعلها مولدية المناوى -
 فسمعت من بعض ما كان يقول قوله : ان النبى صلى الله عليه وسلم كان
 يرى من امام كما يرى من خلف يمينين خلقهما الله فى قفاه وكان
 بجنبى فقيه مقرئ خفيف الروح سلفى النزعة فتغامزنا بالانكار ولم
 نستطع جهرة اذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الاصلاحية ، ثم أسر الى
 على سبيل الدعابة قوله : أبى الله الا أن نكون أسبق منكم لكل شئ .
 فعندنا من هذه « الماركة » من العلماء من يقول ويكتب : ان النبى صلى الله
 عليه وسلم لم يولد من السبيل المعتاد

ولبتت الجزائر محرومة من هذا النوع المفيد الذى يغرس المعانى
 السامية فى النفوس بأسبابه وبواعثه ، ويزرع المبادئ العالية والمعارف
 والآداب فى العقول بما يقال فيه ، الى أن كان عهدها الاخير . وكانت
 نهضتها العلمية الدينية ، فلاوائى هذه النهضة شمرت بما للاحتفالات
 من اثر صالح فى النهضات ، فالتفتت اليها وجعلتها احدى ذرائعها لتمهيد
 الاعمال والمشاريع ، ونشر المبادئ الصالحة ، وبث الافكار النافعة ، وترقت
 بها مع الزمن حيث انظلم واختار المناسبات ، حتى أصبحت تنافس أرقى
 ما عرف من نوعها عند الامم الأخرى .



لعل أروع احتفال شهدته الجزائر في عهدنا هذا هو الاحتفال بفتح مدرسة دار الحديث ، بعلسان في أواخر شهر سبتمبر من السنة الخالية ، فقد كان بدءا من الاحتفالات في نظامه . وفي ضخامة العمل الباعث عليه . وفي جلال المناسبة والذكرى ، وفي احتفاء الأمة له ، وفي علو الطبقة التي شهدته وتكلمت فيه من العلماء والفقهاء . ولقد وصفته الجرائد في حينه ، وإنما جلسته هنا مناسبة الحديث عن الاحتفالات .

ثم جاء الاحتفال بغتم الاستاذ عبد الحميد بن باديس لدروس التفسير بالجامع الأخضر بقسنطينة . وهو الذي ألهمنا كتابة هذه الكلمة - فكان شاهدا لما ذكرناه ، قريبا من تطور هذه الأمة في هذه الناحية . ودليلا على أن نظام الاحتفالات بلغ في هذا القطر كماله ، وعلى أن روح التآسي في الصالحات حييت في هذه الأمة وانتششت ، وأنها أصبحت تهتبل الفرص المواتية فتحسن الاختيار .

أذكر أننا كنا في جماعة من الرفقاء الأوفياء - تذاكرنا مرة في إقامة حفلة تكريم لرفيقنا الاستاذ بن باديس تنويها بيمض حقه على العلم وشكرا لأعماله الجليلة وآثاره الحميدة في التعليم بهذا الوطن . واعترافا بكونه واضح أسس النهضة ، وانصافا لكونه أسبقنا إلى التعليم وأشدنا اضطلاعا به وأكثرنا انتاجا وتخريجا فيه وذهبنا في تقدير النوائد التي تجني من هذا الاحتفال مذاهب لا غلو فيها ولا اسراف ، ثم فاتحنا أخانا الاستاذ بهذه الفكرة ، فكان الجواب قوله : دعوا هذا حتى نختم دروس التفسير . - وبيننا يومئذ وبين الختم سنوات - كأنه يرى أن عمله في التفسير هو أجل أعماله في التعليم ، وأنه بآتمامه لهذا العمل يستكمل مزية الاستحقاق للتكريم والاحلال من أمته ، إذ يكون قدم لها عملا تاما ناضجا ، وصورة كاملة من مجهوداته ، زيادة على ما خرج لها من رجال كأنه - حفظه الله - كان معلق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدهر .

وأراد الله فحقق للاستاذ أميته من ختم التفسير ، وللامة رجاءها في تسجيل هذه المنفعة للجزائر ، ولانصار السلفية غرضهم من تثبيت أركانهم بمدرسة كتاب الله كاملا ، وبد - - - - -

الخالية : فكثر الحديث في الاسمار وفي المنتديات عن الاحتفال ، وصورت منه الخواطر احتفالا ملء الامل ، وكذلك كان . والحمد لله .

تألفت لجنة تنظيم بمركز الاحتفال (قسنطينة) واعدت للاحتفال برنامجا معيظا ومعكما ، وجمعت شعاره كله (القرآن) . فالوفود وفود القرآن ، والضيوف ضيوف القرآن ، واذاغت توقيت الاحتفال باليومين الرابع والخامس من شهر ربيع الثاني ، ثم عدلت عنهما الى الثاني عشر والثالث عشر منه لعوارض قاهرة لا يملك معها الخيار . واضر تأخير ذلك الاسبوع بطوائف من الامة كانت تسابق بالاحتفال اشغال الصيف وتكاليف الفلاحة . وهي تكاليف لا يملك معها الخيار ايضا

انهالت الوفود القرية الدار على قسنطينة يوم الجمعة وتلاحقت الامداد يوم السبت ، وشمر الناس شعورا عاما ان الجامع الاخضر لا يسع الوافدين اذا انهال سيلهم ، وان محلا ما من المعلات العامة لا يسعهم ايضا . فالتهموا من غير تواطؤ - العمل بقاعدة التمثيل فارسلت كل بلدة وفدا محدود العدد يمثلها ، فلم تبق بلدة من عمالة قسنطينة كبيرة او صغيرة الا ومثلها وقد في مهرجان القرآن . فراينا هناك وفود البلدان الساحلية من بجاية الى الحدود التونسية ، ووفود مناطق التلول من سطيف الى سوق اهراس ، ووفود المناطق الصحراوية من بسكرة الى سوف ، وتكاملت عقود هذه الوفود بوفد عاصمة الجزائر الضخم المؤلف من مائة وثلاثين شخصا ، ثم وفد تلمسان وهو اقصى الوفود دارا عن قسنطينة ، فبينهما ما يزيد عن ألف ميل ، ولكن جاذبية القرآن هونت عليه النصب والنفوب .

راى الوفد التلمساني ان يقطع الطريق من الجزائر الى قسنطينة في سيارة اوتوبيس ذات اربعين مقعدا ليجمع بين الفائدة والنزعة ، وعمل بالاتفاق مع الوفد الجزائري على أن يخرج الوفدان من الجزائر معا ، ويدخلا قسنطينة مساء السبت معا .

وبلغ اهالى سطيف ان الوفدين يمران ببلدتهم ، فابى عليهم كرمهم الا ان يقيموا لهما حفلة شاي فاخرة . وارسلوا للوفدين استدعاء مسج رسول خاص مبالغة منهم في البر والاحتراف ، وخرج الوفدان من العاصمة

على الساعة السادسة من صباح السبت في قطار من السيارات الشخصية يتكون منها منظر ساحر خلّاب ، ووصلوا سطيف على الثالثة بعد الزوال فتلقاهم اخوانهم السطيفيون على بضعة اميال من المدينة بباقات الزهر ، وطيب التحية ، واجتمع الجميع على مائدة الشاي الحافلة .

ثم استقل قسم من ولد سطيف سيارة ذات خمسين مقعدا ، وخرج الجميع آمين قسنطينة ، وقد زاد الموكب كمالا وجمالا .

خرج اعضاء لجنة الاحتفال من قسنطينة في بضع سيارات للمقاء موكب الوفود على خمسة وعشرين ميلا ابلاغا في المبرة ، فتهللت الاسارير عند اللقاء ، وطفحت الوجوه بالبشر وانطلقت الالسنه بالتحيات المباركات ، وتصافحت القلوب قبل ان تصافح الايدي ، وامتزج شماس الاصيل بشماع الوجوه المستبشرة . فكان منظرا سحريا اخاذا لا يستقل بوصفه الا شاعر . ولست بشاعر . ثم انتظمت السيارات موكبا بديما وزحفت الى قسنطينة فدخلتها بعد المغرب . وليس وصف مشهد دخول هذا الموكب الى قسنطينة وانفماس الضيوف والمضيفين في غمرة من نشوة الفرح البالغ الى حد الذهول - بالذى يسهه بيانى وان وسعه ادراكى وعياني . اجتمعت وفود الغرب وفود الشرق في مدرسة التربية والتعليم التي اعدت مكاتبها وطبقاتها وقاعاتها لهم احسن اعداد ، وبعد أداء فريضة المشاء انصرفوا الى موائد المضيفين على تقسيم عجيب ومزج غريب يرجع الفضل والشكر فيه الى لجنة الاحتفال .

وقد تبارى كرام القسنطينيين - احسن الله اليهم - في اكرام الوافدين ، وهزتهم الاريحية مزة بعد المهد بمثلها ، وتجلت الضيافة العربية الباذخة في اجلى صورها ، يزينها نظام دقيق دفع هجئة الفوضى ووصمة الاختلال التى تصاحب الاحتشاد والكثرة . فلم يتخلف مضيف عن ميماد . ولم تختل لضييف وجبة . ولم يفترق للمجتمعين في منزل شمل . وتضاعفت الوفود صباح الاحد فتضاعفت الحفاوة والبشر ، وتجلى الاستعداد الهائل ، واتسعت الصدور فاتسعت المنازل وتنوعت صنوف البر حتى وسعت تلك الوفود الزاخرة ، سكنا مرفها ، واكلا مترفا في ايام الاحتفال ولياليها .

وارتفعت الكلف بين كل نزيل ، وأبى مثواه حتى لتحسبهم اخوة وحم أو
عفراء دهر .

ثم تلطفوا فخصوا الوفود التي لم تسبق لها زيارة قسطنطينة بنوع من
التكريم وهو الطواف بهم في أوقات الفراغ على معالمها ، وقناطرها العجيبة ،
وواديها المدهش ، ومناظرها الساحرة ، وغمرهم بغيض من الرقة واللفظ
أسرت ألبابهم وأنطقتهم ببليغ الشكر ، فانقلبوا الى أهليهم يحملون
الاعجاب والاكبار ويضرون المحبة الصادقة والولاء المحض .

هذه هي الاجتماعات التي كنا نشدها فلا نجد لها ، هذه الاجتماعات
التي تثمر التعارف الحقيقي وتجمع أفراد الأمة على الدين والخير والعلم ،
وقد زادها اخواننا القسطنطيون تمكيننا ، وشرعوا من آداب الضيافة مناهج
سيحتذيها المترسمون ويذكرونها لهم بالجميل . وما ظن الذين يفترضون
علينا الكلب ويتقولون علينا الاقاويل ! ألى مثل هذا الاحتفال من أعمالنا
شائبة نقد أو رائحة اضراؤ باحد ؟



كان من المتوقع - على بعد - أن تسمح الادارة بوقوع الختم في الجامع
الاعظم لاتساعه لاضفاف ما يتسع له الجامع الاخضر - وقد طلب منها ذلك
واتخذت وسائله ، فابت - فما كان من لجنة الاحتفال وكرام القسطنطينيين
الا ان قرروا ان يفسحوا في المجالس للوافدين وأن لا يزاحموهم في مقاعد
الجامع الاخضر ساعة الدرس ، ونفذوا هذه الخطة على أن تكون مكافأتهم
من الاستاذ اعادة درس الختم في ليلة أخرى بعد انحسار الوفود عن
قسطنطينة .

وما كادت تشرق شمس يوم الاحد حتى اكتظ الجامع الاخضر بالوفود ،
فلم يبق فيه متنفس . وشمل الخفوق تلك الصفوف المتراسة حتى لا حركة
ولا ضوضاء . وتجلى جلال كلام الله في بيت الله فكان مشهدا يستنزل
الرحمات . ويتكفل باستجابة الدعوات . وصعد الاستاذ المفسر منبر
الدرس فشخصت العيون ، وخفتت الانفاس ، واستهل بتلاوة الموديق ،
وشرع في تفسيرهما بما هو معهود منه ، فلا يحتاج الى نصت ولا الى
اطراء (1) .

(1) وتقرأ ملخص الدرس في غير هذا الموضع .

استغرق الدرس ما يقرب من ساعة ونصف أخذ الناس فيها على نفوسهم وجللتهم سحابة من الخشية والسكينة . وكذلك المؤمنون الذين يخشون ربهم بالغيب تقشع جلودهم عند سماع كلامه ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله .

وختم الاستاذ المفسر الدرس بأدعية قرآنية وابتهالات ماثورة ثم طلب من الحاضرين أن يسألوا الله الرحمة والمغفرة لآخيهم حسين بأى مؤسس الجامع الاخضر . ومحبه فى سبيل العلم واقام الصلاة وذكر الله كما هو منقوش على رخامة فى المسجد . وذكر أن من علامات اخلاص هذا الرجل فى عمله وحسن نيته أن يسر الله ختم تفسير كلامه من أوله الى آخره فى مدة خمسة وعشرين عاما بهذا المسجد ، فانطلقت الالسنه بالدعاء والترحم ، وافترقوا على مثل ما اجتمعوا عليه ، بقلوب خاشعة ، ونفوس متراحمة والسنة رطبة بحمد الله وشكره على ما وفق اليه من الخير وأعان .

وكان هذا اليوم مقصورا على درس التفسير حرصا على كلام الله أن يستقل تأثيره بالنفوس وأسره للافتدة . وعلى عظامه أن تتصل بشغف القلوب . وخص سائر اليوم لاستراحة الواقدين ووقوفهم على معالم المدينة ومناظرها بعد أن أذنت لجنة الاحتفال فيهم باحتفالات الغد وأعماله .



كان يوم الاثنين الموالى ليوم الختم موعدا لاقامة حفلة تكريم للاستاذ المفسر ، وهى الحفلة التى سبقت الاشارة اليها فى كلامنا . وكان لها حظ من تصميمنا واعتزامنا فسخر الله أسبابها فى هذا اليوم . وقد تلطفت لجنة الاحتفال فأسندت رئاستها الى كاتب هذه السطور . وكان موضع الاحتفال قاعة « كلية الشعب » الفسيحة .

أهبطت (1) الوفود الى كلية الشعب قبل الساعة المقررة بساعات ولم يشنهم طول الانتظار ولا اكتظاظ القاعة حرصا على ضمان المقاعد . وصنع القسطنطيون فى هذا اليوم صنيعهم بالامس ففسحوا فى مجالس كلية الشعب كما فسحوا فى الجامع الاخضر اكراما للوفود . وأبت الوفود الا ان يكون لها شرك فى معنى التكريم وأن يكون لاسمائها وبلدانها دخل فى

(1) أهبطت : اسرعت . وفى القرآن (مهطئين الى الداعى) .

عداد المكرمين . فكان التكريم باسم العلماء زملاء الاستاذ وشركائه في العمل وباسم تلامذته وباسم هذه الوفود الحاشدة .

ودقت الساعة التاسعة فتصدرت هيئة جمعية العلماء سدة القاعة واكتنفهم خطباء الحفلة وشمراؤها من تلامذة الاستاذ عن اليمين والشمال وتقدم رئيس الحفلة فقدم مقرنا اسمع الناس آيات من كلام الله ثم فتح الرئيس باب الخطابة بارتجال كلمات . ثم قدم الخطباء على مراتبهم ثم الشمراء كذلك وسيروى القارىء فى آخر هذا المدد تلك الخطب والقصائد منشورة .

ولما كانت ساعات الاحتفال محدودة لا تتسع لجميع الخطباء ولا للقليل منهم وكان التلامذة يمثلون طبقات تمتد من أوائل النهضة الى الآن ، فقد روى حرصا على الوقت والفائدة الاقتصار على من يمثل تلك الطبقات ، فتقدم من يمثل المتخرجين فى أوائل الحركة . ثم من يمثلون وسط الحركة واستفحالها . ثم من يمثلون الطبقة المباشرة للتعليم فى السنوات الاخيرة ، ثم من يمثلون الطبقة النازحة الى جامع الزيتونة ، ثم من يمثل الطبقة المستقلة بالتعليم ، ثم من يمثل تلاميذ التلاميذ . وبعد انتهاء الخطباء أعلن الرئيس استراحة ربع ساعة ثم الرجوع لسماع الشمراء .

ولما انتهى دور الخطباء والشمراء المقررين فى منهاج الحفلة . وقف كاتب هذه السطور وارتجل خطابا تغنى فيه بجمال يوم القرآن وهو يوم الختم وبفوائد الخير التى سيمود بها على الامة الجزائرية ، وقد حاول كاتبان من كتاب الحفلة أن يلتقطاه عند الالقاء ففاتها منه الكثير . وتقدم الى الحريصون على تخليد الحفلة كاملة ان اكتب ما علق بالذاكرة من الفاظها ومعانيها فكتبت ما يقرؤه القارىء فى آخر الخطب . وانا ابرا من ادعاء محاذاته كما القى اوتجالا . فى الفاظه ومعانيه .

وبعد خطبة الرئيس قام الاستاذ المحتفل به وارتجل خطبة ضافية نستفيض عن وصفها هنا بتلخيص معانيها ونشرها مع الخطب .

وانقضى الاحتفال على الساعة الثانية الا ربع الساعة بعد الزوال .

ومن لطائف الاتفاق انه خطر لبعض الهيئات تقديم هدية تذكارية للاستاذ ولم تعلم هيئة بما اعتزمت عليه الاخرى من نوع الهدية . فلما قدمت الهدايا امام الجمهور بعد انتهاء الخطابة كان تناسقها مفاجأة مدهشة . وهى محفوظة كتب عربية ثمينة قدمها وفد تلمسان ، وقلم تعبير ثمين معه قلم رصاص قدمتها هيئة جمعية التربية والتعليم ، ونسخة من تفسير المنار قدمتها هيئة جمعية العلماء ، ونسخة من كتاب فتح الباري قدمتها لجنة الاحتفال .

وكما كانت هذه الهدايا لطيفة فى معناها التذكارى وفى رمزها العلمى وفى تناسقها ، فقد كان سرور الاستاذ بها عظيما ، ووقعها فى نفسه لطيفا . ثم تم التناسق ولطف الذوق فى حفلة المساء حين قدم له تلامذة كشافة الرجاء مصباحا كهربائيا ظريفا .

وقدم له تلامذة الشباب الفنى (زربية) سجادة صلاة .

وفى مساء الثلاثاء اشتركت ثلاث جمعيات علمية وفنية ورياضية فى اقامة احتفال زاهر فخم فى كلية الشعب ابتهاجا بضيوف القرآن .

اما الجمعيات فهى جمعية التربية والتعليم وجمعية الشباب الفنى الفنية وجمعية كشافة الرجاء الرياضية .

واما الاحتفال فكان ناجحا الى اقصى حدود النجاح . مؤثرا الى ابعد غايات التأثير - ظهرت فيه جمعية « الشباب الفنى - على حداثة عهدها - بمظهر الكفاءة والتجديد وسلامة الذوق والانسجام بين العازفين فى المظهر وبين القطع فى المخبر . وقد عزفوا قطعاً مشجية وترنم عليها التلامذة باناشيد اشجى ، حتى لقد رايت كثيرا من عمار الصفوف الامامية يكون تأثرا - وان انس فلا أنس التلميذين اللذين انشدا نشيد الترحيب عزف البياني . انهما لطراز عال فى رخامة الصوت وسلامة الاداء وجمال المنطق، حفظهما الله واقر بهما عين الامة التى تعلق رجاءها على امثالهما .

ان التطويل فى وصف هذه الحفلة يفضى الى التقصير . وخلاصة القول فيها انها كانت زادا روحيا قدمته قسنطينة لوفودها بعد ان جاوزت

الغاية فيما قدمته لهم من أطايب الغذاء البدنى • وان سرها وسعرها ليسا آتئين من الاطراب فى المزف والاطراف فى الاناشيد والاجادة فى التمثيل والاتزان فى الحركات وانما هما آتيان من شىء آخر وراء هذا كله ، هو امل الامة فى اينائها • كان صورة فى الاذهان ، ومخيلة فى الادمغة ، فرأت منه فى هذه الليلة نموذجا عمليا يبشر بتحقيقه كله - ان الزمان باحداثه يستطيع ان يمسو من نفوس الوافدين كل ما راوا وما سمعوا ولكنه لن يستطيع محو شيئين درس القرآن وهذه الحفلة ، وان الوافدين ليستطيعون ان يقابلوا كل اكرام لقوه من اخوانهم القسنطينيين بمثله او باحسن منه الا اكرامهم بمثل هذه الحفلة •

وانقض هذا الاحتفال فى نهاية الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، بعد ان ختمه الاستاذ بن باديس بكلمة توديع •



من المظاهر التى شاهدها الناس كلهم فى هذا الاحتفال بسوابقه ولواحقه - الهدوء الشامل ، فلم تحدث اية حادثة ولو بسيطة على كثرة الاحتشاد وشدة الازدحام واختناق التماريج فى المدينة • وليس مرجع ذلك الى التنظيم الآلى • ففى ادون من هذا الاحتفال نرى الفوضى تطفى على النظام • وطباع السوء لا تنهه بالزجر ، وانما مرجع ذلك الى التنظيم النفسى ، والى ادب القرآن ، وقد ملك أزمة النفوس •

وان هذا النوع من التربية الدينية هو الذى نريده للامة • وهى تربية كثيرة الفوائد قليلة التكاليف • وقد جربت فصحت • فهل من معين لنا على تشيبتها وتعميمها ؟ وكان ادارة الامن العام بقسنطينة ادركت ذلك فلم نر منها مظاهر الاستعدادات الاستثنائية التى كنا نراها فى مثل هذه المشاهد ، وحسنا فعلت (1) •

(1) الشهاب - ج 4 ، م 14 - ربيع الثانى وجمادى الاولى 1357 هـ ، جوان - جويليت 1938 م •

قصيدة الشاعر محمد العيد

في حفل تكريم الامام

كانت قصيدة الشاعر النابغة الاستاذ محمد العيد هي الخامسة في ترتيب الشعراء ، وقد قدم لها الاستاذ الابراهيمى بالكلمة القيمة التالية :

الاستاذ محمد العيد ، شاعر الشباب ، وشاعر الجزائر الفتاة ؛ بل شاعر الشمال الافريقي بلا منازع ، شاعر مستكمل الادوات ، خصيب الذهن ، رحب الخيال ، متسع جوانب الفكر ، طائر اللمعة ، مشرق الديباجة ، متين التركيب ، فحل الاسلوب ، فخم الالفاظ ، محكم النسيج ملتحمه ، مترفرق القوافي ، لبق في تصريف الالفاظ وتنزيلها في مواضعها ، بصير بدقائق استعمالات البلغاء ، فقيه محقق في مفردات اللغة علما وعملا ، وقاف عند حدود القواعد العملية ، محترم للاوضاع الصحيحة في علوم اللغة كلها ، لا تقف في شعره - على كثرته - على شذوذ او رخصة او توسع في قياس ، او تعقيد في تركيب ، او معاطلة في اسلوب . بارع الصنعة في الجناس والطباق وارسال المثل والترصيع بالنكت الادبية والقصص التاريخية .

ومن يعرف محمد العيد ويعرف ايمانه وتقواه وتدينه وتخلقه بالفضائل الاسلامية يعرف ان روح الصديق المتفشية في شعره ، انما هي من آثار صديق الايمان وصحة التخلق ، ويعلم انه من هذه الناحية بدع في الشعراء رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها ، وله في كل ناحية من نواحيها ، وفي كل طور من أطوارها ، وفي كل أثر من آثارها - القصائد الفر ، والمقاطيع الخالدة . فشعره - لو جمع - سجل صادق لهذه النهضة وعرض رائع لأطوارها .

وقد سمت نفسه في العهد الاخير الى الشعر الفلسفي ، ونظم فيه عدة مقطوعات لزومية رائعة نشر القليل منها .

واذا كان في النهضة العلمية الادبية بالجزائر نواحى نقص فمنها ان يبقى شعر محمد العيد غير مجبوع ولا مطبوع (*) .

بمثلك تمتاز البلاد وتفخر
طبعت على العلم النفوس نواشيا
نهجت لها في العلم نهج بلاغة
حبثك عمالات الجزائر حرمة
ففي كل وفد راشد لك دعوة
يراعك في التحرير امضى من الطبي
ودرسك في التفسير اشهى من الجنى
ختمت كتاب الله ختمة دارس
فكم لك في القرآن فهم موفى
قبست من القرآن وشغل حكمة
وبينت بالقرآن فضل حضارة
حكيت (جمال الدين) في نظراته
واشبهت في فقه الشريعة (عبده)
أعد يا بن باديس الحديث وأبده
قسطنطينة اعتزت بأن وفودها
وفود سلام لا وفود خصومة
وتهدى الى عبد الحميد تعب
وتهنئة منها بختم مفسر
فواصل غر كالنجوم مطالما
وصنفت من الله الكريم كريمة
اقام لنا (عبد الحميد) أدلة

وتزهر بالعلم المنير وتزخر
بمخبر صثق لا يدانيه مخبر
ونهج مفاداة كانك حيدر
مشرفة عظمى بها انت أجدر
وفي كل حفل حاشد لك منبر
وانضى من الاحكام أيان ينشر
وأبهى من الروض النظير وابهر
بصير له حل العويص ميسر
وكم لك في القرآن قول محرر
ينار به السر اللطيف ويُنصر
أقر لها كسرى واذعن قيصر
كان (جمال الدين) فيك مصور
فهل كُنْتَهُ أم (عبده) فيك يُنشر
بانعميك التي بها انت تؤثر
على الخير فيها والهدى تتجهر
تبشر فيها بالرضى وتبشر
كزهر الربى أو انها منه أعطر
من القول لا يسو عليه مفسر
بها يهتدى للحق من يتحير
مطهرة فيها كلام مطهر
على علمها الجبر الذي ليس يُحصَر

(*) ليهنا الاستاذ المرحوم في قبره ، فان شعر محمد العيد قد جمع جله وطبع ، والبقية في الطريق ان شاء الله .

ابان الهدى فيها لمن يبتغى الهدى
 لقد نامز الخمسين في النمر داثبا
 قضى ربع قرن ينشر العلم صابرا
 ورُبِّيَ في ظل السعادة مقبلاً
 بدوحة عز (للمز) ربيعة
 قسطنطينة اهتدى سروراً وغبطة
 وانك تمنحى للمكارم ينتحى
 وانك مجلى للطبيعة يجتلى
 نباتك ريحان وتربك فضة
 على طودك الاسمى قناطر ضخمة
 وفي دورك العظمى مآثر جمة
 وفي ظلك الاحمى معابد فخمة
 فيا جامعا مثل المئارة لامعا
 ويا مسجدا للعلم اتيس والتقى
 وبيتا يمزى الله من بفنائيه
 ابن عن جمان فيك ينظم خالصا
 همى بك غيث لابن باديس هاطل
 ارى «الازهر» المعمور فيك مجددا
 كانك يوم الختم في الارض جنة
 سلام على العلم الذى فيك يبتغى
 سلام على الدرس الذى فيك يغتدى
 سلام على الناس الذين به اهتموا
 سلام على ثانى الربيعين انه
 سلام على «كلية الشعب» انها
 سلام على شبيب على الخير تلتقى
 فيا محفلا ما مثله اليوم محفل
 به حُلِّلَ بيض وسود كثيرة
 نظيرك يرقى بالبلاد ويمتلى

وساق بها الذكرى لمن يتذكر
 على الجدل لا يشكو ولا يتضجر
 على عقبات ما عليهن يضبر
 على العلم يؤمى شخصه ويقدر
 على الدوح صلب فرعها ليس يكتر
 بانك ثغر للصناديد ينقتر
 وانك دار للعلوم تديتر
 ومنظرة منها الى الكون ينظر
 وصخرتك مرجان وماؤك كوثر
 بها يقطع الوادى اليك ويعبر
 اذا هدد منها مآثر جد مآثر
 معظمة فيها الشعائر تكبر
 تنور فيه الحق من ينور
 وبالوعظ والارشاد ما زال يُنمّر
 يذل ويغزى الله من يتكبر
 ودرك كريم فى رحابك ينشر
 فانت به ريان كاسك (أخضر)
 كما كان يحيه (المعز) و (جوهز)
 مفتحة انهارها تتفجر
 سلام على المجد الذى فيك يذكر
 اليه من الفج العميق ويحضّر
 الى آية «الناس» التى فيه تظهر
 كاوله فى أشهر العام أنور
 تحف بانصار السلام وتغفر
 بها وشباب للمبرة يسهر
 حوى معشرا ما مثله اليوم معشر
 وفيه رؤوس كاسيات وحشر
 ومثلك يحظى بالمراد ويظفر

أَقْبِدُكَ بِالْقَوْلِ الَّذِي لَيْسَ يُفْتَرَى
صَلِّ الْقَرَبَ الْعَرَبَاءِ وَاحْصِ لِسَانَهُمْ
وَسِرْ فِي طَرِيقِ الرَّاشِدِينَ عَلَى هَدًى
فَهُمْ أَسْوَةُ الْخَلْقِ الَّتِي يَقْتَدِي بِهَا
وَهُمْ مُثَلِّى الْعُلِيَّا الَّذِينَ بِفَضْلِهِمْ
تَدَبَّرَ كِتَابَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ أَهْلَهُ
تَفَنَّنْ بِهِ وَاجْلِبْ بِهِ الْأُنْسَ مَزْهَرَا
تَعَاهَدْ مَعَ الْقُرْآنِ وَأَبَّ تَقِيرَا
فَأَعْرِضْ عَنِ الْخُلُقِ الَّذِي فِيهِ يُزْدَرَى
وَاقْدِمْ عَلَى خَيْرِ الْمَسَاعِي مُضْحِيَا
إِذَا كُنْتَ حِزْبَ اللَّهِ سِرًّا وَجَهْرَةً
وَتَقَنَّ أَنْ لِلْإِسْلَامِ غَايَا كَثِيرَةً
وَتَقَنَّ أَنْ فِي أَرْضِ الْجَزَائِرِ أُمَّةٌ
وَتَقَنَّ أَنْ لِلتَّارِيخِ حُكْمًا مُؤَخَّرَا
وَتَقَنَّ أَنْ مَلِكَ الْأَرْضِ غَيْرُ مَبْهَدٍ
وَمَنْ سَامَهَا بِالْجُورِ هَاجَ عِبَادُهَا
وَمَنْ سَاسَهَا بِالْعَدْلِ سَادَ بِلَادُهَا
فِيَا شَعْبَ لَا يَعْزُوكَ أَنَّكَ تَبْتَلَى
فَنَحْنُ الْأَسَاطِينُ الَّتِي بِكَ تَعْتَلَى
وَنَحْنُ الرِّجَالُ الثَّابِتُونَ عَقِيدَةً
نَقُودُكَ مَامُونًا الْمَسَالِكَ سَالِمَا
وَنَطْلُبُ بِالْقَوْلِ الْمَرِيحَ حَقُوقَنَا
وَنَرْضَى بِحُكْمِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ
فَتَابِرْ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي أَنْتَ طَالِبٌ
وَلَا تُؤْذِ مِنْ آذَاكَ فَالْحُكْمُ مُورَدٌ
وَكُنْ مُسْتَمِيتًا فِي جِهَادِكَ ثَابِتًا
وَإِنْ تَكُنْ الْجَبَلُ عَلَيْكَ كَبِيرَةً

وَامْحُضْكَ النِّصْحَ الَّذِي لَيْسَ يَنْكَرُ
فَإِنَّكَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ تَتَحَدَّرُ
فَكُلْ طَرِيقَ غَيْرِهَا لَكَ مَعْتَرُ
وَهُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَكْذَرُ
آتِيَهُ عَلَى كُلِّ الْأَنَامِ وَأَفْخَرُ
فَاهْلُ كِتَابِ اللَّهِ مَنْ يَتَدَبَّرُ
مَنْ الْخُلْدُ لَا يَحْكِيهِ فِي الْأَرْضِ مَزْهَرُ
أَلَسْتَ تَرَى الْقُرْآنَ لَا يَنْتَغَيَّرُ ؟
وَأَقْبَلْ عَلَى الْخُلُقِ الَّذِي فِيهِ يَشْكُرُ
وَلَا تَكْ فِيهَا خَائِفًا تَتَحَدَّرُ
فَتَقَنَّ أَنْ حِزْبَ اللَّهِ لَا بَدَّ يَنْصَرُ
إِذَا غَابَ مِنْهَا قَسُورُ نَابٍ قَسُورُ
تُيَسَّرُ سَعْيَا لِلْعَلَى وَتُسَيَّرُ
وَكَمْ نَسَخَ الْأَحْكَامَ حُكْمٌ مُؤَخَّرُ
لَمَنْ بَاتَ فِيهَا بِالْهَوَى يَتَأَمَّرُ
وَلَمْ يَحْمِهِ مِنْهُمْ سِلَاحٌ وَعَسْكَرُ
كَمَا سَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَوْ بَخْتَنَصَرُ
وَإِنَّكَ تَقْعَى عَنْ عِلَاكَ وَتَقْصُرُ
وَنَحْنُ الْأَسَاطِيلُ الَّتِي بِكَ تَمْخُرُ
عَلَى الْمَبْدَأِ الْأَسْمَى إِلَى حِينٍ نَقْهَرُ
إِلَى حَيْثُ لَا تَشْقَى وَلَا تَنْتَضِرُ
وَلَكِنَّا فِي الْقَوْلِ لَا نَنْتَهِي
فَلَا نَكْثُرُ الشُّكُوى وَلَا نَتَطَنِّي
فَإِنَّكَ فِي تَضْيِيعِهِ لَسْتَ تَعْدَرُ
هَنْوَى مَرَى لَمْ يَسْؤْ مِنْهُ مَصْدَرُ
وَإِنْ كُنْتَ بِالْجَبَلِ الرَّصِيدَةَ تَنْدَرُ
فَحَسْبُكَ لِيهَا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ
مُحَمَّدُ الْعَبْدُ آلِ خَلِيفَةِ

خطبة الأستاذ الإبراهيمي التي ختم بها حفلة التكريم للأستاذ ابن باديس في كلية الشعب

ارتجل الأستاذ خطبته هذه فلم تصطد اقلام الكاتبين من
الفاظها الا قليلا مشوشا لم يحفظ ترابط المعاني بين اجزائها ،
فالح جماعة من السامعين المعجبين على الأستاذ ان يكتب ما علق
بذاكرته من الفاظها ، ويضيف اليها بقلمه ما يربط معانيها ،
حرصا على تخليدها في خطب الاحتفال ، فحقق رغبتهم بكتابة
ما يراه القارئ منشورا بعد هذا :

أيها الملا الكريم :

ما اشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالامس ، ولقد
مضى بجلاله وروعته ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة ، ولا اختلجت في
نعتة شفتان بحرف ، لا زهدا فيه ، ولا عدم عرفان لحقه ، ولا غبنا لحقيقته ،
كيوم شوقي الذي قال فيه :

غبت حقيقة ومات جمالها باع الخيال المبقرى الملهم

وانما هو كلام الله وبيت الله عقدا الالسنه بجلالهما ، وحيسا النفوس
على جمالهما ، فجاء اليوم ، وجاءت كلية الشعب يقضيان من ذلك حقا
غير مغفل .

ان يوم امس من أيام الامم ، ولايام الامم غرر لواضع في تاريخها ، ويد
صناع في بناء مجدها ، وصلة لا تنضب بتكوين اسباب بقائها وعظمتها ،
كما انها شهود ناطقة بما في الامة من معاني المزم والمظنة .

لسنا نعلم معنى أيام الامم ، هذه الايام المتعاقبة التى يجمعها نسق الاسبوع ، وتعرف بالاعلام ، وتمتاز بمراتبها العددية فى الشهر ، فقد تمر الآلاف منها على الامم من غير ان تجمعهن جميعا على مائة تكسبهن عزا ، ومن غير ان توحيدهن أحادها على عمل يرفع لهم ذكرا ، ثم لا تكون زيادتها الا نقصا فى اعمار الافراد ، وابلاء للجديد من حياة المجموع .

انما نعلم معنى هذه الايام التى هى ملح فى الدهور ، وشيأت فى غرر المصير ، هذه الايام التى تعرف بما يقع فيها من الاعمال ، لا بما يوضع لها من الاعلام وتذكر بأثارها فى الامم ، لا بمواقعها من الاسبوع او الشهر ، هذه الايام التى تطول وتتنوع حتى تستغرق القرون ، وتستوعب الاجيال ، على حين يبقى غيرها محدودا بمطلع الشمس ومغربها .

ان احدا من المسلمين لا يجهل يوم بدر ، ولا يجهل - وان كان عاميا - اثره فى ظهور التوحيد على الشرك ، ولكن قليلا منهم من يعرف ان اسمه يوم كذا ، وان نسبته من الشهر كذا ، وقد غربت شمس يوم بدر منذ مئات الآلاف من الايام ، وجر عليه الفلك اذيال عشرات الآلاف من شركائه فى الاسم ، فلم يعف له رسما ، ولم يطمس له اثر ، ومات معناه الزمنى المحدود ، ولكن معناه التاريخى النفسى لم يمت بل هو باق ما بقى الاسلام ، طويل العمر ما طال ، واسع المعنى ما اتسع .

ولقد عملتنا لغة العرب فنا فى مصاص الاشياء فقها منه ان من النساء عقائل ، وان فى الاموال كرائم ، وان فى الجواهر فرائد ، وان فى النجوم درارى ، وان فى الشعر عيون ، وان فى الفخائر اعلقا الى آخر ما يجرى على هذا النسق . حتى اذا وصلنا الى الايام ، وهذا اشد من كل شئ ارتباطا بشؤوننا ، لم نجد لمصاصها فى اللغة الا اوصافا يتعاورها اشتراك الموصوفات ، ويتجاذبها اختلاف الاعتبارات ، ثم يذللها شيوع الاتصاف وتبدل الاستعمال حتى تقصر على التادية ، خصوصا حين يفيض الوصف التاريخى على الوصف اللغوى ، وان من معجزات القرآن تسميته ليوم بدر

ولكن يسلينا ان ما قصرت فيه اللغة فلم تات فيه بوصف يليق بجمالها وجلال هذه الايام قد وفى به التاريخ ، فلم نحفظ من ايام الاسم الكثيرة الا اياما قليلة ، فكان ذلك منه تعميما فصيحاً على ان هذه الايام هي الخلل من بين الايام البائدة ، وهي الفرر في الكثرة البهيمية ، وهي المشهودات وغيرها غفل ، وكان ذلك منه وضماً تاريخياً يخصص الاوضاع اللغوية .
فاذا قلنا هذا يوم خالد ، ويوم عمر ، ويوم مشهود ، اطمانت النفوس الى تمام التادية بمراعاة الوضعين التاريخي واللغوي .

ايها الاخوان ،

ان يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الاغر المحجل في تاريخ الجزائر الحديث ، ولا ابعد اذا قلت انه اليوم الاغر في قرون من تاريخ الاسلام .
هذا هو اليوم الذي يجب ان نؤرخ له في الطور الجديد من اطوار نهضتنا العلمية الدينية ، ونؤرخ به لمبدا ازدهارها واثمارها ، ونسوها وابدارها .

هذا هو اليوم الذي التفت فيه الامة حول دينها ولغتها ، فاثبتت انها امة مسلمة عربية يابى لها دينها ان تلين فيه للماجم ، وتابى لها عربيتها ان تدين فيها للاعاجم .

هذا هو اليوم الذي تعلن فيه هذه الامة انابتها الى ربها ، وتكفيها عن ذنبها ، ورجوعها الى الله رجوع عبد اوبقته جرائمه ، وافتضحت سرائره ، وانقطعت اواصره . وعز مغيثه وناصره ، وظن ان لاملجا من الله الا اليه ، فرجع على الطريق التي منها هرب ، فان هروب هذه الامة من الله هو تفلتها من كتابه ، وبعدها عن هدايته ، والتماسها الوصول اليه عن غير طريقه ، فضلت وتاهت قرونا ، وما هي ذى تفيم الى الله على طريق كتابه وسنة اصحابه ، وعسى هادى الحائرين ان يعود عليها بموائد بره واحسانه .

هذا هو اليوم الذي يختم فيه امام سلفى تفسير كتاب الله تفسيراً سلفياً ليرجع المسلمون الى فهمه فهما سلفياً - فى وقت طغت فيه المادة على الروح ، ولعب فيه الهوى بالفكر ، وهفت فيه العاطفة بالعقل ، ودخلت فيه

على المسلم دخائل الزيف فى عقائده واخلاقه وافكاره ، وفى امة تقطعت صلاتها بالنسلف ، وضعف تقديرها للقرآن ، فاصبح ملهاة آدان ، ومشغلة لسان ، واصبح حفاظها يقرءونه للتبرك او يتجرون به فى المقابر ، وعوامها ينزلونه منزلة البصل والكراث فسيتشفون بعروفه من امراض سببتها الحرارة او جلبتها البرودة ، وعلماءها يدرسونه بلغة المصطلحات العرفية ويتناولونه باذهان حشيت بالافكار الطائفية ، والتعصبات المذهبية ، والمعامل الجدلية ، والتوجيهات اللفظية . ويكتب ملثت بالاسرائيليات المصنوعة ، والآثار الموضوعة ، والنظريات . والطلبة - وهم صرعى هذه الفتن - يتلقونه بالسنة جافت البيان العربى وصرفتها المعجمة فى منهاج غير منهاج العرب ، ففسد الذوق واختل التصور - وبافكار غطى عليها الجمود ، وسد عليها منافذ التفكير - وبنفوس ركبها الملل والسأم ، فرضيت بسامع ما لا يفهم ، وتلقى ما لا يعقل ، وهان الزمان فى حسابها فاصبحت تنفق منه جزاءا ، واختل تقدير الاشياء عندها فاصبح كل مقروء علما ، وكل قارىء عالما .

واشهد ، لقد كنت ضيفا بتونس منذ سبع عشرة سنة ، فقل لى عن عالم من مشائخ جامع الزيتونة ومن ابعدهم صيتا فى علم التدريس : انه يقرئ التفسير ، فشهدت يوما درسه لاكون فكرة عن دراسة التفسير فى ذلك المعهد الجليل ، وكنت معنيا بهذا البحث ، وجلست اليه اكثر من نصف ساعة ، فوالذى نفسى بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآية التى هى موضوع الدرس ، ولا لمحت اشارة تدل على ان الدرس فى التفسير ، وما كان كل الذى سمعت الا جكاية لجدل عنيف ، وتمثيلا لمركة مستمرة بين السيد الجرجانى وعبد الحكيم حول عبارة لعلها لمفسر من المفسرين الاصطلاحيين ، ثم انقضت الحصة ، وقام الطلبة المساكين يتعثرون تبدو عليهم سيمااء التعب والملل والخيبة ، وقمت انا مستيقنا ان هذه الطريقة فى التفسير هى اكبر العجب التى حجبت المسلمين عن فهم كتاب الله . ثم زهدتهم فيه وصدتهم عن موارد .

أيها الاخوان ،

ان الامة الاسلامية التي يقرأ الناس اخبارها في التاريخ فيقومون المدهش المعجب ، ويرى الناس آثارها في العلم والتشريع ، والادب والحكمة فيرون الطراز العالي البارح ، فيستوى المحب والمبغض في الاعتراف بأن أمة هذه اخبارها ، وهذه آثارها ، لى الامة حق الامة - ان تلك الامة ما كانت أمة بذلك المعنى وتلك الاوصاف الا بالقرآن .

فالقرآن هو الذى ربها وادبها وزكى منها النفوس ، وصفى القرائح ، واذكى الفطن ، وجلا المواهب ، وادفع العزائم ، وهذب الافكار ، وأهلهم ، واستغفر الشوائع ، واستثار القوى ، وصقل الملكات ، وقوى الارادات ، ومكن للخير فى النفوس ، وغرس الايمان فى الافئدة ، وملا القلوب بالرحمة ، وحفز الايدى للعمل النافع ، والارجل للسمى المنصر - ثم ساق هذه القوى على ما فى الارض من شر وباطل وفساد فطهرها منه تطهيرا ، وعمرها بالخير والحق والصلاح تميمرا .

أيها الاخوان ،

قارنوا بين هذه الامة الاسلامية المطوية فى بطن الارض وفى بطون الكتب - وبين هذه الامة الاسلامية التى تنب على وجه الارض تجدوا الفرق بعيدا جدا ، ووجوه الشبه مفقودة البتة ، مع وجود الاشتراك فى الاسم والنسبة ، ثم التمسوا السبب تجدوه قريبا منكم ، - وما هو الا هذا القرآن ، أقامه الاولون وجمعوا عليه قلوبهم ، وراضوا نفوسهم على اخلاقه فعملها الايمان والامان والاحسان ، واتخذها الآخرون مهجورا فحققت عليهم كلمة الله فى امثالهم . فمن لى بمن يرسلها فى مسلمى الدعوى والعصية صيحة داوية : يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا الْقُرْآنَ ؟!



أيها الاخوان :

ان هذه البسيطة لم تشهد منذ دحاها الله صلاحا عاما وسعادة شاملة كالذى جاءها به القرآن يوم انزل الله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه

وسلم ، فأنذر به العالمين ، ونشره ورثته الامناء من بعده نقي الجوهر ناصع
الحجة .

وان هذا العالم الانساني لم يشهد منذ براه الله على ظهرها افسادا
عاما وشرا مستحكما وطاعونا اخلاقيا جارما الا مرتين - على كثرة ما شهد
من الطواغيت الجسمانية .

اما احدهما فكانت قبل الاسلام ، يوم كان العالم الانساني كله فريسة
للالثة والاستعباد ، والاستبداد والفساد والافساد ، ويوم كان بحرا
متلاطم الامواج بالردائل ، ويوم كان المقل عبدا للهوى ، والفكر عبدا
للوهم ، والحقيقة امة للخرافة ، والفطرة رهنية الاعتلال والاختلال .
ويوم كان هذا العالم كله خاضعا لشهوات مضطربة ، وحيوانية عارمة ،
ووثنية متفلغلة .

ولكن الله جلّت قدرته ، تداركه - وبه رمق - بالاسلام دين الاسلام ،
وكتابه القرآن ، كتاب العدل والاحسان ، وبرسوله الامين يعمل منه
للعالم المنخن،الدواء الشافي ، ويسبح على مواقع الالم منه بالكف الكافي .
فما هي الا فترة حتى اصبح العالم يمرح في السعادة ويسبح في النعيم ،
وينعم بالاخوة والتسامح ، ويتقلب في اعطاف العدل .

واما الثانية فهي في عهدكم هذا .

ولو انكم تستشهدون التاريخ : اية المرتين كانت باشر وأشر ، وادهى
وامر ، لقال لكم غير متجانف لاثم لقال لكم : ان شر المرتين آخرتهما !
ولساق لكم من الحجج ما لا تستطيعون له دفعا - فان الشر الاول كان من
بعض دعاويه الجهل ، اما هذا فكل دواعيه العلم . وقد كان الشر يعرض
على الناس باسمه وفي ثوبه الحقيقي فاصبح يعرض عليهم باسم الخير وفي
ثوب الخير . وقد كان العالم متباعد الاجزاء متقطع الاوصال ، وفي تباعد
الاجزاء تقليل من بواعث الشر ، فاصبح العالم مزدحما حتى ليكاد يلتحم .
ومن ازدحامه والتحامه نشأت معضلته الاجتماعية الكبرى وهي مشكلة
الاغنياء والفقراء التي لم يفلح في حلها علم العلماء ، ولا حكمة الحكماء ،
ولا قوة الاقوياء ، ولا دهاء الدماة . والتي تفاقم خطبها واضطرم لهيبها

حتى اصبح بنو آدم المتأخون في نسبه فريقين مضطغنين يتربص كل فريق
بأخيه دائرة السوء ، ويا ويل هذه الارض اذا انفجرت الاحقاد بين ابنائها !
وقد عرفنا التاريخ أن أصل البلاء بين البشر جاء من عصبياتهم المختلفة ،
وكان مما يهون تلك العصبيات انها محدودة ، وانها تعالج بعصبيات أخرى ،
فيخفف ضررها ، وتتلشى قوتها - ولكن مشكلة اليوم ان تلك العصبيات التي
كانت تنفع حيناً وتضر أحياناً ذابت كلها في عصبيتين جامعتين كلتاها
ضرر ، وكلتاها شر .

ان رحمة الارض آتية من السماء ، وقد جاءت أديان السماء فطمت الفقير
كيف يرضى ويصبر ، وعلمت الفنى كيف يعسن ويرحم ، فلماذا لا يرجع
بنو الارض الى حكم السماء ورحمته ؟ ولماذا لا يلتزمون مثل الاحسان
الكاملة في القرآن ؟

أيها الاخوان :

هذا داء العالم البشرى فاين دواؤه ؟ وهذا مرضه المضال فاين
طبيبه ؟ وهل يتداركه الله بلطفه فيهدى البشر الى اتباع ما جاء به القرآن
من تسامح وتعاون على الخير ؟

فيا أيها المشفقون على العالم الانساني ان ياكل بعضه بعضاً - انصحوه
بالرجوع الى الاسلام وكتابه ، يجد فيهما ظلال السلم ، وبرد الرحمة ،
وعز القناعة ، وشرف التقوى ، ويتمتع من كل ذلك بنعمة السلام .

ويا أيها المسلمون ! انتم اطباء هذه المعضلات ولكنكم جاهلون ، وانتم
الحكم المرضى في هذه المشكلات ولكنكم غائبون ، ولو كنتم حاضرين حضور
سلفكم لمشاهد العالم ومنازعاته العامة لوقفتم - كما وقفوا - بعقائدهم
وسطا بين التناهي والتقصير ، وبزكاتكم المرضية حكماً بين الفنى والفقير ،
وبرحمة الاسلام سدا بين الآجر والاجبن ، واذا لزرعتم في طول العالم
ومرضه الخير والرحمة ، وكشفتهم عن اقويائه وضعفائه كل كرب وغمة ،
واذا لرفعتم عن العالم هذه الاصار والاغلال ، وفزتم من بين حكماؤه
وعلمائه بتحقيق نقطة الاشكال .

ان العالم فى عذاب وعندكم كنز الرحمة ، وان العالم فى احتراق
وعندكم منبع السلم ، وان العالم فى غمة من الشك وعندكم مشرق اليقين ،
فهل يجهل بكم ان تعطلوه فلا تنتفخوا به ولا تنفخوا .

طبقوا على انفسكم جزئية واحدة من اصلاحاته كالزكاة ، واطهروا بها
للعالم على صورتها العملية الكاملة ، وظيفتها العملية العليا ، ثم لفساد
بين الصفين - لا كموقف عمرو بمصاحفه يوم صفين - واشربوا نفوسهم
ما اشربت نفوسكم من معنى قوله تعالى : « فَخَنُّ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ فَمِيشَتَهُمْ فِي
الْعَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَلَوَّ بِثَنَانٍ لِّبَعْضِهِمْ غَفْرًا
وَدَرَجَةً لِّذَلِكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » . ومن معنى قوله تعالى : « كُلُّ يَفْضِلُ الْكَلْبِ
وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » ، وانا الضمين لكم انهما
يتحاجزان ويتسامحان فى طرفه عين . ان دينكم دين اصلاح ، وسبب
اصلاح ، ومظهر اصلاح . وكما اوجب عليكم الاصلاح بين المؤمنين مدح
الاصلاح بين الناس .

احبوا قرآنكم تحيوا به ، حققوه يتحقق وجودكم به ، افيضوا من
اسراره على سرائركم ، ومن آدابه على نفوسكم ، ومن حكمه على عقولكم ،
تكونوا به اطباء ، ويكن بكم دواء .



« اِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَمَلِ وَالْاِحْسَانِ وَيَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

هذه الآية هى دستور الاسلام العام ، وهذه الآية هى التى نواجه بها
كل من رمانا بالتمصب او بالظلم او بالانانية او بالقسوة - وصدى هذه
الآية هو الذى سمعه الناس مرددا فى الجامع الاخضر خمسا وعشرين سنة
اخرها اسس .

ايها الاخوان :

تكلم الخطباء والشمراء فى المعنى الذى اقيمت لاجله الحفلة ، وهو
تكريم اخينا الاستاذ عبد الحميد بن باديس وتسجيل اعماله فى خدمة الدين
والعربية والعلم ، وشغلهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم اسس

المشهود ، واوشكنا ان نضيع واجبه ، وان يمر فلا يتفنى بأوصافه لسان •
ولعل الاقلام تجفوه تبعا لذلك فلا يجرى فى وصفه قلم •

وقد توزعتنى الخواطر حين قمت : أسلك ما سلكه الخطباء والشعراء
من تمجيد أخينا بما هو أهله ؟ ولو انى جريت فى هذا المضمار وأسلس لى
الكلام قيادة - كان فى ذلك الوفاء لأخينا المحجل ، والجفاء ليومنا الاعز
المحجل ، وان انا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن ، قصرت فى حق
أخ أعتقد ان ما قاله الشعراء والخطباء فى حقه قليل ، وكفى نفي حفلة
مثل هذه معدودة الساعات بتمجيد رجل طوقت هذا الوطن منه !

فان قمت ببعض ما يجب للقرآن وليسوم القرآن فحسبى فى التنبؤ به
بأعمال أخى الاستاذ ان هذا اليوم بعض حسناته (*) •

محمد البشير الابراهيمى

(*) الشهاب : ج 4 - م 14 - ربيع الثانى وجمادى الاولى 1357 هـ
جوان - جويلية 1938 م •

كلمة المحتفل به

ختم الاستاذ عبد الحميد بن باديس حفلة تكريمه بكلمة بليغة شكر بها الوفود الحاضرة، وعاد بهم الى الماضى فوزع معانى التمجيد والتكريم التى تجلت عنها الحفلة - على الاصول التى كونته . فكانت كلمته درسا فى التواضع ومرفان الجميل عرف منه الحاضرون ناحية نفسية من اخلاق الاستاذ المحتفل به . وقد حافظنا ما استطعنا على معانى تلك الكلمة اذ فاتنا أن ننقل الفاظها . قال حفظه الله :

أيها الاخوان :

أنتم ضيوف القرآن . وهذا اليوم يوم القرآن . وما أنا الا خادم القرآن .

فاجتماعكم على تنائى الديار وتباعد الاقطار هو فى نفسه تنويه بفضل القرآن ودعوة جبهة الى القرآن فى وقت نحن أحوج ما نكون الى دعوة المسلمين الى قرآنهم . فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتوه احتفالا بشخصى .

ان أقوال خطباتكم وشعرائكم كلها فى الحقيقة اشادة بيوم القرآن ووفود القرآن وكل ما لى من فضل فى هذا فهو أننى كنت السبب فيه .

أيها الاخوان :

انا رجل أشعر بكل ما له اثر فى حياتى . وبكل من له يد فى تكوينى . وان الانصاف الذى هو خير ما ربى عليه امرؤ نفسه - ليدعونى ان أذكر فى هذا الموقف التاريخى العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التى كان لها الاثر فى تكوينى حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أرغتم على شخصى الضعيف من ثناء ومدح بالقول والفعل . فانى أشهد الله أنكم بالفتن فى التحفى بى والتنويه بأعمالى ، وأشهد أن هذا التحفى عسير على جزأه

ثقل عليّ حملهُ ، فلملي إذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه وتقاضت حقوقها من الثناء الذي ائقلمت به كاهلي . فاكون بذلك قد أرضيت ضميري وخففت عن نفسي .

أن الفضل يرجع أولا الى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة . ورضي لي العلم طريقة اتبعها ، ومشربا أردّه ، وقايتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا . وكفاني كلف الحياة ، فلاشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر ، ولأكل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يضيع جزاء العاملين .

ثم لمشائخي الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استمداي حقه ، وأذكر منهم رجلين كان لهما الاثر البالغ في تربيتي وفي حياتي العملية ، وهما من بين مشائخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المهود من امثالهما لأمثالي - الى التربية والتنقيف والاخذ باليد الى الغايات المثل في الحياة .

أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها ، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامعة الزيتونة المعمور رحمهما الله .

واني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهدا عهد بي الي ، وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجندني مدينا لهذا الرجل بمنه لا يقوم بها الشكر ، فقد أوصاني وشدد علي أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ، ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعل أمثالي في ذلك الوقت .

وأذكر للثاني كلمة لا يقل اثرها في ناحيتي العلمية عن اثر تلك الوصية في ناحيتي العملية ، وذلك انني كنت متبرما بأساليب المفسرين وادخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ، ضيق المصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن ، وكانت علي ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله . فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق

فقال لى : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الاساليب المعقدة وهذه الاقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح .

فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهنى آفاقا واسعة لا عهد له بها .
ثم لإخوانى العلماء الأفاضل الذين وأزوني فى العمل من فجر النهضة الى الآن ، فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التى تتيه بها على الاقطار انه لم يجتمع فى بلد من بلدان الاسلام فيما راينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصه النية متينة المزايم متجابهة فى الحق مجتمعة القلوب على الاسلام والعربية قد الف بينها العلم والعمل - مثل ما اجتمع للجزائر فى علمائها الابرار فهؤلاء هم الذين ورى بهم زنادى وتائل بطارفعهم تлады ، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم .

ثم لهذه الأمة الكريمة المعونة على الخير ، المنطوية على أصول الكمال ، ذات النسب العريق فى الفضائل ، والحسب الطويل المريض فى المحامد .
هذه الامة التى ما عملت يوما - علم الله - لارضائها لذاتها، وانما عملت وما أزال أعمل لارضاء الله بخدمة دينها ولغتها، ولكن الله سددها فى الفهم وأرشددها الى صواب الراى فتبينت قصدى على وجهه وأعمالى على حقيقتها فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلاذات اكبادها . فكان لها بذلك كله من الفضل فى تكوينى العمل أضفاف ما كان لتلك العناصر فى تكوينى العلمى .

ثم الفضل أولا واخيرا لله ولكتابه الذى هدانا لفهمه والتفقه فى أسرارهِ والتأدب بآدابه . وان القرآن الذى كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا فى الخلف لو احسن فهمه وتدبره وحملت الانفس على منهاجه .

أيها الاخوان :

اذا لم يكن لى فى حياتى العلمية من لافلت للقرآن الا تلك الكلمة التى سمعتها من الشيخ النخل ، وقد فعلت فعلها فى نفسى وأوصلتنى فى فهمى الى الدرجة التى تحمدونها اليوم، فاننا - والحمد لله - نربى تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم الى القرآن فى كل يوم، وغايتنا

التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء
الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا
وجهودها . وان أعز ما وصلنا إليه هو تبين الغاية وتلاقى الجهود .
وفقنا الله وإياكم للأعمال الصالحة ، وورزقنا الاخلاص فيها ، والثبات
عليها ، انه سميع مجيب (*) .

(*) الشهاب : ج 4 ، م 14 - ربيع الثاني - جمادى الاولى 1357 هـ
جوان - جوليت 1938 م .

كلمة عن الجامع الاخضر عمره الله

بقلم الامام عبد الحميد بن باديس

الجامع الاخضر أحد الجوامع الثلاث الجمعية الباقية بعد الاحتلال
الفرنسي بقسنطينة .

اما مؤسسه فهو حسين بك بن حسين 1149 - 1167 هـ - 1754 م
فحكم البلاد 17 عاما مقتنيا أثر سلفه في سياسة التعمير والانشاء فنظم
المدينة وخطط شوارعها وأنشأ منازل رفيعة وبناءات ضخمة لكامل أعيان
البلد . وحافظ على توطيد الامن طيلة مدة حكمه . وكما كان له ولع
بالعمارة كانت له عناية فائقة بالعلم ، فقد وجد في المحفوظات الكتابية اذن
صدر منه لعائلة ابن وادفل في تأسيس مدرسة عليا للحقوق بالمسجد الذي
امرهم بتأسيسه في عين فوا . وبنى الجامع الاخضر للتعليم كما هو منقوش
فوق مدخل بيت الصلاة وهذا نصه :

« أمر بتأسيس هذا المسجد العظيم ، وتشبيد بنائه للصلاة والتسبيح
والتعليم ، ذو القدر العلى والتدبير الكامل وحسن الراى ، أميرنا وسيدنا
حسين باى ادام الله أيامه . وكان تمام بنائه أواخر شهر شعبان سنة ست
 وخمسين ومائة وألف » . ودفن مؤسسه - رحمه الله - في التربة
المجاورة للجامع مع عائلته وبعض العلماء رحمهم الله أجمعين .

والجامع لهذا المعهد ليس له مدرس رسمى اما فى العهد الماضى
فلا شك انه كان به من يدرس العلم ، اذ لا شك ان مؤسسه - وقد كان
مشهورا بنشر العلم وبنى مسجده للتعليم - لابد ان يكون أوقف أو قافا
للتعليم فيه فاستولت عليها السلطة كما استولت على سائر الاوقاف .

اما بداية تعليمي فيه فقد كانت أوائل جمادى الاولى 1232 هـ ، وكان ذلك بسمي من سيدي أبي لدى الحكومة فأذنت لي بالتعليم فيه بعدما كانت منعني من التعليم بالجامع الكبير بسمي المفتي في ذلك العهد الشيخ المولود ابن الموهوب .

وقد يسر الله لنا بفضل القيام بالتعليم فيه الى اليوم ، والله نسأل ان يجازي كل من أعاننا فيما قمنا به كل خير ، وان ييسر لنا القيام بخدمة العلم فيما بقي من العمر . وان يختم لنا بغاتمة السعادة اجمعين آمين ، والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 4 م 14 ، ربيع الثاني وجمادى الاولى 1357 هـ - جوان جولييت 1938 م .

ترجمة موجزة للشيخ عبد الحميد بن باديس

مولده واسرته :

ولد عبد الحميد بن باديس ، بمدينة قسنطينة ، فى يوم الاربعاء 10 ربيع الثانى 1307 هـ ، الموافق لـ 4 ديسمبر 1889 م . ونشأ فى أسرة عريقة معروفة بالعلم والجاه واليسار ، فكان من اجداده الاولين (المعز ابن باديس) مؤسس الدولة الصنهاجية الاولى التى خلفت دولة الاغالبة على مملكة القيروان ، ومن اسلافه المتأخرين (الملكى بن باديس) الذى تولى منصب القضاء بقسنطينة . ووالده (محمد المصطفى بن مكى بن باديس) صاحب مكانة مرموقة وشهرة واسعة ، جعلته موضع التقدير والاحترام بقسنطينة ، واهم كريمة من كرام عائلة ابن عبد الجليل (ابن جلول) ، تدعى زهيرة بنت على الاكحل .

نشأته وثقافته : لقي الشيخ عبد الحميد بن باديس فى كنف والده ، ما يلقيه ، عادة ، اول الابناء من رعاية واهتمام فى الاسر الكريمة ، فقدمه أبوه الى الشيخ (محمد بن المداسى) أشهر مقرئى قسنطينة ، فلقنه القرآن الكريم وأتقن حفظه . ولما يتجاوز ثلاثة عشر عاما . وفى عام 1903 ، بدأ مرحلة جديدة فى التعلم على العالم الجليل ، المربى النصوح : الشيخ حمدان ابن لونيسى ، فآخذ عنه مبادئ العلوم العربية والدينية ، وكان له اثره البالغ فى مجرى حياته كثيرا ما نوه به فى مجال الاعتراف بمن لهم عليه فضل .

وفى عام 1908 م ، سافر الى تونس لاتمام دراسته فى جامعة الزيتونة ، وتعلم على مشاهيرها الاعلام ، أمثال الشيخين : محمد النخلى القيروانى

ومحمد الطاهر بن عاشور ، ونال شهادة
1911 م ، وبقى بتونس عاما بعد تخرجه
الزيتونة .

رحلته الى الحجاز : وفي عام 1912 م ، عا
تونس الى وطنه ، ليبدأ جهاده في سبيل نشر
الجامع الكبير بقسنطينة ، بدأ يلقي دروسه ،
نفسه الذي بدأ فيه ، وسافر الى الحجاز لاداء فريضة

بأستاذه : الشيخ حمدان الونيسي ، وتعرف على الاستاذ : محمد البشير
الابراهيمى ونشأت بينهما صداقة ، وتلاقت أفكارهما في وجوب انشاء
حركة اصلاحية بالجزائر ، ورسما لها منهاجها بحكمة ومهارة .
وعند رجوعه ، عرج على مصر ، فالتقى ببعض علمائها من أمثال مفتي
الديار المصرية الشيخ محمد بخيت الطيبي وشيخ علماء الاسكندرية ،
أبي الفضل الجيزاوي ، فأجازه كل منهما .

نشاطه في الاصلاح الدينى والعلمى والاجتماعى :

تعددت الميادين التى ناضل فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس ،
بتفان واستماتة ، ويمكن ايجاز القول عن أهمها فيما يلى :

1) التعليم : اتخذ الشيخ عبد الحميد بن باديس من الجامع الاخضر
معهدا لنشاطه العلمى والتعليمى والتربوى ، فكان يدرس للطلاب كاسل
النهار ، ويلقى دروس الوعظ والارشاد فى المساء للكبار . وفى هذا
المسجد ، كان يلقي دروس تفسير للقرآن الكريم الذى أتم ختمه تدريسا ،
فى مدة خمس وعشرين سنة ، بالجامع الاخضر ، فى قسنطينة . وفى خلال
ايام 12 - 13 - 14 ربيع الثانى 1357 هـ (11 - 12 - 13 يونيو
1938 م) أقامت قسنطينة ، حفلا تاريخيا جليلا ، أشرفت على اعداد
برنامجها جمعية التربية والتعليم ، وشعبة جمعية العلماء بقسنطينة . وبعد
سنة واحدة بالضبط - بعد اقامة حفل ختم التفسير ، أقيم حفل ثان
بمناسبة ختم الشيخ تدریس كتاب « الموطا » فى الحديث ، وذلك لاثنتى
عشرة ليلة خلت من ربيع الثانى 1358 هـ الموافق لفاتح جوان 1939 م .

(2) الصحافة : رأى الشيخ عبد الحميد أن حركة الإصلاح الدينى والاجتماعى يجب ألا تقتصر على العملية التربوية والتعليمية ، فانشأ صحافة عربية كانت منبرا رحبا يعلن فى عزم وثقة أن الحركة الإصلاحية الجزائرية ، حركة شعبية أصيلة تعمل لحياء التراث الثقافى لسلامة ، وتنقيته من الشوائب التى علقت به ، وتنشر الوعى الدينى والاجتماعى والوطنى ، وهكذا أصدر جريدة (المنتقد) عام 1925 . ثم صحيفة (الشهاب الاسبوعى) التى حولها الى (مجلة الشهاب) الشهرية منذ فبراير 1939 م ، ومجلات أخرى ، منها (الشريعة) و (السنة) و (الصراط) و (البصائر) .

وقد قامت هذه الصحافة بعمل ايجابى ضخم ، فى مجال اليقظة الفكرية والوعى الوطنى ، والإصلاح الدينى وحياء اللغة العربية ، محبطا بذلك كله ، مخططات الاستعمار الرامية الى تشويه الشخصية الجزائرية فى كل الميادين .

تأسيس جمعية العلماء المسلمين : فكر ابن باديس ، بدءا من سنة 1924 م فى تأسيس جمعية تتولى تنظيم الجهود ، وتقوم بالاعمال المختلفة المتعددة الجوانب ، من أجل النهوض بالجزائر فى جميع المجالات ، فتحقق له ذلك عام 1931 م . وانتخب رئيسا لها فى غيابه ، وضم مجلسها الادارى مجموعة من العلماء والادباء ، واقرن تأسيسها بالاحتفال المثنى لاحتلال الجزائر ، بعد أن تأكدت السلطة الاستعمارية أنها قضت على الشخصية الجزائرية .

عوامل نبوغه : اجتمعت عوامل متعددة أثرت فى تكوين شخصية ابن باديس ، العلمية والثقافية ، وأهمها :

1 - ذكاؤه واستعداده الفطرى ، وقوة عزمته الصلبة ، وقدرته على المواجهة وتخطى الصعاب .

2 - أسرته التى عرفت بالعلم والمجد واليسار ، فقد هيات له فرص التفرغ للدراسة والتعليم ، وأمدته بمعونة مالية ، جعلته حرا لا يتقيد بوظيفة أو عمل ، كما كانت درعا واقية له من بطش المستعمرين .

3 - ثقافته الدينية والعربية ، واعظمها تأثيرا فى فكره واسلوبه ، هو القرآن الكريم .

4 - حركة الاصلاح فى العالم الاسلامى والعربى ، التى عاصرها ابن باديس ، وكان لجريدة العروة الوثقى ومجلة « المنار » اثر بارز فى حياته الثقافية واتجاهه الاصلاحى والاجتماعى .

5 - احداث عصره ، وظروف مجتمعه التى عاشها ابن باديس وخاض غمارها ، بالفكر والقلم واللسان .

آثاره العلمية : من آثاره الهامة ، تفسيره للقرآن الكريم الذى دام القاؤه بجامعة الاخضر خمسا وعشرين سنة ، وكان منه آيات من سور مختلفة ، كتبها ونشرها فى مجلة الشهاب ، وهى التى تقرأها فى هذا السفر الجليل .

وفاته : ظل الاستاذ الامام عبد الحميد بن باديس يواصل جهاده فى جميع الميادين ، من اجل العلم والوطن والعروة والاسلام - بالرغم من نعالة جسمه - ، بايمان وعزم ، الى ان انتقلت روحه الطاهرة الى الرفيق الاعلى ، مساء يوم الثلاثاء ، 8 ربيع الاول سنة 1359 هـ (16 افريل 1940 م) ، وقد شيعت جنازة الشيخ فى موكب عظيم حضرته مختلف الطبقات والهيئات التى عدت بعشرات آلاف ، جاؤوا من جميع اطراف الوطن . وقام بتأيينه ، قبل مواراته التراب ، رفيقاه فى الجهاد العلمى : الشيخ مبارك الميلى والشهيد الشيخ العربى التبسى ، ثم الدكتور بن جلول . وقد دفن جثمانه فى روضة أسرته بحى الشهداء بقسنطينة ، رضى الله عنه فى الخالدين .

رحمك الله يا ابن باديس . عشت وملت مجاهدا من اجل الجزائر والعروة والاسلام ، فربطت الجزائر العربية المسلمة ذكرى وفاتك بيوم العلم الذى تحتفل به كل سنة تقديرا وتخليدا لجهادك وعلمك من اجل تكريم الانسان وتحرير الاوطان .

(1) عن المختار فى الادب والنصوص والتراجم الادبية (المعهد التربوى) .
بزيادة وتصرف .

رسالة شكر وتصريح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
والصلاة والسلام على أشرف خلق الله ..

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »

قسنطينة في 18 رجب 1402 هـ الموافق 12 ماي 1982 م

حضرة الأخ الشيخ عبد الرحمن شيبان

وزير الشؤون الدينية .. سلاما عاطرا وحقية مباركة .

اما بعد ، فنظرا لعزم وزارة الشؤون الدينية على طبع تفسير القرآن الكريم ، الذي كان ينشره أخى الإمام عبد الحميد بن باديس في افتتاحيات مجلة " الشهاب " الغراء - تحت اشراف حضرتكم - فانه لا يسعني إلا أن أشكركم على هذا العمل العظيم ، الذي يعود - إن شاء الله - بالخير الجزيل على الجميع ؛ ويسجل صفحة من صفحات تاريخ الجزائر المجيد .

ثم راني ، باسمي الخاص ونياية عن أسرة الإمام عبد الحميد بن باديس ، أصرح لكم بموافقتنا على هذا الطبع المبارك ؛ داعيا لكم بالتوفيق . كما أذكركم - سيدي الوزير - أنني مستعد دائما لمكم يد المساعدة ، بكل ما في وسعي . على كل مبادرة ترون فيها خيرا ومنفعة للمصالح العام . وأخيرا تقبلوا - سيدي الوزير - تشكراتي الخاصة ، مع كل احترام .

من أخيك في الله : عبد الحق بن باديس



المحتوى

5	فاتحة الكتاب
7	المقدمة
13	المدخل
15	تمهيد : للامام محمد البشير الابراهيمي
17	تصدير
28	الذكر : للامام عبد الحميد بن باديس
34	التذكير
37	افضل الاذكار
47	مجالس التذكير
	خطبة افتتاح دروس التفسير سنة 1348 هـ - 1929 م
48	للإمام عبد الحميد بن باديس

سورة المائدة

دعوة اهل الكتاب :

51	يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا - الآيتين
----	--

سورة يوسف

سبيل السعادة والنجاة :

59	قل هذه سبيلي ادمو الى الله على بصيرة - الآية
----	--

سورة النحل

كيف تكون الدعوة الى الله والدفاع عنها :

66	ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - الآية
----	--

سورة الاسراء

آية الليل وآية النهار :

75	وجعلنا الليل والنهار آيتين - الآية
----	------------------------------------

- أداة الدنيا وأداة الآخرة :
- 80 من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها - الآية
- عموم النوال من الكبير المتعال :
- 89 كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك - الآية
- أصول الهداية في ثمان عشرة آية :
- 94 لا تجعل مع الله الها آخر - الآية
- بر الوالدين :
- 100 وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه - الآيتين
- صلاح النفوس وأصلاحها :
- 107 ربكم أعلم بما في نفوسكم - الآية
- إيتاء الحقوق لأربابها :
- 113 وآت ذا القربى حقه - الآيات
- حفظ النفوس بحفظ النسل وحفظ الفرج وعدم العدوان :
- 124 ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق - الآيات
- حفظ الأموال باحترام الملكية :
- 130 ولا تقربوا مال اليتيم - الآية
- الوفاء بالعهد :
- 132 وأوفوا بالعهد أن العهد كان مسؤولاً
- إيفاء الحقوق عند العامل :
- 134 وأوفوا الكيل إذا كلتم - الآية
- الترغيب في إيفاء الكيل :
- 135 ذلك خير وأحسن تأويلاً
- العلم والأخلاق :
- 136 ولا تقف ما ليس لك به علم - الآيات
- آية الأخلاق :
- 144 ولا تمش في الأرض مرحاً - الآية
- تأكيد الأوامر والنواهي المتقدمة بطريق الإيجاز :
- 146 كل ذلك كان سيئاً - الآية

- مكانة هذه الاصول علما وعملا :
- 148 ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة
- ختام الآيات :
- 149 ولا تجعل مع الله الها آخر
- القول الحسن :
- 151 وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن الآية
- التحذير من كيد العدو الفتان :
- 153 ان الشيطان ينزغ بينهم
- المحاسبة على الحال والظاهر :
- 154 ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحمكم - الآية
- دعاء غير الله :
- 156 قل ادعوا الذين زعمتم من دونه الآية
- نجاة المعبودين بهداهم وهلاك العابدين بضالهم :
- 159 أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة - الآية
- الطور الاخير لكل أمة وعاقبته :
- 162 وان من قرية الا نحن مهلكوها - الآية
- التكريم الربانى للنوع الانسانى :
- 167 ولقد كرمنا بنى آدم - الآية
- الصلاة لاوقاتها :
- 173 اقم الصلاة لدلوك الشمس - الآية
- نافلة الليل وحسن عاقبتها :
- 177 ومن الليل فتجهد به نافلة لك - الآية
- صدق المدخل والمخرج :
- 182 وقل رب ادخلنى مدخل صدق - الآية
- مجىء الحق وزهوق الباطل واستجابة دعاء الصادقين :
- 185 وقل جاء الحق وزهق الباطل - الآية
- القرآن شفاء ورحمة :
- 188 وننزل من القرآن ما هو شفاء - الآية

صفتان من صفات النوع الانساني :

- 194 واذا انعمنا على الانسان اعرض - الآية
مباينة سلوك اهل الحق لسلوك اهل الباطل :
196 قل كل يعمل على شاكلته - الآية

سورة مريم

الود من اكرام الله لاولياء الله :

- 199 ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل - الآية

سورة طه

من آداب المتعلم حسن التلقى وطلب المزيد :

- 203 ولا تعجل بالقرآن - الآية

سورة الانبياء

من وعد الله للصالحين :

- 206 ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر - الآية

سورة الحج

دفاع الله عن المؤمنين :

- 211 ان الله يدافع عن الذين آمنوا - الآية

سورة المؤمنین

اكل الحلال والعمل الصالح :

- 215 يا ايها الرسل كلوا من الطيبات - الآية

سورة النور

الاجتماع العام ، للامر الهام :

- 219 انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله الآية
222 لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا - الآية

سورة الفرقان

الفرقان :

- 226 تبارك الذي نزل الفرقان على عبده - الآية

كلام الظالمين فى الكتاب الحكيم :

231 وقال الذين كفروا ان هذا الا فك افتراء - الآيات

منزلة الرسالة العلية والضرورات البشرية :

وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم لياكلون الطعام

236 ويمشون فى الاسواق

فتنة العباد بعضهم ببعض :

240 وجعلنا بعضهم لبعض فتنة اتبصرون - الآية

ندامة الظالم :

245 ويوم يعض الظالم على يديه - الآية

شكوى النبى الكريم ، من هجر القرآن العظيم :

249 وقال الرسول يا رب - الآية

التسلية والتثبيت للنبى صلى الله عليه وسلم :

252 وكذلك جعلنا لكل نبىء عدوا من المجرمين - الآية

تثبيت القلوب بالقرآن العظيم :

254 وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة - الآية ..

الحق والبيان فى آيات القرآن :

259 ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيراً

حشر الكفار الى النار :

261 الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم - الآية

من اكرام الله تعالى عبده ، تحميلة اعباء الرسالة :

263 ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً - الآية

علم طاعة الكافرين ، والجهاد بالقرآن العظيم :

265 فلا تطع الكافرين - الآية

تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل :

267 وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه - الآية

القرآن يصف عباد الرحمن :

الصفة الاولى والثانية :

271 ومباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا - الآية

- 276 **الصفة الثالثة :**
والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما
- 277 **الصفة الرابعة :**
والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم - الآية
- 280 **ايهما اكمل :**
العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب أم العبادة دونهما ؟
- 294 **الصفة الخامسة :**
والذين اذا انفقوا لم يسرفوا - الآية
- 297 **الصفة السادسة والسابعة والثامنة :**
والذين لا يدعون مع الله الها آخر - الآية
- 300 **الوعيد ، بالعذاب الشديد :**
ومن يفعل ذلك يلق اثاما - الآية
- 303 **استثناء التائبين من المذنبين :**
الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا - الآية
- 307 **بشارة التائبين الى رب العالمين :**
ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا
- 309 **الصفة التاسعة :**
والذين لا يشهدون الزور
- 312 **الصفة العاشرة :**
واذا مروا باللغو مروا كراما
- 313 **الصفة الحادية عشرة :**
والذين اذا ذكروا بآيات ربهم - الآية
- 316 **الصفة الثانية عشرة :**
والذين يقولون ربنا هب لنا - الآية
- 321 **جزاء عباد الرحمن :**
اولئك يجزون الغرفة بما صبروا - الآية
- 324 **قيمة العباد عند ربهم بقدر عبادتهم :**
قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم - الآية

سورة النمل

ملك النبوة : مجمع الحق والخير ، ومظهر الجمال والقوة :

الآية الاولى وهي 15 :

328 ولقد آتينا داوود وسليمان علما - الآية

الآية الثانية وهي 16 :

334 وورث سليمان داوود - الآية

الآية الثالثة وهي 17 :

338 وحشر لسليمان جنوده الآية

الآية الرابعة وهي 18 :

340 حتى اذا اتوا على وادى النمل - الآية

الآية الخامسة وهي 19 :

342 فتبسم ضاحكا من قولها - الآية

الآية السادسة وهي 20 :

345 وتفقد الطير فقال مالى - الآية

الآية السابعة وهي 21 :

347 لاعذبه عذابا شديدا - الآية

الآية الثامنة وهي 22 :

349 فمكث غير بعيد - الآية

الآية التاسعة وهي 23 :

352 انى وجدت امرأة تملكهم - الآية

الآية العاشرة وهي 24 :

354 وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله - الآية

الآية الحادية عشرة وهي 25 :

355 الا يسجدوا لله - الآية

الآية الثانية عشرة وهي 26 :

356 الله لا اله الا هو رب العرش العظيم

سورة يس

- المرسل والرسالة والرسول والمرسل اليهم :
 359 يس ، والقرآن الحكيم - الآيات
 371 الوحي مصدر الاسلام :
 لا يؤمن من سبق في علم الله علم ايمانه :
 375 لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون
 تمثيل حال المعرضين عن الحق المعاندين فيه :
 378 انا جعلنا في اعناقهم اغلالا - الآية
 من استوى عنده الانذار وعلم الانذار لا يرجى منه ايمان :
 379 وسواء عليهم آذنتهم - الآية
 تجديد الانذار للمتتبعين به وتبشيرهم :
 380 انما تنذر من اتبع الذكر - الآية
 الحياة بعد الموت :
 383 انا نحن نحيى الموتى
 احصاء الاعمال المباشرة وغير المباشرة :
 384 ونكتب ما قدموا وآثارهم
 الاحصاء العام في الكتاب الامام :
 386 وكل شيء احصيناه في امام مبين :

سورة الذاريات

الفرار الى الله

- 388 والسماء بنيناها باييد وانا لموسعون - الآية
 خلاصة تفسير المعوذتين
 396 كلمة بين يدي التلخيص للامام محمد البشير الابراهيمي

سورة الفلق

- 405 قل اعوذ برب الفلق - (السورة)

سورة الناس

- 415 قل اعوذ برب الناس - (السورة)

لواحق

- 425 العرب في القرآن : للامام عبد الحميد بن باديس
- حول كلمات لاستاذ كبير في تفسير آيات الزينة والستر :
- 439 الامام عبد الحميد بن باديس
- كلمة في الاحتفالات ، وتصوير وصفى للاحتفال العظيم بختم القرآن العظيم
- 445 الاستاذ محمد البشير الابراهيمي
- بمثلك تعزز البلاد وتفخر :
- 462 قصيدة الشاعر الاستاذ محمد العيد آل خليفة
- خطبة الاستاذ الابراهيمي :
- 465 التى ختم بها حفلة التكريم للاستاذ ابن باديس فى كلية الشعب .
- 474 كلمة المحتفل به :
- 478 كلمة عن الجامع الاخضر (عمره الله)
- 480 ترجمة موجزة للشيخ عبد الحميد بن باديس
- 484 رسالة شكر وتصريح